

صَبْحِي وَحَيِّهِ

فِي
أُصُولِ الْمَسْأَلَةِ الْمَصْرِتِ

[ملتم التوزيع مكتبة الانجلو المصرية]

في أصول المسألة المصرية

تأليف : صبحي ومبره

درج الذين كتبوا في المسألة المصرية على اعتبارها مسألة خارجية ، وقصروا لذلك كتابتهم على استعراض علاقات مصر ببريطانيا العظمى . ولكن كتاب « في أصول المسألة المصرية » يردّ هذه المسألة الى ظروف مصر الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ويجعل منها مسألة داخلية ، وهو يتولى لذلك هذه الظروف بالتحليل العلمى .

وقد قسّم هذا الكتاب الى خمسة فصول :

الفصل الأول — وعنوانه « الفتح العربى » . وقد عرض للدور مصر فى حضارة البحر الأبيض المتوسط والتطور الذى أصاب حياة هذا البحر بانتقال طريق التجارة العالمية منه الى الأطلنطيق وما صحب ذلك من انقطاع علاقة مصر بالغرب وبقائها بعيدا عن التطورات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية التى تمت به .

الفصل الثانى — وعنوانه « حكم المفل » . وقد عرض للاقتصاد المصرى فى العهد المملوكى وربط بين اضطراب حكم المماليك وما أنزله بهذا الاقتصاد من اضمحلال شديد وبين ظروف مصر الحاضرة . ويحلل المؤلف فى درسه لأسباب هذا الاضمحلال ظاهرة المماليك ونظم حكمهم ودور المصريين فى هذا الحكم .

الفصل الثالث — وعنوانه « الموجة الغربية » . وقد عرض للنهضة الأوروبية الحديثة وعلاقة أوروبا بالسلطنة العثمانية وأثر ذلك فى حياة مصر خصوصا الاقتصادية تحت محمد على وعباس وسعيد واسماعيل .

الفصل الرابع — وعنوانه « أعراض المراهقة » . وقد عرض لتفاعل

الموجة الغربية وظروف مصر الفكرية والاقتصادية والاجتماعية كما انتهت اليه تحت المماليك وأثر ذلك في تكوين الجيل المصرى الحالى . والمؤلف يحلل هنا أهم مظاهر الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ويرد كل منها الى أصوله وينتقل من ذلك الى توضيح الصلة بين وجوه الضعف فى هذه الحياة وإهمال البلاد شئونها الاقتصادية ثم أهمية الدور الذى تقوم به الصناعة فى الحضارة الحديثة وأهميتها الخاصة فيما يتعلق بمصر .

الفصل الخامس — وعنوانه « عتقدُ النقص » . وهو يعرض لأهم الأفكار الفاسدة التى تتحكم فى الحياة المصرية الآن وأهمها ما ترمى به مصر من تعود الاستبداد والخلط بين الشئون الروحية والزمنية والاعتقاد فى الخرافات والقصور عن الاقتصاد الصناعى والتأرجح بين الشرق والغرب ... والمؤلف يحلل هذه العقد واحدة واحدة ويقارن الحالة فى مصر من ناحيتها بالحالة فى الغرب فى نفس الزمن من نفس الناحية وينتهى من ذلك الى أن مصر لم تشذ فى شئ من ذلك عن أمم البحر الأبيض المتوسط الأخرى وان المرجع فى ظروف مصر الحاضرة ليس الا فقر الدم الاقتصادى الذى أصابها تحت المماليك .

وقد قرأ كبار المشتغلين بالشئون المصرية هذا الكتاب وكتب بعضهم يثنى عليه فقال صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا فى كلمة له فيه :

« ... وقد عرفت الأستاذ وحيدَه اقتصاديا بارعا واجتماعيا من الصنف الذى أدرك كيف يمكن التوفيق بين الحاجات المعنوية والمادية للعصر الذى يعيش فيه . ولم أكن قد عرفت أن مواهب الأستاذ وحيدَه مما تسمح بالاحاطة بشئ الشؤون التى تهمل البلاد التى أنجبته بل تتبع الخطوط الرئيسية التى لا يتهاى لها النهوض والرقى الا من طريقها . » والمؤلف الذى وضعه الأستاذ يمكن اعتباره بحق من تلك الخطوط « لأنه وسيلة من وسائل الارشاد التى لا تزال — ونحن فى العهد الأول من نهضتنا — فى حاجة ماسة الى الاسترشاد بها . والواقع أن المؤلف قد توخى فى استعراضه لمركز مصر القديم منه والحديث الحق والدقة مستعينا بأفضل مراجع البحث ولو اصطدمت نتائجها أحيانا ببعض

« المعتقدات الراسخة في الأذهان والأراء المحببة للكافة . فأخرج كتابا
« يزيد في نفعه وفي أثره أنه بالغ في نزاهته . والنزاهة ترجع هنا الى
« التمسك بالأساليب العلمية في البحث والاستقراء وهو الطابع الغالب
« في الكتاب » ...

وقال صاحب السعادة عبد القوى احمد باشا :

« ... انتشرت فكرة فقد المصريين حرياتهم السياسية منذ أقدم
« العصور وخضوعهم للحكم الأجنبي وتعودهم ما يصحب هذا الحكم
« عادة من ظلم وجهل وفاقه بين العامة أيضا . وطال العهد بها حتى أصبحت
« المصدر الأول للكثير من مظاهر الاستهتار التي تحيط بحياتنا اليوم
« وصارت لذلك خليفة بأن يقف عندها الذين يهتمون بمصير هذه البلاد
« ويخشون عاقبة مثل هذه الأفكار على مستقبل أبنائها ... »

« ... وقد بقيت هذه الفكرة دون دراسة خاصة الى أن صدر
« كتاب « في أصول المسألة المصرية » للأستاذ صبحي وحيدة فسد
« هذا النقص بفصل كامل خصّص لهذه الدراسة بالذات ... »

« ... وعندي أن فيما يقول به هذا الكتاب ما يوضح الشيء الكثير
« من تطور نظم الحكم في مصر ويبين الفكرة القومية المصرية ويبدد الى حد
« بعيد تهمة تعود المصريين الحكم الأجنبي وان كان لا يوضح كل ذلك
« توضيحا كاملا ولكنه يمكن أن يعد على كل حال مقدمة لاتجاه جديد
« في دراسة ماضي القومية المصرية وهو يستحق لذلك كل ثناء ... » .

« وكتب صاحب السعادة توفيق دوس باشا يقول :

« ... وكتاب « في أصول المسألة المصرية » يقارن بين نظم الحكم
« والملكية والأوضاع الدولية التي أخذت بها مصر وبلاد البحر الأبيض
« المتوسط الأخرى ليثبت أن هذه النظم لم يختلف بعضها عن البعض
« اختلافا شديدا انما حدث الاختلاف في الظروف الاقتصادية التي مرت
« بها مصر ومر بها الغرب منذ القرن السادس عشر . فقد سارت مصر
« وقتئذ الى الفاقة العامة التي يصفها الجبرقي في تاريخه بينما ارتفعت أوروبا

« الى أوج الرخاء الذى عرفته فى القرن التاسع عشر • وصحب ذلك ، التقدم الاجتماعى والسياسى الذى نشهده فى أوروبا اليوم والانتفاض الاجتماعى والسياسى الذى وجد محمد على عليه مصر فى مطلع القرن التاسع عشر »
والذى أخذنا نحاول أن نتخلص من آثاره اليوم ... » •

« ... وهكذا تكون العناية بحياتنا الاقتصادية أهم واجب فى عنق هذا الجيل اذا كان يريد خدمة مصر خدمة نافعة » •

« ... واننى وان كنت لا أتفق ومؤلف الكتاب فى جميع النتائج التى يصل اليها خصوصا ما يتعلق منها باتصال الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالحملة الفرنسية والاحتلال الانجليزى وعلاقة مصر بالأهم الغربية الآن فاننى أتفق معه فيما يقول به عن أثر الحياة الاقتصادية فى نهضتنا الحاضرة وعما أصاب تاريخ مصر القديمة من تشويه شديد • ويقىنى أنه وضع بحثا مفيدا غاية الفائدة أهنته عليه خالص التهنة وأشكره عليه خالص الشكر »
« وأتمنى لهذا البحث ما يستحقه من الانتشار ... »

وقال صاحب السعادة حسن نشأت باشا فى كلمة له :

« ... وكتاب « فى أصول المسألة المصرية » كتاب قيم يقول فيه واضعه بأن الحالة التى تعانيها مصر الآن ترجع — قبل كل شىء — الى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التعسة التى انتهت اليها مصر تحت المماليك والاضطراب الذى يحيط بمعالجتنا لهذه الظروف الآن ثم العقد النفسية التى يثيرها بيننا ما نزل بتاريخنا القديم والحديث من تشويه على وجه العموم ... » •

« ... وقد استرعى انتباهى فى هذا الكتاب خصوصا نقطتان أرى أنهما جديرتان بأن يقف عندهما الذين يعنون بمسائلنا العامة ويشتركون فى الحكم عن طريق مباشر أو غير مباشر • وهاتان النقطتان هما علاقة مصر بالشرق والغرب منذ ابان الحكم العثمانى ثم الدور الذى لعبته فى حياة مصر فى العصور الوسطى. وعادت تلعبه الآن ... »

« ... ولا شك فى أن هذه الآراء التى يقول بها كتاب « فى أصول المسألة المصرية » تتفق والواقع الى حد بعيد وهى تستحق على كل حال أن تدرس وأن تقرأ بتأمل عميق ... » •

فهرس

صفحة

١	مقدمة
٥	الفتح العربي
٤٩	حكم المغل
١١٧	الموجة الغربية
١٦٧	أعراض المراهقة
٢٣٧	عقد النقص

obeikandi.com

مقدمة

ما زالت المسألة المصرية تثير الاهتمام في مصر والخارج وتدفع بالكتاب الى تقصى أسبابها والتصدي لمعالجتها . ولكن هذا الاهتمام يدور في الغالب حول العلاقات التي قامت منذ مطلع القرن الماضي بين مصر وتركيا ثم مصر وبريطانيا العظمى دون العوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي صحبت - من الناحية المصرية - نشوء هذه العلاقات وتقلباتها وكانت الباعث لها الى حد بعيد . وهو يميل لذلك بأصحابه الى النظر لهذه المسألة نظرهم الى مسألة خارجية معقدة لا تقبل سوى الحلول الدولية ولا تكاد تقوم لها صلة بالملابسات الداخلية للأمة التي نسبت اليها .

وقد رأينا نحن ، والمسألة المصرية ما زالت قائمة والاتجاه الى العناية بمشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، نعنى بعناصرها الداخلية ، آخذ في الظهور ، رأينا أن نخص هذه العناصر ببحث شامل ، نرتفع بها فيه الى أصولها الأولى وتتبع أخطر المراحل التي جاوزتها ثم نصل بينها وبين جوانب حياتنا الخارجية وصلتنا بالغرب على وجه الخصوص . وكان الذي دفعنا الى طرق هذا البحث واختيار النحو الذي نحوناه في وضع حدوده وتصريفه أمر نجد في الكشف عنه هنا ما قد يعين على ادراك هندسته . وهذا الأمر هو هذه الحيرة التي أصبحت ترهقنا جميعا ، وترهقنا اليوم أكثر مما كانت تفعل في أى يوم مضى ، من المظاهر التي تتخذها حياتنا العامة والخاصة والآثار المتنافرة التي يثيرها نشاط الدولة لدينا ثم القنوط الذي يبعثه ذلك فينا وبين الطبقة الحاكمة منا على وجه الخصوص .

قلنا دفعنا الى طرق هذا البحث واختيار النحو الذي نحوناه في وضع حدوده وتصريفه ، فقد قصرناه على العناصر التي ترجع اليها ظروفنا الحاضرة قبل سواها ونعنى بها فيما بيننا اليوم ورأينا أن تتبع كل عنصر منها على حدة من أقصى مراحلها المفيدة الى المرحلة التي تهمننا مباشرة وأطلنا الوقوف عند الجانب التاريخي لبعض هذه العناصر أحيانا رغبة في استخلاص

جوهرها وتوضيح ملامحها وإبراز آثارها وهى جميعا أشياء يندر أن نجدها أو نجد بعضها فى غالب هذه الآلاف المؤلفات من الكتب التى وضعت فى تاريخ مصر القديم والحديث على السواء . وآية ذلك أننا ما زلنا لا ندرك من ماضينا القديم شيئا كثيرا وما زلنا نجهل حقيقة مصر البطلمية والقبطية والعربية والمملوكية وما زال محمد على وإسماعيل وقادة تاريخنا الحديث فى وعى الكثير منا صورا مائعة يكتنفها التناقض ولا يست غالب ما كتب حولها بصلة الى البحوث العلمية الصحيحة .

وقد ذهبنا فى تحليلنا التاريخى مذهب المؤرخين المحدثين ففلسفنا الحوادث ورددناها الى مصادرها الاجتماعية العامة وأنزلنا الطبقة الحاكمة وأعمالها وآراءها فى المنزلة الثانية . ونحن نذكر هذا هنا عمدا لأننا لا نريد أن يفهم مما قد يقرن فى هذا البحث ببعض الظواهر الناجحة أو الفاشلة من أسماء أننا نشيد بأصحابها أو ننعى عليهم فنحن لم نعرض لواحد منهم الا من ناحية العناصر الاجتماعية التى خلق منها والتى لا شأن كبير له بها الى حد بعيد . وقد نحونا مثل هذا النحو مع الدول والأديان أيضا فنظرنا اليها نظرتنا الى عناصر مجردة تفاعلت حيناً فأخذت أمور مصر وجهة بعينها وتفاعلت حيناً آخر فأخذت هذه الأمور وجهة أخرى ، كما تتفاعل العناصر الطبيعية فتنتج شيئا تارة وآخر تارة أخرى تبعا لملاسات تفاعلها ، دون أن يكون لها أو لبعضها حظ من الشر أو الخير قل أو كثر .

بقى أن عنايتنا الظاهرة بالعنصر الاقتصادى فى هذا البحث لا ينبغى أن يفهم منها أننا نرجع ظروفنا القائمة الى هذا العنصر ولا الى شئ سواه فهناك العناصر الروحية دون شك . ولكننا انتهينا الى تقديمه على غيره لأننا رأيناه أشد هذه العناصر جميعا حاجة بالاهتمام فى حياتنا الحاضرة . وقد نكون أخطأنا الصواب فى هذا التقدير ونكون قد أخطأناه فى بعض النتائج التى انتهينا اليها أو فيها جميعا فلعل هذا البحث أول بحث تعالج المسألة المصرية فيه على هذا النحو دون أن تسبقه الدراسات التمهيدية اللازمة . ولكن هناك نتيجة نخرج بها على كل حال ولا شك فيها البتة ، وهذه

النتيجة هي أن الذين يردون فساد حياتنا الحاضرة الى طبيعة العامة لدينا ، وهم غالب أهل الرأى وان لم يعلنوا ذلك ، أو الى تربص بعض الدول بنا قبل كل شىء ، وهو ما يتجه اليه تفكيرنا عادة ، ويريدون أن يجدوا فى ماضينا ما يدعمون به رأيهم هذا ، يظلمون هؤلاء العامة ويظلمون هذا الماضى على حد سواء . انما الحقيقة هي أننا يجب أن نبحث عن أسباب هذا الفساد فى تقلبات الحياة العالمية — وقد صار بعضها يسير المعالجة — وفيما مازلنا نجنه بأيدينا على هذا البلد كل صباح ومساء بدافع من عقد النقص هذه الكثيرة التى خلفها لنا ماضينا العثماني — الانجليزى وثقافتنا الهزيلة ثم انسياقنا خلف شهوة الضجيج الفارغ هذه التى ينفرد بها عهد الطفولة فى حياة الأفراد وحياة الأمم ، دون الجهد الصحيح الواجب — نخرج بهذه النتيجة ونجد فى اثباتها واقامة الدليل عليها واذاغتها هدفا كافيا لهذا الكتاب .

obeikandi.com

الفتح العربي

انقرط عقد شعوب البحر المتوسط بعد تسعة قرون أو تزيد من الحياة المشتركة اذ طبقت القبائل العربية على ساحله الجنوبي في المائة السابعة وتحول كل فريق منها الى عالم جديد خص به فلحقت الشعوب الشرقية بالمجتمع الضخم الذى خلفته فتوحات القرن الأول الهجرى بآسيا وأفريقيا وبعض أوروبا وانقلبت الشعوب الغربية الى داخل القارة الأوروبية لتسكن في تلك الدجنة الثقيلة التى تواضع أصحاب علم التاريخ على تسميتها بالعصر الوسيط^(١) . وامتدت هذه الفرقة على وجه الخصوص بين جنبي الطرف الغربى من البحر المتوسط حتى المائة الحادية عشرة حين عادت أوروبا تتصل بالشرق اتصالا هينا أول الأمر ثم نشطا دافقا الى حد لم يعهده من قبل اذ كانت تعمل داخله وقتئذ عوامل جديدة منها ، فيما يهنا هنا ، ما كان عرض لهذا البحر بالذات ، أثناء ذلك ، فتغيرت شعوبه واتسعت آفاقه وحالت وظيفته . تغيرت شعوبه تغيرا بالغا توشك من جرائه أن لا تعرف فلم تعد يونانية أو رومانية أو غالية خالصة كما كانت في الغرب منذ ظهور الأغارقة الى سقوط الرومان ، ولم تبق مصرية أو فينيقية أو فارسية فقط كما كانت في الشرق في ذلك الزمن بالذات ، وانما صارت خليطا من هذه الشعوب بالغوط والنورماندين والجرمان هناك والعرب والمغل والأتراك هنا . واتسعت آفاقه فشملت البلاد التى اقبلت منها الشعوب الجديدة حتى كان الشرق الاسلامى وحده يمتد من شواطئ البحر المتوسط الى أطراف الصين والمحيط الهندى والأطلنطيق وكان الغرب المسيحى يشمل ألمانيا جميعا واسكندناوية والجزر البريطانية في حين كانت جامعة الشعوب الرومانية ، وهى أكبر جامعة عرفها العالم القديم ، لا تضم غير بلاد البلقان وأوروبا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وآسيا الصغرى . وحالت وظيفته أيضا فبينما كان لا يعرف قبل ذلك لغير الشعوب النازلة على شواطئه نشاطا يذكر صار طريقا من طرق بحرية مختلفة اتخذها ما أقبل

العالم الجديد عليه وقتئذ من تبادل تجارى رحب، اذ لايمضى القرن الثانى عشر حتى تظهر مدن الشمال الصناعية مثل أنقرس وامستردام ولندن وتنشط حركة النقل فى بحر الشمال فى الوقت الذى تشتد فيه الملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى بفضل تداخل شعوبهما فى نطاق المجتمع الاسلامى ثم يحل القرن الخامس عشر وتكتشف أوروبا طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكتين فتتد شرابين التجارة العالمية الى الأطلنطيق وتكاد تقصر عليه الى نهاية القرن الثامن عشر (١) .

وبدهى أن هذا التحول لم يتم جميعا فى جيل واحد أو أجيال قلائل . فمعروف أن أول احتكاك للرومان بقبائل الشمال يرجع الى قبل قيصر . وقد قاتل أغسطس الجرمان وهزم لهم وظلت القبائل الجرمانية تتغلغل فى الامبراطورية الرومانية تغلغلا متصلا حتى قامت الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان اتساع رقعة الشرق المعروف يسير أيضا سيرا بطيئا متصلا منذ أمد طويل فقد عرف الفراعنة شعوب البحر الأحمر واتصل البطالمة بالهند وكانت الاسكندرية تتجر بسلع الشرق الأقصى فى العصر الرومانى (٢) ، وان ظلت هذه البلاد تجهل بعضها البعض بعد ذلك أجيالا وبقيت علاقاتها حتى حين اشتدت علاقات خارجية : علاقات مجتمعات مختلفة لا تربط بينها أسباب غير أسباب التبادل العاجل . كذلك كان تنكب شعوب البحر المتوسط حياتها المشتركة آخذا فى الظهور منذ وقت بعيد ولم يكن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع وانقسام الكنيسة المسيحية وتطاحن الاسكندرية وروما ثم الاسكندرية والقسطنطينية الا بعض مظاهره (٣) .

(١) Luzzato : Storia Economica.

(٢) S.Huzayan : Arabia and Far East. وهو يقول ان المسافة بين مصر

والهند كانت تقطع وقتئذ فى سنة . كذلك كانت تجارة روما الخارجية لا تزيد قيمتها على مليون جنيه فى العام بما فى ذلك مصاريف النقل وربح التجار .

(٣) Maspéro : Histoire des Patriarches d'Alexandrie. (ماسبيرو : « تاريخ

بطاركة الاسكندرية ») .

كان كل هذا سائرا في تطور بطيء هادئ الى أن كانت فتوحات القرن السابع فكانت الطفرة وكان ان اتخذ هذا التباعد شكل الاختلاف الديني أيضا فدخلت الشعوب الشرقية الاسلام وبقيت الشعوب الغربية على مسيحيتها وسار كل من الفريقين في طريق يفرق عن طريق الآخر . وجعل هذا الاختلاف يعمل عمله حتى استحال ملامح هذه الشعوب استحالة شديدة فاذا بها تنكربعضها البعض حين تلتقى أول القرن الحادى عشر وتصير الحرب الشكل الغالب على علاقاتها الجديدة ، ومن ثم كان غزو المسلمين ثغور أوروبا الجنوبية وحروب الصليبيين وشيء كثير من السياسة التى انتهجها الغرب فى الشرق فى القرن الثامن عشر^(١) ومن نظر شعوب الشرق الاسلامى الى الحضارة الغربية وعلاقتها بالغربيين على وجه العموم .

ويسير على من ينظر فى تاريخ مصر قبل القرن السابع وبعده أن يلمس ما أصابها من جراء ذلك التحول فبدل علاقتها بالشعوب الأخرى واثرت فى اتجاهاتها الروحية والاجتماعية والسياسية جميعا . فمن المعروف أن مصر اتصلت بشعوب المشرق وشعوب المغرب منذ القدم : اتصلت بشعوب آسيا القريبة صلة وثيقة تحدثنا عنها قصص بنى اسرائيل^(٢)

(١) ودوين يرجع اعتداء الاساطيل الأوروبية على اسطول محمد على فى نافارين فى القرن التاسع عشر الى العداء المسمى الاسلامى . كذلك ينسب نفور محمد على من فتح طريق السويس الى البحر الأحمر الى بحر الحرمين الى هذا العداء . وقد رأينا ما لقيه ممثلو مصر والبلاد العربية من جفاء فى أمريكا وأوروبا اثناء المؤتمرات الدولية الأخيرة . انظر Douin : Navarin

(٢) عرض كتاب كثيرون - من مانتون الى عبد القادر حمزة - لاثرت هذه الصلة فى العقيدة الاسرائيلية وذهب مانتون الى حد الادعاء - يشاركه فى ذلك أهل عصره - بأن موسى كان قسما مصريا من هليوبوليس خرج على آلهة هذه المدينة - كما قال فرويد بعده بقرون بأن موسى كان نبيلاً مصرياً ثائراً - بينما عني عبد القادر حمزة على وجه الخصوص بما بين التوراة وبعض كتب الحكمة المصرية من شبه قوى فى المعنى والنص أحيانا وهو شبه لا يستطيع ان ينكره من يطلع على هذه النصوص (رمسيس يسمع صوت آمون وسط موقعة قادش يقول له مثل رب موسى : ها انا وجهها لوجه معك أى رمسيس أنتى معك ، اننى أنا ، أنا والدك) . انظر « على هامش تاريخ مصر القديم » .

ورثائق تل العمارنة والحروب التى نشبت بين المصريين وما قام فى تلك
الأمصار من دول قوية كالهكسوس والأشوريين والفرس . وكانت
صلتها بهذه الشعوب جميعا صلة الجار بالجار ، صلة دول يقوم بعضها جانب
بعض فتتصادق أو تختصم ، وقد يبلغ تصادقها حد التعاون فى ميادين
الاقتصاد والسياسة والحرب ويبلغ اختصامها حد التطاحن والتخريب
وما يعقب ذلك من فرض الغالب نفسه على المغلوب الى أن يفىق من
سكرته فينصب له الحرب ويرده الى مصره . ولكنها تظل على الدوام
صلة عوالم قائمة بذاتها تتغير فى اللغة والدين والتفكير وان تفرع بعض
ذلك على أصل واحد أو أوجدت الظروف الاقليمية المتقاربة بعض العناصر
المشتركة بينها فلا يدخل أحد أبنائها مجتمع الآخر متعاوناً أو غاصبا حتى
يلحظ دخوله ويعد عنصرا غريبا طارئا (١) .

ولعل اوسع بحث ادير فى هذا الموضوع بطريقة علمية محكمة هو بحث
الاستاذ ادولف لودس المدرس بالسربون (A. Lods ; Israël : Des origines
ou milieu du VIII siècle.) الى ينتهى الى نتائج قاطعة ولا يميل
الى الأخذ بتفرع الاسرائيلية على العقائد الدينية المصرية الا انه لا ينكر تأثيرها
بها ويذكر فيما يذكر من مظاهر هذا التأثير اتخاذ بنى اسرائيل السفينة
رمزا للاله وتمثيلهم له على أيام سليمان فى صورة ثور واقامتهم المعابد على
الطريقة المصرية . وهو يلاحظ على وجه العموم ان بلاد الشام جميعها كانت عند
ظهور الاسرائيليين مشبعة بالفكر المصرى وأن الاسرائيلية لم تكن دائما كما نعرفها
الآن فهى لم تنشأ وحدانية ولم تصل الى تصورها الحالى لله الا فى القرن
الثامن قبل المسيح اى انها اجتازت مراحل التطور التى عرفت العقائد
الدينية الأخرى فى الشرق . ونحن نريد ان نلاحظ الى ذلك ان التوراة
كما نعرفها الآن كتبت على أيام البطالمة اى وقت انتشار الدين المصرى
وقد يكون بعض الأثر المصرى تطرق اليها وقتئذ .

(١) وموريه يقول ان مصر بسطت سلطانها على آسيا الصغرى فى القرن
الخامس عشر ق . م فى الوقت الذى كانت تسيطر فيه على جزر البحر
المتوسط الشرقية . وكان سلطان مصر على آسيا الصغرى من نوع الحماية
المحدودة فلم يغير نظم شعوبها أو صلة مصر بها وبقي المصريون ينظرون
الى هذه الشعوب نظرتهم الى الشعوب الأجنبية .

وقد حاول اخناتون ان يدمج هذه الشعوب بالشعب المصرى فى
امبراطورية دينية واحدة ففشلت المحاولة وعد هو نفسه اجنبيا خائنا .
Moret : Des Clans aux Empires Au temps des Pharaons (موريه : « من القبائل
الى الامبراطوريات » و « أيام الفراغة ») .

واتصلت مصر بالدويلات اليونانية عدة قرون قبل حرب طروادة^(١) .
تحدثنا بذلك آثار نيسين (١٩٠٠ ق م) وكريت (عصر الهكسوس)
وارجو^(٢) (١٥١٠ ق م) . وهذه الصلة الأولى بالغرب تأخذ شكل

(١) وموريه يستنتج من قراءة الاللياذة أن مقاتلة هومير كانوا يستجلبون
عربات قتالهم من مصر . موريه : « أيام الفراعنة » .

(٢) وهيرودوت يقول ان مدينة أرجو كانت أهم مدن اليونان
على الإطلاق الى أيام حرب طروادة (١١٨٤ ق م) . وقد اختطف
البعض ذات يوم ابنة ملك أرجو هذه واتوا بها الى مصر كما جاءت
مصر بعد ذلك هيلانه بطلة حرب طروادة عقب اختطافها وأقامت في منفيس
الى أن قدم والدها بعد الحرب وأخذها منها . وقد حدث أن عاكست الريح
هيلانه ووالدها عند عزمهما على الرحيل من مصر فما كان من والدها الا أن
اختطف طفلين من أبناء البلاد وقام بتضحيتها لآلهة الريح على الطريقة
المتبعة في بلاده فهاج العامة وأراد الشرطة أن يقبضوا عليه ولكنه استطاع
الفرار هو وابنته الى ليبيا . كذلك يقول هيرودوت ان الاغريق كانوا أول
شعب فتح له المصريون صدرهم .

وديودور يقول ان تاريخ مصر المتواتر على أيامه — عهد قيصر — كان
ما زال يتحدث بما أقامه المصريون من مستعمرات في شتى بلاد البحر
المتوسط وما أنشأوه بها من مدن هامة كأرجو التي سبق الإشارة إليها .
وهو يضيف الى ذلك ان المصريين كانوا يدعون أن أهل أثينا أيضا ينحدرون
من مستعمرة أقامها بعض المهاجرين من مدينة سايس المصرية ويستشهدون
على ذلك بانقسامهم ثلاث طبقات كما كان ينقسم المصريون — رجال الدين
والملك والزراع — ثم يلاحظ أن بعض قواد أثينا الأولين كانوا ينحدرون
حقيقة من أصل مصرى مثل Pésès الذى اشترك في حرب طروادة وارتقى
الى عرشها وان الأثينيين كانوا يكرمون ايزيس على أيامه على الطريقة المصرية
ويقسمون بها ويشبهون المصريين في آرائهم وعاداتهم أكثر من أى شعب
اغريقى آخر .

ويوسف فلافيوس يقول ان المصريين كانوا يتجرون مع اليونان
منذ القدم بعكس الاسرائيليين الذين ظلوا ولا صلة لهم باليونان حتى أثناء
اقامتهم في فلسطين . Flavius Joseph : Contre Apion .

ويعتقد بيرين أن مدن الدلتا استعانت بدويلات آسيا الصغرى في
معارضتها في توحيد حكم مصر تحت الأسرة الأولى . Pirenne : Histoire des
institutions et du droit privé de l'Ancienne Egypte .

كذلك يرتفع ماسبيرو بالصلات بين مصر واليونان الى القرن
السادس عشر ق م ويقول انها بلغت حدا أبعد بكثير مما يجب أن يقربه محبو
الثقافة الاغريقية اليوم . G. Maspéro : Causerie d'Egypte .

الهجرة حينما فيقيم المصريون المستعمرات بتلك البلاد ويهاجر أهل سردينيا الى مصر ويخدمون في جيشها وشكل الاعتداء المسلح حينما اذ يهاجم حلف المدن الهلينية والصقلية والأترورية مصر من البر في عهد منفتاح الأول ثم من البحر على أيام رمسيس الثالث وشكل النفوذ السياسى تارة أخرى فيشرف الأسطول المصرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية جميعا تحت الأسرة الثانية عشرة (١) . ونحن نستطيع أن نتصور مدى هذه الصلة مما يذكره كتاب اليونان القديمة عن علاقة مصر ببلادهم في ذلك الوقت وانحدار آلهتهم وكثير من الأبطال الذين ألقوا بذور حضارتهم منها (٢) وما أصبح لا ينكره أصدقاء الثقافة اليونانية من الأثر المصرى في الحضارة الاغريقية ومنه عبادة الوزيرس التى قامت في اليونان كصورة من عبادة ايزيس وانتشرت منها في بلاد البحر المتوسط تحت البطالمة والرومان وكانت العبادة الوحيدة التى استطاعت أن تجمع بين الشعوب اليونانية (٣) .

وقد اشتدت هذه الصلة بين نهاية القرن الثامن ق. م وفتوح الاسكندر حين عمد الأغارقة الى انشاء المستعمرات بمصر السفلى كما كانوا يفعلون في آسيا الصغرى اذ كانت هذه المستعمرات تقوم كأجزاء حية من العالم الاغريقى يشهد بها المصريون أحدث ثمار هذا العالم ويتصل الأغارقة بالحضارة المصرية ويقع الاختلاط الاجتماعى بين

(١) Chabas : Etudes sur l'antiquité historique .

(٢) مثل دانوس . ومانتون يقول انه كان أميرا مصرية هاجر الى اليونان بعد أن حاول اغتصاب عرش أخيه . ويوسف الاسكندرى ينقل هذه الرواية ويضيف اليها أن دانوس كان أحد أشقاء الفرعون سيتوزيس المعروف بين اليونانيين باسم اجيبتوس . كذلك يقول هيرودوت انه زار مدينة شمشى في مقاطعة طيبة أثناء اقامته في مصر فوجد بها معبدا لدانوس وشهد الأهالى يحيون ذكراه على الطريقة الاغريقية ويعتقدون انه من أبناء بلدتهم . ويلاحظ أن دانوس هذا هو الذى بسط نفوذ أرجو من قنال كورنتيس الى رأس ماليه (نحو سنة ١٥١٠ ق. م) وجدد نظمها على أسس مصرية هيرودوت وفوكار . Roussel : La Grèce et l'Orient و Foucart : Les mystères d'Eleusis .

(روجل : « اليونان والشرق ») .

(٣) ويقول روجل انها كانت العبادة الوحيدة التى جمعت بين الاحرار والعبيد .

الشعبيين^(١) . فالى هذا العهد يرجع تردد علماء اليونان وقادتها على مصر مثل ارفيون وقيرسيد وفيتاغورس وامبدكل وليكلوم وصولون وكريتون وديمقريط وأفلاطون^(٢) . واقدام الأمراء المصريين على ندب رجال السيف من الأغارقة لجيوشهم كما فعل بسماتيك^(٣) رأس الأسرة السادسة والعشرين حين استعان بمن جمعه منهم على التخلص من منافسيه في الحكم . واقبال الأغارقة على انشاء المعابد لايزيس^(٤) ووضع القصص التي ترجع بنشأة آلهتهم الى مصر كما فعل الرومان بعد ذلك اذ وضعوا القصص عن نشأة آلهتهم في اليونان ، وظهور الأسماء الاغريقية بين المصريين والمصرية بين الاغريق . واليه يرجع أول ما جعل يبدو في حياة الخاصة بمصر من لون اغريقى نشهد بعضه في آثار تونا الجبل^(٥) وما تنفرد به من تقارب بين

(١) Mallet : Les Premiers établissements grecs en Egypte. (مالية » الجاليات

اليونانية الأولى في مصر ») .

(٢) يقول ديودور ان الدار التي نزل بها افلاطون في هليوبوليس كانت لا تزال قائمة على أيامه .

(٣) يقول هيرودوت ان بسماتيك اقام حيناً ببلاط الاشوريين بعد ان قتل النوبيون والده اذ كان العهد عهد نفوذ الاسر النوبية في مصر ، وقد استطاع بسماتيك ان يستنقل البلاد من هذا النفوذ ويقتسم حكمها مع بعض الأمراء المصريين ويتخلص من هؤلاء الأمراء بفضل من استعان بهم من الاغارقة الذين كانوا يترددون على امارته وكانت تقوم قريبا من البحر . وقد عمد بسماتيك اثناء حكمه الى تشجيع هجرة اليونانيين الى مصر فأعطى من استعان بهم في حربه الداخلية اراض يزرعونها ويسر اقامة من اقبل انهم من التجار ورغب المصريين في تعلم الاغريقية .

وتلاحظ دائرة المعارف الايطالية في تعليقها على اخبار هيرودوت ان الاسر المصرية الأخيرة نشأت جميعا في شمال الدلتا وفي المدن التجارية المحيطة بالبرلس والمنزلة على وجه التحديد وكانت تتميز بطابع ديمقراطى بارز يرجع الى حداتها واعتمادها على الطبقات الفقيرة .

(٤) كان البحارة الاغريق يمجدون حينئذ ايزيس « نجمة البحار » ويقيمون لها المعابد في كل ثغر يهبطونه ويعدون لها أنقى من آلهة الأوليمب . مجلة القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٤١ .

(٥) شهدت هذه المدينة حكم الفرس والبطالمة والرومان وتدل أعمال التنقيب الدائرة بها الآن انها كانت تضيف جالية اغريقية وفيرة . كذلك تدل على ان الحياة بمدن مصر السفلى كانت تضطرب في ذلك الوقت بين التقاليد الوطنية والأوضاع الاغريقية فكانت العمارة والملابس ومظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى مصرية حيناً واغريقية حيناً أو خليطاً من هذه وتلك في وقت واحد . وأهم آثار تونا الجبل المعروفة الى الآن هى مقبرة بتوزيريس كبير كهنة توت في نهاية القرن الرابع ق.م . وهى تتميز برشاقة نقوشها رشاقة تذكر بالفن الاغريقى وبما بها من صور تمثل الاساطير الاغريقية وآلهة اليونان . مجلة القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٤١ .

الفن الاغريقى والفن المصرى ونجد أثره فى تزوج أماسيس^(١) أحد خلفاء بسماتيك من اغريقية وبعثه الهدايا الى معابد دلفى وسامو وهى معابد اغريقية^(٢) ثم نلمسه لمسا فيما نعلمه عن مجموعة أماسيس هذا القانونية التى كانت تنظم مجتمعا مصرية اغريقيا بينا . كذلك الى هذا العهد يرجع ما نشأ عن ضغط الامبراطورية الفارسية على مصر واليونان من تأزر دخل بعلاقات البلدين الى ميدان التحالف السياسى أيضا ، ومن ثم كانت استعانة أماسيس بفامس ومناصرة الأثينيين ايناروس^(٣) وأميرته^(٤) ومعاودة نفريديس سبرطة وتحالف تاخوس^(٥) مع أثينا وسبرطة واعتماد نكتانب

(١) حكم أماسيس مصر بين سنة ٥٧٠ وسنة ٥٢٦ ق.م. وكان من عوام مدينة سايس فدخل الجيش وتقدم فيه حتى صار كبير قواده . وقد وجهه الفرعون ابرياس الى ليبيا ليخضع بعض القوات الثائرة فيها فتآمر وهذه القوات وقاتل ابرياس وجنده الاغريق الذين يقدرهم ديودور ب ٣٠ الفائم اغتصب العرش . دائرة المعارف الإيطالية .

وقد واجه أماسيس المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى كان اتساع هجرة الاغارقة الى منطقة الدلتا يثيرها على أيامه وعمل على تركيز المهاجرين فى أماكن بعينها خصوصا فى المنطقة الحرة التى عرفت بعد ذلك بنقراطيس (بالقرب من نبرة الحالية) وصارت مدينة تجارية هامة . وغزا أماسيس فى آخر أيامه قبرص وتزوج منها كما غزاها من قبله ابرياس وهزم الفينقيين والقبرصيين فى معركة بحرية كبيرة . هيرودوت و « تاريخ الأمة المصرية » ودائرة المعارف الإيطالية .

(٢) Brugsch : Egypt under the Pharaohs .

(٣) كان ايناروس من أبناء بسماتيك الذين هاجروا الى ليبيا وانصرفوا الى محاولة تخليص مصر من حكم الفرس وقد ثار على هذا الحكم فعلا سنة ٤٦٠ ق.م وطلب معونة أثينا فبعثت اليه بمائتى سفينة صعدت النيل حتى منفيس وبقيت بها الى ان قضى الفرس عليها سنة ٤٥٤ ق.م. روسل .

(٤) استعان أميرته أيضا بأثينا وكان المصريون يدعونه بصديق الاثينيين (٤٤٩ ق.م) . روسل ومانتون .

(٥) كان العهد عهد انتفاضات فى اسيا الصغرى فأراد تاخوس أن ينتهز ذلك ويخرج الفرس من الشرق الأدنى واستعان بأثينا وسبرطه فقنعت الاولى بايفاد اميرالها شرباس اليه . وكان شرباس حينئذ أبعد أمراء البحر اليونانيين شهرة واقربهم الى نفس المصريين لسابق اقامته بينهم واشرافه على بناء بعض حصونهم البحرية وهى حصون كانت لا تزال قائمة على أيام بلين وسترابو . وبعثت اليه سبرطة ملكها اجيزيلاس

وأبنائه على أجيزيلاس قائد هذه المدينة وحلفائه وكان تفكير بركليس بعد ذلك في العمل على دفع المصريين دفعا شديدا داخل دائرة النفوذ الاغريقي والاستعانة بهم في تطوير النفوذ الفارسي وهى السياسة التى انتهجها الاسكندر والبطالمة من بعده (١) .

وقد أفلح الفرس في دخول مصر بعد أن ألبوا عليها قوى آسيا الفتية جميعا (٢) في الوقت الذى كانوا يخضعون أثناءه الدويلات اليونانية

تصحبه فرقة من حرسه . وكان اجيزيلاس هذا شيخا تقتحمه العين فلم يقلده تاخوس سوى قيادة الفرقة التى أتى بها معه بينما عقد للأميرال الاثينى على الاسطول بأسره وكان يتكون من مائتى قطعة وأبقى لنفسه قيادة الجيش وكان يتكون في ذلك الوقت من ٨٠ ألف مصرى و ١٠ آلاف اغريقى . وكان تاخوس قد استعان بشرباس قبل خروجه الى الحرب في وضع نظام مالى جديد أراد به ضمان تمويل قواته وصرف أرزاق الفرق الاغريقية منها بنقود ضربت حينئذ على شكل النقود الاغريقية فأنار هذا النظام موجة من التدمير بين سواد المكلفين وما كاد الملك يرحل بجنده حتى ثار المتدمرون فإنتهز نكتائب الفرصة واغتصب العرش بمعونة اجيزيلاس .

ويلاحظ الأستاذ Arpag Mekhitrian في تعليقه على هذه الحوادث مافى سياسة تاخوس هذه من خفة تشبه خفة حكومات المدن الاغريقية وقتئذ فقد كانت مصر تحتاز في ذلك الوقت ظروفًا داخلية حرجية خليقة بأن تسائر بعناية الحاكم وتصرفه عن الغزوات خصوصا لامبراطورية كامبراطورية الفرس . وهو يجد في ذلك دليلا آخر يثبت ما يراه من أن مصر القرن الرابع ق.م كانت تتركز في مدن الدلتا وتحيا من حياة البحر المتوسط .

وهو يلاحظ أيضا أن تاخوس كان ، قبل أن يصير ملكا ، كاهنا من كهنة الكرنك ، وأن ملوك مصر في ذلك الوقت كانوا يرتفعون في الغالب الى العرش معتمدين على جيوشهم الخاصة . انظر مجلة القاهرة عدد ابريل سنة ١٩٤٤ .

(١) دائرة المعارف الايطالية .

(٢) دائرة المعارف الايطالية . وهى ترجع انتصار الفرس الى خيانة الفينيقيين والاغريق الذين كان المصريون يستعينون بهم . كذلك يفهم من رومل أن مصر كان بها حينئذ تيار يميل للفرس الى جانب التيار الذى كان يميل للاغريق .

لسلطانهم فيفرضون الخراج على ما يقوم منها بآسيا الصغرى (١) ويعضدون ما يدعى بحكم الفاصيين (tirannid) في مدن الأرخيل وشبه الجزيرة ويتحكمون في مقدونيا مولد الاسكندر ويشترون الطبقة الحاكمة اليونانية بالمال (٢) ثم يتخلصون من أثينا بسيف سبرطة ويشيرون الدويلات الأخرى الواحدة على الأخرى حتى يصلوا الى ما قصدوا اليه من فرض وصايتهم الثقيلة عليها جميعا بمعاهدة انطوكليديس (Antoclidides) (٣٨٦ ق م) وهي المعاهدة التي وطدوا بها قدمهم في آسيا الصغرى ونقضوا حلف المدن الاغريقية ووضعوا هذه المدن في نفس الوضع السياسى الذى عرفته تحت الامبراطورية الرومانية بعد ذلك (٣) . وهم ينتهون من هذا الى انشاء دولة ضخمة تجمع العالم المتحضر المعروف وقتئذ وتختلط داخلها شعوب هذا العالم جميعا اختلاطا اشدد واتسع بعد ذلك اذ تمكن الأغارقة بحملات الاسكندر من الانتشار في جنبات هذه الدولة والاشتراك في حكمها .

وكان يسر من شأن هذا الاختلاط ما كانت عليه هذه الشعوب في ذلك الزمن من أوضاع سياسية خاصة فنحن نعلم أن العالم القديم لم يعرف دولة يونانية واحدة وانما عرف جملة دويلات متفرقة يقاتل بعضها البعض ويستعدى عليه عدوهم المشترك وينزل أهله منزلة العبيد ولا يرفض قادتها أن يبيعوا ضمائرهم الى خصومهم السياسيين أو يتخرج أبناءها من القتال في صفوف الزاحفين الى ديارهم (٤) . ولم تكن حروب اليونان للفرس حروب أمة لأمة بل قراع أبناء البلد الواحد للغريب المغير أو غزاة الشركاء في مغامرة واحدة لأرض غنية وهم في الحاليتين لا يكادون يفوتون مرحلة الخطر حتى ينقلبوا كل الى داره . وقد كانت أثينا تقاتل الفرس وسبرطة وحلفاءها في وقت واحد وكانت المدن الأخرى التي استطاعت أن ترتقى

(١) هيرودوت . وهو يقول ان الفرس كانوا يعتبرون آسيا الصغرى من املاكهم ويعدون الاعتداء على مدنها اعتداء على امبراطوريتهم وكان بين القوات التي غزا بها قمبيز مصر كثير من أهل هذه المدن .

(٢) روسل .

(٣) دائرة المعارف الايطالية .

(٤) كان ملوك الفرس يستخدمون الاغارقة في غاراتهم على اليونان وكان بعض مشاريع الهجوم على هذه البلاد من وضع قادة يونانيين وقد نازل الاسكندر في الشرق جيوشا كان يشترك فيها ويقود بعضها يونانيون . انظر هيرودوت وديودور وروسل .

الى زعامة اليونان على أيام الفرس تضطر الى فعل ذلك^(١) . كذلك لم تكن انتصارات الاسكندر عند الذين وقفوا لاجرازها انتصارات أمة على أمم بل انتصارات أمير بعينه من أمراء الجند الكثيرين الذين كانوا يتجرون بالحرب وقتئذ^(٢) وان نبه ذكره بعد ذلك وأثار في موطنه فخرا عنصريا شاملا^(٣) . وقد سبقت انتصارات الاسكندر على الفرس

(١) المراجع السابقة .

(٢) من المعروف ان كثرة الحروب وزيادة النسل وفقر الطبقات الدنيا في المدن اليونانية أدى وقتئذ الى ظهور الفرق المرتزقة وهى فرق كان عدم ظهور الجيوش الثابتة يجعل منها القوات العسكرية الرئيسية ان لم تكن الوحيدة في ذلك العصر . وكان يقود هذه الفرق قواد مغامرون يسعون وراء الربح بمقاتلتهم اليوم في صف هذا وغدا في صف ذلك . وقد عادت هذه الظاهرة الى الظهور في أوروبا في عصر النهضة . روسل ودائرة المعارف الإيطالية و S.V. Young : The Medici

(٣) ونحن نقرأ في « تاريخ القانون العام المصرى القديم » للأستاذ بيرجوجيه عن صلة الاسكندر بمقدونيا واليونان ما يأتى :

« وقد أراد أحد علماء الألمان منذ بضع سنين أن يحدد الملكية المقدونية على وجه التدقيق (Franz Hampl, Der Konig der Makedone, Weida, Thur 1934) فكتب يقول : « ان الملوك المقدونيين كانوا لا يعدون ملوك مقدونيا بقدر ما كانوا يعدون ملوك المقدونيين الى جانب حظوهم بمنزلة اجتماعية هامة بصفتهم وجوه عشيرة الأرجادس وأمراء اقطاع كبير . وكان هؤلاء الملوك يحاربون ويصالحون ويسعون لبسط سلطانهم بصفتهم الشخصية هذه لا بصفتهم ملوك المقدونيين . كذلك كانوا لا يوقعون المعاهدات التى يعقدونها بلقبهم الملكى ولا يأتون فيها على ذكر المقدونيين . وهكذا دخل فيليب مجلس امفتسيون كفيليب فقط ونظم حلف الدول اليونانية بزعامة اتحاد كورنتس عقب هزيمة اثينا وحلفائها بهذه الصفة لا كملك المقدونيين الذين ظلوا ولا شأن لهم بالأمر . فلم تكن زعامة اليونان للمقدونيين وانما كانت لفيليب والاسكندر من بعده ولم تضم الاراضى التى فتحت كآسيا الى مقدونيا وانما ضمت الى اقطاع الملك . كذلك كانت حقوق ملوك مقدونيا العسكرية على الجيش تنبثق من مصدر غير مصدر حقوقهم على اقطاعهم الخاص » .

والاستاذ همبل يذهب الى حد القول بأن المقدونيين كانوا غير ملزمين اذا أردنا التدقيق باتباع ملوكهم فى الغزوات التى يقومون بها وأنهم كانوا يفعلون ذلك مقابل أجر يتقاضونه » Jouguet : Histoire du droit Public de l'Egypte ancienne.

ونحن نعلم من فيجل أن الاسكندر تخلص قبل سيره الى حرب آسيا من كل ما يملك في مقدونيا كما كان يفعل المهاجرون عند مغادرة وطنهم والرحيل الى ارض جديدة ونعلم أيضا أن حملة الاسكندر سبقتها حملة عشرة الآلاف التى استطاعت ان توغل فى الامبراطورية العجمية ايضالا شديدا وان بأت بعد ذلك بالفشل Wiegand : Alexandre (فيجل : «الاسكندر»)

اتتصارات أخرى لأبيه وله على الأغارقة وكانوا يعدون مقدونيا أرضاً أجنبية متأخرة وينظرون إلى زعامتها لليونان نظرهم إلى الاحتلال الأجنبي^(١) . وكانت الدويلات اليونانية تتبع هذه الاتتصارات في غير حماسة كبيرة بل أرادت سبرطة أن تنتهزها وتثور بمعونة الفرس فهزمها المقدونيون وتقضوا حلف كورتييس الذي أنشأه فيليب لتوحيد سياسة اليونان الخارجية وأنزلوا أهلها منزل المحكومين وفرضوا عليهم عبادة الأسكندر^(٢) . وكانت الجيوش التي أحرزت تلك الاتتصارات جيوشاً مختلطة يعمل فيها الإغريق إلى جانب الأسويى أو الإفريقى مقابل جعل معلوم . وقد نشأ الأسكندر نفسه في مقدونيا وهى وقتئذ أوسع الأقاليم اليونانية تأثراً بالنفوذ الفارسى فى بيت اتصل بصلة المصاهرة بالفرس^(٣) وبيئة مشبعة أشد التشبع بالفكر الدينى المصرى وكان فى جميع حركاته المثل الحى للمجتمع المختلط الذى جعل ينمو على أيامه . فحمل طوال حياته للفرس ونظمهم وشجاعتهم احتراماً عظيماً واستعان باليونانيين وان لم يؤمن بكفائتهم^(٤) ولم يصدر فى عمل من أعماله عن غير الرغبة فى اقامة دولة عالمية تجمع بين الشعوب المعروفة حينئذ^(٥) وهى دولة كانت عناصر تكوينها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تنتشر فى جو العالم فى ذلك الوقت . ومن ثم كان اعتناقه عبادة آمون وهى أوسع العبادات انتشاراً حينئذ ومصاهرته العائلة المالكة العجمية وتفكيره فى اقامة عاصمته بمدينة بابلون^(٦) .

وقد كان الأغارقة يشعرون بعد ذلك بمغايرتهم الشعوب الأخرى فى الجنس واللغة والظروف الاجتماعية ويظهرون هذا الشعور برميهم هذه الشعوب بالهمجية ولكن هذا الشعور لم يعد قط ما كانت تحسه قبائل بدوية كقبائل الجزيرة العربية قبل الاسلام من اشتراكها فى الجنس واللغة والظروف الاجتماعية ومغايرتها فى هذا الشعوب الأخرى دون

(١) وكان المقدونيون يتمتعون فعلاً فى امبراطورية الاسكندر ومصر البطلمية بامتيازات وحقوق لا يتمتع بها أهل المدن اليونانية الأخرى . دائرة المعارف الإيطالية .

(٢) دائرة المعارف الإيطالية .

(٣) تزوجت إحدى اخوات جد الاسكندر من فارسى . فيجل .

(٤) فيجل .

(٥) مجلة القاهرة عدد مارس سنة ١٩٣٩ .

(٦) جوجيه .

أن يرتفع بها ذلك الى الوعي بوحدتها السياسية كأمة • ولفظ • barbare • الذى نميل الآن الى ترجمته باا « همجى » لأنه كان ينطوى على بعض هذا المعنى حين أطلق بعد ذلك على القبائل الجرمانية يقابل لفظ « الأعجمى » الذى كان يطلقه العرب على من يتكلم غير لغتهم وكان المصريون يطلقونه بهذا المعنى على أبناء اليونان كما أطلقه الرومان على الشعوب الأخرى من بعدهم • (١)

ولم يكن الفرس يختلفون من هذه الناحية اختلافا كبيرا عن اليونانيين فقد كانوا ينقسمون حتى أيام قمبيز الى قبائل متباينة • وقد وجهت هذه القبائل الى الفتوح حتى دانت لها شعوب آسيا واليونان ومصر قبل أن تندمج فى وحدة سياسية شاملة وكانت الدولة التى قامت على أكتافها مجموعة شعوب مختلفة لا يجمع بينها غير شخص ولى الأمر وهو فى ذلك الحين لا يميز بين رعاياه الا بمقياس ولائهم لعرشه • ونحن نعلم أن الفرس كانوا يستعينون بالاغريق ، خصومهم السياسيين ، فى جيوشهم وحكومتهم ومجالسهم الحربية الى حد أن يظهر بين ساسة اليونان فى القرن الرابع ق.م • من ينادى بغزو بلادهم بعد أن صارت المراكز الهامة فيها فى يد يونانيين ونعلم أنهم لم يفقدوا فى الغالب معاركهم مع اليونان الا بسبب تنافر الشعوب التى كانوا يحكمونها وخيانة أعضاء العائلة المالكة بعضهم البعض وتعاقب المؤامرات السياسية التى تذكرنا بآخر أيام الامبراطورية الرومانية والبيزنطية والعربية والعثمانية وهى جميعا امبراطوريات حكمت حكما شخصيا لم يعرف القومية (٢) •

وكان المصريون لا يختلفون بدورهم فى ذلك الوقت من نفس هذه الناحية كثير الاختلاف عن الاغريق والفرس وان عاشوا بعكسهم قرونا طويلة فى ظل دولة وطنية مركزة ذات حضارة خاصة تجمع بينهم • فقد تطورت هذه الدولة بين الأسرة الثامنة عشرة والسادسة والعشرين تطورا طمس معالم هذه الوحدة وخرج بذلك الشعور عن طوره • وقد بدأ هذا

(١) يقول جوجيه ان الاغريقى عند اليونانيين لم يكن ابن اليونان وانما كل من تثقف بالثقافة اليونانية وهذا التصور موجود لدى ايزوقراط وهو من أبناء القرن الرابع ق.م • ويلاحظ على وجه العموم أن العلاقات الخارجية فى العالم القديم علاقات حرب واحتقار. أنظر Fiore : Diritto Internazionale

(٢) هيروdot و روسل •

التطور اذ مدت مصر حدودها السياسية ، تحت تحتمس الثالث ، الى قلب افريقيا والفرات والأرخيل اليوناني وتحولت بذلك من مملكة وطنية مركزة الى امبراطورية مختلفة الشعوب ثم ارتدت بعد سقوط هذه الامبراطورية ، تحت الأسرة العشرين ، الى الحكم الموزع بين الأقاليم المستقلة فأخذت منطقة الدلتا تعيش في الجو الاغريقي الذي كان ينتشر حول شواطئ البحر المتوسط واتصل الصعيد ببلاد النوبة اتصالا شديدا^(١) وعاد الانقسام القديم بين الوجهين البحرى والقبلى الى الظهور^(٢) . وظهر أثر كل ذلك فيما شهدناه من اتسام مصر السفلى بالطابع الاغريقي ، وما نعلمه عن ظهور المدن المستقلة بها في ذلك الوقت^(٣) ، واعتقاد الأغارقة حينئذ والرومان من بعدهم أن الدلتا جزء من آسيا وبقيّة مصر جزء من افريقيا ، وعدّ كتابهم الأسكندرية مدينة منفصلة عن مصر ، واعتياد المصريين أنفسهم حتى العصر المسيحي التحدث عن الدلتا حديثهم عن أرض أجنبية ، ثم ارتقاء النوبيين عرش مصر وانتقال عاصمة البلاد على أيامهم الى مدينة نباتة ، واستقرارها في الأسكندرية حتى الفتح العربى . ونحن نلتقى تحت ملوك الفرس بمصريين يعيشون في بلاط صوس ويشتركون في الجيوش الفارسية ويقيمون في اليونان ونعلم أن سكان المدن المصرية كانوا اذ دخل الاسكندر مصر خليطا من أجناس مختلفة وخصوصا من الاغريق والفرس^(٤) .

وكانت النظم الدينية المصرية ، وهى وقتئذ من أهم مقومات الدولة ، تسير هى أيضا في طريق الانقسام والعالمية . ومعروف أن مصر القديمة لم تصل في سبيل التوحيد الدينى الى أكثر من الاتحاد الاقليمى الذى كان يحققه اعتناق فرعون الدين الذى تؤمن به كل من الكنائس الاقليمية^(٥) .

(١) « تاريخ الأمة المصرية » .

(٢) وكان هذا الانقسام يؤدى الى الحرب أحيانا كما حدث سنة ٧٣٠ ق.م بين ملوك الشمال وملوك الجنوب . انظر المقتطف عدد سبتمبر واکتوبر سنة ١٩٤٧ .

(٣) كان بعض هذه المدن لايزال قائما في نهاية العصر الفارسى .
مالیه : المرجع السابق .

(٤) « تاريخ الأمة المصرية » .

(٥) دريتون : مجلة القاهرة عدد يولية سنة ١٩٤٠ .

ولم تكن هذه الكنائس تتجه لذلك اتجاهها قوميا يمتد الى المصريين ويترك من عداهم أو يفرق بين الناس بمقياس الجنس . وقد كانت مصر أول دولة حاولت أن تضم أطراف امبراطوريتها في دين واحد بثورة اخناتون الدينية وكانت الكنائس المصرية أول كنائس بشرت بعقائدها في بلاد أجنبية . ومعروف أيضا أن ارتداد مصر الى الحكم الموزع بين الأقاليم صحبه ارتفاع سلطان رجال الدين في حياتها العامة حتى صاروا هم حكامها الفعليون فاستأثرت كنيسة طيبة بالعرش تحت الأسرة الواحدة والعشرين وظلت تستأثر به حتى نهاية العهد النوبى وكانت هى التى نقلت مقر الحكم الى نباتة وتوجت القراعنة النوبيين^(١) وكانت مناقستها كنيسة منفيس^(٢) مصدر انتقاضات العهد الفارسى وسند الأسكندر والبطالمة . وكان المصريون ينزعون في حياتهم من قبل ذلك نزعة دينية بارزة ويميلون الى عد من يدين بدينهم منهم^(٣) فزاد ارتفاع السلطان الدينى في نزعتهم هذه ومال بالمجتمع المصرى للتحويل الى مجتمع دينى يتجه فى تمييزه بين الناس الى عقيدتهم الدينية قبل كل شيء .

وقد صحب هذا التطور تحول اقتصادى واجتماعى لا يقل عنه غورا . فنحن نعلم أن اتصال مصر السفلى بدويلات آسيا الصغرى واليونان نشط بها التجارة والصناعة والملكية الفردية^(٤) بينما بقيت مصر العليا على الزراعة ، ونعلم أن حروب مصر للاشوريين والفرس وانتقاضاتها عليهم ، حين دخلوها ، انتهت الى القضاء على الطبقة العسكرية فيها .

(١) « تاريخ الأمة المصرية » و « مصر المعاصرة » عدد سنة ١٩٣٥ .
(٢) Mahaffy : The Empire of the Ptolemies . (مهافى : « امبراطورية البطالسة »)

(٣) دريتون : مجلة القاهرة عدد مارس سنة ١٩٤٣ . وهو يقول ما يأتى : « أساس القومية المصرية القديمة الدين وفضل المصريين على الشعوب الأخرى فى أنهم يطيعون الآلهة والاله هوروس على وجه الخصوص دون الشعوب الأخرى . ومن ثم كان الأجانب الذين يعيشون فى مصر ويعبدون آلهتها يحظون بنفس حقوق المصريين ويصلون الى ارفع المراكز » . وهذه هى العقلية التى أصبحت بعد ذلك عقلية المسيحية والاسلام .

(٤) ظهرت الملكية الفردية فى مصر قبل دخول الفرس . انظر « مصر المعاصرة » مجلد سنة ١٩٣٥ .

وآية ذلك اعتماد الفراعنة المتأخرين على الأغارقة في جيوشهم (١) واندثار العزة القومية (٢) واختفاء طبقة كبار أصحاب الأراضي الزراعية (٣) . ونحن لا نعثر على ذكر لهاتين الطبقتين عند دخول الاسكندر مصر وتنصيب بطليموس بعد ذلك ولا علم لنا بأنهما اتصلا بغير كنيسة منفيس (٤) التي لعبت الدور الأول في هذه الحركة وكان رجالها يمثلون الارستقراطية المصرية الوحيدة حتى أيام البطالمة (٥) .

ونحن نلمس فيما قدمنا تفككا سياسيا يخرج بالمصريين عن الوحدة السياسية التي عاشوا عليها منذ عهد ميناء، يصحبه ارتفاع شاذ في نفوذ رجال الدين بنزعتهم الاقليمية أو العالمية ، وتحول اقتصادي ، على الأقل في مصر السفلى ، وآخر اجتماعي يشمل الوادي كافة ، في الوقت الذي تشتد أثناء هجرة الأغارقة الى الشرق ومصر بوجه خاص (٦) وهم على

(١) يقول بعض المؤرخين ان بسماتيك اضطر الى الاستعانة بالاغريق في حروبه اذ تركه رجال الجندية المصرية وهاجروا الى بلاد النوبة احتجاجا على سياسته المائلة للاغريق . انظر ديودور . وليس بنا من حاجة الى ابراز أوجه الضعف في هذه الرواية فليس من المعقول أن يترك جيش كامل بلاده ليقم في بلاد أخرى اللهم الا ان كان هذا الجيش زمرة مسلحة لا غناء فيها .

(٢) مهافي .

(٣) يقول شيب ان المصريين كانوا لا يذكرون حينئذ ماضيهم ولا يتطلعون الى عودة أيام تحتمس ورمسيس . ويلاحظ أن الآثار الباقية عن النزاع المصري الفارسي تدور في الغالب حول ما اصاب الآلهة المصرية على يد الفرس . Shape : History of Egypt under the Romans (شيب : « تاريخ مصر تحت الرومان ») .

(٤) في تاريخ ديودور ذكر لمصريين Dolopasis و Petisis يقول هذا المؤرخ ان الاسكندر عهد اليهما بالادارة المدنية في مصر وقد أثر احدهما ترك منصبه واختفى الثاني بعد ذلك بقليل .

(٥) يقول يوسف الاسكندري ان المصريين كانوا ينظرون الى قسسمهم في العهد البطلمي على أنهم ممثلوهم وحكامهم الحقيقيون . انظر شيب . ويقول بوشيه لكليك ان المصريين كانوا حينئذ يفكرون تفكيراً دينياً وقد اتجه بطليموس اليهم من هذه الناحية واتصل بكهنتهم قبل كل شيء . Bouché Leclercq : Histoire des Lagides . (بوشيه لكليك : « تاريخ البطالسة ») .

(٦) شهدت مصر هجرة يونانية قوية خصوصا في القرن الثالث ق . م . جوجيه .

ما رأينا من انكار للقومية السياسية ، وتسير الدول في التحول الى امبراطوريات عالمية لا يميز حكامها بين الشعوب الا بمقياس الولاء لشخصهم وتتجه الشعوب الى عبادة اله كبير واحد يكون الجالس على عرش هذه الامبراطوريات ممثله ، كما كان امبراطور الفرس ، أو ابنه ، كما كان الاسكندر من آمون ، أو هو نفسه ، كما كان أباطرة الرومان . ومن ثم كان انتشار الأغارقة في مصر وبلاد الشرق الأخرى وبلوغهم فيها غايات ما كانوا بالغها لو كانوا مثقلين بقومية ناضجة ، وكان ايغال مصر في الجو الاغريقي ، وانتشار الفكر الدينى المصرى في حوض البحر المتوسط جميعه خصوصا بعد أن انتظمت شعوبه في الامبراطورية الرومانية واعترفت هذه الامبراطورية بالدين المصرى دينا رسميا لها ، وكان أخيرا اتجاه هذه الشعوب جميعا الى الاندماج في مجتمع واحد .

وقد ظهر هذا المجتمع الجديد أول ما ظهر في المدن المبثوثة على شواطئ آسيا الصغرى وأوروبا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وهى المدن التى كانت تتركز فيها حركة المبادلات التجارية بين الشرق والغرب وتختلط الشعوب القديمة بالشعوب الجديدة وتربو الثروة المنقولة بأعثة حولها حياة اجتماعية خفيفة لا عهد للعالم القديم بها من قبل . وكانت هذه الحياة تستمد مضمونها الحضارى من حضارات هذه الشعوب جميعا ، وأوضاعها الاجتماعية من هذا الاقتصاد الجديد ، ولونها ولغتها من شبه الجزيرة اليونانية التى كانت تغذيها بالرجال وتجمع الى عهد الاسكندر خير ثمارها ، ثم امتدت داخل هذه القارات في العهد الفارسى وتحت الاسكندر^(١) وخلفائه . كذلك كان هذا المجتمع يقتصر ، أول أمره ، على خاصة أهل المدن والأقاليم المتصلة بها . ثم جعل يتغلغل بين الطبقات التالية لها قليلا قليلا حتى كانت الامبراطورية الرومانية وجمعها شعوب البحر المتوسط في حكم واحد وتسويتها بينها في القانون العام بقانون كركلا والقانون الخاص بقوانين ديوكلسيان^(٢) ، ثم دخولها المسيحية اذ بلغ هذا المجتمع

(١) يقول سامان حزين ان الشعوب القديمة عرفت منذ ظهور الاسكندر حياة عالمية جديدة بعد أن كانت تحيا متفرقة بعضها عن البعض . وهو يلاحظ أن مصر كانت أسبق بلاد الشرق سيرا في هذه العالمية فكانت حلقة الاتصال بين الشرق والغرب . مجلة الكاتب عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

(٢) Furlani : Studi Orientali XIV, 1933 .

غايته . والطور الأول من حياة هذا المجتمع هو ما يدعو المؤرخون بالهلينية (Hellenisme) ويميزون باسمها هذه الحضارة المختلطة التي كانت تعيش شواطئ البحر المتوسط بين ظهور الاسكندر^(١) وقيام الامبراطورية الرومانية وتركز في مدن اليونان أول الأمر ثم تنتقل الى الاسكندرية عاصمة هذا العالم الى ما بعد أغسطس^(٢) . أما الأطوار الأخرى فتختلط بتاريخ الامبراطورية الرومانية والامبراطورية المسيحية من بعدها .

وقد سبق أن رأينا كيف كانت مدن الدلتا تشترك في حياة هذا المجتمع العالمى وكيف كان الفراعنة المتأخرون يشجعون اتجاهها هذا . ونحن نعلم أن خاصة المصريين كانت تشترك فيها أيضا^(٣) كما كان رجال الدين منهم يتقنون الاغريقية ويعرفون الفكر اليونانى قبل دخول الاسكندر^(٤) . ولعلنا نستطيع أن نقرب الى تصورنا هذا المجتمع الغريب متى نظرنا الى الشعوب التي تتكلم العربية الآن وتأملنا شعورها بوحدتها أو ذكرنا ما كنا نلاحظه الى وقت قريب في الغرب والشرق على السواء من قيام مثل امبراطورية ثقافية فرنسية تجمع بين المثقفين بالثقافة الفرنسية ولو لم يكونوا من أصل فرنسى في جو فكرى واحد .

وقد أقبل الاسكندر^(٥) على مصر بعد أن تحول وجهها ووجه العالم على الشكل الذى رأينا بعقب انتصاراته على خصومها وخصومه من الفرس وحج الى سيوة وهى في ذلك الوقت كعبة شعوب البحر المتوسط جميعا فشهر

(١) وقد رأينا بعكس ذلك أن الموجة الاغريقية كانت منتشرة في الشرق قبل الاسكندر .

(٢) Butcher : The story of the church of Egypt. (بتشر « تاريخ الكنيسة القبطية ») .

(٣) يتضح ذلك من آثار تونا الحجر .

(٤) كان يتقنها أيضا مانتون وهو من معاصرى الحكم العجمى وبطليموس الأول .

(٥) كتب لنا بلوطارخ سيرة الاسكندر فى كتابه عن عظماء العالم القديم كما كانت تأثرها مصادر عصره . وهذه السيرة وإن كان يغلب عليها طابع الخرافة فهى تبين مبلغ تأثر اليونان بالفكر المصرى أو مبلغ اعتقاد اليونان حتى أيام بلوطارخ فى تأثرها به . ومؤدى السيرة أن والد الاسكندر كانت من المولعات بعبادة آمون (وكان آمون يعبد حينئذ فى معبد Dortane باليونان

كهنتها بنوته لآمون ونصبوه على عرش مصر بحق هذه البنوة (١) ثم عاد الى منفيس فوزع السلطة بين رجاله وبعض المصريين (٢) وانصرف الى التمكين لحملة آسيا واعداد وسائل الدفاع عن البلاد ومنها تخطيط الاسكندرية الى جانب راقورة المدينة المصرية القديمة (٣) .

حيث اقام له بندار تمثالا كبيرا كما كان زيوس يعبد في معبد سيوه وكان اليونانيون يحجون الى هذه الواحة منذ قرون مثلهم مثل شعوب البحر المتوسط الاخرى . أنظر فيجل وماسبيرو) رأت ليلة زفافها فيما يرى النائم روح آمون وقد سلكتها في صورة صاعقة رهيبة فوقع في نفسها ان الاسكندر ابنها من هذا الاله وليس من فيليب زوجها (وكانوا يعتقدون حينئذ ان النساء يستطعن ان يحملن من روح الالهة وقد انتقلت هذه الفكرة الى المسيحية فكان سان تروتوليانو يعتقد ان مريم العذراء حملت من شعاع نور رباني ولج أذنها) وعلم فيليب بذلك فنار له وجعل يتجسس على زوجه ويرسل الرسل الى معبد دلفي بغية التثبت من أمره الى أن شهداها تضاجع ثعبانا فظن انه آمون بالذات .

وقد قامت اولبيا على تربية الاسكندر تربية دينية بعيدا عن والده وأرادت له ان يكون كاهنا لآمون واستطاعت ان تؤثر في نفسه رغم ما حاوله والده بعد ذلك من تقويمه مستعينا بأرسطو اذ لم تمتد صحة الاسكندر لأرسطو أكثر من عامين . أنظر فيجل : « الاسكندر » .

(١) كان التنصيب الدينى يعطى حينئذ من يناله الملكية الشرعية لدى جميع الشعوب . بوشيه لكليك .

(٢) يقول ماسبيرو ان الادارة بقيت مصرية في عهد الاسكندر كما بقى حكام الأقاليم مصريون ويقول ديودور ان الاسكندر غادر مصر الى سوريا ومعه كل جيشه . كذلك يقول بوشيه لكليك ان الاسكندر لم يتخذ احتياطات ما من المصريين وكان كل همه متجها الى تجنب العبث بالسلطة او خيانة من اعطى لهم الحكم له وقد ركز الحكم المدنى في يد المصريين Dolopasis و Petisis والمالية في يد Cleomene وكان من اهل يقرطيس . « تاريخ البطالة » .

(٣) يقول مهابى ان الاسكندرية اقيمت لتموين جيوش الاسكندر وتأمين مؤخرتها خصوصا من الغدر الاغريقى وكان غالب أهلها اذ نشأت من المصريين واستمر عددهم في الارتفاع حتى كانت الاسكندرية التى وقفت في وجه قيصر تكاد تكون مصرية خالصة . اما راقورة فكانت قبل قيام الاسكندرية مدينة دينية تتكون من ١٢ قرية وتضيف حامية صغيرة وقد احتفظت بأهميتها الدينية هذه حتى بعد ان صارت جزءا من الاسكندرية فكانت تضم معابد المدينة وعلى رأسها معبد سراييس الضخم .

ومات الاسكندر فتحطمت الامبراطورية التي أقامها دون أن تتحطم الوحدة الاجتماعية التي كانت من بواعثها والتي بقيت الصلة الوحيدة بين شعوب اليونان وآسيا الصغرى ومصر وإيطاليا الجنوبية والأساس الذي اتخذته الدول التي تخلفت عن تلك الامبراطورية في الشرق وعلى رأسها دولة البطالمة . وقد خلف بطليموس الاسكندر في مصر بمقتضى ميثاق^(١) تعهد فيه لكهنة منفيس برد الأملاك التي سلبها الفرس إياهم ودود خطرهم عن البلاد وسعى طوال حياته كما سعى الاسكندر من قبله لايلاف المصريين وهو سعى نشهد بعض آثاره في كتابات^(٢) ماتتوز ومعبد بتزوريس وعبادة سراييس^(٣) والمعابد التي أقامها البطالمة للآلهة المصريين^(٤) . وكان عدم استناد البطالمة الى دولة قوية خاصة بهم

وقد وجد الدكتور بوتى فى منطقة عامود السوارى وهى المنطقة التى كانت تقوم عليها راقورة آثارا ترجع الى عهد رمسيس الثانى وتدل على سابق وجود مدينة للموتى ومعبد لايزيس وجدت له صورة على قطعة نقد من العهد الرومانى . والظاهر من هذا هو أن قيام الاسكندرية على يد الاسكندر كان من قبيل قيام الفسطاط على يد عمرو بن العاص والعباسية على يد عباس ومصر الجديدة على يد شركتها أى ان المدينة الجديدة لم تكن فى الحقيقة غير حي جديد قام لأغراض عسكرية الى جانب مدينة قائمة فعلا . ويلاحظ أن المصريين كانوا يدعون الاسكندرية راقورة حتى آخر العهد المسيحى . Botti : Plan du quartier Rhacotis dans l'Alexandrie romaine .

ويقول بريتشا ان الاسكندرية لم تصبح المدينة المعروفة الا فى عهد بطليموس الرابع . Breccia : Guide de la ville et du Musée d'Alexandrie . كذلك يقول سترابون ان بطليموس كان يقيم بحصن الاسكندرية او راقورة سابقا .

(١) عثر فى القاهرة سنة ١٨٧١ على نص الوثيقة التى نصّب بها بطليموس ، وهى تستفتح بذكر هوروس وايزيس وأوزيريس ثم تشيد بشجاعة بطليموس وانتصاره على العجم ثم تأتى على الشروط التى قبلها بطليموس ومنها تعهده بالخضوع لقوانين البلاد ورد املاك كنيسة منفيس اليها . بوشيه لكليك : « تاريخ البطالمة » .

(٢) وكانت هذه الكتابات التى نستطيع أن نرتفع بها الى هيرودوت و Hecatee de Milet ترمى الى الرجوع بالشعوب جميعا الى جنس واحد كما فعلت المسيحية والاسلام بعد ذلك . وقد وضع Hecatee d'Abdère تاريخا لمصر جعل فيه مقدونيا ، ملك مقدونيا ، ابنا لأوزوريس وأخذ ديودور عنه ذلك . أنظر ديودور .

(٣) كان عدد معابد هذا الاله فى مصر لا يزيد على ٤٢ معبدا بينما كان عددها فى الامبراطورية الرومانية يزيد على اضعاف ذلك .

(٤) مهابى .

يستمدون منها القوة ^(١) أو يضطرون الى مراعاة مصالحها أو يتأثرون بتقلباتها السياسية على أى شكل ، كما كان يستند الاسكندر على مقدونيا ، يساهم وتجردهم من كل عقيدة دينية أو حضارة خاصة فى دفعهم دفعا الى مواصلة العمل على التقريب بين المصريين والاغريق تقريبا بلغ بهؤلاء فى القرنين الثانى والأول ق . م ^(٢) حد الفناء فى جيل اغريقى مصرى جديد ^(٣) يذكرنا بما حدث بعد ذلك فى مصر نفسها من امتزاج الترك والشراكسة بالمصريين رغم ما بين العنصرين من تنافر لا وجود له بين العقلية المصرية وعقلية شعوب البحر المتوسط الأخرى . وهذا الجيل هو الجيل الذى شهد الحكم الرومانى وحمل رسالة المسيحية .

ونحن نلمس بعض آثار هذا الاتجاه الجديد لعلاقات مصر بالعالم الاغريقى فى شيوع التزاوج بين الجنسيتين واقبال يونانى ذلك العصر على اتخاذ الأسماء المصرية والمصريين على اتخاذ الأسماء الاغريقية حتى يصير من المستحيل أن يميز الانسان المصري من الاغريق بأسمائهم منذ منتصف القرن الثانى ق . م ^(٤) . كذلك نلمسه فى غمر العنصر المصرى ما عداه

(١) من المعروف أن مقدونيا كانت مستقلة عن البطالمة وان هؤلاء كانوا يعتمدون على المرتزقة من اليهود والفرس والبلقانيين ولا يتورعون عن الاعتداء على اليونان ومحاربة الممالك الاغريقية الأخرى فى الشرق فى سبيل مطامعهم . Bevan : A history of Egypt under the Ptolomy Dynasty .
(٢) بيفان « تاريخ مصر تحت البطالمة » .
(٣) بيفان ودائرة المعارف الايطالية .

(٣) يقول ماسبرو ان المصريين كانوا سائرين الى اليونانية كما ساروا الى العربية بعد ذلك J. Maspero : Histoire des Patriarches d'Alexandrie
(« تاريخ بطارقة الاسكندرية ») .

(٤) بيفان . ويظن جوجيه أن اغريق المدن الاغريقية فى مصر كانوا يمنعون من الزواج من المصريين ولكنهم كانوا يستطيعون التزوج من الاغريق القائمين خارج مدنهم وكان هؤلاء يستطيعون التزوج من المصريين . « تاريخ القانون العام المصرى القديم » . ونحن نريد أن نلاحظ هنا عابرين أن هذا الكاتب لا يقطع بأن اغارقة المدن كانوا يستطيعون التزوج من الاغارقة الذين لا يتبعون مدينتهم وهو دليل آخر على ما سبق أن بيناه من أن الامر لم يكن حينئذ أمر اغريقين وغير اغريقين بل أمر التبعية لمدينة معينة . وفيما يذكره فوستيل دى كولانج عن أن الاصل فى المدن الاغريقية والايطالية المستقلة أن لا يتزوج أهلها فيما بينهم ما يثبت رأينا هذا .

في الأسكندرية على أيام يوسف الأسكندري^(١) ، واقدام بطليموس التاسع^(٢) على منح المصريين حقوق الاسكندريين الأصليين ليملا بذلك الفراغ الذي كان يتركه تناقص هؤلاء ، ثم انخراط الاغريق في سلك الكهنوت المصرى ، وعبادة^(٣) آلهة اليونان في المعابد المصرية ، وعلو كلمة الكهنوت المصرى علوا ينم عليه انتقال مجامعهم الى منفيس بعد أن كانت تنعقد بالأسكندرية ، واضطرار الملوك الى السعى اليهم بعد أن كانوا هم الذين يسعون الى بلاطهم ، واشتراك هذا الكهنوت في جميع الأعمال الهامة^(٤) ، ثم اتسام شعائر البلاط البطلمى بالطابع المصرى اتساما بارزا^(٥) ، وعودة الروح العسكرية المصرية الى الظهور بانتصار رفح^(٦) ، وامتزاج الفن الاغريقى بالفن المصرى في معابد ذلك العهد ، كمعبد كوم أمبو^(٧) ، ثم ظهور المصريين في الحياة السياسية أيضا مثل بتوزرايس^(٨) الذى حاول خلع ارفيجيت وأخيه والاستئثار بالملك دونهما واستطاع أن يثير الأسكندرية عليهما في سبيل ذلك ، واكيلاس الذى قاد حركة المقاومة للنفوذ الرومانى وكان أول من سعى قيصر الى التخلص منهم^(٩) . وقد حدا ذلك بالمؤرخين الذين كتبوا في ذلك العصر الى الاجماع على القول بأن البطالة لم يغيروا في حياة مصر شيئا يذكر فييفان يقول ان العهد

(١) ويوسف الاسكندري يتهم المصريين باثارة العداء بين اليهود والاغريق في الاسكندرية .

(٢) عهد بطليموس التاسع هو العهد الذى زار فيه بوليبي مصر وكتب يقول انه وجد المصريين اكثر حضارة من اغريق الاسكندرية .

(٣) بوشيه لكليك : « تاريخ البطالة » .

(٤) Letronne: Recherches pour servir à l'histoire d'Egypte .

(لترون : « أبحاث في تاريخ مصر »)

(٥) من ذلك ان حفلة تتويج البطالة كانت تتلخص في ان يسير الملك حاملا على رقبتة نير ثور يقوده احد كهنة ايزيس وان البطالة كانوا يتزوجون من أخواتهم كالفراعنة . لترون ومهافى وبغان .

(٦) مهافى .

(٧) كان الاغريق والرومان يزینون منازلهم بالمناظر المصرية ويخصصون فيها قاعات يدعونها بالقاعات المصرية ونحن نجد أوصافا لمصر في كتب فيرجل وسترابون وبوليبي وقيصر وسنيكا .

(٨) ديودور ومهافى .

(٩) بوشيه لكليك .

البطلمي لا يعدو أن يكون ثمرة اختلاط الفكر المصري بالفكر الاغريقي ، وربيو^(١) يرى أن هذا العهد ليس الا مرحلة جديدة من مراحل الحياة القومية المصرية ، ولترون يعتقد أن مصر لم تتغير بعد الفراعنة الا بالمسيحية ، وشامبليون فيجيل يؤمن بمثل هذا الرأي •

ولم يكن الأمر بين شعوب شرق البحر المتوسط الأخرى يختلف وقتئذ كبير الاختلاف عما كان عليه في مصر فقد كان كتاب الإسكندرية ، كما نعلم ، في الغالب ، غير اغريقي الجنس وان كانوا اغريقي اللغة والتفكير^(٢) ، وكان حكام الشرق غير اغريقي الجنس وان كانوا اغريقي اللغة والأسلوب ، وكان أكبر حام للهيلينية من اعتداء الرومان وهو ميتريدات عجميا « متهلنا » ان صح هذا التعبير • ونحن نعلم أن روما أيضا كانت سائرة في ذلك الوقت بالذات في التأثر بالحياة الاغريقية تأثرا شديدا كان الرومان يقرّون به بالجملة المأثورة « Graecia capta, Romam coepit » أسرت اليونان الأسيرة روما ومن ثم كان النحوص الخاص الذي نحته علاقة مصر بروما تحت قيصر وانطونيو وأغسطس • فقد بدأت هذه العلاقة بوصية^(٣) يهب بها بطليموس اسكندر الثاني ملكه الشعب الروماني وهو نوع من الوصيات كان منتشرا وقتئذ

(١) انظر أيضا : J. Maspero : Les finances egyptiennes sous les

Lagides.

Rabiou : Mémoire sur l'économie politique, l'administration et la législation de l'Egypte au temps des Lagides . Champollion-Figeac :

Annales des Lagides .

(٢) كان اكبر كتاب الاغريقية في العهد الروماني أيضا وهم Cheron, Pollux وAtheneus من نقراطيس وقد كتبوا عن مصر وكهنتها • بنشر • وكان بلوطارخ وقد عاش في العهد الروماني يعمل لتوطيده •

(٣) كان عهد بطليموس اسكندر الثاني هذا عهد تنازع ميتريدات وروما السيطرة على البحر المتوسط وكان ميتريدات يملك آسيا الصغرى واليونان ومقدونيا فأبحر اليه القنصل الروماني سيلا ولكنه لم يستطع الغلبة عليه فبعث الى الاسكندرية مستنجدا فرفض البطالة معونته لحوفهم من ميتريدات وشكهم في قدرة روما على الوقوف في وجهه •

وقد أدى تردد البطالة بين روما وميتريدات الى حقد الجانبين عليهم حقا انتهى بميتريدات الى خطف بطليموس اسكندر الثاني وهو طفل ونقله الى بلاطه ومحاولة تربيته على كره روما ولكن بطليموس فر من الاسر وذهب الى سيلا فنقله سيلا الى روما حيث وضع وصيته المشهورة ثم أرسله الى الاسكندرية في سنة ٨٠ ق • م • وكانت تجلس على عرش

في الشرق والجمهورية الرومانية . وتبع ذلك اشتراك كليوبطره في الحرب التي كانت تدور بين الأحزاب الرومانية على حكم الامبراطورية الرومانية بأسرها كحليفة لبعض زعمائها . وأخيرا ولى أغسطس شؤون مصر دون أن يشعر أهلها بتغيير ما اذ لم يكن الأمر يعدو في النهاية تغيير شخص الجالس على العرش^(١) .

وقد سبق أن رأينا كيف كان الاغريق لا يتصورون الدولة الا في شكل المدينة القائمة بذاتها . ونحن نعلم أن الرومان بدأوا مثلهم ثم اضطروا تحت ضغط الشعوب اللاتينية الى مد حدود دولتهم ومنح حقوقها السياسية والمدينة هذه الشعوب . وقد انتهجوا نفس هذه السياسة مع الشعوب التي ضمتها امبراطوريتهم بعد ذلك في عهد كركلا^(٢) حتى امتدت آثار الاختلاط الذي شهدناه الى دائرة الحكم

مصر وقتئذ الملكة برنيس فتزوج منها وحكم معها حينما ثم ثار الاسكندريون عليه وقتلوه فذاع أمر وصيته . وقد سارعت الحكومة الرومانية بعد وفاته الى وضع يدها على الثروة الضخمة التي كان يملكها وتمهلت في وضع يدها على ملكه أيضا لانشغالها حينئذ بخلافاتها الداخلية وعدم رغبتها في اثاره حرب جديدة ثم خشية الأحزاب الرومانية مما قد يؤدي اليه أخذ مصر من الميل بكفة النزاع القائم وقتئذ حول حكم الامبراطورية الى هذا أو ذلك الجانب وهكذا استطاع أوليت أن يعتلي العرش وأن يتركه لكليوبطرة من بعده .

وكان قيصر من الراغبين في الاستيلاء على مصر والانتفاع بمواردها في التسلط على روما فآثار مسألة وصية بطليموس وأوعز الى أعوانه بتقديم مشروع قانون يعهد له بحكومة مصر . ولكن المعارضة رفضت المشروع فأوعز قيصر للقنصل رولوس بتقديم قوانينه الاجتماعية المشهورة وهي القوانين التي كانت تقضي بتمليك أهل روما الأراضي الإيطالية ومصر ولكنه لم يفلح في هذه المحاولة أيضا وبقيت الحال على ما كانت عليه حتى انتخب قيصر قنصلا فاستطاع أوليت أن يرشيه هو وبومباي بمبلغ ضخيم وأن يحمله على دفع مجلس الشيوخ الى الاعتراف به ومخالفته ثم كان ما كان من مجيء قيصر مصر متعقبا بومباي واتصاله بكليوبطرة ومقتله في روما .
نشرة معهد مصر الجزء الواحد والعشرون ١٩٣٨ - ١٩٣٩ . Le Volterra testament de Ptolémé Alexandre II, Roi d'Egypte .

(١) دائرة المعارف الإيطالية . وقد دخل أغسطس الاسكندرية والى جانبه الفيلسوف اربوس الاسكندري وخطب في أهلها مؤكدا أنه لن يمس حقوقهم . شيب .

(٢) كانت الحكومة الرومانية تمنح قبل ذلك جنسيتها بصفة شخصية من يعمل في القوات العسكرية أو يقوم لها بخدمات خاصة وكانت تشترط على المقيمين في مصر حتى حين كانوا أغريقين أن يحصلوا على جنسية

أيضا . ونحن نشهد أثر هذا الامتداد في اتجاه قيصر وأغسطس الى اقامة ملكية عالمية وتنصيب الاسكندرية بعد ذلك فسبسيان^(١) امبراطورا ثم تنصيب انطاكية أدريان واقامة أدريان هذا في مصر أربع سنوات تباعا^(٢) ومنح سيفيرو الاسكندرية مجلس شيوخ كمجلس روما وفتح كركلا^(٣) هذا المجلس الأخير للمصريين ثم اعتناقه ديانة ايزيس واقامته معبدا لها في روما^(٤) .

وقد ظهر بعد كركلا على عرش الامبراطورية الرومانية أباطرة شوقيون فكان^(٥) ماكرينو المصرى وفيروس السورى وستيمو سيفيرو

الاسكندرية أولا . وقد قام خلاف بين المؤرخين حول تطبيق قانون كركلا على مصر وتصدى لهذا الخلاف الاستاذ جوجيه فى بحثه فى تاريخ القانون العام المصرى القديم وانتهى الى الجزم بأن الجنسية الرومانية منحت فى مصر لاهل المدن وأهل الريف على السواء .

وتقول دائرة المعارف الإيطالية ان كركلا اراد بقانونه الى معالجة الازمة المالية التى كان يواجهها وقتئذ واستمالة اهل الاقاليم ضد الارستقراطية الرومانية التى كانت تناوئه . وقد ابتدا حينئذ النزاع بين القانون الرومانى التى كانت الامبراطورية تطبقه والقوانين الشرقية التى كانت تعمل بها الشعوب الشرقية وتسربت هذه القوانين الى روما خصوصا فى القرن الرابع . انظر : Furlani : المرجع السابق و Revillout : Les origines égyptiennes du droit civil romain و Précis de droit égyptien .

وفولترا يعارض هذا الراى فى تعصب ظاهر للقانون الرومانى يضعف من حججه . انظر : Volterra : Diritto romano e diritti orientali

(١) نصبت الجمعية العمومية لمدينة الاسكندرية فسبسيان امبراطورا سنة ٦٩ ميلادية بعد ان بايعه العسكر فى أنحاء الامبراطورية وفى هذا التنصيب ما يشعر بأن الاسكندرية كانت تدعى لنفسها حقوق مدينة روما . ويلاحظ ان الصيغة التى استعملت فى تنصيب فسبسيان تشير الى الاسكندر الاكبر ابن آمون كالمصدر الذى يستمد منه الامبراطور الجديد سلطته .

وقد زار فسبسيان بعقب تنصيبه معبد سيرابيس وسأل آلهته عن مستقبله وشفى بعض المرضى بأعجوبة من صنعه . نشرة معهد مصر الجزء الرابع والعشرون سنة ١٩٤٢ .

(٢) بتشر .

(٣) انظر شيب . وكان هناك قبل ذلك عضو مصرى فى مجلس الشيوخ الرومانى . ويلاحظ ان كركلا كان من أم سورية وكانت بنت رئيس كهنة الشمس فى سوريا . انظر بتشر .

(٤) وقد أقام دوميسيان أيضا المعابد لايزيس فى روما ومدن الغرب .

(٥) كان ماكرينو يشغل مركز مقدم الحرس الامبراطورى ويعد كبير مستشارى الامبراطور فالريان قبل ان يصير امبراطورا وكان بطريك الاسكندرية ديونيسوس يدعو بالساحر الاكبر لانه كان ينحدر من عائلة

الافريقى وأتى أورليانو بعد ذلك فجعل من عبادة ايزيس^(١) دين الدولة وأقرها فى روما بنظمها المصرية^(٢) .

وكان المصريون يذهبون وقتئذ الى روما كهنة وأطباء^(٣) وصناعا

دينية قديمة ويتمسك بالعبادة المصرية ويحرض الامبراطور على المسيحيين وقد اضطهدهم بعد ذلك فعلا اضطهادا شديدا . بتشر .

(١) يقول شيب ان صورة مريم أخذت من صورة ايزيس . كذلك حرق البخور أمام المذبح أخذ من المعابد المصرية . وهو يضيف الى ذلك ان عبادة ايزيس كانت منتشرة فى ايطاليا من قبل وقد قررت حكومة روما فى سنة ٥٣٥ من تأسيس المدينة هدم معبد لايزيس كان قائما بها ولكنها لم تجد عمالا يقبلون القيام بذلك حتى اضطرت القنصل فالير الكبير أن يكسر الباب بنفسه . وقد أعاد قيصر بعد ذلك عبادة ايزيس ثم أتى أغسطس فمنع أشهر الطقوس الدينية المصرية عموما بروما وظواهرها دون جدوى .

(٢) ونحن نقرأ فى تاريخ أوروبا لفيشر ما يأتى :

« ويقول Dean Inge فى الحديث عن هذه العبادة (عبادة ايزيس) انها كانت منظمة تنظيما يشبه الى حد بعيد طقوس الكنيسة الكاثوليكية فكان القسيس والكهنة والمنشدون والمصلون يلتفون حول قسيس كبير يعادل البابا وكانت دمي العذراء تزين وتتوج بالجواهر الصحيحة والمزيفة وكان القسيس يصلون لها صلاة الفجر والمغرب فى معابدها الرئيسية بعد أن يحلقوا رؤوسهم ويرتدوا ثيابا من الكتان الأبيض » . فيشر : « تاريخ أوروبا » . وقد افتتح فى سنة ٣٨ ميلادية فى ميدان مارس بروما معبد لايزيس وانتشرت عبادة هذا الآله بعد ذلك حتى يقول بعض الكتاب انها نافست المسيحية . Storia delle religioni. طبعة تورينو سنة ١٩٣٤ .

وبلين يقول أيضا ان سوسيجين المصرى هو الذى أصلح تقويم روما فى عهد قيصر . ويرى بعض الكتاب أن هذا الاصلاح كان يحمل أثر العقائد المصرية خصوصا أعياد أوزيريس وهى الأعياد التى كانت تقام فى الاسكندرية وتمثل وفاة أوزيريس ثم نشوره ولا يزال يحتفل بها الأقباط فى عيد الغطاس وتحتفل بها المذاهب المسيحية الأخرى جميعا الى اليوم . أنظر نشرة معهد مصر الجزء الحادى والعشرون ١٩٣٧ - ١٩٣٨ . وكانت نقود الامبراطورية الرومانية تحمل شعار ايزيس حتى عهد قسطنطين . فيشر : المرجع السابق .

(٣) وقد طلب بلين الشاب الجنسية الرومانية لطبيب عينه المصرى . ويقر كثير من الكتاب الاقدمين بشهرة مصر الطبية فيقول جاليان ان الاغريق كانوا يراجعون على أيامه كتب معبد أمحتب ومنفيس وان داريو ملك الفرس كان يحيط نفسه بأطباء مصريين . كذلك يقول بلين ان الأطباء المصريين غالبا ما كانوا يدعون الى روما لمعالجة وجهاؤها وقد عرف العالم الطب المصرى عن طريق الاغريق والقبط ثم العرب . والوثائق القبطية الباقية لدينا تدل على أن التقاليد العلمية فى مصر لم تنقطع بين العهد الفرعونى والمسيحى وانها انتقلت الى الأديرة بعد ذلك . نشرة معهد مصر الجزء الأول سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٨ .

كذلك كان يرحل اليها كثير من الشرقيين وخصوصا السوريين • ونحن نعلم أن Ulpian و Papinian رئيسى المدرسة القانونية الرومانية فى القرن الثامن ، كانا أسيويين ، وأن Pollux و Apion و Chiron و Appian و Athaenus و Dyscolus كانوا من أصل مصرى ^(١) وأن كبار مستشارى الأباطرة كهيرودوت الكبير وهيرود أجريبا كانوا شرقيين ^(٢) .

وقد مهد كل هذا لانتشار المسيحية ^(٣) واتخاذها الوضع العالمى التى كانت عبادة ايزيس ثم الحضارة الهلينية والامبراطورية الرومانية من بعدها قد ألقت بذوره • وبانتشار المسيحية غلب الطابع الدينى على حياة الشعوب الخاصة والعامة جميعا فكانت فلسفتها وثوراتها وحروبها

(١) وقد حمل هذا بعض الكتاب الرومانيين على القول بأن الشرق كان يصب ماءه فى التبرى ، نهر مدينتهم • وباريتو يقول أن أهل الامبراطورية الرومانية كانوا حينئذ شرقيين • Pareto : Principii generali di sociologia (باريتو : « المبادئ العامة لعلم الاجتماع ») .

كذلك يقول شيب : « وقد قامت مصر بدور كبير فى تكوين فكر أوروبا الحديثة ودينها وفلسفتها وعلومها » .

(٢) كان هيرود أجريبا صديقا حميما للامبراطور كاليجولا وهذه الصداقة تفسر الى حد بعيد اهتمام هذا الامبراطور بالأمور الدينية ورغبته فى اقامة تمثال لنفسه بمعبد القدس ودعوته اليهود الى عبادته . Renan : Les Apôtres (رنان : الرسل ») .

وقد صاحب ابن هيرود الامبراطور كلود بعد ذلك وكان يقيم بقصره فى روما .

ويلاحظ رنان على ذكر هذه الصداقة بين أباطرة الرومان وأمراء الشرق أن هؤلاء الأمراء كانوا يترددون على روما ويؤثرون فى حياتها الاجتماعية والسياسية تأثرا عميقا حين كانوا لا يثرون عليها ويقاثلونها كما فعل الأمير العربى حارث باستيلائه على دمشق ودحره الرومان تحت أسوارها فى عهد كاليجولا • رنان : المرجع السابق .

(٣) يقول رنان فى كتابه « الرسل » ان المسيحية تدين بفكرة الخلود للفلسفة اليونانية وفكرة تكون الانسان من عنصر فان وعنصر خالد للفكر المصرى • وهو يضيف الى ذلك ان المسيحيين أخذوا نظام الاديرة من مصر حيث كانت تقوم اديرة عديدة للذكور والانات خصوصا حول منفيس .

وقد انتشرت المسيحية أول ما انتشرت بين اليهود « المهلنين » وكان يكثر بينهم المصريون والسوريون وذلك لأن اليهودية كانت آخذة فى الانتشار حينئذ بين غير اليهود أيضا ولأن مبشرى المسيحية الأولين كانوا يقصرون دعوتهم على الشيع التى تراول الختان .

ويقول بتشر ان Celsus كان يتهم اليهود بأخذ أفكارهم من الكتب المصرية وكان الذى فند اتهامه هذا هو العالم المصرى اورجانس .

فلسفة وثورات وحروباً دينية ^(١) وكان أثمتها في هذه الميادين جميعاً شرقين ومصريين على وجه الخصوص فكان أكبر فلاسفتها الأولين أورجانس ^(٢) مصريا وصاحب أخطر فرقها الأولى أريو مصريا وأشهر أبطالها الأولين كانستاس ^(٣) وكيرلس وشنودة والآباء أنطون وآمون وباخوم وبنيامين وبول والياس مصريين ^(٤) .

وهؤلاء المسيحيون الجدد يخاصمون أعداءهم في الدين كما يخاصمهم هؤلاء خصاما شديدا ولو كان الجميع أبناء جلدة واحدة فيضطهدهم الامبراطور ماكرينو المسيحيين المصريين كما لم يضطهدهم امبراطور من قبله وهو مصرى ويعتدى مسيحيو الإسكندرية على معابدها جميعا وهى معابد تركها لهم آباؤهم ويقفل البطريك تيوفيدس ^(٥) أكبر هذه المعابد وهو معبد سيرابيس بيده وهو مصرى ويخرب شنودة معابد أخميم لينبئ بحجارتها اديرته ^(٦) .

وزعماء هؤلاء المسيحيين يتمتعون بنفوذ لا يعرف بدوره الحدود الاقليمية أو القومية فالامبراطور تيودور يوجه الى يوحنا الأسىوطى داعيا اياه لزيارته فيرفض الراهب الزيارة فلا ينكر الامبراطور منه ذلك

(١) ماسبرو «تاريخ بطارقة الاسكندرية» و Diehl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine. (ديهل : « مصر المسيحية والبيزنطية ») .

(٢) درس أورجانس العبرية ليقرأ التوراة بلغتها الاصلية وطاف بإيطاليا والبلاد العربية متعلما ومبشرا .

(٣) يقول شيب عن انسطاس انه كان اكبر شخصية عرفها عصره .

(٤) يقول بتشر ان تاريخ المسيحية في القرون الخمسة الاولى هو تاريخ الكنيسة القبطية .

ويقول Warrin مؤلف كتاب « Liturgy and Ritual of the Celtic Church » ان البناء الدينى الأيرلندى يشبه الى حد كبير البناء القبطى وان بايرلندا مقبرة لسبعة رهبان مصريين . و Ledwich يدل على أن الذين بنوا Clastonbury قلدوا البناء القبطى الى حد بعيد وهو يجزم بأن قانون الاديرة المصرية كان معمولا به فى اديره بلاد الشمال: Butler : The ancient coptic churches of Egypt .

(٥) كان تيوفيدس من منفيس . بتشر .

(٦) اقرأ وصف هذا التخريب فى « حياة شنودة » لاميلينو .

وكان شنوده لا يذكر الفراعنة الا مائلا بهم كما كان يفعل معاصروه ويفعل المسيحيون جميعا اسوة بالتوراة . واميلينو يقول أن شنوده كان يحكم مقاطعة اخميم جميعا حكما مستقلا وهو الذى أستطاع أن يرد عنها قبائل البدو بعد عجز الامبراطور عن ذلك . Amelineau : La vie de Chenouda .

ويبعث اليه من جديد راجيا أن ينبئه بما ينتظره في الحرب التي كان مقبلا عليها حينئذ .^(١) ثم يكتب لشنودة قائلا أنه يقدسه وأن شيوخ الامبراطورية يريدونه بينهم ويبعث اليه من يحمله الى القسطنطينية . ورهبان القسطنطينية يستجلبون من مصر عظام شهدائها ويتبركون بها . وبطريق الاسكندرية ديوسكور يخلع بطريق القسطنطينية رغم مناصرة الامبراطور له ويعين أحد أتباعه مكانه^(٢) . وامبراطورة القسطنطينية العتيدة ديودورة تكتب الى حاكم طيبة المصري هوريون راجية اياه العمل على نشر مذهبها في مقاطعته^(٣) . وجوستنيان القدير يعطى بطريق الاسكندرية المصري بيبرا السلطة على حاكمها اليوناني^(٤) . وقد كان أسقف رافنا وأعوانه بين سنة ٣٩٦ وسنة ٤٣٥ شرقين وكان أسقف باريس في سنة ٥٩٦ شرقيا وكان الجالسون على عرش البابوية نفسها حول ذلك العهد وطوال قرن ونصف قرن شرقين^(٥) .

★ ★ ★

وقد قدم عمرو بن العاص مصر في القرن السابع وأهلها خليط^(٦) من الروم والقبط والنوبة أى من الشعوب التي صهرتها المسيحية في أتونها

(١) أميلينو : « حياة شنودة » . ويقول بتشر ان زوجة هذا الامبراطور ايوديسيا كانت تعطف على شاعر مصري يدعى سيرو وكان سيرو هذا من اخميم واقام في البلاط الامبراطوري بالقسطنطينية طويلا ثم نصب اسقفا .
(٢) شيب . وقد خلع كيرلس زميله نيسطور وحكم عليه بالاقامة في الواحة الكبرى .

(٣) ماسبرو : « تاريخ بطاركة الاسكندرية » .

Rouillard : L'Administration civile de l'Egypte byzantine. (٤)

(٥) Brehier : L'Eglise et l'Orient au Moyen Age . وهذا المؤلف يلاحظ أن انتشار المسيحية مكن للأثر الشرقي في الغرب حتى كان الشرق في القرنين الرابع والخامس مركز الاقتصاد والثقافة والدين والسياسة وكان التجار الشرقيون ينتشرون في ايطاليا وفرنسا وبريطانيا وقيمون في جاليات بروما ورفنا وليون وبوردو وباريس وأورليان والهند والصين ويحتكرون التجارة العالمية .

(٦) « وأهل مصر حينئذ مصريون واغريق في الغالب من ناحية الجنس ويعاقبة ومالكيون من ناحية الدين والاغريقي يصح ان يكون يعقوبيا كما أن المصري يصح أن يكون مالكيًا » . خطط المقرري .
والمعروف أن مذهب اليعاقبة كان المذهب الذي كان الاباطرة يضطهدونه وغالب المصريين يؤمنون به . ويقول بتلر ان العرب كانوا يدعون جميع اهل مصر قبطا ولا يفرقون قبل فتحهم لها بين مصريين واغريق . بتلر : « فتح العرب مصر » .

هذا الرحب • ومن المحقق الآن أن الفتوحات الاسلامية (١) كانت ، من الناحية الاجتماعية ، شكلا من الأشكال التي اتخذها فيض القوى البشرية التي تجمعت في الجزيرة العربية ، قبيل ظهور الاسلام ، على السهول المحيطة

(١) كان فتح العرب مصر من الأحداث التاريخية الغامضة التي تثير اهتمام الكتاب وتبعث الخلاف بينهم الى أن نشر بتلر كتابه « فتح العرب مصر » فبدد به بعض هذا الغموض ولكنه لم يوضح فيما نرى حقيقة الفتح ومداه توضيحا تاما .

وقد تصدى المستشرق الإيطالي كيثاني لنفس هذا الموضوع بعد بتلر وقام بجمع ما نشر بشأنه من قديم وحديث في الشرق والغرب وقام بتحليله بأقصى ما يستطيع كاتب عصرى من دقة علمية وانتهى من ذلك الى نتائج يصح أن يكون قد أخطأ بعضها الصواب ولكنها تنفرد بما أفلحت فيه من جعل هذا الفتح شيئا معقولا يستطيع أن يسيغه العقل البشرى في القرن العشرين .

والأستاذ كيثاني يقول ان حملة عمرو بن العاص على مصر بدأت في صورة غارة عادية من الغارات التي كانت القبائل العربية تشنها على حدود البلاد القائمة حول الجزيرة . وكان عمرو بن العاص يعرف مصر معرفة جيدة ويقدر وفرة خيراتها وضعف دفاعها حق التقدير فاطلق رجاله على « أم دنيان » أولا (قرية بالقرب من بابلون) وتركهم يغزون ما يريدون من الجهات القريبة اليهم مدة ستة أشهر لم تعترضهم حامية البلاد أثناءها بمعركة واحدة رغم افعال بعضهم حتى أسبوط ، ثم جمعهم وضم اليهم ما كان قد وجه في طلبه من الامدادات وهاجم هليوبوليس وبابلون من بعدها . وكانت مصر - الى جانب انقسامها الى يعاقبة ومالكين يبلغون بنزاعهم في ذلك الوقت بالذات أقصى غاياته حتى يضطر بطريرك اليعاقبة بنيامين الى الاستخفاء في الاديرة - تنقسم الى دوقيات خمس استقلت كل منها عن الأخرى بحكومتها وحاميتها (انظر في ذلك : J. Maspero :

Organisation militaire de l'Egypte byzantine) وقد ظلت هكذا وظلت كل من هذه الدوقيات تجهل ما تفعله الأخرى في سبيل الدفاع عن سلامة البلاد حتى دخل العرب الاسكندرية وبدأت مفاوضاتهم مع حكومتها . وكان تقدم العرب قد أدى بسكان الدلتا الى الاتصال بهم قبل أن يضعوا الحصار حول بابلون كل فيما يتعلق بمدينته أو قريته ثم جميعهم في وقت واحد بعمر بن العاص حين اتخذ الغزو شكل الحملة المنظمة . ويلاحظ هنا ما يتضح من تقصى الوثائق التي يأتى عليها كيثاني بشأن هذا الاتصال من الاختلاف بين ما كان يبغيه المفاوضون العرب وما كان يرمى اليه القبط والبيزنطيون من تفاوضهم ، وان كان هذا الاختلاف لا يعدو الشكل أو يؤثر في النهاية التي انتهت اليها الأمور . فقد كان العرب يريدون أول الأمر أن يستضيفهم القبط حينما من الزمن ، كما هي عادة البدو اذا نزلوا أرضا زراعية ، ويبدون ميلا ظاهرا الى الحصول على قيمة الضيافة نقدا بدلا من التمتع بها عينا ، بينما كان المفاوضون القبط يطلبون أن يمسك الغزاة عنهم اذى الحرب نظير التمتع بما كانت تتمتع به حكومة القسطنطينية من حق الحصول على نصيب معين من خراج البلاد . أما البيزنطيون فكانوا

بهذه الجزيرة في وقت كانت هذه السهول تعاني فيه فقرا في الرجال . وكانت مصر على وجه الخصوص تسير منذ القرن الثالث الميلادي الى خراب اجتماعي رهيب . كانت تفرع الى الصحراء وتغلق دونها أبواب الأديرة وتنتحر هربا من الاضطهاد الديني وفوضى الحكم والأزمات المالية

يعرضون الالتزام بدفع جزية معينة ، وهو أمر كانت الامبراطورية الرومانية اعتادت عرضه وقبوله في الغرب والشرق ، حين كانت قبائل البربر تهاجم حدودها العارية وكانت تفعل ذلك في ذلك الوقت بالذات مع بدو الحدود المصرية نظير دفاعهم عنها .

وقد أعقب هذا الاتفاق الاول بين العرب واليعاقبة اتفاق ثان عقده عمرو مع المقوقس بشأن بابلون حين قرزت حاميتها التسليم . والمؤرخون يختلفون في شخصية المقوقس هذا فبعضهم يقول انه كان كبير جبة الضرائب في البلاد وأغرته الحرب التي قامت حينئذ بين البيزنطيين والفرس فكف عن ارسال الخراج الى القسطنطينية، ولكن المراجع القديمة تكاد تجمع على انه كان قبطيا يعقوبيا متخفيا وانه كان يرى أنه خدم الدين خدمة جليلة باتفاقه مع عمرو حتى أبدى ، آخر أيامه ، الرغبة في أن يدفن في كنيسة يوحنا بالاسكندرية .

وأخيرا حاصر عمرو الاسكندرية واستولى عليها بعد أن أبرم مع بطريك المالكيين ثالث المعاهدات التي عقدها في مصر وأعمها أثرا إذ كانت هذه المعاهدة تنظم علاقة الفاتحين بجميع سكان البلاد ولا تقتصر على طائفة دون طائفة أو ناحية دون ناحية . وقد اتهمت بيزنطة هذا البطريك بعد ذلك بأنه مالا العرب الا أن غالب المصادر البيزنطية تميل الى القول بأنه أراد التخلص من خطرهم بدفع ما اعتادته الحكومة البيزنطية من اتاوة يقصر امدها أو يطول .

ويلاحظ أن تقدم العرب في مصر صحبته كثير من مظاهر الانتقال والانتقام والتنكيل بين الشيع الدينية المختلفة فثار أهل بعض مدن الدلتا عند ظهور العرب وسطا القبط على حاميات مدنهم أو قراهم حين هاجموها وانقسمت قوات مصر السفلى جميعها قسمين قسم يرأسه تيودورو مالا العرب وأعانهم وقسم عاداهم وقاتل هذا القسم الاول . كذلك كان حاكم البلاد العام دومنتياتوس ينافس قائد حامياتها مينا ، وهو الذي فر بعد ذلك أمام العرب ، ويحقد عليه ، وكان قواد الجند ينافس بعضهم بعضا ويستأثر كل منهم بجنده ، وكان كبار الكنيسة والجيش يجذبون الاتفاق مع العرب سخطا على المكائد التي كانت تجري حينئذ في القسطنطينية حول العرش . ونحن نريد أن نلاحظ مرة أخرى ما كان قد انحدر اليه أبناء مصر حينئذ من فقد للشعور بمصريتهم يبدو بشكل واضح في كتابة القس يوسف تقيو ، وهو المؤرخ القبطي الوحيد الذي أرخ الحملة العربية بعد حدوثها بسنوات . فهذا القس يدعو أهل بلاده رعايا الامبراطورية البيزنطية الأماناء ويعد سكان الامبراطورية جميعا أغريبا ويسمى هرم الفيوم «الحجرة» ويرجع انهزام الروم أمام العرب الى سابق تنكيلهم بالقبط ولا يبدي في تأملاته شعورا مصرية ما . Leone Caetani : Annali dell'Islam (ليون كيثاني : « حوليات الاسلام ») الجزء الرابع .

المتوالية^(١) . وكان انقباضها هذا يحدث داخلها فراغا اجتماعيا نلمس بعض آثاره في غارات قبائل الرحل التي وقف لها القديس شنودة^(٢) وغزوات النوبة التي اشترط المقوقس على عمرو بن العاص حماية مصر من خطرها وكرات البدو على الصعيد^(٣) .

وقد أقبلت القبائل العربية على مصر عقب الفتح في موجات متوالية فقدمها في العهد الأموي ١٢ قبيلة من قريش وقيس وجهينة والأزد وحمير وغلهم^(٤) ، وهبطتها في العهد الفاطمي قبائل أخرى من عرب الشام وأفريقيا الشمالية وبنى سليم وبنى هلال وخزام ، عدا قبائل كتامة وزويلة والبربر التي صحبت جوهر الصقلي والمعز^(٥) . وكانت هذه القبائل ، خصوصا ما استجلبه منها الولاة لتعزيز سلطانهم^(٦) أو اخضاع الانتقاضات المسيحية التي ظلت تترى حتى نهاية القرن الرابع عشر^(٧) واستثمار الأراضي المهجورة التي كانت توجد بوفرة عند دخول عمرو ، تستقر في الوجه البحري وتتسرب منه الى حيث تستطيع . وقد استأثر بعضها بالحوف الشرقي واستولى على القرى الواقعة بالشاطيء الغربي للنيل وانصرف الى الزراعة ولاسيما زراعة القصب التي اشتهرت مصر بها حينئذ^(٨) ، بينما انتشرت القبائل الأخرى بسائر الأقاليم^(٩) ولم تقطع صلتها بقبائل الجزيرة والشام وأفريقيا الشمالية^(١٠) بل كانت تدعو من يريد منها الى اللحاق بها وتتناسل بالكثرة

(١) أميلينو : « حياة شنودة » . بتلر : « فتح العرب مصر » . بتشر : « الكنيسة القبطية » . ويقول ديهيل ان عدد الرهبان في مصر في العهد البيزنطي كان لا يقل عن ١٠٠ ألف . « مصر المسيحية والبيزنطية » .

(٢) أميلينو : المرجع السابق .

(٣) كثيتاني : المرجع السابق .

(٤) لطفى السيد : « القبائل العربية في مصر » .

(٥) الثقافة : العددان ٣٣٣ و ٣٣٤ .

(٦) خطط المقریزی .

(٧) بتشر : المرجع السابق .

(٨) لطفى السيد : « القبائل العربية في مصر » .

(٩) يأتي لطفى السيد على طريقة توزيع هذه القبائل بين المديریات فيقول ان قبائل العليقات والجعافرة والكنوز استقرت بين قوص والسودان بينما استقرت قبائل الهوارة وجهينة والعبادة بين قوص وأسيوط وقبائل الجوازي والغوايا وأولاد علي بين أسيوط والسوم وأقامت قبائل الحويطات والسناري والنبعات بين أسيوط والعريش

(١٠) المقریزی : « الخطط » .

التي تعهد بين البدو ، بينما كان أهل البلاد الأصليون يشورون المرة تلو المرة فيسبون أو يقتلون^(١) أو يدخلون الاسلام فيصيرون عربا في الروح والتفكير والتقاليد^(٢) ويقل عدد الباقي منهم على كل حال حتى يصيروا أقلية لا تكاد تذكر .

وقد لحق بهذين العاملين في نهاية العهد الفاطمي وعهد المماليك وبنى عثمان عامل ثالث لا يقل عنهما أثرا وهو ما كان يعقب اضطراب أمور الدولة وقتئذ من خلل في توزيع المياه كان ينتهي بالفلاحين الى ترك أراضيهم ليهبطوا المدن أو ينصرفوا للسلب والنهب أو يلحقوا ببدو الصحراء فتتسع مساحة الأراضي التي لا تزرع ويجد هؤلاء البدو المجال الذي يحتاجون اليه لرعى قطعانهم أو مزاوله الزراعة الهينة التي يحسنونها وينمو بذلك مجتمعهم على حساب المجتمع المدني المصري . وهكذا كانت الموجة العربية تتسع وتعلو بفعل قوتها التناسلية الذاتية وما يلحق بها من امدادات قبائل الصحراوات المحيطة بمصر على مر القرون ، ثم اتساع الأراضي الصحراوية على حساب الأراضي الزراعية في العصرين المملوكي والعثماني حتى أصبحت في هذين العصرين قوة اجتماعية يحسب حسابها وتشغل مركزا خاصا ظلت تتمتع به حتى القرن الثامن عشر .

وعرب مصر هؤلاء هم الذين أهاجوا الحجاز على عثمان بن عفان حتى قتل^(٣) وقتلوا أعمال بني أمية قتالا مريرا^(٤) وأقاموا بالصعيد ، آخر أيامهم ، خلافة مستقلة^(٥) وحاربوا أعمال هرون الرشيد وغلبوهم واضطروا المأمون الى المجيء بنفسه الى مصر لقمع فتنهم^(٦) وأقاموا بمنفلوط سنة ١٣٠٠ حكومة مستقلة بسطت سلطانها على الصعيد وفرضت الضرائب على أهله وأنشأت جيشا لا يقل عن جيش الدولة نظاما واستعدادا^(٧) وظلوا بعد ذلك الخطر الدائم الذي أقض مضجع الدولة المملوكية حتى دالت . وليس بين

(١) المقرئزي والكندى . وقد وقعت أهم حملات التأديب للقائمين بهذه الانتقاضات تحت هشام بن عبد الملك والمأمون والحاكم وقلاوون وسلاطين بني عثمان .

(٢) كان أبو مريم قبطيا أسلم وصار شيخ بني طبيان . بتلر : « فتح العرب مصر » .

(٣) ابن قتيبة : « تاريخ الخلفاء الراشدين » .

(٤) خطط المقرئزي .

(٥) لطفى السيد : المرجع السابق .

(٦) خطط المقرئزي .

(٧) لطفى السيد : المرجع السابق .

مؤرخى ذلك العصر من يذكر نزاعا بين الأمراء المماليك فى مدينة القاهرة أو انتقالا للحكم من يد الى يد أو هزيمة عسكرية تصيب الحكومة القائمة الا وذكر الى جانب ذلك ثورة للعرب فى مكان ما من مصر أو سطوة لهم على قرى البحيرة أو الشرقية أو الصعيد أو منطقة القاهرة أحيانا . ومعروف أن المماليك والعثمانيين انتهوا الى الاستعانة بالعرب فى حروبهم الخارجية والداخلية رغم تخوفهم من شرهم .

وآثار الفتح العربى لمصر تغنينا بعدد عما قد يقتضيه التقصى العلمى من اطالة فى هذا الصدد . فنحن ما نكاد نبلغ القرن الثامن ونلقى أول مصرى كتب عن مصر بعد الفتح وهو ابن عبد الحكم حتى نجدنا أمام مجتمع عربى بارز المعالم مثل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصرة . فأهل هذا المجتمع عرب وتفكيرهم عربى وتقاليدهم عربية وليس فى عروبة من ليس بينهم من أصل عربى كابن عبد الحكم نفسه أى تكلف أوزيف . ومصر ابن عبد الحكم ذاتها مصر سامية عربية منذ أن كانت الخليفة وليس فى تاريخها الطويل ما يستحق أن يذكر سوى قصص ابراهيم واسماعيل وموسى ويوسف ومريم القبطية واىثار النبى القبط وبغض الله كفر المصريين الأولين . وهذا هو رأى معاصرى ابن عبد الحكم المسلمين جميعا من علماء وغير علماء وظل الى حد بعيد رأى من كتب بعدهم حتى الجبرتى لأنهم ربوا عليه وربى عليه كل من نشأ فى مصر من أصل عربى أو مصرى ما دام مسلما .

والمصريون من أبناء هذا المجتمع الجديد حتى من دخل منهم الاسلام بالأمس ينتسبون لأصل عربى ويسمون أنفسهم ابن عبد الحكم وشمس الدين وبهاء الدين زهير وتقى الدين المقرئى . وهم لا يعون أنهم أصحاب قومية خاصة وان شعروا بشىء فانما يشعرون أنهم من أصل مسيحى وهو بعد الشعور الوحيد الذى كانت كنيسة الأسكندرية وما زالت تشعر به فى قيامها على هامش هذا العالم الغرب عنها الجديد عليها لاسلامه ومسيحياتها لا لعروبتة ومصريتها . ومجتمعات ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون والمقرئى قد تختلف عن مجتمع ابن عبد الحكم والكندى والقضاعى من حيث تعدد الأجناس التى تختلط داخلها ولكنها لا تختلف عنها فى الطابع العربى الذى تتسم به . والمجتمع المصرى ما زال بعد مجتمعا عربى الأفق والروح والتفكير وهامهم أولاء نوابغ

كتابه ، وغالبهم ممن اشتركوا في قيادة الحركة القومية ، كالعقاد وهيكل و طه حسين ، يكتبون « الصديق أبو بكر » و « عبقرية على » و « على هامش السيرة » ، بل ان من يقرأ « قبائل العرب في مصر » للطفى السيد ، وهو من أنبغ من أنجبت مصر وأكثر من سعى لخير أبنائها ، يلمس فيه نبرة عربية بارزة (١) .

والعلة في هذا التحول الذي لا يفوقه تحول آخر في تاريخ البشرية جميعا على ما نعلم — الى جانب سعة الموجة العربية التي صحبتها وطول أمد عملها — هي طبيعة المجتمع الذي أنشأته هذه الموجة فقد كان كالمجتمع المسيحى الذى تقدمه ، مجتمعا دينيا يقوم على العقيدة ولا يعرف الحدود الاقليمية أو الجنسية . وقد كانوا يقولون عادة فلان القاهرى المولد الدمشقى الاقامة البغدادى الوفاة ولا يقولون فلان المصرى أو العراقى أو الشامى لأنهم فى الحالة الأولى يشيرون الى أمر محسوس يصح أن يفيد فى وضع صاحبه الوضع الصحيح من جيله أو بيئته أما فى الحالة الثانية فلا يقولون شيئا البتة . كذلك كانوا يجمعون بين الأبيض

(١) ونحن نقرا فى مقال للدكتور عبد الوهاب عزام فى العدد ٢٣٥ من مجلة الثقافة عن « أثر الثقافة العربية فى الثقافة المصرية الحديثة » :

« الادب الذى نقرأه وندرسه ونحفظه ونعتز به ونمتع به نفوسنا وننشئ به أولادنا ونربى به العاطفة والخيال والخلق والذى نتخذ مكارمه مثلا ومثالبه سبة والذى نانس به ونسكن اليه ونتفجع بجده ونلهو بهزله ، الادب الذى نعرف منشأه والذى نتمثل به فى سرائنا وضرائنا ونضرب أمثاله ونحكيه ونحتديه وكأننا نعيش أشخاصه ونشهد وقائعه هو الادب العربى لا محالة . »

لا تزال حوادث الادب العربى فى الجاهلية والاسلام موضع عنايتنا نتعرفها ونشيد بها وما يزال شعر زهير وعنترة ولبيد وأوس والحطيئة وجرير والفرزدق والاخلط وذى الرمة والقمين والطرناح وابن أبى ربيعة وبشار وأبى النواس وابن الوليد وأبى تمام والبحترى والمصرى والرضى والابيو ردى والارجانى وابن هانئ وابن عمار وابن خفاجة وابن حمديس ومن عاصرهم ولحق بهم من الشعراء لا يزال شعرهم غذاء المتأدب ومهجة الأديب فى مصر ومعينا للشعراء لا يفيض وما يزال الجاحظ والبديع والخوارزمى وأبو حيان التوحيدي والصابى وابن الأثير وابن زيدون وابن شهيد وابن خلدون مثلا ومادة ومتمعة للمتأدبين من كتابنا ولا يزال المصريون يطمحون الى المثل العالية والاخلاق الكريمة التى شاد بها الادب العربى ، لا تزال الشجاعة والاقدام والعزة والاباء والوفاء والسخاء تستمد من شعر الجاهليين والاسلاميين من الشعر الحماسى الذى فاض فى الاجيال العربية فيضا من العنترة الى المتنبنى وأبى فراس الى البارودى وشوقى . »

والأسود والأصفر في العائلة الواحدة فيكون للبيض زوجات سود وأبناء سود ويكون للسود زوجات بيض وأبناء بيض ويحدث هذا بكثرة وبين الأثرياء والفقراء على السواء .

وقد ينقسم المسلمون بعد ذلك فيما بينهم ، تبع ميولهم وأمزجتهم ومصالحهم ، خصوصا حين بعد ما بين أطراف الأمة الاسلامية ، فيكونون مالكيين وحنفيين وشافعيين وأشيعة وسننيين أو اسماعيلية وقرامطة . ويتلى مجتمعهم أيضا بالعصبيات فيعرف العصبية العربية والفارسية والتركية . وتختلف وجهاته الفكرية فينفرد أهل العراق بوجهة غير وجهة أهل مصر وأهل الشام . وتتعدد دوله فتقوم دول العباسيين والفاطميين وأموى الأندلس في زمن واحد ولا يقضى ذلك على وحدتهم . وقد كانت عصبيات الاسلام مرضا يظهر ويسكن وينتهي الى الاختفاء حين تتوافر له أسباب الاختفاء : يظهر كلما دخل الاسلام جنس جديد لما يعمل فيه عمله فيبدل تفكيره ويمزجه بغيره ويسمه بميسمه . وهو يعمل حينئذ في ميدان النزاع على الحكم حيث تغلب النزعات الدنيوية أو ميدان الجدل الأدبي الذي يتصل بهذا النزاع ، ولكنه لا يعنى نفسه وينتج انتاجا ايجابيا في الميدان الدينى أى الميدان الاسلامى الحقيقى لأن الانتاج فى هذا الميدان يقتضى أن يسبقه تمثل العقيدة التى تتكون منها تربته وهى عقيدة تنكر العصبيات . وكلما واصل الاسلام عمله فى جنس من الأجناس كلما خفت عصبيته وتحللت ولم تبق منها سوى عناصرها الأولى ، عناصرها الطبيعية التى يمثلها مناخه وأرضه وماءؤه والتى تلازم الأمم حتى تنقرض وتلازم من ينزل عليها أو يحل محلها ان تمكنت منه . والعصبية فى هذه الحالة ، ان صح تسميتها بهذا الاسم ، لا تتعارض والوحدة الدينية حتى لو تبلورت فى وضع فكرى وأصبحت مذهباً كالمالكية والحنفية أو السنية والشيعة . ثم انها قابلة لفقد الشعور بنفسها والتوارى ، اذا لقح أهلها بدم جديد ، كما حدث للمصريين الذين أسلموا فهم لم يعرفوا غير العصبية الاسلامية ، ان سمح لنا بهذا التعبير ، التى كانت تدفع بهم الى محاربة خصوم الاسلام حتى حين كانوا أقباطاً أى مصريين . ونحن نقرأ كتب تغرى بردى المملوكى الدم وابن اياس التركى الأصل والجبرتى الحبشى الجنس ولا نجد لدى واحد منهم صدى ولو بعيد لعصبية جنسية واعية .

والذى يدرس التراث الثقافى الاسلامى اليوم يستطيع أن يميز فيه التفكير المصرى من التفكير العراقى والتفكير الشامى ، تقصد تفكير أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام ، لأن طبيعة أولئك غير طبيعة هؤلاء ولكنه لا يستطيع بالغا ما بلغ جهده أن يرتفع بهذا الاختلاف فى التفكير الى قومية مصرية أو عراقية أو شامية واعية . كذلك لا يستطيع الباحث أن يعود بتعدد الدول الاسلامية الى مثل هذا الوعى . وقد كانت هذه الدول تدعى الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية لأن الذين أقاموها كانوا من بنى أمية أو العباس أو فاطمة أى أبناء أشخاص بعينهم ، قد يمثلون أو لا يمثلون فكرة بعينها وقد يستندون أو لا يستندون الى عصبية صحيحة ولكنهم لم يمثلوا قط تمثيلا واعيا فكرة قومية ما . وأن لم يكن الأمر كذلك فما معنى أن يكون معاوية بن أبى سفيان من أشرف مكة ولا يشعر بوازع الى اقامة مقر حكمه فى هذه المدينة ؟ واذا كانت الظروف التى صحبت قيام خلافة الأمويين هى التى دفعت بها الى ذلك فلم أقام بنو العباس ملكهم فى بغداد وهم من عرب الجزيرة أيضا ؟ ولم استعانوا بالفرس على العرب ؟ ولم فكروا فى نقل مقر حكمهم الى سرمن رأى أو أية مدينة أخرى دون ديارهم العربية ؟ وكان الفاطميون عربا طافوا الأقطار وأقاموا لنفسهم ملكا فى أفريقيا الشمالية دون أن تأتف قبائلها الأبية من الائتثار بأمرهم ولكنهم مداخلوا مصر حتى تركوا مقر حكمهم ذلك وأقاموا بها وهى ليست بلادهم ولعلمهم كانوا تاركها لو أفلحوا فى نزاعهم مع العباسيين .

وأقبلت الموجة التركية بعد ذلك فغيرت من نظم الشعوب الاسلامية واتجاهاتها ولكنها لم تغير شيئا من تركيبها هذا فكان الممالك يأتون من القوقاز ومن الأصقاع الآسيوية الأخرى ويزاولون الحكم فى مصر وآسيا الصغرى جميعا ولا يخطر لواحد منهم أن ينقل هذا الحكم الى وطنه الأصلى أو يخضعه له .

وقد كان العرب يعيشون قبل الاسلام قبائل رحلا تنزل حيث يحلو لها النزول ولا تعرف رابطة اجتماعية غير رابطة القبيلة فأتى الاسلام وقضى على هذه الرابطة وأحل محلها رابطة الأمة الاسلامية . ولما كانت الأمة الاسلامية تعيش فى مملكة الله وكان الله يملك الأرض ومن عليها ويخضعها

لمشيئته الأزلية الشاملة فالأصل فيها أن تكون لها دولة واحدة . ومن ثم كان تنازع الأمويين والعباسيين والفاطميين وادعاء كل فريق منهم حق الولاية على المسلمين دون الفريق الآخر . وكان أيضا عدم اختلاف التشريع والقضاء بين البلاد الإسلامية الى حد بعيد جدا والى عهد قريب جدا . وهكذا كان مسلم مصر الذى يذهب الى بغداد ومسلم الهند الذى يقدم مصر ومسلم العراق الذى يرحل الى الجزائر يخضع لنفس القانون ويظهر أمام نفس القضاء ولا يكاد يقوم بينه وبين أهل البلاد الأصليين فارق قانونى يذكر . هكذا كان ما بين شاطئ البحر المتوسط والمحيط الهندى وحدود الصين مثل وعاء واحد ضخيم ، تختلط داخله الأجناس^(١) والأفكار والتقاليد ، ويحتل كل جنس منه الطبقة التى تلائم الدور الاجتماعى الذى يجتازه الى أن تذوب جميعا ، ما استطاعت ، فى الوحدة الجديدة التى جمعت بين شتاتها ، فيحتل أصلحهم لحمل السلاح ، وهم عادة أقربهم عهدا بالبداءة وحياتها الخشنة ، مراكز الدفاع ، وكانوا فى أول الأمر عربا فصاروا أكرادا وزنجا ومغاربة وتركا وديلما . ويحتل أقدمها عهدا بالنظم الحكومية مراكز الادارة فيكونون فرسا لدى العباسيين ومصريين لدى الفاطميين والأيوبيين والمماليك ويكون السوريون تجارا وصناعا وقضاة الخ ...

وحكم هذا المجتمع ينتقل بالتالى من اليد التى تضعف الى اليد القوية التى تستطيع النهوض به دون أن يتنازع عليه غير متبادليه ودون أن يتعدى النزاع عليه القدر الذى يستتبعه فقداه أو الوصول اليه من حرمان أو متعة شخصية مباشرة . وقد سلمه العرب فى مصر الى المغاربة والمغاربة الى الأكراد والأكراد الى المماليك والمماليك الى بنى عثمان دون أن يعنى به غير متداوليه من أهل المجتمع الا فى حدود ما يصيبهم من أذى ، ان مس مدنهم شئ من شر القتال ، ودون أن يؤثر فيهم تغير الحكم ، فيما عدا ما قد تقتضيه الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية العامة التى كانت تثير هذا التغير فى بعض الأحوال . وقد كان الدين واطأوا

(١) ابن بطوطة يقابل فى الاسكندرية زاهدا يدعى برهان الدين الاعرج فيرجوه أن يبلغ سلامه الى أخيه فريد الدين المقيم بالهند وأخيه ركن الدين المقيم بالسند وأخيه برهان الدين المقيم بالصين . ابن بطوطة .

الفاطميين ومهدوا لدخولهم مصر عربا لامصريين • بل يخبرنا المقرئى (١) أن أهل تينس ، وكان غالبهم قبطا ، قاتلوا جند المعز فى هذه المدينة قتالا شديدا لأسباب تتصل بسلامة تجارتهم وصناعتهم • كذلك كان أهل الدولة الفاطمية هم الذين دعوا الأيوبيين الى اسقاط هذه الدولة بعد أن عجزت عن الوقوف فى وجه الكفار • وكان الأيوبيون بالذات هم الذين أنشأوا فرق الممالك ومهدوا لهم الحكم وكان الممالك هم الذين واطأوا بنى عثمان وانهزموا لهم وتعاونوا معهم فى الحكم حتى جفت عروق الدولة العثمانية •

وكل دولة من هذه الدول حمّ قضاؤها تتلفت حولها طالبة النجدة فلا تجدها فى غير أعضاء العائلة التى تحكمها وأتباعها المباشرين لأنها لم تكن قط الا حكومة شخصية ، حكومة عائلة بعينها • وقد رأينا كيف كانت القبائل العربية ، وهى وقتئذ جزء هام من المجتمع ، تنتهز كل ضائقة كى تشور وتسطو بالحكام القائمين • ونحن نعلم من ابن اياس أن السلطان طومان باى طلب الى المغاربة أن ينضموا الى جيشه فى محاربة بنى عثمان فقالوا له انهم لا يحاربون الا النصارى (٢) وكان هذا المنطق هو منطق الجميع حتى السلاطين • كذلك تقرأ مؤرخى ذلك العصر كابن اياس نفسه والمقرئى وتغرى بردى والجبرتى بعد ذلك فلا نجد تحت ما يبعثه سقوط الدول والسلاطين فى نفوسهم سوى الاشفاق على مصالح الناس أو عزة الاسلام أو خراب الدولة أو تدهور الحضارة أيضا (٣) أو كل شيء

(١) خطط المقرئى •

(٢) « وفى يوم الاثنين تاسع عشرة جلس السلطان على الدكة فى الحوش وطلع الجم الكثير من المغاربة فلما طلعوا الى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان وأرسل اليهم الأمير شاديك الأعور فقال لهم السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة فارسوا يقولون للسلطان نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل الا الافرنج وما نقاتل مسلمين » • تاريخ ابن اياس •

(٣) « وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لاحد ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما ولم يفصل بين ظالم ومظلوم بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق • وكان هذا على غير قياس فانه كان اشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه الى مصر فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا مشى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة • ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزرائه ولا أمراؤه ولا عسكره بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأستاذ » • تاريخ ابن اياس •

سوى الشعور بكرامة وطنية ديست أو عزة قومية جرح^(١) .
وقد كان من شأن هذا الوضع الذى اتخذته المجتمع الاسلامى وقتئذ
أن ما انهارت الخلافة العباسية وأنشأ الخطر المغولى يهدد آسيا الصغرى
بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر حتى صارت مصر ملاذ المسلمين
من جميع الأجناس . ونحن نعلم أن الصليبيين ما كادوا يهددون مصر فى القرن
الحادى عشر حتى ثار أهلها على الفاطميين واتصلوا ببغداد ومهدوا السبيل
لقيام حكم صلاح الدين . ونعلم أن صلاح الدين قدم مصر ومعه قوات
كبيرة من الأكراد وإن أولاده استعانوا بعده بالأتراك والشعوب التى كان
المغل يسوقونها أمامهم . وقد جعلت القطعان البشرية التى كانت تتناثر من
تطاحن هؤلاء المغل تقبل ، خلف أولئك الفارين ، فى موجات متوالية ، كفى
من هبط منها القاهرة وحدها ، بعد سقوط بغداد ، لتعمير ما كانت مجاعات
العهدين الفاطمى والأيوبرى خربته من أحيائها ، وبلغ من قدم منهم ، تحت
كتبغا ، عشرة آلاف عائلة على رأسها تاعز زوج بنت هولوكو ، واتصل اقبالهم
هذا على مصر حتى صاروا العنصر الغالب فى جيوشها^(٢) وظلوا كذلك
الى أن هبط الفرنسيون مصر فى القرن الثامن عشر بفضل من كان يجلبه
الحكام اليها منهم لهذا الغرض .

وكان هؤلاء النازحون يتلاقون ويختلطون ويتعاونون فى مجتمع
واحد يجمع بينهم بروحه الدينية وينشئ منهم دولة واحدة تنعكس على
سطحها ملامحهم الغريبة المختلفة : دولة يلقب رئيسها ، منذ بيبرس حتى

(١) وقد تنبه أخيرا بعض مؤرخى الماليك المحدثين الى هذه الظاهرة
والى أثرها فى تاريخ مصر وقتئذ . انظر « التصوف فى مصر ابان العصر
العثمانى » لتوفيق الطويل و « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين
الايوبرى والمملوكى ، لعبد اللطيف حمزة .

(٢) وهكذا تكون مصر قد تعرضت منذ نهاية العهد الفرعونى الى ثلاث
هجرات ضخمة : الهجرة الاغريقية والهجرة العربية ثم الهجرة المغولية
بمشتقاتها الكردية والشركسية والتركية . وقد اختلفت كل من هذه الموجات
الثلاث عن الأخرى من نواح متعددة أهمها فيما يتعلق ببحثنا الحالى هى الوسيلة
التي تم بها تأثيرها فى المجتمع المصرى . فقد كانت هذه الوسيلة لدى الأغارقة
هى الأشكال الاقتصادية الجديدة والثقافة وكانت لدى العرب الوحدة
فى الدين واللغة وكانت لدى المغل الجيش .

الغورى ، ب « سلطان الاسلام والمسلمين وارث الملك وسلطان العجم والترك اسكندر الزمان صاحب القبلتين خدام الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين » لا سلطان مصر ، وتمتد حدودها الى أرمنيا القصية ، وتجمع بين المصريين وغير المصريين من أعرب ومغل وأتراك وأكراد ، وتقوم على نظم لم تعرفها مصر في عصر من عصور حياتها الطويلة قط . وقضى بنو عثمان على هذه الدولة في القرن السادس عشر فتم بذلك لآسيا الوسطى الظهور على شعوب هذا الجانب من البحر المتوسط في الحرب المريرة التي دامت بين الطرفين منذ ظهور الخطر المغولي ، وبلغت شعوب هذه القارة السحيفة ما لم تكف طوال ذلك الزمن عن محاولته من اقامة حكم ثابت تديره على طريقتهما وبرجالها ولنفسها ، وهو حكم كان الناس يتكلمون الى آخر أيامه التركية لا العربية ، كما كانوا يفعلون في القاهرة في أشد أيامها تعرضا للموجات المغولية ، ويكتبون بالتركية لا العربية كما كانوا يفعلون تحت المماليك ، ويتجهون في حياتهم العامة والخاصة اتجاهات أسيوية بارزة .

* * *

وهكذا تغيرت مصر تغيرا عميقا شاملا بعد الفتح العربى عما كانت عليه من قبله فصار أبناؤها يفكرون بالعربية بعد أن كانوا يفكرون بال « هيروغلفية » أو الاغريقية ويشعرون شعورا اسلاميا لا « فرعونيا » أو مسيحيا ويتنفسون في جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون في جو البحر المتوسط .

ونحن نعلم أن هناك من يحتجون بأن الموجة العربية لم تعد في مصر قط حدا معيناً من الارتفاع ولم تؤثر بالتالى في كيان المصريين وعلى رأس القائلين بهذا الرأى ماسيرو^(١) . ولكننا نخالف هؤلاء بما أوردنا من وقائع لا ريب فيها ونخطئهم بما فى الضمير المصرى من وعى عربى مبين . والعبرة بعد فيما يتعلق ببحثنا هذا هو اللون الفكرى والشعورى قبل كل شىء ولا شك البتة أن هذا اللون عربى حتى اليوم .

Maspero : Les égyptiens. (١)

كذلك نعلم ان هناك من يقول بأن المصريين لم يتغيروا قط وان الذى تغير وتمصر هو من هبط عليهم من الخارج وبين هؤلاء الدكتور طه حسين • ونحن نتفق وهؤلاء ان كان ما يقصدون اليه هو أن من قدم مصر من الشعوب المختلفة تأثر بفعل شمسها ونيلها وماضيها كما يتأثر الأعراب فى كل بلد يهبطونه ، ان اختلف مناخه عن مناخ بلادهم وكانت له حضارة تختلف عن حضارتهم وتفضلها ، ولكننا نخالفهم فيه ان كان ما يقصدونه هو أن المصريين لم يتغيروا ماديا ومعنويا قط ولم يبلغ تغيرهم هذا حد الذهاب بكثير من معالم حضارتهم وشعورهم بوحدتهم كأمة ، وان لم يقض على مقومات هذه الوحدة لأنها مقومات طبيعية وهى بذلك أزلية لا تتحول •

obeikandi.com

حكم المغسل

هبت أعاصير الحرب على العالم الاسلامى ، منتهى القرن الحادى عشر ، وظلت تعنف به عنفا يكاد يكون متصلا حتى مطلع القرن الخامس عشر . وقد بدأت هذه الحرب بهبوط الصليبيين الشام فى سنة ١٠٩٧ وبانغت ذروتها بانقراض المفل على آسيا الصغرى فى صدر القرن الثالث عشر ثم مالت الى الهدوء فى القرن الذى يليه لتندلع من جديد ، أول القرن الخامس عشر ، اذ عاود المفل غاراتهم الرهيبة على الشام وظلوا يهددونهم حتى ظهور الخطر العثمانى ، وهو نفس الخطر الذى استطاع بعد ذلك أن يبطش بمصر أيضا وأن يهدد القارة الأوروبية تهديدا متواليا حتى نهاية القرن السابع عشر .

ولم تكن هذه الحرب من الحروب العادية التى تواترت على الشرق والغرب ، بين سقوط الدول القديمة وظهور الدول الحديثة ، بين مدينة ومدينة أو أمير وأمير أو ما ندعوه بالسلطة الزمنية والسلطة الروحية . كانت حربا ضروسا من الحروب التى يضررها اضطراع العناصر الاجتماعية من حين الى حين فتتقضى نسج التاريخ وتقيم من الدماء حضارات جديدة ، كهجرة الآريين الى الغرب فى فجر التاريخ وغزوات القبائل الجرمانية لجنوب أوروبا فى القرن الخامس والفتوح العربية فى القرن السابع . فكان الصليبيون هم أوروبا الخارجة من ليل الغزوات الجرمانية الى فجر النهضة بعد أن امتزج بها الغزاة بالمغزيين فى مجتمع جديد واحد وبلغوا من الشدة ما قدرهم على دحر الترك السلاجقة والوقوف فى وجه صلاح الدين ومقارعة المماليك قرنين متوالين ، أقاموا ، أثناءهما ، فى قلب سوريا وفلسطين ، امارات ثلاثا ومملكة قوية ، كانت تمتد من بيروت الى العريش وتشرف على مواصلات مصر بالشرق ، وجعلوا يشنون على الممالك الاسلامية الواقعة فى نطاقهم ، الغارة تلو الغارة ، فى غير هوادة أو كلل ، بما لديهم من الجيوش المرابطة فى الأراضى التى أخذوها أو ما كانت توفدها اليهم ديارهم منها فى موجات متوالية ، كانت تتحول أحيانا الى الحملات الضخمة التى يدعوها المؤرخون بالحملات الصليبية . وهى الحملات التى امتدت من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١١٠١ ومن سنة ١١٤٧ الى سنة ١١٤٩ ومن سنة ١١٤٩ الى سنة ١١٩٢

ومن سنة ١١٩٤ الى سنة ١١٩٧ ومن سنة ١٢١٧ الى سنة ١٢٢١ ومن سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٤٧ ومن سنة ١٢٤٧ الى سنة ١٢٥٤ ومن سنة ١٢٦٣ الى سنة ١٢٩١ (١) . وهذه هي تواريخ المواقع الرئيسية لا تواريخ المواقع جميعا فقد كانت هذه لا تقتر الا ريشما يعيد المتحاربون تنظيم صفوفهم وينزلون الى الميدان من جديد .

وكان الصليبيون يشتركون في هذه الحرب بجيوش ضخمة يشبه المؤرخون الغربيون كثرتها بغزارة رمال البحر ونجوم السماء (٢) . فاشتركوا في الحملة الأولى بـ ٦٠٠ ألف رجل من خير مقاتلة ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، لحق بهم بعد سقوط القدس ٣٠٠ ألف مقاتل آخرون وعدد لا حصر له من المتطوعة الذين كانوا يخفون جماعات الى جبهات القتال ، واشتركوا في الحملة الثانية بثلاثة جيوش تبلغ عدتها مليون راجل و ١٢٠ ألف فارس ، واشتركوا في الحملة الثالثة بـ ٦٠٠ ألف مقاتل . وكان يقودهم في الغالب ملوك عظام مثل كراد وفرديريك الأول وفرديريك الثاني امبراطرة ألمانيا وريشار قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أوجست ولويس السابع ولويس التاسع ملوك فرنسا ، ورجال أشداء ينتسب غالبهم الى أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا وقتئذ كجوفريدي بوليون وريموند كونت تولوز وتنكريدي ، ومن ورائهم الكنيسة الكاثوليكية بوسائلها التي لا تنضب والجمهوريات الإيطالية برائها العريض وبحريتها التي لا تضارعها بحرية ثانية .

وبينما كانت أوروبا الجديدة تغزو العالم الاسلامي على هذا الوجه ، كانت حمم البركان البشري الذي انفجر في قلب آسيا ، ابان القرن الثالث عشر ، عن تنكيزخان وجحافل ، تقبل بدوي قاصف في سيول وفيرة من الأسرى واللاجئين ، وتطغى على الشعوب الاسلامية التي تلقاها في طريقها . وثورة تنكيزخان من الظواهر التاريخية التي لا تزال نجهل سرها حتى اليوم كما نجهل سر الثورة المغولية التي انفجرت من قبلها في القرن الثالث وطوحت بالشعوب الجرمانية الى حوض البحر المتوسط فاكنتسحت

(١) دائرة المعارف الانجليزية

(٢) دائرة المعارف الفرنسية

في طريقها امبراطورية الرومان^(١) . كل ما نعلمه هو أنه ما حل القرن التاسع حتى جعلت تطرق الامبراطورية الاسلامية موجات بشرية متلاحقة من الديلم والغز والترك ، كانت تقبل من صحراوات آسيا الوسطى وتتسلل الى المقاطعات الشرقية من هذه الامبراطورية في شكل رقيق مختلف الأجناس ، أول الأمر ، ثم كقبائل مسلحة ، سرعان ما انتهت الى غمر جيوش الخلفاء والقبض على دفة السلطان^(٢) . ثم أقبل القرن الثالث عشر واذا بهذه الموجات تستحيل طوفانا لا حد له ، طوفانا اكتسح الصين وغمر آسيا الصغرى وروسيا وأوروبا الشرقية وبلغ الهند وسواحل البحر الأحمر ، ثم انحسر عن الامبراطورية الضخمة التي تركها تنكيزخان لأبنائه وأتباعهم . ويقول بعض من أرخ لها انها كانت تكاد تكون خاوية على عروشها أول الأمر لكثرة ما أنزله الغزاة بأهلها من قتل وتنكيل .^(٣)

وكان المغل حين انطلقوا الى غزواتهم هذه لا يزالون على البداوة التي عرفوها قبل تنكيزخان وظلوا عليها بعد وفاته بزمان طويل^(٤) ، يمتازون بما يمتاز به البدو عادة من وفرة في النسل وشغف بالقتال الى جانب تلك القسوة الفريية الرهيبة التي لا تعرف حرمة للحياة ومازلنا نشهد بعض مظاهرها بين شعوب الشرق الأقصى الى اليوم . وهكذا أقبلوا على الامبراطورية الاسلامية في النصف الأول من القرن الثالث عشر في جحافل جرارة تميد بها الأرض وتنهار تحت سنايبها المدن يقتلون ويدمرون ويسفكون غير ماغاية سوى القتل والتدمير وسفك الدماء . وقد بدأوا بالترك القجاق والروس وثنوا بأهل الري ثم انقضوا على مملكة جلال الدين الخوارزمي ففتكوا بها ثم عبروا دجلة^(٥) وأطبقوا على العراق فأغرقوا بغداد في دم أهلها وألقوا بجثة الخليفة في العراء ثم ساروا الى

(١) . Fisher : History of Europe (فيشر : « تاريخ أوروبا ») .

(٢) انظر « ظهر الاسلام » لأحمد امين .

(٣) . Ohsson : Histoire des Mongols (أوهسن « تاريخ المغل ») .

(٤) كانوا يأكلون لحم الخيل نيئا ويلبسون جلد الدببة ويسكنون

الحيام .

(٥) يقول أبو المحاسن انهم عبروا دجلة في ١٠٠ طلب كل طلب من

٥٠٠ فارس . « النجوم الزاهرة » .

الشام فمزقوها وبدأوا يناوشون ممالك مصر ويتربصون بهم الدوائر حتى مطلع القرن الخامس عشر حين هبط تيمورلنك الشام من جديد ليرتد عنه الى غير رجعة أمام زحف العثمانيين .

وقد أصاب مصر من هذه الحروب جميعا شر بالغ ففقدت المدن التي استولى عليها الصليبيون في الشام وفلسطين وهما حينئذ جزء منها . وتعرضت للغارات العنيفة التي كانوا يشنونها عليها من الشرق والغرب والشمال ، وهي الغارات التي بدأها ملوك القدس بحرقهم مدينة القرم في سنة ١١١٧^(١) وواصلها الروم ونورمانديو ايطاليا الجنوبية ، بعد أن أخذوا صقلية وأغاروا منها على المهديّة ، مهد الفاطمية ، بما لا يقل عن ٢٥٠ قطعة بحرية ، استخدمت بعد ذلك هي وأساطيل الجمهوريات الايطالية في مهاجمة الثغور المصرية ومحاصرتها وتخريبها . ثم قاست مرارة المحاولات المتوالية التي قام بها الغزاة لأخذ أراضيها اذ هاجم الروم دمياط في سنة ١١٦٩ واستولى ملك القدس على بليس وكاد يستولى على القاهرة تحت العاضد . وقصدت الحملة الصليبية الخامسة دمياط من جديد فسقطت المدينة في سنة ١٢١٨ ثم في سنة ١٢٤٩ وكاد لويس الحادي عشر يفتك بالقوات المصرية لو لم يصمد له المماليك البحرية ، بينما كان المغل يهاجمون الشام ويستولون عليه مرتين ، شلت حياة مصر ، في المرة الأولى منها ، شللا تاما وخطب لبركة بن جنكيزخان على منابرها ، ونزل بها ، في المرة الثانية ، ما يدعوه المقریزی بالبلاء العظيم ويصفه قائلا : « فخر بها كلها (أي تيمورلنك للشام) وحرقتها وأسر أهلها حتى فقرت بها جميع أنواع الحيوانات وتمزق أهلها في جميع أقطار الأرض ثم دهمها بعد رحيله جراد لم يترك بها خضراء وشرقت الأرض بمصر أيضا لقلة الماء من النيل وعظم البلاء والقضاء فباع أهل الصعيد أولادهم وصاروا أرقاء ومملوكين وشمل الخراب عامة أراضي مصر والشام » (٢) .

ونحن نستطيع أن نلمس الأثر البالغ الذي تركه ما بذلته مصر حينئذ من جهد حربي مرهق في حياتها العامة والخاصة بالمقارنة بين أوضاع حياتها

(١) « السلوك » للمقریزی .

(٢) خطط المقریزی .

هذه قبل بدء الحروب الصليبية وبعدها . فانتا اذا ألقينا النظر على مصر في العهد الفاطمى الذى هبط الصليبيون الشام فى نهايته أبصرنا مجتمعا وادعا يمارس شتى أنواع الزراعة والصناعة والتجارة وينهض بالأمر فيه خليفة يزاول السلطة بنفسه أو بواسطة وزيره ويستعين فى ذلك بعناصر يختارها من القضاء أو الوظائف الادارية أو الأعمال المالية ، أى وجدنا مجتمعا مدنيا بالقدر الذى تسمح به طبيعة المجتمعات فى ذلك الزمن . وقد فقد هذا المجتمع بعض لونه هذا المدنى تحت المستنصر حين نكبت البلاد بالمجاعة وهاج الجند وبدأ رجال السيف يظهرون فى مراكز الحكم . ولكنه لم يفقده فقدنا تماما اذ ظل الخلفاء يصمدون ليل هؤلاء الرجال الى التفرّد بالسلطان حتى دالت دولتهم ، فتخلص أمير من الأفضل شاهنشاه والمأمون وحكم بدونهما وفعل الحافظ بعده مثل ذلك مع كنفيت وحذا حذوهما من جاء بعدهما من الخلفاء حتى العاضد ، آخر الفاطميين ، فأبو المحاسن يقول انه عهد الى صلاح الدين بالوزارة لقلّة عساكره وأمله فى التخلص منه ومن بقى معه من جند الشام بمن لديه من الكتمانى (١) .

وكان بدر الجمالى ، أول القادة العسكريين الذين نهضوا بالحكم فى نهاية العهد الفاطمى وأعظمهم شأنًا ، أرميا من أصل مسيحي أبدى نشاطا حسنا فى ادارة الشام فاستوزره المستنصر حين زلزلت المجاعة اقتصاد البلاد فواجه الموقف بالشدة التى اقتضاها وكان حاكما عسكريا مطلقا . ولكنه ظل الى آخر أيامه ظاهرة فاطمية محضة فكان اذا بدأ حياته السياسية من أهل الدولة التى نهض بشئونها ولم يطرأ عليها من الخارج أو يعتمد فى حكمها على غير قوات البلاد وانصرف طوال حكمه الى معالجة أمور مصر القريبة فما كانت له اتجاهات خارجية بعينها . وقد مات بدر الجمالى دون أن يترك أثرا فى نظم الحكم الفاطمى ، دون أن يترك غير المثل الذى ضربه لكل قائد طموح يستطيع أن يجمع حوله قبضة من الجند المغامرين .

(١) « النجوم الزاهرة » . والقلقشندي يقول ان بدر الجمالى كان أول وزير فاطمى من أرباب السيف وكان صلاح الدين آخرهم . انظر « صبح الأعشى » و « نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » لعطيه مصطفى مشرفة .

يدل على ذلك نجاح أمير في التخلص من ابنه شاهنشاه ومأمون الذي تولى الوزارة من بعده واستطاعة الحافظ القضاء على وزيره كنفيت وطرده أنيس الأرمنى الذى خلفه وتعيين ابنه سليمان محله ثم معارضة الأمراء للحسن ابن هذا الخليفة ، حين ارتقى الى الوزارة بالقوة ، وفرضهم على أبيه خلعه وقتله . وافلاح الخلفاء هذا فى تسريح وزرائهم العسكريين هؤلاء سراحا يسيرا يرجع لحد بعيد الى طبيعة النزاع الذى كان يقوم بينهم وبين هؤلاء الوزراء فقد كان نزاعا بين السلطة الشرعية القائمة وقواد جند يستوون فى القوة العسكرية ويتنافسون على الحكم وهم وجندهم من نبات الأرض التى أنبتت أولئك الخلفاء ، بهم ما بهم من وجوه الضعف ولديهم ما لديهم من وسائل القوة ، ولكنهم ينقصون عنهم فى أنهم لا يستندون كما كانوا هم يستندون الى أساس من الحقوق الشرعية المتوارثة . ونحن نعلم أن الأفضل شاهنشاه كان يعنى بتخفه أكثر مما يعنى بالخطر المقبل من ناحية الشام ، كما كان يفعل الخلفاء الفاطميون حينئذ ، وأن مأمونا لم يكن أقل اهمالا من الأفضل للشئون العامة ، كما كان الوزراء الذين جاءوا بعدهما . ونعلم أيضا أن الجند الذين استعان بهم هؤلاء الوزراء لم يتعدوا قط حدا معينا من الكثرة أو الاستعداد أو النظام فقد اضطر بدر الجمالى الى جلب الجند من الشام واحتاج الأمير حسن بن الحافظ الى تعبئة أوباش القاهرة وانتهى رضوان الى مغادرة مصر فى البحث عن جند يقوم بهم أمره . وبانت ضالة هؤلاء الأمراء جميعا بعد ذلك حين حاولوا الكيد لصلاح الدين فأطلق عليهم جنده فردوهم الى الطاعة ردا عاجلا كما فعلوا بجند الخليفة من السود حين ثاروا فى الصعيد وساروا الى القاهرة يريدون أن يعيدوا الفاطميين .

ونحن نعلم أن صلاح الدين قدم مصر على رأس الغز الذين أرسلهم نور الدين زنكى ، وهو وقتئذ قطر الرحى فى مجاهدة الصليبيين ، لاستنقاذ القاهرة من قوات ملك القدس اذ استنجد بها شاور فى منافسة ضرغام فخفت الى نجدته وأرادت أن تنتهز الفرصة فاستولت على بلييس وأخذت طريق العاصمة . ونعلم أن الذى طلب الى نور الدين ارسال جنده هؤلاء كان الخليفة العاضد رغم ما بين الشيعة والسنيين وقتئذ من خصام شديد

وساور نفسه اذ بغتته محاولة ملك القدس ثم رأى العام في مصر جميعا حين سقطت ثقته في قدرة الفاطميين على حماية ثغوره . ونعلم أخيرا أن نور الدين زنكى هو الذى أمر صلاح الدين بخلع الفاطمية ووضع حد للاضطراب الذى كان يعترى علاقات مصر بالشام والخلافة العباسية فى ذلك الوقت . ونحن نلمس هنا صلة الخطر الصليبي بسقوط الفاطميين وقيام الأيوبيين ووجوه الاختلاف بين صلاح الدين ومن تقدمه من وزراء الفاطمية العسكريين . فبينما لم يكن هؤلاء الوزراء ، آخر الأمر ، سوى رؤساء جند طامحين يطلبون الحكم لنفسهم وجندهم كما رأينا ، كان صلاح الدين من الرجال الأشداء الذين شاركوا نور الدين زنكى فى مجاهدة الصليبيين وكان يقدم مصر استجابة لمقتضيات هذا الجهاد على رأس جيش غريب تجمعه به عصبية حية ويفصل بينه وبين المجتمع الفاطمى الذى كان ينزل عليه اختلاف بعيد فى المستوى الاجتماعى^(١) ، فضلا عن تميزه بما كان عليه من اتصال مباشر بتلك الأصقاع الآسيوية السحيقة التى كانت تطلق على العالم الاسلامى حينئذ سيلا لا ينضب من الترك والديلم والغز والأكراد والتركمان والمغل وسائر تلك الأجناس المتشابهة المتقاربة المتلاحقة التى لا نفهم من كنهها شيئا حتى اليوم^(٢) .

وكان أول ما فعله صلاح الدين بعد أن استجمعت له الأمور فى مصر أن أزال الجند الذين وجدهم فيها من سود ومصريين وعربان وأرمن وأحل محلهم الأكراذ والترك الذين قدموا معه فى نحو ١٢ ألف فارس ثم انصرف الى التهيؤ لمقاتلة الصليبيين ومات وهو يشنها عليهم حربا عوانا العام تلو العام واقتدى أبناؤه به فى ذلك من بعده فكانوا ينفقون غالب وقتهم فى الشام ، ميدان هذه الحرب ، حتى اذا اتقل القتال الى سواحل الدلتا

(١) ومؤرخو ذلك العهد يلاحظون هذا الاختلاف فيقول القلقشندي ان الأيوبيين كانوا أول عهدهم لا يطرق بين أيديهم حين يسيرون ولا يلفون الشاش على رؤوسهم . «صبح الأعشى» . ويقول المقرئى وأبو المحاسن ان جند صلاح الدين كانوا يلفتون النظر اليهم بغلاظتهم وخشونتهم وبساطة حياتهم . «السلوك» و «النجوم الزاهرة» . انظر أيضا «الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبي والمملوكى» لعبد اللطيف حمزه .

(٢) خطط المقرئى .

اتتقلوا معه اليها . وكان صلاح الدين وخلفاؤه يعتمدون في هذه الحرب على الأكراد من أبناء جلدتهم قبل غيرهم ويرسلون في طلبهم من المشرق ثم انقسموا على أنفسهم وهبطت عصبيتهم فاستعانوا بالمرتزقة من الأجناس الأخرى واستخدم الصالح أيوب الخوارزمية وممالك القجاق والأصقاع التي تليها ، وهم نفس الممالك الذين أنقذوا بعد ذلك دمياط من ملك فرنسا وقواته وقتلوا توران شاه ابن الصالح أيوب بالذات ثم انطلقوا ينكلون بأهل القاهرة تنكيلا يقول المقریزی انه فاق ما كان الصليبيون ينزلونه حينئذ بالثغور المصرية . وبمقتل توران شاه اتقل الحكم من يد الأكراد الذين قدموا مصر تدعوهم مقتضيات الدفاع عن الاسلام الى يد الممالك الذين حلوا محلهم في هذا الدفاع والذين تحولوا بعد ذلك الى التصدي للزحف المغولي حين بلغ العراق وأطاح بالخلافة العباسية واتجه الى الشام ومصر . وقد آوت مصر حينئذ الخلافة العباسية واحتضنت الممالك ونزلت الى ميدان الجهاد من جديد لتمنع الاسلام من أشد خطر عرض له منذ نشأته وهو الخطر المغولي .

ونحن ننظر الى مصر في هذه الفترة فنجد مجتمعا غريبا لا سابق عهد لها به ، مجتمعا تغلب على حياته فكرة الحرب : حرب المسلمين للنصارى وحرب المغل للمسلمين وحرب الممالك بعضهم بعضا وكل هذا في وحشية كئيبة ، وسط فوضى بدوية لا توصف ، وبكثرة عجيبة حقا . ونجد في مناصب الحكم الذي كان يقوم بشئون هذا المجتمع أولئك الأمراء الغلاظ من الأيوبيين والممالك الذين كانوا ينفقون حياتهم في الحروب وحولهم فرق من العسكر تخضع لارادتهم أو تخضعهم لارادتها وتوجه أمور الحكم كما تشاء . نجد دولة عسكرية من نوع الدول البدائية التي قامت في الغرب بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وقامت في الشرق على انقاض الامبراطورية العباسية : جند في الأسفل ثم أمراء عسكريون ثم قائد أعلى يزاول السلطات جميعا والجميع لا يعرفون لهم عملا غير القتال .

وهذه الفترة هي بعد الفترة التي بنيت فيها قلعة المقطم الموحشة

وأقيم سور القاهرة وأنشئت قلعة الروضة ، وهى أكبر الآثار الفنية التى بقيت لنا منها ان لم تكن الآثار الفنية الوحيدة .

ظهرت طائفة المماليك فى مصر تحت الأيوبيين واكتملت حدودها على الوجه الذى نعرفه الآن فى العهد الذى أعقبهم . وهى اذا من مستحداثات الجو المغولى الذى خيم على الحياة المصرية منذ نهاية القرن الثانى عشر ويجدر بنا لذلك ألا نتقيد ، فى توضيح ملامحها القانونية ، بأحكام الشريعة الاسلامية ، خصوصا اذا تأملنا اختصاص أبناء ذلك العصر ، بلفظ مملوك ، هؤلاء الأغراب دون غيرهم ممن مسهم الرق — وهو الحالة القانونية التى ينسبون اليها فى العادة — ووقفهم اياهم على القتال دون غيره من الأعمال التى يحق للسلادة أن يوجهوا اليها عبيدهم ، والتزامهم فى معاملتهم حدودا لا تتفق وما نعرفه عن أصول الرق الصحيح كالاقراراف لهم بحق الملكية وتوريثهم فيما بينهم والسماح لهم بالانتقال من سيد الى سيد بمحض رغبتهم ^(١) .

والظاهر من وثائق ذلك العصر أن الأيوبيين كانوا يطلقون على أتباعهم ، أول عهدهم ، لفظ « الغلمان » ولا يستعملون فى الغالب لفظ « مملوك » الا فى رسائل الملوك والأمراء للتعبير عن اخلاصهم ووفائهم واستعدادهم للتضحية بكل غال فى سبيل حلفائهم أو من يخطبون وده ثم سقط استعمال لفظ « غلام » وحل محله لفظ « مملوك » دون أن

(١) وقد كان المماليك يتزوجون فى القاهرة بمصريات لم يمسهن الرق وكان أساتذتهم لا يملكون أى حق على نسلهم . كذلك كان السلاطين والأمراء يمنعون الجوامك من يعجز من المماليك عن حمل السلاح وينتهون الى فصلهم من الخدمة دون أن يتصرفوا فيهم بعد ذلك بالبيع أو ما يشبهه. انظر الأمثلة على ذلك فى خطط المقريرى .

ونحن نعلم أن الألفى بيع عند مجيئه مصر فى القرن الثامن عشر الى قاهرى يدعى أحمد شاويش ولكنه لم يعجب بأحمد شاويش هذا فطلب أن يباع لغيره وبيع فعلا لسليم اغا . تاريخ الجبرتى .

يفقد هذا المعنى أو يستقط من الوثائق الرسمية^(١) . وقد شاع الاستعمال الجديد لهذا اللفظ في الوقت الذي فترت فيه العصبية الأيوبية واضطر الأمراء الى البحث عن دعامة جديدة لحكمهم فاستخدموا الخوارزمية

(١) ونحن نقرأ مثلاً في النجوم الزاهرة : « يقال ان والده (والد العزيز صلاح الدين) لما كان بالشام والقاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد فكتب القاضي الفاضل يهنئ والده السلطان صلاح الدين بولد ولده فقال : (« المملوك » يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر) . . . » .

« ولما مات (العزيز) كتب القاضي الفاضل الى عمه العادل رسالة يعزیه من جملتها . . . وقد كان من أمر هذه الحادثة ما قطع كل قلب وجلب كل كرب ومثل وقوع هذه الواقعة لكل أحد ولا سيما لأمثال « المملوك » . . . و « المملوك » في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضى قلب وجسد ، . . . ونقرأ في موضع آخر من نفس الكتاب :

« قال الأمير شمس الدين لؤلؤ : لما التقينا على حمص رأيت الخوارزمية خلقاً عظيماً وكنا بالنسبة اليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض فقال لي غلماني (يعنى مماليكه) أيها أحب اليك . . . » .

« وذكر حسام الدين أنه سأل الفرنسيين عن عدة العسكر الذي كان معه لما قدم لآخذ دمياط فقال كان معي تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة ألف وثلاثون ألف طيس سوى الغلمان والسوقة والبحارة ، . . . » .

ويلاحظ أن لفظ الغلمان هنا لا يمكن أن يكون مرادفاً للفظ العبيد فلم يكن بالجيوش الفرنسية حينئذ عبيد على ما نعلم .

كذلك نقرأ في « السلوك » : « فاستحضره (أي صاحب كمال الدين أبي جراده) الصالح وكرمه وزوده برسالة الى صاحبة ضيفته خاتون منها : « يقبل (الملك الصالح أيوب) الأرض بين يدي الستر العالي ويعرفها أنني « مملوكها » وأنا عبد بمحل الملك الكامل وأنا أعرض نفسي لخدمتها » .

« هذا والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين وعنوانها من « فخر الدين الخادم ليوسف » فيجيب عليها الأمير حسام الدين ويجعل العنوان « المملوك أبو علي » فيتجاملان في ظاهر الأمر . . . » .

« وقدم كتاب لملك الحبشة وهو الحطى يعنى الخليفة يخاطب السلطان فيه بعبارة « أقل الممالك يقبل الأرض وينهى به » . . . » .

« وقدمت رسل السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن بسول

ثم أسارى الحرب الناشئة وقتئذ . وكان هؤلاء وأولئك يرتبطون بهم
برباط الوفاء ذلك الذى كانوا لا يغفلون الاشادة به فى مكاتباتهم والذى
كان يحل محل تلك العصية المفقودة ويتخذ لونا عائليا يشف عنه عد
ممالك السيد الواحد أنفسهم « خشداشيه » أى أخوة وتوارثهم فيما بينهم

ملك اليمن بعشرين فارسا عليها لامة الحرب وفيلة وحمارة وحش عنابية
اللون وعدة تخت وطرف فجهزت له خلعة وسنجد وهدية فيها قميص
من ملابس السلطان كان قد سأل فيه ليكون له أمانا وسير اليه أيضا جيوش
وغيره من آلة الحروب وقيل له : « قد سيرنا اليه آلة السلم وآلة الحرب فيما
لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد » . وكتب له : « المقام العالى المولى
السلطاني » وكتب له السلطان بخطه « مملوك » .

ويعلق الدكتور محمد مصطفى زيادة على استعمال هذا اللفظ فى هذا
المكان فى هامش كتاب « السلوك » فيقول : « جرى المصطلح فى دولة الممالك
أن ينعت السلطان نفسه بهذا اللفظ فى المكاتبات الصادرة منه الى الملوك
والكبار (انظر القلقشندي صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤٥ - ٣٧٠) » .

ويلاحظ استعمال لفظ متملك فى كلام المقرئى بمعنى حاكم وهو مشتق
من أصل لفظ مملوك . وقد كان المملوك على كل حال أرفع شأنًا من الخادم وهو عادة
شخص حر فنحن نقرأ فى تاريخ ابن اياس : « وفى يوم الاثنين رابع عشره
أشيع أن طائفة الاصباكية وقفوا الى ملك الأمراء وقالوا مثل ما أنفقت على
الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال لهم الانكشارية ممالك الحنكار وأنتم
خدامه وما عندى ما أنفقه عليكم » .

ونقرأ فى موضع آخر من نفس المرجع :

« وقد صارت الممالك الجراكسة فى غاية الذل من الفقر والعري ومنهم
من سأل الناس فى رغيث يفتات به ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل
التجار والسوق فى درهم يشتري به كبشة فول يأكلها فسبحان من يعز
وينذل وصاروا يفشون الأسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت
تاويهم ولا اسطبلات ولا عبيد ولا غلمان » .

ويلاحظ هنا تفرقة ابن اياس بين العبيد والغلمان مما يدل على أن هؤلاء
لم يكونوا عبيدا بالمعنى الصحيح . كذلك يلاحظ ما يفهم من قوله ان الممالك
كانوا يملكون العبيد .

واطلاقهم على سيدهم لفظ الأستاذ^(١) أى الوالد أو المخدم ، وهو أمر يذكرنا ببعض عادات المغل وقوانينهم ان لم تكف لتذكرنا بها الظروف التى ظهر فيها الممالك والتقاليد الاجتماعية التى نعرفها عنهم . فنحن نعلم أن قوانين التوريث التى كان يأخذ بها المغل فى ذلك الوقت كانت تقصر انتقال العقار بالوفاة على أصغر أبناء المتوفى وتقسم ثروته المنقولة فى بقية الأبناء كل حسب مواهبه فالخيل لأشجعهم والغنم لأدمثهم وهكذا . وكان هذا النظام يؤدى الى بقاء غالب الورثة بتركة زهيدة أو دون تركة البتة ، الا فى الحالات القليلة التى يكون فيها المتوفى ذا ثروة طائلة ، ويدفع لذلك بأكثرهم الى ترك عائلاتهم والسعى خلف من يستطيعون أن يبيعوه العمل الوحيد الذى يحسنونه وهو مهنة القتال . ولما كانت علاقات العمل بين المغل تنفرع حينئذ فى الغالب على علاقة القربى وكانت الألفاظ التى يطلقونها على مختلف درجات هذه القربى عادة ألفاظا عسكرية فقد كانت العلاقة بين هؤلاء المهاجرين والسيد الذى يأويهم تتخذ شكل التبني ويعبر عنها بألفاظ عسكرية وتعقد بنفس الطرق التى كانت تتبعها قبائل المغل فى حالات التبني العادية من مزج بعض دم المتبنى والمتبنى باللبن الى القسم على انشاء العلاقة الجديدة الى مجرد تبادل القبول والايجاب . وكانت الى ذلك تنتج جميع آثار التبني العادى فيتمتع المتبنون بحقوق الأبناء الشرعيين ويحملون لقب عائلتهم الجديدة والاسم الذى يطلقه عليهم آبائهم الجدد . ومن هذا القبيل كانت علاقة جنكيزخان وتيمورلنك وكثير من رجالات المغل بملوك آسيا الوسطى فى ذلك العصر^(٢) . وواضح أن العلاقة التى كانت تقوم بين المهاجر ووالده الجديد على هذا الوجه تختلف فى جوهرها عن علاقة العبد بسيده وان انطوت على ما تنطوى عليه علاقة البنوة الطبيعية فى المجتمع البدوى ،

(١) كان لفظ الأستاذ يطلق أيضا على أصحاب الاقطاعات فيما يتعلق بفلاحيهم فنحن نقرأ فى تاريخ ابن اياس : « وصار جماعة من الفلاحين اذا أتاهم قاصد من باب استاذهم » . ومن المعروف أن الفلاحين لم يكونوا عبيد أصحاب الاقطاعات بحال من الأحوال .

(٢) Cahun : Introduction à l'histoire d'Asie. (كاهون : مقدمة لتاريخ

آسيا) .

خصوصا في آسيا الوسطى في ذلك الزمن ، من عناصر تصورنا للرق مثل استطاعة الآباء التصرف في حياة أبنائهم كما يشاءون^(١) وخضوع الأبناء لأبائهم خضوعا يشل ارادتهم ، أو على ما تنطوى عليه علاقة العمل في المجتمع الزراعي القديم من تحول العامل الى مثل متاع لصاحب عمله^(٢) ، وغلبة الذلة على صلات الطرفين ، وهي غلبة لا تستغرب خصوصا في مجتمعات آسيا الوسطى أي الأرض التي ابتدعت مراسيم تقبيل الاقدام والتمرغ في التراب والانحناء العميق . وهذه هي المراسيم التي أصبحت تنسب الى الشرق جميعا منذ أن شهدا الصليبيون في آسيا الصغرى تحت الممالك . والذي يهنا مما تقدم هو أن هذه العلاقة تشبه العلاقة التي كانت تقوم بين ممالك مصر وأساتذتهم . فقد رأينا الأشكال العائلية التي كانت

(١) ومعروف أن قوانين روما القديمة أيضا كانت تبيع للأباء بيع أبنائهم ورهنهم .

كذلك يلاحظ أن أهل بعض بلاد آسيا كالصين واليابان لا يزالون يتخلصون من أبنائهم بعد الولادة مباشرة أو بعد ذلك بقليل بقتلهم أو القاءهم أو إعطائهم للغير وذلك لغزارة النسل بتلك البلاد . وقد نقلت إلينا الجرائد في نهاية الحرب الأخيرة أن بعض أهالي فرنسا أيضا كانوا يبيعون أبناءهم سعيا وراء المال أو رفقا بهم .

ونحن نقرأ في أهرام ١٤/١٢/١٩٤٧ تحت عنوان « لبناني يشترك في شراء فرقة :

» ذكرت صحف أمريكا وروى الخبر مراسل « الأهرام » بنويورك أن المستر ستيفن هانيفان - ناظر بريد الولايات المتحدة ومدير اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطي - اشترى فرقة « كاردينال » للعبة كرة البيسبول المحترفة والتي تجرى على لعبتها مضاربات ومراهقات تدر السمن والعسل . وبلغ ما اشترى به هذا الجريء هذه الفرقة أكثر من ثلاثة ملايين من الدولارات وأظهر أنه اشترك معه في هذه الصفقة اللبناني « فريد صائغ » وهو من والدين من جديد مرجعيون ومن سكان ستريتير من أعمال ولاية المبونيز ونشأ في سانت لويس ومن حملة أجازة الحقوق وله شهرة واسعة في المحاماة ، وهو نائب رئيس فرقة كاردينال الجديدة وأمين صندوقها . والشراء في العرف الرياضي معناه توظيف اللاعبين المحترفين بعقود » .

(٢) وقد كانت علاقة العمل في العالم القديم تختلط عادة بعلاقة القرى وتشبه في كثير من الوجوه علاقة الرق .

تتخذها هذه العلاقة عادة ، ونحن نعلم أن كثيرا من الممالك المصرية هبطوا القاهرة مختارين فلم يكونوا دائما من الأسارى أو المتخطفين ، ونعلم أيضا أنهم كانوا ينصرفون جميعا الى صناعة الحرب دون غيرها . ولا يقدح في هذا ما كان يصحب التحاق الممالك بأساتذتهم ، بعد انفجار الحرب في آسيا وتكاثر الأسرى واقبال المغل على ارسالهم الى حلفائهم البنادقة نظير ما كانوا يقدمونه اليهم من الخدمات أو الألفاف أو الأموال ، أو بعد استقرار النظام المملوكى وتحوله في العهد العثمانى الى نظام التجنيد الوحيد الذى كانت تعتمد عليه البلاد لحفظ امنها فى الداخل والخارج ، من مكافأة الأساتذة من كان يجلب اليهم مماليكهم ببعض المال ، وإن كان علماء المسلمين يرون فى ذلك ضربا من النخاسة ان لم تكن النخاسة بعينها ، ما دام هؤلاء الممالك يضعون حياتهم رهن إشارة أساتذتهم مقابل ما يؤديه هؤلاء لمن يجلبهم والأرزاق التى يصرفونها لهم ويختلفون فى ذلك عن الأجناد العاديين الذين يخاطرون بحياتهم فى سبيل ديارهم ولا يلعب الأجر فى علاقتهم بهذه الديار ، حين ظهر ، الا دورا ثانويا (١) .

والواقع أن نظام الممالك كان ، كغالب نظم الدولة المملوكية ، شيئا قائما بذاته تختلط فيه تقاليد المغل بالشريعة الاسلامية بأنظمة العصر ، فكان المملوك يعطى أستاذه ما اعتاد آباؤه أن يعطوه من آواهم ، أى عمله وقت السلم وسيفه وقت الحرب ، وكان أساتذتهم يقدمون اليهم ما اعتاد أمثالهم أن يقدموه الى من التحق بهم من أولئك الغرباء المهاجرين ، أى طعامهم وكساءهم وما يحتاجون اليه من أدوات القتال ، ولم يكن الجمل

(١) من المعروف أن الدول القديمة كانت لا تاجر جندها من الوطنيين أو تقوم بنفقاتهم فى الحرب ولا تمنحهم مقابل اشتراكهم فى القتال سوى بعض غنائمه . وقد كانت الحال كذلك فى مصر أيضا فى العصر الاسلامى فيما يتعلق بالمصريين حين كانوا يشتركون فى الجهاد . انظر دائرة المعارف الفرنسية والاطالية و « السلوك » .

ولا حاجة بنا الى القول بأن العقود التى يدخلها عنصر المال لا تصير جميعا عقود شراء ضرورة فالمسلمون يشترطون أن يؤدى الأزواج الصداق لزوجاتهم كيما يصير الزواج صحيحا والمسيحيون والاسرائيليون يقرون تأدية الزوجات الصداق لأزواجهن ومع ذلك لا يعد عقد الزواج عقد شراء فى دين من هذه الأديان الثلاثة .

الذى كان التاجر البندقى أو المشرقى يتقاضاه مقابل جلبه المملوك الى مصر ، سواء كان هذا قد قدم له نفسه طائعا أو قدمه اليه الجندى أو الأمير الذى سباه أو والد مدفع يرجو الخير لذريته ، الا عنصرا طارئا قد يشبه الجعل الذى تتقاضاه مكاتب التوظيف الآن عن توظيف من يلجأون الى خدماتها ، ولم يظهر على كل حال الا حين اتصل المجتمع الاسلامى بهؤلاء الغرباء واتجه الى الانتفاع بهم فى الحروب . وكان المجتمع الاسلامى يرى فى هذه العملية وفى علاقة المملوك بأستاذه علامات الرق وان شعر بعد ذلك أنه رق من نوع خاص ورأى كيف كان هذا اللفظ يضيق بالمعنى الذى كانت تنطوى عليه هذه العلاقة فوضع له لفظ « مملوك » وعامل الذين يحملونه بالسماحة التى توصى بها الشريعة الاسلامية نحو الرقيق .

وفى اتصال ظاهرة الممالك هذه بالغزو المغولى (١) ما يكشف لنا عن سر ارتفاع عددهم حيناً وهبوطه حيناً آخر تحت الأيوبيين والسلطانين البرجية . فنحن نعلم أن البنادقة كانوا يرسلون ممالك القجاق الى مصر منذ سنة ١٢٢٣ ولكنهم ضعفوا عددهم منذ سنة ١٢٣٨ وهى سنة غزو المغل تلك الديار (٢) . وقد بلغ اقبال الممالك على مصر أشده فى عهد أيبك وقطر وبيرس وكتبغا ، وهو عهد اشتداد الغزوات المغولية ، حتى كانت تعج بهم القاهرة ثم جعل يهبط بعد ذلك حتى وصل ثمنهم تحت الناصر الى أرقام غاية فى الارتفاع . كذلك فى هذا الاتصال وفيما ذكرنا من تقاليد الممالك ما يعين على توضيح حركتهم والخروج بها من الحدود التى توضع فيها عادة كحركة عبيد شراء ارتفعوا الى السلطان وفرضوا أنفسهم على بعض شعوب الشرق . فلم يكن الرجال الذين استطاعوا الوقوف فى وجه المغل والانتصار عليهم فى الوقت الذى قدروا فيه على اكتساح أوروبا الوسطى والقضاء على جيوش أشد أممها بأسا كبولونيا وهنغاريا وألمانيا ، مضافا إليها ما لحق بها من امدادات فرنسية وإيطالية ، فيما

(١) كاهون .

(٢) ونحن نعلم من المقرئى أن اعداء السلطان لاجين من الأمراء هم الذين حرضوا التتار على مهاجمة الشام فى أيامه وأن الممالك كانوا ينضمون الى التتار كما كان هؤلاء يلحقون بهم فى مصر ويتزوجون منهم . انظر « السلوك » .

لا يزيد على ثلاثة أيام^(١) ، عبيدا بالمعنى الذى تفهمه الآن حين نذكر عبيد أمريكا أو أفريقيا أو اليونان أو روما . ولم يكن أمرهم أمر ضعفاء قووا أو وضعاء تجبروا بل شكلا غريبا من أشكال الغزو السلمى ان صح هذا التعبير : شعوب فتية تتطاحن فتنتشر أشلاؤها خارج الحدود وتتجمع وتربو حتى تغمر البلاد التى تجمعت داخلها كما لو دخلتها فاتحة^(٢) . وهى تحتفظ أثناء ذلك بميزاتها العنصرية من شغف بالقتال وشدة بأس وقوة احتمال فتمكنها هذه المميزات من الارتفاع الى حكم هذه البلاد فى وقت تقتضى حالة الحرب التى تحيط بهذا الحكم أثناءه أن يعهد به الى العسكريين ويمنع لونه الدينى المحكومين أن يستهجنوا انتقاله الى أيديهم

(١) Brian Channov : La Russie .

(٢) يصف المقرئى دخول أحد أفواج هؤلاء المغل القاهرة تحت السلطان كتبغا وهو فوج الاوبراتية فيقول : « ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر الى لقائهم فاجتمع الناس من كل مكان حتى امتلا الفضاء للنظر اليهم فكان لدخولهم يوم عظيم وصاروا الى قلعة الجبل فأنعم السلطان على طرغاء مقدمهم بأمرة طلبخانة وعلى اللصوص بأمرة عشرة واعطى البقية تقادما فى الحلقة واقطاعات وأجرى عليهم الرواتب وانزلوا بالحسينية . وكانوا على غير الملة الاسلامية فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بأنواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم . وكان اذ ذاك بالقاهرة ومصر غلاء كبير وفناء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الأمر على الناس وقال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دنيا :

ربنا اكشف عنا العذاب فانا

قد تلفنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانسلقنا

وانطبخنا فى الدولة المغلية

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة لم يصم احد من الاوبراتية وقيل للسلطان ذلك فابى أن يكرهم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى أن يشوش عليهم احد واظهر العناية بهم وكان مراده أن يجعلهم عوناً له يتقوى بهم فان الاوبراتية كانوا من جنس كتبغا وكانوا مع ذلك صوراجيلة فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والاناث واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم . فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ثم ما قنع الأمراء بما كان منهم بمصر حتى أرسلوا الى البلاد الشامية واستدعوا منها طائفة كبيرة فتكاثروا نسلهم فى القاهرة واشتدت الرغبة فى الكافة فى أولادهم على اختلاف الآراء فى الاناث والذكور فوقع التحاسد بين أهل الدولة الى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك . خطط المقرئى .

غربية • كان شكلا من الأشكال التي اتخذها غمر الطوفان المغولي آسيا وأوروبا في القرن الثالث عشر وكان انهيار الخلافة العباسية واحتلال روسيا واصطباغ أوروبا الشرقية بالصبغة المغولية ثم ظهور الامبراطورية العثمانية وتهديدها أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر من بعض آثاره^(١) •

ونحن لا نعلم بالتحديد كم كان عدد المماليك في الفترة بين الصالح أيوب وقلاوون ، وهي الفترة التي طغت موجة المشاركة أثناءها على مصر ، حذر الغول المغولي ، ولكننا نعلم من المقریزی أن ممالك المعز^(٢) كانوا شيئا وفيرا وأن ممالك قلاوون كانوا عشرة آلاف وممالك ابنه اثني عشر ألفا وجند مصر العاملين جميعا من غير العربان ، حول ذلك الوقت ، ٦٣٩ ر ٢٤٩ جنديا ، ينقسمون الى فرق من عشرة ثم من أربعين ثم من مائة مملوك على رأس كل منها أمير يقودها ، وهو نظام كانت تأخذ به جيوش جنكيزخان وأبناؤه في ذلك الوقت^(٣) • كذلك نعلم أن المماليك كانوا يخضعون ، كغيرهم من أهل المجتمع في مصر حينئذ ، لنظم طائفية محكمة

(١) Brian Channon : La Russie .

(٢) يقول أبو المحاسن انهم كانوا يفوقون في العدد ممالك الملوك الذين تبعوا المعز • « النجوم الزاهرة » •

(٣) عرف الأغريق والرومان أيضا الجند المرتزقة حين تحول الحكم لديهم الى حكم شخصي ، اى في عهد الحكومات الملكية المستبدة اليونانية وفي نهاية الجمهورية الرومانية ، وكانوا يدعونهم peregrini milites أو mercenari milites اى الجند الأغراب أو المأجورين • ويلاحظ أن لفظ mercenari يتضمن المعنى الذى نقصد اليه الآن حين نقول «رجلا مباعا» اى رجلا لا يمتنع عن شيء في سبيل ما يعطى من مال • وكان هؤلاء الجند يفقدون عادة حقوقهم السياسية ولا تقوم علاقتهم بقوادهم الا على أساس الأجر • وقد تحول هذا النظام الى النظام الاقطاعى في أوروبا حين ارتدت هذه الى الاقتصاد الزراعى في عصر الوسط واصبح الجند المرتزقة يتقاضون أجورهم اقطاعات زراعية • وشجع هذه الظاهرة اتجاه المجتمع الأوروبى وقتئذ الى تضيق وظيفة الدولة واتخاذ الحروب طابع النزاع الشخصى بين الملوك ثم انصراف المدن الى الصناعة والتجارة ، فقد كان كل ذلك يدفع بالحكومات الى اعطاء الحروب لقواد الجند المرتزقة • وقد بلغ هؤلاء القواد شأنا عظيما من النفوذ في القرن الخامس عشر خصوصا في ايطاليا حيث كانوا يتحكمون في مصر البابوات والامارات الايطالية المختلفة ويقيمون الامارات الخاصة بهم مثل امارة بروجيا التي اقامها Braccio da Monte في سنة ١٤٢٤ وامارة برجامو التي انشأها B. Colleoni وامارة ميلانو التي انشأها F. Sforza • انظر دائرة المعارف الايطالية •

فيبدأون صبية متعلمين لا يبرحون دور أساتذتهم ماداموا في دور التدريب ويمرون بمثل المراحل التي يمر بها الصبية في طوائف أهل الحرف عادة قبل أن يصيروا ممالك ، أعنى جندا : جندا مرتزقة كأولئك الذين يظهرون عادة حين تميل الدول الى الزوال لضعف نسل أهلها — روما — أو ضعف عصبية الطبقة الحاكمة فيها — العباسيون — أو تتجه بعض الأسر الى اقامة ملكيات جديدة — الجمهوريات الاغريقية والبطالمة والدول الحديثة كلها — أو تتسع الامبراطوريات الشخصية ويتنوع مستوى شعوبها الاجتماعي ويختص بعض هذه الشعوب بصناعة الحرب — الامبراطورية البيزنطية والفاطيون — فيحتاج الحكام الى جند مجلوبين لا يتأثرون بمؤثرات مجتمعتهم ويرتبطون بأشخاصهم . وقد يتسع أمر هؤلاء الجند بعد ذلك فيستبدون بالحكم كما حدث في الجمهورية الرومانية أو يكونون أساس الدولة كما حدث في أوروبا الاقطاعية أو يرتفعون الى الصدارة كما حدث في امبراطورية الممالك .

وكانت طائفة الممالك تتكون من الأجناد ثم الأمراء من مختلف الدرجات ثم السلطان . والأجناد والأمراء ، في الأصل ، هم الذين ينصبون السلطان^(١) ، ولكن الأمراء هم الذين يزاولون هذا الحق عادة فيختارون بينهم من يشاؤون أو يقرون من يستولى منهم على السلطة بالعنف . وهذا الاستيلاء من الوسائل المشروعة للوصول الى الحكم بل الوسيلة التي يغلب اتباعها حتى أيام العثمانيين ، وفي ذلك تقليد آخر من التقاليد المغولية الكثيرة التي عرفتھا مصر في ذلك العهد^(٢) .

(١) وابن اياس يقول ان الظاهر تمريفا خلع لان العسكر لم توافق على ابقائه .

(٢) « فلما قتل قطز سار الامراء الذين قتلوه الى الدهليز السلطاني واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس فقام الأمير اقطاي المستعرب الاتابك وكان بالدهليز وقال للأمراء عند حضورهم : « من قتله منكم ؟ » . فقال الأمير بيبرس : « أنا قتلته » . فقال الأمير اقطاي : « ياخذ اجلس في مرتبة السلطنة مكانه » . « السلوك » .

ونحن نقرا في « مصر في العصور الوسطى » لعلى ابراهيم حسن : « وكان الاعتقاد السائد ان قاتل السلطان يجب ان يخلفه على العرش فان بيبرس حين سأل الأمير فارس الدين اقطاي نائب السلطنة مع بقية الامراء عمن قتل قطز قال : « أنا قتلته » ورد اقطاي في بساطة تستدعي الدهشة ، « ياخوند اجلس في مرتبة السلطان مكانه » . ولما قتل السلطان خليل في

والسلطان يعين الأمراء والأجناد ويوزع فيهم الاقطاعات والوظائف ويشرف على شئونهم جميعا . والأمراء ، كما يقول القلقشندي ، سلاطين صغار لكل منهم أقطاع وديوان يديره وممالك يقودهم^(١) ، وهم يشتركون في سياسة الدولة كأعضاء في مجلس الأمراء ويشغلون الوظائف العسكرية وبعض الوظائف الادارية الكبرى . والأجناد قوات عاملة واحتياطية : والقوات العاملة تتكون من ممالك السلطان وممالك الأمراء وتتقاضى مرتباتها من اقطاعات السلطان واقطاعات الأمراء ، والقوات الاحتياطية تتكون من جند الحلقة ، أى ممن يختارهم السلطان من أبناء الأمراء لحمل السلاح . والاقطاع هو الصورة الأصلية لصرف مرتبات السلطان والأمراء وجند الحلقة ، وهؤلاء جميعا لا يحتفظون به الا ما داموا أهلا لحمل السلاح ، فاذا سقطت أهليتهم هذه سقط الاقطاع ، وهم ملزمون أثناء ذلك بصيانة الاقطاع والقيام بما تقتضيه من أشغال خاصة وعامة . والدولة هى مجموع هذه الاقطاعات^(٢) بمن يشرف عليها من الأمراء ومن تعوله من الممالك وما تصرف عليه من أشغال عامة . ومن هنا نظرة السلاطين والأمراء والممالك الى الدولة نظرتهم الى متاع خاص

الحمامات بمديرية البحيرة اتفق الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة على تولية قاتله بيدراً العرش على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا في الصالحية بعد قتل قطز . وبعد أن تم لكل من الأميرين طلفجى وكرجى قتل السلطان لأجين بينما كان جالسا في قصره يلعب الشطرنج عقدا بعد مقتله بيومين اجتماعا حضره الأمراء وقام كرجى وقال : « يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكون سلطان الا هذا » وأشار لطفجى « وأنا نائبه » .

وفبيت يحصى عدد سلاطين الممالك الذين ماتوا موتا طبيعيا فيجدهم لا يزيدون على ثلاثة عشر . G. Wiet: Les mosquées du Caire . « جوامع القاهرة » .

(١) ظلت الدولة تهتم بأمور ممالك الأمراء حتى بعد اضافة اقطاعاتهم الى اقطاع الأمراء فى عهد لأجين فالنويرى يقول ان دواوين الأمراء كانت ترسل الى مباشر الجيش قوائم جندهم وكيفية صرف الاقطاع على الأمير ورجاله . وكان الجند المذكورون فى الاقطاع يعرضون على ولى الأمر فيجيز من يجيز ويرفض من يرفض . « نهاية الأرب » . ونحن نعلم من المقرئى أن بيبرس قتل سنقر الرومى لأنه قتل مملوكين من ممالكه بغير ذنب . « السلوك » .

(٢) يرى محمد فريد أن الممالك لم تقم لهم دولة واحدة كالعباسيين والعثمانيين بل امارات مختلفة وهكذا يكون أول من شمل المسلمين فى دولة واحدة بعد العرب هم بنو عثمان . « تاريخ السلطنة العلية » .

يملكونه وقيام الصلة بينهم على علاقة الأجر قبل كل شيء . فالجند لا يتحركون للقتال ولو أصبح العدو على الأبواب ان لم ينالوا أرزاقهم أو ما يطالبون به من زيادة فيها . والأمراء يطمحون الى الحصول على الاقطاع الأكبر وهو اقطاع السلطان ولا يتخرجون عن خيانة الدولة في سبيل ذلك . والسلطان يسطو على اقطاعات الأمراء ويستصفي الأموال ويتجر بسلطته ما استطاع . ومن هنا أيضا طابع الغدر والفتك والتحرز الذي ينفرد به المجتمع المملوكي . فالسلطان دائم العناية بشراء الممالك ليدفع بهم غائلة الأمراء ، وهو ما يكاد يتم له بعض ذلك حتى يلجأ الى الفتك بهم واعطاء وظائفهم واقطاعاتهم ممالكه حتى تخلص لهم وله الدولة . وهو أثناء هذا قابع بين أسوار قلعة الجبل لا يكاد يرحها ، يستقبل الأمراء جالسا بين ممالكه ولا يسمح أن يتحدث بعضهم الى بعض بحضرته أو يتزاوروا فيما بينهم في أوقات الفراغ ^(١) . والأمراء يتآمرون ويتربصون في غير ما كلل حتى اذا أذنت الساعة وثبوا على السلاطين وفتكوا بهم وسلبوهم عرشهم . والممالك يثورون كلما اضطرب الامن وأمنوا العقاب .

وبطش أهل هذا المجتمع بعضهم البعض يتخذ أشكالا قاسية ممعنة في القسوة كالتوسيط والاجلاس على الخازوق والتمزيق ، أو مزرية بالغة الازراء ، كضرب السلطان الأمراء بالمقارع على رؤوس الأشهاد أو تجريدهم من ثيابهم أو تطويقهم في الطرق ، ولكنه لا يظهر الا في حينه أما قبل ذلك وبعد ذلك فالذلة في أرذل مظاهرها اذ يستعبر السلاطين ويؤكدون جبههم للأمراء واعتمادهم عليهم اعتماد الأخ على أخيه ، ويدارى الأمراء السلاطين ويلثمون أيديهم ويتمرغون عند أقدامهم ، ويفعل الممالك مثل ذلك وما هو شر منه . وهذا هو ما يحدث كل يوم أي أنه ليس بالشئ الشاذ فكل سلطان يجب أن يفتك ببعض أمرائه ، وكل أمير يجب أن يطمع ويتآمر ويتحفز ، وكل مملوك يجب أن يتربص ويعتدى ويسطو ، وما يحدث شئ من ذلك حتى تقفل القلعة أبوابها ويشيع الاضطراب ويفعل كل ما يريد بمن يريد .

(١) خطط المقریزی .

ونحن نجد في تكوين الدولة المملوكة هذا أيضا بعض تقاليد المغل ؛
فمعروف أن الحكم المغولي يقوم على أكتاف حملة السلاح ولا يعترف
بحقوق سياسية لسواهم . وهو يدير أمور الدولة كما تدار الضياع ويجهل
حدود القانون العام ولا يفرض على من يتولونه غير أن يضمنوا الغذاء
والشراب والكساء لرعاياهم ، فإذا لم يستطيعوا فلا حكام ولا محكومون ،
ومن حق هؤلاء أن ينفضوا ويبحشوا لهم عن حكم آخر ^(١) . ولعل بعض
هذا التصور للحكم يرجع إلى الدور الاجتماعي الذي كان يجتازه المغل
حينئذ بدليل وجوده لدى غيرهم ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن طابع
القسوة الرهيبة هذا الذي امتاز به الحكم المملوكي كان من خواص
أهله ، وإن هذا الحكم كان أول حكم دفع بالدولة في مصر إلى هذا
المستوى البدائي وجعل منها مرتعا خصبا تضرب في أرجائه بضعة آلاف
من جند مستجلبين لا يحسنون سوى الفتك والغدر والتعذيب في غير
هوادة أو كلل . كذلك لا شك في أن قيام النظام المملوكي على استجلاب
رجال من الخارج كان من الأسباب التي وقفت دون تطوره التطور
الطبيعي وحفظت عليه الطابع البدائي هذا الذي انفرد به . وقد آخفق
السلطين في اقرار مبدأ وراثته العرش رغم ما حاولوه في سبيل ذلك وبقي
قتل السلطين الوسيلة المفضلة للوصول إلى الحكم وظل الأمراء إلى
العهد العثماني لا يتوارثون الاقطاعات بل لا يضمنون الاحتفاظ بها حتى
آخر أيامهم ولا يستطيعون أن يكفلوا لأبنائهم أكثر من اقطاع ثانوي
من اقطاعات جند الحلقة وهو اقطاع قد يصل وقد لا يصل بهم إلى
مناصب الحكم . كذلك كان الممالك يفقدون كل شيء بخروجهم من
الخدمة فلا يبقى لأبنائهم غير الانخراط في حرفة من الحرف . وهكذا كان
أهل هذا النظام يتجددون تباعا ولا تكاد تهذب نفوسهم أو تتأقلم حتى
يتركوا مراكزهم ويحل محلهم من استجلب غيرهم من الخارج بعقليتهم
وأمزجتهم وطبيعتهم البدائية التي لم تصقل . وقد زاد مافي ذلك من شر
حين انحسرت الموجة المغولية وقل أسرى الحرب ولم يبق من سبيل إلى
تغذية هذا النظام بغير قبول من كان يقدم مصر من قوقازيين معدمين
أو أطفال مسروقين أو صبية تعساء دفع بهم أهلهم إلى من يبحث لهم عن

(١) كاهون .

سيد يأويهم اذ هبط مستوى الممالك وصاروا حثالة تلك البلاد بعد أن كانوا من خيرة شباب آسيا الوسطى وأبناء أعرق أسرها أحيانا . ونحن نعلم أن الممالك البرجية كانوا يستحبون آخر عهدهم الاشتغال بالبيع والشراء على صناعة الحرب^(١) ويقبلون النزول عن بعض أرزاقهم لمن يقبل السير الى القتال بدلهم ويبلغون من الجهل بفنون القتال حد أن يمنعهم السلاطين أرزاقهم^(٢) . ونعلم أن انحطاطهم هذا وانصرافهم عن شئون الحرب وهبوط عددهم كان من الأسباب التي مكنت جيوش بنى عثمان الغزيرة من القضاء على الحكم المملوكى واقامة الحكم العثمانى الذى كان يفوقه بدابة وخشونة وعسفا^(٣) .

وقد امتد هذا الحكم العسكرى بعد ذلك حتى ظهور محمد على وكان له بدوره فى حياة البلاد آثار ضخام ، سنحاول أن نحلل فيما يلى ما يهمنى منها فى هذا البحث ، مما يتصل ١ - بالملكية الزراعية و ٢ - النشاط الاقتصادى و ٣ - الدورة الاجتماعية ، مقارنين عند الحاجة بين الحالة التى أوجدها والحالة التى سبقت ظهوره فى العهد العربى .

- ١ -

كان الجند الذين فتح عمرو بن العاص بهم مصر من القبائل العربية التى وجهها الخلفاء الى الفتوح ، وهى قبائل كانت تجمع بين أعضائها الوحدة القبلية ، وتجمع بينها وبين الخلفاء العصبية الجنسية المشتركة ، من الناحية الاجتماعية ، والعلاقة الدستورية التى تقوم بين الحكام والمحكومين ، من الناحية القانونية . وقد ظلت هذه حال القوات العسكرية فى مصر الى أن ظهر الأتراك فى الدولة العباسية . ونحن لا نعلم على وجه التحديد كيف كانت تتكون قوات الولاة العباسيين المتأخرين

(١) خطط المقرئى .

(٢) تاريخ ابن اياس .

(٣) « وأما عسكره (عسكر السلطان سليم) فكانوا جميعا عيونهم دنية ونفوسهم قدرة يأكلون الأكل وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين ويتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة وليس لهم نظام يعرف لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم » . تاريخ ابن اياس . وهو يقول أيضا ان بنى عثمان منعوا تجار الرقيق من تزويد مصر بالممالك قبل أن يهاجموها .

حتى عهد ابن طولون وان كان من السهل أن نستنتج مما نعرفه عن جيوش العباسيين في ذلك الوقت انها كانت تضم عددا غير قليل من الأتراك . أما قوات ابن طولون فالمقریزی يقول انها كانت تتكون من ٤٠ ألف أسود و ٣٤ ألف تركي و ٧ آلاف مرتزق . كذلك يقول المقریزی ان قوات الأخشنيين كانت تتكون من ٤٠٠ ألف مقاتل من السود والترك المرتزقة . وقد هبط الفاطميون مصر بعد ذلك فظهر المغاربة في الجيش ولكنهم لم يستأثروا به فالمقریزی أيضا يقول ان العزيز بالله كان يستخدم الديلم والترك ويقدمهم على المغاربة والصقالبة من جند والده . وناصر خسرو — وقد زار مصر أيام الفاطميين — يقول ان قوات الخليفة المستنصر كانت تتكون من ٢٠ ألف فارس كسامي و ١٥ ألف مغربي و ٢٠ ألف أسود و ١٠ آلاف مشرقي بين تركي وعجمي ولد غالبهم في مصر^(١) و ٣٠ ألف عبد أسود ومشترى و ٥٠ ألف بدوي من الحجاز و ١٠ آلاف رجل من أجناس مختلفة وفرقة كاملة من أبناء الملوك وأمراء المغرب واليمن والروم والسرب والحبشة والهند وجورجيا ودلماسيا وتركستان الذين كانوا يقيمون في القاهرة ويلحقون بحاشية الخليفة^(٢) . ومن ثم يتضح أن قوات الفاطمية أيضا ظلت الى آخر أيامها قوات مختلفة لا تجمع بينها عصبية مشتركة .

وكانت القوات العربية التي اشتركت في الفتوح تقاتل باسم الأمة الاسلامية التي سيرتها اليها ولا تنال مقابل ذلك سوى الأرزاق التي يصرفها لها بيت المال . وظل هذا شأنها حتى كانت خلافة الأمويين واقدامهم على ايفاد القبائل الى مصر تقيم بها وتكون عوناً لولايتها على الانتفاضات القبطية اذ كانت الدولة تقطع حينئذ هذه القبائل بعض الأراضي التي تملكها فتستغلها وقت السلم فضلا عن الأرزاق التي كانت تتقاضاها . ثم كان ارتفاع موجة الأتراك في جيوش العباسيين وأمر المعتصم ولاته باسقاط أرزاق القبائل العربية ، ففقدت هذه القبائل صفة

(١) خطط المقریزی .

(٢) يفهم من هذا ان الموجة التركية لم تكن بلغت مصر بعد ونحن نجد الدليل على ذلك لدى المقریزی فهو يقول ان شراء الأتراك كان امرا عسيرا حتى عهد الصالح أيوب . خطط المقریزی .

الجندية وصاروا قوما مدنيين ينصرفون الى ما ينصرف اليه المديون عادة من أسباب الحياة . والظاهر أن اقطاع هذه القبائل في العصر الأموي كان يشتمل ، على الأقل من ناحية الواقع ، على عناصر الملكية بأوسع ما تنطوى عليه من معنى قانوني يحتمله تصور ذلك العصر . فنحن نعلم أن هذه القبائل كانت لا تزال توجد على اقطاعاتها في عهد المعتصم ^(١) ونستطيع أن نستنتج من ظروف اقطاعها أنها كانت تقطع كقبائل لا كأفراد ، فهي قد استجلبت لغايات الدفاع ولا مناص لها اذا من أن تقيم مجتمعة في مكان واحد . هذا الى أنه من العسير أن يكون الولاة قد أقدموا على اقطاع أعضاء هذه القبائل فردا فردا لما في ذلك من صعاب ادارية حمة ومخافة لطبيعة الملكية المشتركة التي لا يعرف البدو سواها عادة . وبديهي أن الأراضي التي تقطع لقبيلة بأسرها لا يمكن أن تعود الى الدولة الا بفناء القبيلة لأنها لو فرض وعادت قطعة قطعة بوفاة المنتفع المباشر لكل قطعة لما استطاعت الدولة أن تتصرف فيها بقطعها أو بيعها أو تأجيرها الى شخص من قبيلة أخرى أو من غير قبيلة ألبتة ، بالنظر الى عدم استطاعة المقطع الجديد العيش في قبيلة غير قبيلته . يضاف الى ذلك أنه ليس لدينا ما يثبت أن الدولة انتزعت من هذه القبائل بعض اقطاعاتها أو اقطاعاتها جميعا في يوم من الأيام .

وناصر خسرو يلاحظ ، في حديثه عن تكوين جيش الفاطميين ، أن هذا الجيش كان يتقاضى أرزاقه جميعا من السلطان ولا ينالها مباشرة من الأهالي بطريق الاقطاع كما كان الحال وقتئذ في المشرق ، الا أننا نجد لدى غيره من مؤرخي ذلك العصر ما يدل على أن الفاطميين عرفوا هم أيضا نظام الاقطاعات وان لم تكن هي بعينها اقطاعات العصر العربي أو الاقطاعات المشرقية . فالمقریزی يقول ان الأفضل ابن أمير الجيوش حل اقطاعات الجند الموجودة على أيامه ، وأمر الضعفاء منهم أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة في اقطاعات الأقوياء ثم أمر الأقوياء أن يتزايدوا في الباقي . ويضيف الى ذلك أن نظام التزايد هذا أصبح يتجدد كل ثلاثين عاما . وفي هذا ما يدل على أن الفاطميين كانوا يخصصون الجند لبعض أراضي الدولة على الأقل ، آخر أيامهم ، وان الجند كانوا يتزايدون

(١) خطط المقریزی .

في استغلال هذه الأراضي لأجل معلوم ثم يردونها للدولة فتطرحها للتزايد من جديد . والمقریزی لا يقول لنا كيف نشأ هذا الاقطاع ولكننا ندرك ما يقوله عنه أنه كان يفترق على وجه العموم عن الاقطاع العربي في أنه كان يعطى الى الجند بعد أن أصبحوا جندا مرتزقة تختلف أجناسهم ولا تربطهم بالدولة عصبية ما ؛ فهم يعملون اليوم لحساب هذا وغدا لحساب ذاك ولا يحتفظ بهم من يستخدمهم الا آجالا مضروبة أى انه كان أجرا ولم يكن كسابقه شكلا من أشكال الاستعمار الاجتماعى .

وقد انتشر هذا النوع من الاقطاع واتسعت حدوده اتساعا غربيا على أيام الأيوبيين فالمقریزی يقول ان صلاح الدين أقطع أخاه توران شاه قوصا وعيذاب واسوان ثم مدينة الأسكندرية ، وهو أمر لا سابقة له في مصر فقد كان الفاطميون يقطعون الأمراء خصوصا ، آخر أيامهم ، بعض الأراضي ، كما فعل الخلفاء الراشدين مع كبار المجاهدين وفعل الأمويون والعباسيون من بعدهم ، ولكنهم لم يقطعوهم ، فيما نعلم ، مدنا زاهرة كالأسكندرية أو قوص . ثم ان اقطاعات المجاهدين في عهد الخلفاء الراشدين كانت على ما يفهم مما نعلمه عنها اقطاعات تملك في حين كانت اقطاعات توران شاه هذه لا يمكن أن تكون الا مما يدعو كتاب العصر المملوكى باقطاعات الاستغلال ، أى الاقطاعات التى يقصر حق مقطعها على التصرف فى حصيلتها من الضرائب ، فقد كان سكان المدن المصرية يملكون الأراضي والدور فيها حتى أيام محمد على ولا يعقل أن تكون مدينة كالأسكندرية ملكا كاملا للدولة أول العهد الأيوبي . يضاف الى ذلك أن ما نعلمه عن تقسيم صلاح الدين مدن الشام بين ورثته ومزاولة كل من هؤلاء سلطة المقطع والحاكم فى نفس الوقت فيما أصابه منها يكاد يدفعنا الى الظن بأن صلاح الدين أراد من اقطاع الأسكندرية أخاه توران شاه اعطاءه هذه المدينة على الوجه الذى كان يأخذ به ورثته مدن الشام ويتبادلونها بينهم ، خصوصا اذا ذكرنا أن توران شاه كان من أكبر قواد صلاح الدين ان لم يكن أكبرهم على الاطلاق وانه أقام فى الأسكندرية بجنده ولعله كان يزاول السلطة العامة فيها أيضا .

والمقریزی يضيف الى ما سبق أن الأيوبيين كانوا آخر أيامهم قليلي

العدد كثيرى الخلافات غيورين على الاستقلال بأمرهم ، يحتفظ كل منهم بجند يختلف عددهم باختلاف أهمية اقطاعه ^(١) . ونحن نفهم من هذا أن الأمراء الأيوبيين كانوا يملكون على الأقل ، آخر عهدهم ، جيوشا خاصة ينفرد كل منهم بواحد منها ، فلم يكن بمصر وقتهم جيش واحد كجيش الدولة الذى رأيناه تحت الفاطميين ، ونفهم أيضا أنهم كانوا ينالون أجورهم وأجور جندهم الخاصة أولئك من غلة الاقطاعات التى كانوا يقطعونها ولا يتقاضونها من الخزانة العامة مباشرة كالأمراء الفاطميين . كذلك نفهم من قول المقرئى أن عدد جند الأمراء الأيوبيين كان يتناسب وأهمية أقطاعاتهم أن هؤلاء الأمراء كانوا يعطون الاقطاعات ليصرفوا منها على جندهم بعكس الأمراء الفاطميين الذين كانوا لا يتقيدون نظير اقطاعاتهم بالتزام عسكرى . وأبو المحاسن لا يدع لنا مجالا للشك فى هذا العنصر الأخير من عناصر الاقطاع الأيوبى حين يقول أن المعظم ملك الشام كتب لأهل دمشق بعد سقوط دمياط فى يد الأفرنج يقول : « اننى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألقى قرية منها ألف وستمئة أملاك أهلها وأربعمئة سلطانية وكم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمئة من العساكر ؟ » ^(٢) . ومعروف أن القرى السلطانية هى القرى التى كانت تعطى للحاكم .

وأتى المماليك بعد الأيوبيين فأكملوا هذا النظام وثبتوه فيما عدا اقطاع المدن ، فأننا لا نكاد نجد له أثرا تحتهم ، وبسطوه على أراضى مصر جميعا سوى ما وقف منها على أماكن العبادة ووجوه الخير . وكانت تدفعهم الى ذلك الظروف التى هبطوا فيها البلاد وتقاليدهم الاجتماعية ، لاسيما ما يتصل منها بتصور الدولة ، والحالة الاقتصادية التى وجدوها . فقد كان المماليك كما رأينا خليطا من الشعوب الآسيوية التى مزقتها المغل وكانوا يقدمون مصر فرادى أو زمرا لا تجمع بينهم عصبية كالعصبية القبلية التى كانت تجمع بين القبائل العربية التى قادها عمرو أو المغربة التى جاء بها المعز أو الكردية التى تبعت الأيوبيين ، لا يجمع بينهم سوى

(١) خطط المقرئى .

(٢) « النجوم الزاهرة » .

الأسر أو خشية الخطر المغولى أو طلب الرزق فيما بعد^(١) . وكانوا لذلك لا يهبطونها بالروح التى هبطتها بها هذه القبائل : روح القاتحين لبلد مغلوب أو المنشئين لدولة مكان دولة أو المستعمرين لأرض جديدة يستولون عليها بحق الفتح ويورثونها أبناءهم من بعدهم ، وإنما يهبطونها بروح ابن الريف الذى يقصد المدينة سعيا وراء الثروة أو المجد ان شئنا ولكنها الثروة الشخصية والمجد الشخصى لا مجد قوم بعينهم أو دين بعينه أو بلد بعينه . فكان قطز أحد أولاد أخت خوارزم شاه ملك خوارزم ، أسر وهو صبي وجلب الى مصر حيث جعل يتقدم فى جيشها حتى نصب سلطانا وتمكن من التتكيل بالمغل ولكنه لم يحاول ، على ما نعلم ، أن يقيم دولة فارسية جديدة أو أن يعيد الدولة التى قضى عليها أولئك المغل بالذات . وكان بيبرس من أسرى القجاق قصد به البنادقة الشام وقدموه الى أحد أمراء الصالح أيوب فجعل يتقدم حتى بلغ الامارة ثم قتل قطز بعد غلبه المغل فصار سلطانا لمملكة ضخمة ولكنه لم يعن بأن يستجلب من البلاد التى نشأ بها جندا يستعين بهم أو يمكنهم من بعض ملكه واستمر يعتمد على من كان يهبط مصر من الأسرى أو الفسارين أو الأرقاء ، أيا كان جنسهم ، بل دون أن يقدم بينهم من يأتى من بلاده على من يأتى من غيرها . وكان قلاوون من نفس الاصقاع جلب الى مصر صبيا وألحق بأحد أمراء الملك الصالح وجعل يرتقى فى مناصب الدولة حتى مات بيبرس زميله القديم فأخذ يتأمر على ولديه حتى تخلص منهما واستولى على عرشهما دون أن يصل به تفكيره بعد ذلك الى اقامة دولة قجاقية خاصة به أو بأبناء جلدته . وأعقب بيبرس وقلاوون عشرات السلاطين فلم يشذ عن سيرتهما أحد سوى كتبغا ، زوج بنت هولاكو ، الذى حاول أن يدعم ملكه بمن هبط خلفه مصر من المغل فثار عليه الأمراء وقتكوا به وردوا الأمر الى نصابه .

وكان نظام الاقطاع يرضى بعد ذلك تصور الممالك السلطة العامة

(١) ونحن نقرأ فى خطط المقرئى أن قوصون قال لبishtاك عند وفاة قلاوون وكانا يتنازعان على السلطنة : « أنا ما يجىء منى سلطان لأنى كنت أبيع الطمس والبرغالى والكشادين وانت اشتريت منى وأهل البلد يعرفون ذلك وانت ما يجىء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك » .

كمتاع خاص يستأثر به صانجه ويتصرف فيه كما يشاء . ونحن نعلم كيف كان الأيوبيون يقتسمون الممالك ويتبادلونها فيما بينهم وكيف كان الممالك يصرفون أمور الدولة كما يصرف صاحب الضيعة شئون ضيعته (١) وكيف كان النظام الاقطاعي يجعل من الدولة مجموعة دواوين متفرقة يستوى أصحابها في طبيعة الحقوق والواجبات ويستأثرون بالثروة الوحيدة التي يعرفونها ويستمدون من امتلاكها السلطة العامة في بلادهم وهى الأرض ، فضلا عما فيه من توزيع لبعض وظائف الدولة توزيعا لا يخلو أحيانا من الفائدة . كذلك نعلم أن السلاطين كانوا يصرفون أرزاق ممالكهم الخاصة من ديوانهم ويقطعون الأمراء وسائر الممالك اقطاعات يحصلون خراجها لأنفسهم حتى عهد لاجين . ثم أتى لاجين فحل اقطاعات الممالك وضمها الى اقطاعات الأمراء على أن يخصص هؤلاء ثلثي ريعها للممالك الذين يتبعونهم . وندرك من ذلك أن تبعة الجند للأمراء التى نشأت على أيام الأيوبيين ظلت قائمة تحت الممالك وان كان علو نفوذ السلاطين حال بين الأمراء والانقسامات التى حدثت خصوصا بالشام تحت الأيوبيين .

ولكن ما هذه الاقطاعات على وجه التحديد ؟ وكيف تكونت ؟ تكونت الى حد بعيد بفعل الظروف الخاصة بمصر فى ذلك الوقت ؛ فقد كانت الدولة تملك الى آخر أيام الفراعنة قدرا كبيرا من الأراضى (٢) ، وقد انتقلت هذه الملكية الى البطالمة والرومان واتسعت على أيامهم (٣) ، ثم ظهرت الكنيسة القبطية بإديرتها العديدة ودب الحلل فى الإدارة البيزنطية فانتقلت بعض هذه الملكية الى رجال الدين والأمراء المصريين الذين كانوا يشرفون على تلك الإدارة وبقي البعض حتى دخل العرب مصر ولا تزال الدولة تملك فيها شيئا وفيرا من الأراضى المزروعة (٤) أو الصالحة للزراعة فوهبوا بعضها القبائل التى نزحت اليها وجعلوا يؤجرون الباقي .

(١) وقد استمرت هذه العقليّة فى مصر حتى القرن التاسع عشر فكان الأمراء الممالك يتناطحون ويتصالحون فيقتسمون المديريات فيما بينهم . وقد أخرج السلطان العثماني الاسكندرية ورشيد ودمياط من ولاية محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر واحتفظ بها لنفسه وطلب أن يرسل اليه إيرادها . تاريخ الجبرتي .

(٢) هيرودوت .

(٣) بيري جوجيه : « تاريخ القانون العام المصرى القديم » .

(٤) خطط المقرئى .

والمقریزی يقول ان الولاية كانوا يؤجرون الأراضي الى آخر أيام الفاطميين صفقات صفقات آجالا لا تزيد في العادة على أربع سنوات^(١) ويدعنا ندرك مما يقوله عن الفاطميين انهم كانوا يسرفون ، آخر أيامهم ، في منح أراضي الدولة أو حق استغلالها كبار موظفيهم . وسواء كان الدافع الذي حدا بالفاطميين الى ذلك هو اتساع سلطان هؤلاء الموظفين أو الأزمات التي أصابت الخزانة العامة في آخر عهدهم أو الرغبة في استصلاح الأراضي الضعيفة باعطائها من يقوى على ذلك أو هذه الأسباب مجتمعة وهو الأرجح ، فقد سقطت الدولة الفاطمية وهي ما زالت تؤجر أراضيها لكل راغب وتنفق ريعها على موظفيها وجندها ومشاريعها العامة وظل الاقطاع على عهدها وجها من وجوه الانتفاع بتلك الأراضي وليس القاعدة العامة لهذا الانتفاع^(٢) .

وأتى صلاح الدين بعد ذلك فأورث قواده اقطاعات الأمراء الفاطميين وأتفق أموال الخليفة العاضد جميعا في حرب الصليبيين^(٣) ثم أراد أن يستميل أهل البلاد توطئة لازالة الدولة الفاطمية فألقى ضرائب الاستهلاك التي وجدها بها . وهنا كانت أزمة مالية شديدة اضطرت الحكومة معها الى اجتلاب الأموال من المشرق بعد أن كانت لا تجلب منه سوى الجند . وقد أعقبت حملات صلاح الدين على الصليبيين الغارات التي شنّها هؤلاء على مصر أو شنّها المماليك عليهم حتى سلطنة خليل بن قلاوون وأعقبت أزمتها المالية أزمات أخرى متوالية لم تشهد مصر نظيرها الا آخر أيام الفاطميين . فأبو المحاسن يقول ان العزيز ابن صلاح الدين اضطر أن يقترض كيما يدفع أجور موظفيه بينما يصف عبد اللطيف البغدادى الوباء الرهيب الذي أصاب مصر أيام العادل فيقول أنه أدخل المدن والقرى

(١) خطط المقریزی .

(٢) كان الفاطميون يخصصون ايضا بعض اراضي الدولة للانفاق من ريعها على الجيش أو الاسطول أو المرافق العامة الأخرى ويدعون هذه الأراضي اجباسا أو اقطاعات فكانت الاجباس الجيوشية واقطاعات الاسطول الخ . . . ولكن الاراضي المحبوسة كانت لا تعطى لمن ينفق عليهم من ريعها فيحصلون ريعها مباشرة كما كان الحال في الاقطاع الأيوبي والملوكي وانما كانت تبقى تحت يد الدولة فتستثمرها وتحصل ريعها ثم تنفقه أي أنه لم تكن هناك صلة مباشرة بين الجند والارض على أيامهم . انظر « نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين » لعطية مصطفى مشرفة .

(٣) خطط المقریزی .

من أهلها وخرب القاهرة وعود الناس أكل اللحم البشري • وقد عاد هذا الوباء على أيام الكامل وفتك بأهل القاهرة وأهل الريف مرتين وشعث حياة البلاد في الوقت الذي كانت تجارتها الخارجية تضطرب فيه غاية الاضطراب وكانت هي تضطر الى مواصلة القتال والاكتار من الجند ولا تجد موردا تعتمد عليه في مواجهة نفقات الحرب والمصروفات العامة عموما غير الأرض فلجأت اليها وجعلت تتعامل بها وتوفى التزاماتها عن طريقها • ونحن نعلم فعلا أن القاضي الفاضل كان يتقاضى مرتبه اقطاعا على أيام صلاح الدين ، وأن العادل أعطى الأرض جنده يزرعونها بعد وبائه المروع وان الاقطاعات جعلت تكثر بعد ذلك وتتسع حتى كادت تشمل ، آخر أيام الأيوبيين ، جميع الأراضي المزروعة ما عدا ما هو موقوف منها على وجوه الخير (١) •

وقد استقر هذا النظام كما قلنا تحت المماليك ونظمت أدواره جميعا تنظيما دقيقا فكانت الحكومة تسمح للأراضي الصالحة مسحا دوريا وتفرقها بين الأمراء والجند فيستغلها هؤلاء ويحصلون ريعها مقابل الخدمة العسكرية أو المدنية التي يؤدونها حتى اذا ماتوا أو تركوا الخدمة انتقل الاقطاع الى من يخلفهم فيها • وهنا نجد أهم الخصال التي انفرد بها الاقطاع المملوكي دون الاقطاعات التي سبقته فبينما كانت الاقطاعات العربية هبات تورث في القبيلة ، كما رأينا ، وكانت الاقطاعات الفاطمية منح لا يعادلها التزام من ناحية المقتطع عادة ، وكانت اقطاعات الأمراء الأيوبيين مثل أنصبة أعضاء العائلة الواحدة في ملك يتوارثونه ، وبينما كانت هذه الاقطاعات جميعا شيئا شخصيا ينشأ ويقوم ويكف قانونا حسب رغبة المقتطع وقدر المقتطع ، كان الاقطاع المملوكي منظمة مالية - ادارية ذات شخصية خاصة ، توجد بحقوقها وواجباتها ، سواء وجد من يسند اليه أو لم يوجد ، ويعطى للتمكن من الانصراف الى أداء أعمال عامة بعينها ، كما هو أمر الدرجات الآن في الميزانيات الحكومية أو أمر الوظائف الدينية في الكنيسة الكاثوليكية الى يومنا هذا • فهذه الكنيسة هي التي تملك ما تحت يد البابا وكرادته وأساقفته من مال أو عقار وهؤلاء جميعا ان هم الامتتعون ينشأ لديهم حق التمتع بهذا المال بالارتفاع الى المناصب التي ربط عليها ريعها • وهذا الحق لا يعدو حق صاحب الريع على دخل المال الذي يغله اذا كان لا يحوز هذا المال ، كما كان الحال في اقطاعات الاستغلال ، وحق

(١) خطط المقریزی •

المنتفع اذا كان يحوز هذا المال ، كما كان الحال في اقطاعات التملك (١) . وهو يعطى في الحالتين الى بعض أهل الدولة ورجال الجيش على وجه العموم بعد أن اضطرت البلاد أن تنشئ جيشا ثابتا في وقت لا موارد ثابتة لديها فيه سوى الأرض (٢) .

ونحن نفهم من ابن اياس أن العثمانيين لم يمسوا ، حين دخلوا مصر ، نظم الحكم القائمة بها الا من حيث تزويدها بما كان يقتضيه دخولها نطاق امبراطوريتهم من أجهزة تنفيذية جديدة ، فأحلوا نائبا لسلطانهم محل السلطان المخلوع ، وأقاموا الى جنبه قاضيا ومتصرفا للمالية ، وأضافوا الى القوات المملوكية التي وجدوها قوات أخرى توازنها ، وفعلوا ذلك كما يفعل رؤساء الحكومات عادة حين يديرون أمور المقاطعات المختلفة في البلد الواحد ويربطون بين أوصالها ، فقد يعمدون لاسناد مناصب الحكم فيها الى أصدقائهم أو أتباعهم أو ذوى قرباهم أيضا لثقتهم فيهم أو رغبتهم في اسعادهم دون أن يوقفوا عند لونهم القومي الذي يشاركون فيه الجميع (٣) . كذلك نفهم من ابن اياس أن المماليك احتفظوا بعد الهزيمة التي نزلت بهم وقتئذ بالاقطاعات التي كانت بيدهم بينما كانت القوات

(١) انظر هذا الرأي أيضا في Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelucks .

(٢) يقول بوشيه ليكلرك ان الجيوش الثابتة لم تعرف قبل ذلك الا في روما . ونحن نعلم من باريو أن الجيوش الرومانية كانت من أكبر عوامل الاضطراب الاقتصادي والمالي الذي اصاب الجمهورية منذ أيام ماريو وسيلا وقد انتهى الأمر بهذه الجيوش الى التحكم في الامبراطورية الرومانية كما فعل المماليك في مصر . باريو : « المبادئ العامة لعلم الاجتماع » .

(٣) « ثم أن ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها عسكره ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام وقرر من امرائه شخصا يقال له خير الدين باشا وجعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل الى المدينة . ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر اعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لانه خادم الحرمين الشريفين وحامي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين حيث قال اليس لى ملك مصر وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا . ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم اموالها وقتل ابطالها ويتم اطفالها واسر رجالها وبدد احوالها واظهر احوالها فلم يدخل اليها أحد من الخوارج ولا ملكها قط أحد ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان في زمن بختنصر البابلي » . تاريخ ابن اياس .

العثمانية التي استقرت في مصر تتقاضى من الخزانة العامة مرتبات دورية (١) وكان كبار الموظفين والقواد العثمانيين يجمعون بين المرتبات الدورية والاقطاعات طوال المدة القصيرة التي يقضونها بالبلاد . وقد رأينا أن الاقطاعات كانت توزع في عهد السلاطين بين أمراء الدولة لتمكنهم من النهوض بالتزامات عامة أهمها الاحتفاظ بعدد معين من المماليك ، ولكن انتقال مقر الحكم الى الآستانة وقيام قوات عسكرية الى جانب القوات المملوكية ، تشرف عليها الدولة مباشرة وتعددها قواتها الأصلية ، وهى القوات العثمانية ، وتقوى النظم المملوكية عموما ، انتهى قليلا قليلا الى القضاء على هذه الحدود ، وجعل من علاقة الأمراء بمماليكهم علاقة شخصية بحتة ومن الفرق المملوكية جيوشا خاصة تأتمر بأمر سادتها وتعمل لحسابهم . وبذلك أصبح عدد ممالك الأمراء مرتبطا بقدرتهم على الصرف لا بمركزهم في جيش الدولة وانفتح الباب أمام من يريد منهم لاقتناء المماليك وانشاء الفرق .

وقد استطاع الأمراء فعلا أن يزيدوا بفضل هذا الخلل في عدد ممالكهم وأن يرتفعوا به الى أرقام تفوق الأرقام التي كانت تبلغها القوات الحكومية ويصلوا من أعدادهم وتسليحهم الى ما كانت لا تصل الحكومة اليه من اعداد قواتها ويتمكنوا بذلك من أن يستولوا من جديد على غالب الأراضى الزراعية ويستبدوا بالمراكز الحكومية الرئيسية ويصيروا بكوات وسناجق وكشافا ، نعى قوادا وحكاما ومديرين ، ويقود الحامية العثمانية نفسها ويستأثروا بالديوان الكبير الذى يشرف على الحكم ويملك حق خلع الوالى ومحاكمته ورسم سياسته والانصراف بعد ذلك الى اشباع

(١) « وفى يوم الأربعاء رابع عشر رمضان نادى ملك الأمراء خاير بك

بأن المماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر يركبون الخيول ويشترى السلاح وكان قبل ذلك نادى فى القاهرة لتجار القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا من آلة السلاح فشق ذلك على العثمانية ووقفوا لخاير بك فى الحوش وكلموه وارادوا معه فتح باب الشر وقالوا له نحن ما يكفيننا هذا القدر الذى رتبته لنا وهو ثلاثة انصاف فى كل يوم وكل شيء فى السوق غال ثم قالوا له رتب لنا جوامك فى كل شهر الفين ولحما وعليقا وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة » . تاريخ ابن اياس .

ما كانت تدفعهم اليه طبيعتهم وتقاليدهم من شهوة التنافس على الافراد بالحكم والاعتماد في ذلك على قواتهم العسكرية الخاصة وما كانت تشاركهم فيه من قسوة وانكار لكل تقليد حضارى وجهل لمعنى الكرامة الانسانية . وهكذا ما كادت تهدأ العمليات الحربية التى مكنت العثمانيين من دخول مصر في الصدر الأول من القرن السادس عشر ، وما كاد الأجناد العثمانيون الذين دخلوا القاهرة والمدن المصرية الكبيرة الأخرى ينتهون من اشباع غرائزهم الهدامة ، وما كادت تسكن الاضطرابات المتوالية بين الفرق العثمانية المختلفة داخل أسوار المدن على الأرزاق والمرتبات والامتيازات العديدة ، حتى انفجر بركان غرائز هؤلاء البكوات ومماليكهم وظل يرسل حسه في غير هواة أو كلل الى أن دخل الفرنسيون البلاد في القرن الثامن عشر ، حتى ليكاد يقوم في روع من يتبع حوادث مصر في هذه الحقبة من تاريخها التعس انه في غابة موحشه تقتتل داخلها وحوش ضوار يفترس بعضها البعض وتفترس جميعا ما تلقاه بهذه الغابة من خلائق وادعة .

— ٢ —

ولكن النظام الاقطاعى كان يصطدم في مصر حتى آخر أيام السلاطين بما كان يعج به الوادى من حياة مدنية صاخبة . ونحن نعلم في شيء من الدقة ما كانت عليه هذه الحياة المدنية على أيام الفاطميين من رحلة ناصر خسرو بمصر في عهد المستنصر . وناصر خسرو يصف المدن المصرية التى زارها مدينة مدينة فيقول ان مدينة تينس ، أول ثغر يعترض المقبل على مصر من الشرق ، كانت مدينة صناعية هامة ، بها ١٥٠ ألف ساكن وما لا يقل عن خمسة آلاف نول للغزل وصناعة معدنية مزدهرة و ٣٦ معصرة سكر و ٣٦ حمام و ١٠٠ دكان لبيع الروائح وميناء لا يقل عدد المراكب الراسية بها عن ١٠٠ مركب . وكان دخل الدولة من تينس وقتئذ لا يقل عن ألف دينار يوميا حتى دفع ذلك امبراطور القسطنطينية الى مفاتحة الخليفة في مبادلته اياها بمائة مدينة من مدنه فلم يقبل الخليفة (١) . وناصر خسرو يقول أيضا ان القاهرة كانت تحتوى على عدد لا حصر له من الدكاكين ،

(١) خربت تينس في أيام العادل الأيوبي بسبب غارات الصليبيين . السلوك ، .

يبلغ ما كان يملكه الخليفة وحده منها ما لا يقل عن ٢٠ ألف دكان ، وسوق
للقناديل ترد اليها البضائع من جميع أنحاء العالم ومصانع للصيني والزجاج
والنحاس ومصارف تعج بالذهب والجواهر والنقود ومتاجر تضيق
بالأقمشة • ويضيف الى ذلك أن مصر وحدها كان بها ما لا يقل عن
٢٠ قيسارية ، ايجار الواحدة منها لا يقل عن ٢٠ ألف دينار في العام ،
ثم يلاحظ أن غزارة انتاج السكر والعسل والفواكه في البلاد كان يفوق
كل حد وان المديرية جميعا كانت توجه انتاجها الى القاهرة وتبيعه فيها •

وقد زار ابن جبير مصر في سنة ١١٨٣ (ابان العهد الأيوبي) فآعجب
بشرائها و ثراء مدنها التجارية على وجه الخصوص وهبط قوصا فوجدها
« حافلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من
الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض
الحبشة » • ثم سافر الى عيذاب بطريق الصحراء فراعه ما صادفه بها من
حركة تجارية وكتب يصف ذلك فقال : « ورما في هذا الطريق احصاء
القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولاسيما القوافل العيذاوية
المتحملة بسلع الهند الواصلة الى اليمن ثم الى عيذاب وأكثر ما شاهدنا
من ذلك أحمال الفلفل فلقد خيل الينا لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة » •
وكانت عيذاب حين زارها ابن جبير أكبر الثغور المعروفة شأنًا « بسبب أن
مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدا الى مراكب الحجاج
الصادرة والواردة (١) » •

وزار ابن بطوطة مصر في سنة ١٣٨٤ فوجد الأسكندرية تتجر اتجارا
واسعا خصوصا في العطور والسكر والحرير • ووجد دسوقا مدينة ضخمة
تبلغ ضعف الاسكندرية وتملك تجارة واسعة • وشهد بأسواق القاهرة
من السكر والمواد الغذائية والعطارة ما لم يره في عاصمة أخرى • وكانت
المدينة تزخر أيام زيارته لها بالسكان فلا يكادون يجدون ما يكفيهم
للبيات فيها ويبيت خارجها كل يوم لا أقل من مائة ألف ساكن • وكان
بمصر وحدها ١٢٠ ألف سقاء و ٣٠ ألف مكارى و ٣٦ ألف مركب نيلية •

(١) انظر « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » لزكى محمد حسن •

كذلك كانت أبيار مدينة كبيرة تصنع الثياب القيمة وتصدرها الى الشام والعراق، والمحلة مدينة جليلة حسنة كثيرة السكان، ودمياط مدينة صناعية تسليح السمك وتصدره الى الشام وبلاد الروم . وكانت مدينتا قوص ودلاص تصنعان الكتان وتصدرانه خصوصا الى افريقيا الشمالية ، وبهنسة تنسج الصوف الجيد ، ومنلوى تصنع السكر ، ومنفلوط تصنع العسل وتمتاز باناقتها . وابن بطوطة يقدر ما كان يحصل وقتئذ على البضائع المصدرة في جمرق قضاة زكاة بما لا يقل عن ألف دينار ذهب في اليوم ويلاحظ أن الأسواق كانت لا تنقطع بين القاهرة وأسوان حتى لا يكاد المسافرون يحتاجون الى حمل ما يطعمونه .

وفرسكو بالدي — وقد زار مصر في ذلك الوقت — يقول ان سكان القاهرة كانوا حين مر بها أكثر من سكان مقاطعة توسكانا الإيطالية جميعا وان عدد السفن الراسية في مينائها كان يفوق ما في موانئ البندقية وجنوا وانكونا معا ولا يقل على كل حال عن ١٥ ألف سفينة .

والمقرئ يصف الحالة الاقتصادية في مصر على أيامه فيقول : « وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القصبة (سوق من أسواق القاهرة) تحتوى على اثني عشر ألف حانوت كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلي الرملة الى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحيوانات غاصة بأنواع المأكول والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع فضلا عن احصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر في كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل ، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن والتى يوضع فيها الجبن والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاوية

وغيرها فان هذه الأصناف المذكورة اذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها أُلقيت الى المزابل^(١) » .

وفيت يقول ان مصر كانت تصدر الى أوروبا وقتئذ البردى والأقمشة وتصنع الورق والجلد والأثاث والحلى والعاج والأواني والزجاج والصيني والنسيج بكافة أنواعه . وهو يذكر ثروات بعض رجال ذلك العصر فيقول ان الأمير توران تاي ترك عند وفاته ٦٠ ألف دينار أى ما يعادل ٧,٥٩٠,٠٠٠ فرنك ذهبى و ١٧٠ قنطار فضة وممالك وقواني وجمالا وخيلا وبهائم وأملاكا وغلالا وسكرا وعسلا وأسلحة وجواهر لا حصر لها . وهو يقدر الخسائر التى أنزلها بعض الممالك بقصر أحد أمراء ذلك العصر فيقول انها بلغت نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ فرنك ذهب عدا الجواهر والأواني ثم يذكر أن بكتنار الساقى كان له سيف وسرج يبلغ ثمنهما ٦,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ذهب^(٢) .

كذلك يشيد هايد بأهمية التجارة فى حياة مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت ويقول انها كانت من الأسباب التى وجهت أوروبا بعد اخفاق الحملات الصليبية الى التفكير فى القضاء على المصريين بتحريم التعامل التجارى معهم^(٣) .

وقد كان هذا النشاط الصناعى التجارى يؤثر فى الحكم المملوكى ويتأثر به فهو الذى كان يوجه انتاج الأقاليم الى العاصمة كما لاحظ ناصر خسرو . فيصل بين أسواق البلاد جميعا فى وحدة اقتصادية شاملة ويحول بذلك بينها وبين الانقسامات التى عرفتها أوروبا بعد الغزوات الجرمانية وارتدادها الى الزراعة وتحول أسواقها الى أسواق محلية^(٤) . وهو الذى كان يركز الحياة الاجتماعية فى المدن والعاصمة على وجه الخصوص فيحول بين الأمراء الممالك والاستقرار فى اقطاعاتهم استقرارا

(١) خطط المقربرى .

(٢) « مساجد القاهرة » .

(٣) Hyde : Le commerce du Levant. (« تجارة الشرق »)

(٤) Pirenne : Histoire économique et sociale de l'Europe au

Moyen Age .

يتطور الى حركات انفصالية كالتى عرفتھا أوروبا الوسيطة فى ذلك العصر بالذات . ونحن لا نجد بالفعل أثرا لاستقرار الأمراء المماليك فى الأقاليم فى ذلك العهد ونعلم أن حكام المديريات كانوا عادة ، على أيام السلاطين ، من غير اصحاب الاقطاعات فيها ، ولا نعرف أميرا واحدا حاول أن ينشق باقطاعه عن الدولة، كما كان يحدث فى أوروبا كل يوم، فى حين أننا لا نعرف سلطانا واحدا لم يتآمر الأمراء عليه ليسلبوه عرشه ويخلعوه . يضاف الى ذلك أن اقامة الأمراء ومماليكهم فى المدن كانت تعرضهم لانغراء نشاطها الاقتصادى وتنتهى بهم الى الاشتراك فيه والاتصال بالمدينين وأطراح خصوصيتهم البدائية قليلا قليلا . وكان السلاطين والأمراء يشتغلون بالتجارة والصناعة فى بعض الأحيان كما كان المماليك ينتهون فى الغالب الى مراولة الحرف بل والاتجار باقطاعاتهم أيضا فالمقرىزى يقول ان أجناد الحلقة كانوا ينزلون عن اقطاعاتهم ويتقايضون عليها وان غالبهم كان يعد على أيامه بين أصحاب الحرف والصناعات^(١) . وقد ظهر هذا النوع من التجارة تحت شعبان بين الناصر وعاد الى الظهور تحت حسن بن الناصر واشتد فى أيام صالح بن الناصر الذى أذن للجند ببيع اقطاعاتهم والمقايضة عليها ثم أتى السلطان حاجى فمنعه^(٢) .

وكان الحكم المملوكى يصطدم أيضا ، خلف هذا النشاط الاقتصادى ، بالنظم العامة التى أقامها الاسلام فى مصر : نظم مملكة الله بدستورها القرآنى وقيمها الأخلاقية وتسويتها بين الجميع ما داموا من دين واحد . ومن ثم كان شبه الانقسام الذى نلاحظه على هذا الحكم بين السلطتين التنفيذية والتشريعية^(٣) . فقد رأينا كيف كان الأمراء ينصبون السلاطين بعد أن يقع اختيارهم عليهم أو يسطوا هؤلاء على العرش ولكن السلاطين كانوا لا يزالون السلطة الا بعد أن يبايعهم الخلفاء وينقلوا اليهم السلطات

(١) خطط المقرىزى .

(٢) « مصر فى العصور الوسطى » لعلى ابراهيم حسن .

(٣) ونحن نرى أثر ذلك فى تقسيم الوظائف الى وظائف قلم ووظائف سيف واشادة مؤرخى ذلك العصر بالوظائف الاولى ورفعهم اياها على الوظائف الاخيرة كما نجد اثره فى محاولة بعض الخلفاء استعادة السلطان . انظر خطط المقرىزى .

التي يمثلونها . غير أن محاولة تركيز السلطة في شخص السلطان على هذا الوجه كانت تؤدي في الواقع الى انقسامها^(١) بسبب انفراد رجال الدين بعد ذلك ، دون السلطان ورجاله ، بتفسير مبادئ الشريعة وتطبيقها واكمالها أي بجميع عناصر التشريع الاسلامي . ولعل مركز السلاطين كان لا يختلف من هذه الناحية كثير الاختلاف عن مركز الخلفاء الذين سبقوهم لو لم يكونوا، بحكم نشأتهم، غرباء على التشريع الاسلامي مشربين بروح تشريعية تخالفه راغبين الى ذلك في احترام هذا التشريع بحماسة اليافع الذي يعتنق ديناً جديداً . فقد كان ذلك يزيد في حاجتهم الى القائمين بهذا التشريع ويؤدي الى تقلص سلطتهم التشريعية وقصورها، من ناحية الواقع، على تعيين شيخ الاسلام أو القاضي الذي يتفق رأيه وغايتهم ، في حالة اتجاههم الى غايات معينة ، أو عزله اذا لم يتفق معهم باعتباره موظفاً من موظفي الدولة التي نزل الخليفة لهم عن رياستها^(٢) .

وقد كان السلاطين يجدون هؤلاء القضاة عادة كلما كان زمام السلطة مستتباً في يدهم وكانت الأمور لا تعدو حداً معيناً من الخطورة وكان في الرأي العام تيار يقبلها أما فيما عدا ذلك فكان من العسير أن يجدوهم وكانوا لا يجدونهم فعلاً في غالب الأحوال . وكان القضاة يجمعون وقتئذ، الى سلطة التشريع، سلطة المحاكمة واثفاذ الأقضية وإدارة أموال المؤسسات الدينية ، ويزاولون بذلك سلطة تشريعية - قضائية - إدارية واسعة^(٣) ، كانت تكفل للشريعة الاسلامية وقتئذ السيطرة على تشريع

(١) وكان السلطان في العصر المملوكي يلقب فعلاً بقسيم أمير المؤمنين .
على إبراهيم حسن .

(٢) والقلقشندي يتكلم عن الملك في نظر أهل عصره فيقول انه « يحتاج الى أشياء ثلاثة : رسم ما يجب للسلطان واستخراج الأموال ثم صرفها على رجال السلطان » . « صبح الأعشى » .

(٣) وما زال لهذا النظام بقية في اختصاصات قاضي القضاة في السودان الآن فهذا القاضي يضع القوانين واللوائح ويشرف على الأوقاف والمساجد والشئون الدينية والاجتماعية . انظر مقال « قاضي القضاة في السودان » ،
الاهرام في ١١/١١/١٩٤٦ .

الدولة، دون ما عداها من القوانين والتقاليد ولا سيما التقاليد المغولية التي انتشرت في مصر في ذلك العهد . ونحن نعلم بانتشار هذه التقاليد من المقریزی أيضا فهو يقول : « أعلم أن الناس في زماننا بل ومنذ عهد دولة تركيا بديار مصر والشام يرون أن الأحكام على قسمين : حكم الشرع وحكم السياسة . ولهذه الجملة شرح فالشريعة هي ما شرع الله تعالى من الدين وأمر به كالصلاة والصوم والحج وسائر أعمال البر ... » « ... والسياسة نوعان سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهي من الأحكام الشرعية علمها من علمها وجهلها من جهلها وقد صنف الناس في السياسية الشرعية كتباً متعددة . والنوع الآخر سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها . وليس ما يقوله أهل زماننا في شيء من هذا وإنما هي كلمة أصلها ياسة فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سينا فقالوا سياسة وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك . واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام وذلك أن جنكيزخان القائم بدولة التتر ببلاد الشرق لما غلب الملك أوك خان وصارت له دولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسة ومن الناس من يسميه يسق والأصل في اسمه ياسة ولما تم وضعه كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم » .

وبعد أن يأتي المقریزی على بعض أحكام السياسة هذه يقول : « فلما كثرت وقائع التتر ببلاد الشرق والشمال وبلاد القجاق وأسروا كثيرا منهم وباعوهم تنقلوا في الأقطار واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أيبك ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت وهزم التتار وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام وخطب للملك بركة بن جيوش بن جنكيزخان على منابر مصر والشام والحرمين فقصد أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم . هذا وملوك مصر وأمرأؤها وعسكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكيزخان وبنيه وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم وكانوا انما رهبوا بدار الاسلام ولقنوا

القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل وضموا الجيد الى الرديء وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية كالصلاة والصوم والزكاة والحج وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا اليه النظر فى الأقضية الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك واحتاجوا فى ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكيزخان والاقتداء بحكم الياسة فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم والأخذ على يد قويمهم وانصافهم الضعيف منهم على مقتضى ما فى الياسة وجعلوا اليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات » • ثم يقول : « وكان أول ما حكم من الحجاب فى الدولة التركية بين الناس بمصر أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون استدعى الأمير شمس الدين بن سنقر الناصرى نائب طرابلس ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير سيف الدين وعينه أميرا حاجبا كبيرا يحكم بين الناس فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وستمئة فحكم الناس كما كان نائب السلطنة يحكم وجلس بين يديه موقع من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوه ^(١) » •

ونحن ندرك من أخبار المقريزى هذه أن الممالك كانوا يحتفظون بقوانينهم وتقاليدهم الأصلية وأن علاقتهم بعضهم ببعض كانت تخضع لهذه القوانين ولا تخضع للشريعة الاسلامية اللهم الا فى الحالات التى يقرر فيها السلطان تطبيق هذه الشريعة عليهم لسكوت القوانين الأصلية أو نقصها • وندرك أن غير الممالك أيضا كانوا يستطيعون المطالبة بتطبيق هذه القوانين فى دعاويهم ويجدون فى شخص أحد الأمراء ، وهو الحاجب الذى رأينا ، القاضى الذى يقضى لهم بها • وقد يكون بعض أحكام السياسة هذه من وضع الادارة الحكومية أو املاء ضرورات الحياة

(١) خطط المقريزى • وأبو المحاسن يقول من ناحيته : « ولما ان تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيزخان هذا وأموره ففعل ما أمكنه ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف على ما نذكره ان شاء الله فى ترجمته » • « النجوم الزاهرة » •

اليومية حينئذ ، نغنى أحكام قانون وضعى فى دور التكوين • وقد يكون العمل بها أثرا من آثار الأزمات النفسية التى كانت تعترى السلاطين من حين الى حين لقرب عهدهم بالاسلام • ولكن الذى لا شك فيه هو أن غالب هذه الأحكام كان مأخوذا من قانون جنكيزخان وطرائق المشاركة ، كما يقول المقرئى ، وانه كان يؤثر فى النظم القانونية القائمة بمصر ويتأثر بها الى حد بعيد ، وأن ظلت أسس هذه النظم هى الأسس الاسلامية لاصطباغ الدولة بالطابع الدينى وقصور القوانين المغولية عن معالجة أوضاع المجتمعات المتمدنة التى لم تكن تعرفها حين وضعت • ومن الطبيعى بعد ذلك أن يشتد تفاعل الشريعتين فى دائرة القانون العام ، بسبب اشتراك الممالك فى الدولة اشتراكا فعليا واسعا ، ويخف خارجها شيئا فشيئا حتى يكاد ينعدم فى دائرة الأحوال الشخصية وهى الدائرة التى لا يقبل الاسلام فيها نزىلا • وقد رأينا كيف كان نظام الجيش حينئذ مغوليا وكيف كان تكوين الحكومة مغوليا أيضا ورأينا الى أى حد تأثرت الملكية الزراعية بهذه النظم فى حين أننا نعلم من المقرئى أن السلاطين كانوا يمنعون المأذونين من تزويج الممالك فيضرب المأذونون بمنعهم عرض الحائط (١) •

كان الحكم المملوكى اذا فى جوهره حكما بدائيا نشأ كظاهرة طبيعية من ظواهر الحروب الضروس التى توالى على مصر بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر • ثم مالت سورة هذه الحروب الى الهدوء ففقد هذا الحكم حكمة قيامه وقل معينه من الرجال واختلت نظمه وتحول الى ذلك الشئ البشع الذى يتبادر الى نفسنا الآن حين نذكر عصر الممالك • وكانت الحياة المدنية المصرية بحيويتها الذاتية والأوضاع الاسلامية التى اتخذتها تحد من أثر عيوب هذا الحكم بل وتكاد تخرج به عن طوره من حين الى حين وظلت تقوم بوظيفتها هذه على خير وجه حتى ابان عهد الممالك الجراكسة وهو عهد توالى الأزمات المالية الحادة وما صحبها من انحلال فى النظم المملوكية وغلبة الطابع العسكرى على المناصب العامة ،

(١) خطط المقرئى •

اذ انعكست الآية حينئذ وجعل هذا الحكم يعصف بالحياة المدنية وينخر في عظام البلاد جميعا حتى انتهى بها الى ما وجدها عليه محمد على في القرن الثامن عشر .

والمقرىزى يرجع بأول الأزمات المالية الى اجتياح تيمورلنك الشام في القرن التاسع فهو لا يكف عن الشكوى مما يدعوه بالبلاء الكبير الذى حل بمصر وقتئذ اذ مزق تيمورلنك الشام وهبط النيل واضطر الفلاحون الى بيع أولادهم وترك أراضيهم . ولكنه يرجع به قبل ذلك الى فساد الحكم وجهل القائمين به فيقول في « كشف الغمة » :
« وسبب ذلك كله (الأزمة المالية على أيام برقوق) ثلاثة أشياء لا رابع لها : السبب الأول وهو أصل الفساد ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال حيث لا يمكن التوصل الى شىء منها الا بالمال الجزيل فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ الى مالم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة » .

ويبين المقرىزى بعد ذلك ما يضطر اليه المعينون لسد ما يقترضونه في سبيل تأدية الرشوة من تعسف مع المكلفين ثم يقول :
« فلما دهم أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم وتمزقوا كل ممزق وجلوا عن أوطانهم فقلت مجالب البلاد ومتحصلها لقللة ما يزرع بها وخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم وعلى من بقى منهم » .

ويشير الى بعض ما حدث تحت برقوق من احتمال الناس ذلك لقرب عهدهم به ثم يقول : « وانسحب الأمر في ولاية الأعمال بالرشوة الى أن مات الظاهر برقوق وحدث بموته اختلاف بين أهل الدولة الى تنازع وحروب قد ذكرت في كتاب مفرد فاقتضى الحال من أجل ذلك ثورة أهل الريف وانتشار الزغار (اللصوص) وقطاع الطرق فخيفت السبل وتعذر الوصول الى البلاد الا بركوب الخطر العظيم وتزايدت غباوة أهل الدولة وأعرضوا عن مصالح العباد وانهمكوا في اللذات لتحقق عليهم كلمة العذاب » .

« السبب الثانى غلاء الأتيان : وذلك أن قوما ترقوا فى خدمة الأمراء يتزلفون اليهم بما جابوا من الأموال الى أن استولوا على أموالهم » . ويشير الى ما عمدا اليه هؤلاء من زيادة أجر الأراضى ثم يقول : « فخرّب بما ذكرنا معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة وقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض بموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب ولعجز الكثير من أرباب الأراضى عن زرعها لغلو البذر وقلة المزارعين وقد أشرف الاقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار ... »

« السبب الثالث رواج الفلوس ... » ثم يصف الأدوار التى مر بها النقد فى الامبراطورية الاسلامية وآثار تضخمه فى الاقتصاد المصرى على أيامه . وفييت يميل للرجوع بالأزمات المالية فى هذا العهد الى الانقباض الذى كان آخذا سبيله الى الصناعة المصرية وقتئذ^(١) ، بينما يميل الدكتور زيادة لردها الى اسراف السلاطين فى فرض الرسوم على تجارة الشرق^(٢) . ولا شك فى أن هذه الأزمات كانت ترجع الى هذه الأسباب جميعا ، كما كانت ترجع الى اضطراب الأمن فى المدن التجارية من جراء تطاحن الممالك المستمرة داخلها . وترجع أيضا ، خصوصا فى المراحل الحادة التى مرت بها بعد ذلك ، الى السبب العالمى الذى يكشف عنه ابن اياس حين يشير الى ما أثارته أخطار وصول البرتغاليين الى رأس الرجاء الصالح ، فى القرن الخامس عشر ، فى الأسواق المصرية ، من جزع شديد . وقد سبق لنا نحن أن رأينا كيف كان البحر المتوسط يتجه منذ القرن الثالث عشر للتحويل الى طريق من طرق المبادلات التجارية بين بلاد الشرق الأقصى وشعوب أوروبا الشمالية الجديدة بعد أن ظل زمنا طويلا عالما قائما بذاته يحيا من حياة الشعوب القائمة على ضفافه ولا يعرف لغيرها نشاطا ملموسا . كذلك سبق أن رأينا كيف أخذ بحر الشمال ينشط فى ذلك الوقت أيضا كأداة من أدوات التبادل بين شعوبه تلك الجديدة ثم كطريق لبيعى لاستيراد ما كانت تحتاج اليه هذه الشعوب من سلع الشرق الأقصى وبلاد البحر المتوسط ، حين اتسع أفق التجارة الدولية وفضل التجار النقل البحرى على النقل البرى فى جلب سلعهم من الموانئ الإيطالية الى

(١) « مساجد القاهرة » .

(٢) M. Ziada : Foreign relations of Egypt in the fifteenth century

بلادهم ، عبر القارة الأوروبية جميعا . وكان من علامات هذا التحول ما اشتعل حينئذ من منافسة شديدة بين البندقية ، التى كانت تحتكر الجزء الأكبر من هذه التجارة ، واسبانيا والبرتغال ، اللتين كانتا تنازعاها أياها بسبب ما تتمتعان به من وضع جغرافى يفضل وضع الموانئ الإيطالية بالنسبة الى ثغور أوروبا الشمالية ، وما حاولته البندقية أيضا بعد ذلك من الخروج بسفنها الى عرض المحيط ، وما كان يبعثه كل ذلك من انتعاش فى موانئ الجزيرة الأسبانية واقبال عليها وظهور لشعوبها على مسرح التجارة الدولية .

وكان انفجار الطوفان المغولى واتجاهه شطر آسيا الصغرى وشواطئ البحر المتوسط الشرقية يبعث فى الطرق التجارية الشرقية فى ذلك الوقت بالذات بعض ما كان يحدث فى الطرق الغربية من اضطراب فهو قد وسع آفاق التجارة العالمية بضمه آسيا الوسطى إليها ولكنه فتح أمامها أيضا طرقا شرقية جديدة جعلت تنافس الطرق القديمة ومن بينها طريق الاسكندرية . وقد دبت الفوضى بعقب ذلك فى الممالك الآسيوية التى انحسر عنها هذا الطوفان فعادت التجارة العالمية الى طرقها القديمة . ثم أقبل العثمانيون ونصبوا الحرب للمسيحية فى البلقان والبحر المتوسط شرقه ووسطه فاشتد تحول هذه التجارة الى غربه ^(١) وتضافرت الحاجة وما كانت الملاحة البحرية قد بلغت من تقدم على الانتهاء بالبرتغاليين الى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أى الطريق البحرى المباشر الى سلع الشرق الأقصى . وكشف كولمبوس عن أمريكا فيما بعد ، وهو يجد فى البحث عن طريق أخرى الى تلك السلع بالذات ، فتركزت المبادلات الدولية فى الأطلنطيق وبحر الشمال واتصلت أوروبا الجديدة اتصالا مباشرا بموارد السلع التى كانت تبتاعها من البحر المتوسط ووضعت يدها على منابع الثروة الأمريكية ^(٢) .

(١) هايد : « تجارة الشرق » .

(٢) الأستاذ بيزلى يرجع بأول محاولة لاكتشاف طريق الهند البحرى الى بعد سقوط عكا فى يد المسلمين سنة ١٢٩٢ وقنوط أوروبا من الاستقرار فى الشرق الإسلامى . Beazly : Down of Modern Geography عن المرجع السابق للدكتور زيادة .

وقد بدأ هذا التحول في القرن الثالث عشر وظل بطيئا الى ما بعد اكتشاف طريق الرجا الصالح ، اذ كانت جمهرة التجار تفضل الطرق القديمة على هذا الطريق ، واستطاعت البندقية أن تقاومه حيناً ثم تحولت الى دولة زراعية عزيزة الجانب وعاشت كذلك الى قبيل الثورة الفرنسية . ولكن مصر لم تبذل في سبيل هذه المقاومة مسعى جديا ما ، فقد قنع السلطان الغورى ، حين بلغه نبأ وصول البرتغاليين الى الهند عبر المحيط ، بأن يتوعد ملكهم بالاعتداء على القدس ان لم يقلع رجاله عن طرق هذا الطريق . ثم اشترك مع البندقية في حملة بحرية أرادوا بها القضاء على الأسطول البرتغالى . وقد أخفقت هذه المحاولة كما لم يجد الوعيد الذى سبقها واستمر البرتغاليون يجوبون المحيط بينما كانت الالتقاضات المملوكية المتوالية تدفع بالتجار دفعا الى ترك طريق مصر وتفضيل الطريق البحرية عليها . وهنا جعلت موارد الدولة تهبط هبوطا شديدا وكثرت ثورات المماليك على الأمراء وثورات الأمراء على السلاطين وانتهاز البدو هذه الثورات جميعا للامعان فى السلب والنهب حتى صارت الحياة فى القاهرة والمدن الأخرى جحيما لا طاقة لقوة بشرية باحتماله . وبينما كانت الفوضى الاقتصادية تضرب أطناها فى مصر على هذا الوجه ، كان العثمانيون يزحفون الى آسيا الصغرى ويخضعونها بلدا بلدا ثم يقتحمون مصر نفسها ويضعون باقتحامها حدا لتلك الحرب العاتية التى كانت آسيا المغولية تشنها على العالم العربى منذ القرن الثالث عشر وكان المصريون كسبوا معاركها المتوالية الى ذلك الوقت ، فخرست القاهرة مركزها كطريق مبادلات أوروبا مع الشرق وعاصمة أكبر امبراطورية اسلامية أعقبت الخلافة العباسية ، ونزلت عن تجارتها الشرقية للقسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية الاسلامية الجديدة^(١) ، وخرجت بذلك من مجرى التاريخ ، ان صح هذا التعبير ، لتقع فريسة أبشع ما عرف عن سيئات الحكم المغولى .

وقد سبق أن رأينا ما أدى اليه قيام هذا الحكم فى مصر من انتشار نظام الاقطاعات بها انتشارا واسعا ، وخروج الأراضي التى كان يشملها ،

(١) هذا الى تعطل الصناعة أيضا فابن اياس يقول : « وفى بدء اقامة ابن عثمان فى القاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل وبطل فيها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها ولم يعمل بها فى أيامه بمصر » . تاريخ ابن اياس .

وهى يومئذ كافة الأراضي المزروعة ، فيما عدا الموقوف منها على وجوه الخير ، من دائرة المعاملات الفردية للتحويل الى ملكية عامة تأجر بها الدولة عمالها . وقد أدى انتشار الاقطاعات هذا بدوره الى القضاء على ما كان صائرا الى الظهور تحت الفاطميين من ملكيات خاصة . ونحن نعلم بوجود هذه الملكيات من المقرئى فهو يقول ان القاضى الرشيد بن الزبير تحقق فى أيام الخليفة الأفضل الفاطمى أن أرباب الأملاك فى الصعيد سطوا على ما يجاور أملاكهم من أملاك الدولة وان الحكومة أقرت هؤلاء الملاك فى ملكيتهم غير الشرعية هذه تشجيعا لها وترغيبا لأهل الصعيد فى استصلاح أراضيه (١) . ولاشك أن أراضى مصر السفلى كانت تسير فى هذا الاتجاه هى أيضا بسبب ارتباطك أمور الدولة واتساع نفوذ الأمراء والوزراء وأتباعهم . كذلك لاشك فى أن انتشار نظام الاقطاعات ذلك هو الذى أدى الى وقوف تطور الملكية فى مصر فى ذلك الوقت ، فما دامت الأراضي لا تملكها الا الهيئات العامة التى تدخل فى صلب الدولة ، وما دام الذين ينهضون بهذه الهيئات لا يتمتعون ازاءها الا بحق انتفاع موقوت فمن العسير ان لم يكن من المستحيل أن يمتلك الأفراد شيئا منها بوسيلة من الوسائل التى تنشأ بها الملكية الخاصة .

ونحن نعلم من المقرئى أيضا أن الزراعة لم تكن بوجه عام على نصيب كبير من الازدهار على أيام المماليك بسبب اهمال الحكومة الأرض وقلة اليد العاملة وعسف الملاك على وجه الخصوص (٢) . وقد يكون فى قول المقرئى هذا شيء من الاسراف فقد كان الرجل ناقما على حكام عصره . ومع ذلك لاشك أن الزراعة فى مصر كانت تمضى فى الاضمحلال منذ آخر أيام المماليك البحرية ، على أقل تقدير ، وأن الصحراء كانت لا تنفك تطفئ على الأراضي الزراعية ، كما كان أبناءها البدو يهاجمون المدن . ولاشك أن كل هذا كان يرجع الى الاهمال قبل كل شيء ، فمصر واحة كبيرة والكفاح بينها وبين الصحراء قديم قدم تاريخها الطويل وهذا الكفاح يقتضى عناية خاصة بمنشآت الرى وقد كانت هذه العناية من أسس الحكومة الفرعونية والحكومات التى أعقبتها بينما كانت تكاد لا يكون لها وجود فى عهد المماليك بسبب تصورهم الخاص للدولة وما كان ينبى عليه من نظرهم الى المنشآت العامة كمنشآت خاصة تقام

(١) خطط المقرئى .

(٢) خطط المقرئى .

أو لا تقام حسب هوية المقطع العارضة أو مصلحته المباشرة أو رغبته في ترك ما ينبه به ذكره . وسائر منشآت ذلك العصر من مدارس وجوامع وخلجان ، فيما عدا ما أقامه السلاطين منها بدافع الظروف الملحة ، إقامة الأمراء على هذا السبيل . ونحن ما زلنا نقرأ لابن آياس والجبرتي وغيرهما من مؤرخي ذلك الوقت فنشعر وكأن غالب الأراضي المصرية صارت صحراء يضرب البدو في جنباتها .

وكما تأثرت الثروة الزراعية بالحكم المملوكي تأثرت به الملكية العقارية في المدن أيضا فانتشرت بها الأوقاف انتشارا كبيرا . والأوقاف ضرب من الاقطاع للمؤسسات الدينية ينفرد دون الاقطاع العادي بطول الأجل نظرا لاستطاعة هذه المؤسسات البقاء أجيالا متوالية وعدم استطاعة الدولة حلها ما دامت تقوم بوظيفتها الدينية . ولاشك في أن هذا العنصر الأخير كان من الأسباب التي مالت بأهل ذلك العصر الى الاكثار من الأوقاف فقد كان الأمراء لا يستطيعون حفظ اقطاعاتهم لذريتهم وكان اقبال السلاطين على استصفاء أموال الأمراء وكثرة تأمر هؤلاء بعضهم على بعض وعلى السلاطين يعرض بحياتهم وما يملكون جميعا الى الدمار ويقضى على كل ثقة لديهم في المستقبل . ولم يكن لذلك ثمة سبيل الى النجاة من هذا الاضطراب وحفظ بعض ثروة الآباء للأبناء ، ثم اثبات الملكية بطريقة قاطعة في وقت كانت تعد فيه شيئا فذا يفتقر الى الدليل القوي الثابت ، سوى الخروج بها من دائرة سلطة السلطان وأمراءه باشرائه الأغراض الدينية التي كانوا لا يعرفون حرمة لسواها في الاقادة منها . ولما كانت الدولة تبيع وقتئذ تملك الأرض التي يبيعها بيت المال والأرض التي تستصلح وكان الأمراء يستطيعون بنفوذهم وسعة وسائلهم أن يحصلوا على هذه الأراضي وينشئوا بذلك لأنفسهم ملكية عقارية حقيقية فقد انتشرت الأوقاف حينئذ انتشارا واسعا حتى فكر السلطان برقوق في حلها والاستعانة بها على مواجهة مصاريف الدولة فوقف المشايخ في وجهه ومنعوه (١) .

(١) والحكر صورة ثانية لظاهرة الاقطاع فهو في الأصل أرض مهجورة يبنى عليها من ينالها بوضع اليد أو يهيئها للبناء أو يزرعها بستانا فتنتقل ملكيتها اليه ويستطيع التصرف فيها كما يشاء . ولم يكن الأمر وقتئذ فيما يتعلق بالوقف مقصورا على الأمراء اذ كان كل ثرى يثبت ملكيته بشكل أو آخر يستطيع أن يحولها الى وقف اما الحكر فنحن لانجده في الغالب الا بيد السلاطين والأمراء لأن الحصول عليه كان يقتضى نفوذا لا يكفى دونه الشراء .

ولكن أشد آثار الحكم المملوكى فى حياة مصر الاقتصادية على الإطلاق كان دون شك ذلك الذى أصاب نشاطها الصناعى والتجارى . ونحن نشهد هذا الأثر بأشع صورته فيما وجد الفرنسيون عليه الصناعة والتجارة المصريتين فى نهاية القرن الثامن عشر فقد كانت الصناعة تقتصر وقتئذ على صنع ما تحتاج اليه السوق المحلية وبعض أسواق سوريا وأفريقيا الشمالية والوسطى من أنواع النسيج والأغذية والأدوية بطرق بدائية عتيقة . وكانت التجارة لا تعدو تصدير بعض الخامات المتوفرة فى البلاد كالقمح والأرز والجلود والعسل والفول والكتان والبلح ، واستيراد بعض الخامات كالعاج وريش النعام والجلود والنظرون والشب والذهب والعبود من أفريقيا وبعض المصنوعات كالصابون والمنسوجات والأسلحة والدخان من الشام . وكانت صادرات مصر الى أفريقيا الوسطى أقل بكثير من وارداتها منها بينما كانت صادراتها الى البلاد العربية تعادل ثلثي وارداتها من هذه البلاد^(١) . ومؤلفو « وصف مصر » يقدرّون ربح مصر من تجارتها مع فرنسا وإيطاليا بما لا يزيد على ٥٠ ألف قرش فى السنة ومن تجارتها مع أفريقيا الوسطى بأثنى عشر ألف قنطار من تراب الذهب ومن تجارتها مع السلطنة العثمانية بمليون ريال ، كانت تخسر جزءا كبيرا منها فى تجارتها مع جدة لامتناع هذه عن قبول المنسوجات المصرية ، ويحسبون إيرادات الجمارك المصرية جميعا بنحو ثلاثة ملايين فرنك فى العام . وهذه الأرقام تتعلق بالتجارة المصرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أى فى الوقت الذى عادت أوروبا تنظر فيه الى البحر المتوسط وتتصل بالشرق من جديد وهى تمثل لذلك حالة انتعاش بالقياس الى المدة السابقة .

وقد كانت مصر حين نزلها الفرنسيون فى نهاية القرن الثامن عشر تتكون من بضع مدن يشبهها مؤرخو الحملة بالقرى الكبيرة ، لا يزيد عدد سكانها جميعا على ٣٣٩٨٠٠ ساكن ، و ٣٦٠٠ قرية ، لا يزيد متوسط عدد سكان كل منها على ٥٣٤ ساكنا . وكان تعداد المصريين جميعا لا يزيد على مليونين ونصف . وكانت القاهرة ، عروس الشرق وثانى مدينة فى السلطنة العثمانية ومركز الحياة المصرية الوحيد فى ذلك الحين — القاهرة التى

Figari : Studi scientifici sull'Egitto . (١)

كانت حين زارها ابن بطوطة لا تكاد تسع سكانها من كثرتهم وكان أهلها في صبي المقریزی لا يلبسون الا المهاميز الذهب — كانت القاهرة مدينة نصف خربة لا يزيد عدد سكانها على ٢٦٠ ألفا منهم ١٢ ألف مملوك وجندى و ٣٠ ألف خادم و ٣ آلاف حفار و ٢٥ ألف صانع و ١٥ ألف عامل أجير (١) و ٥ آلاف بائع وألفا قهوجى و ٦ آلاف مالك وألفا تاجر (٢) بينما كانت الاسكندرية ، عاصمة البحر المتوسط قرونا عديدة ومركز التجارة الدولية في العصور الوسطى ، قرية كبيرة لا يزيد عدد سكانها على ثمانية آلاف ساكن يشتغلون بالصيد والنسج وصناعة الصابون وتأتى في الأهمية بعد رشيد . وكان ما بين الأسكندرية ورشيد صحراء يابا وما بين القاهرة والأسكندرية قرى منتشرة وأكواخا قدرة . أما الصعيد فكان منفى البكوات وميدان الحروب الداخلية المختار بين من يضطر من الأمراء المماليك الى مغادرة القاهرة فرارا من شر زبانياتها .

والجبرتي يصف في تاريخه الحالة الاقتصادية قبيل دخول الفرنسيين مصر فيقول: « وانقضت هذه السنة (سنة ١١٩٨ هجرية) كالتى قبلها في الشدة والغلاء وقصور النيل والفتن المستمرة وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم في النواحي لجلب الأموال من القرى والبلدان واحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ودفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطقشوا من بلادهم ، فحولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين في بيوتهم فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ما هم فيه من المصادرات الخارجية من ذلك وتبع من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف ما قدر عليه وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلية . ولما تحقق التجار عدم الرد استعاضوا خساراتهم من زيادة الأسعار ثم مدوا أيديهم الى الموارث فاذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لا وصار بيت المال من جملة المناصب التى

(١) يقدر كتاب « وصف مصر » أجر العامل اليومي حينئذ بما لا يزيد

على ١٥ بارة .

(٢) لا يزيد عدد الفرنسيين بينهم على ثلاثين .

يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه في كل شهر ولا يعارض فيما يفعل في الجزئيات وأما الكليات فيختص بها الأمير . فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء الا من تداركه الله برحمته أو اختلس شيئا من حقه فان اشتروا عليه عوقب على استخراجهم وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد في الناس لبعضهم البعض فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى به الى الظالم حتى خرب الاقليم وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام وفقد الأمن ومنعت السبل الا بالخفارة وركوب الغرور وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرق من قشور البطيخ وغيره ولا يجد الزبال شيئا يكتسه واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميت من الخيل والحمير فاذا خرج حمار ميت تراحموا عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع ومات كثير من الفقراء بالجوع . هذا والغلاء مستمر والأسعار في الشدة وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس وقل التعامل الا فيما يؤكل وصار سمر الناس وحديثهم في المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لا غير » .

والجبرتي أيضا يقول ان التجار كانوا أثناء وجود الانجليز في الإسكندرية بعد خروج الفرنسيين يتركون التجارة ويبيعون أثاثهم ومنازلهم ويهجرون الثغور ويضيف الى ذلك أن أعيان القاهرة كانوا يستدينون فلا يجدون من يدينهم سوى الجند .

— ٣ —

وقد صلب هذا الانقباض الاقتصادي انقباض اجتماعي لا يقل عنه ضيقا فتوارت العناصر المدنية الفذة ، التي كان النشاط الصناعي والتجاري والعلمي يدفعها الى سطح المجتمع ، وحل العسكريون من الممالك والعثمانيون محل المدنيين في الوظائف المدنية وهبط أهل المدن والريف الى مستوى العبيد .

ونحن نشهد تلك العناصر المدنية بكثرة الى جانب السلاطين حتى

دخول العثمانيين مصر • فنجد الى جانب صلاح الدين ، ابن مماتى ثم القاضى الفاضل ، الذى يقول المقرئى ان صلاح الدين لم يفعل شيئاً بدونه ، وكان يتجر تجاراً واسعا مع الهند والمغرب ويعد من أكبر أثرياء عصره • ونجد الى جانب أيبك ، الأسعد شرف الدين ابن وهيب الله الفائزى وقد بدأ حياته عاملاً بأسيوط ثم جعل يتقدم حتى قلد الوزارة وكان أيبك يثق به ويكاتبه بالمملوك ويرسله بالعسكر الى الصعيد لمقاتلة الأمراء^(١) • والفائزى هو الذى وضع سياسة أيبك المالية على أساس التوسع فى فرض الضرائب التجارية والصناعية وهى الضرائب التى كان صلاح الدين ألغها وكان الأيوبيون والمماليك لا يملكون ناصيتها • ونجد الى جانب بيبرس ، بهاء الدين على بن حنا عدل الفائزى الذى يقول المقرئى ان بيبرس لم يبرم أمراً بدونه^(٢) ، والى جانب الناصر بن قلاوون ، أدهى سلاطين المماليك على الاطلاق ، مجد الدين اسلامى ، تاجر الخالص الذى عقد الصلح بينه وبين القان بن سعيد^(٣) ، والفخر محمد بن فضل الله الذى يقول المقرئى انه حمل الناصر على ابطال الوزارة ونيابة السلطنة لأن النائب الأمير أرغون خاصمه وبذلك صار كل شيء بيده حتى هتف الناصر يوم وفاته قائلاً : « لعنه الله ! خمس عشرة سنة ما يدعى أعمل ما أريد^(٤) » .

ونجد الى جانب الأشرف ، خليل شمس الدين السلجوس الذى لجأ الأعسر ، أحد أمراء قلاوون ، الى التزوج من ابنته ليتوسط له فى العودة الى مركزه بعد أن صدره الأشرف خليل ، وأدى فى هذا الزواج ألفاً وخمسائة دينار صداقاً • ونجد الى جانب المظفر حاجى بن ديبور الذى أعاد تنظيم مالية الدولة كما يتمكن من مواجهة الأزمة المستحكمة على أيامه وكان يملك معاصر السكر والمراكب والمخازن والمتاجر و ٤٠٠ ألف دينار • ونجد الى

(١) خطط المقرئى •

(٢) خطط المقرئى •

(٣) تزوج الناصر من طولبان حفيدة جنكيزخان بعد مفاوضات طويلة ودفع لها مهراً ٢٠ ألف دينار • وقد وقف موكب العروس فى طريقه الى القاهرة ببلاد الروم خمسة أشهر قام بخدمته أثناءها الأشكرى ملك استانبول وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار وكان الناصر يعتمد فى سياسته الشرقية على كبير تجار ذلك العصر مجد الدين الاسلامى • خطط المقرئى •

(٤) خطط المقرئى •

جانب برقوق ، صاحب كريم الدين بن مكاس وسعد الدين بن البقرى والقاضى عبد الواحد بن اسماعيل الذى كان برقوق يركن اليه فى كل شىء . ولكن الرجل الذى بذّ هؤلاء القادة جميعا فى سعة السلطان واستطاع أن يجمع فى قبضته أعنة الدولة وينصبّ السلاطين ويخلعهم ، كما يشاء ، كان ولا شك القاضى الأمير سعد الدين ابراهيم عبد الرزاق بن غراب الاسكندرانى ناظر الخاص وناظر الجيوش واستادار السلطان وكاتب السر . وكان جده غراب قد أسلم وبأشر بالاسكندرية حتى ولّى الثغر وولّى ابنه من بعده . وقد ارتقى سعد الدين الى نظارة الديوان المفرد على أيام برقوق وعمره عشرون عاما وعاون أخاه فخر الدين فى تنصيب الناصر فرج بن برقوق بعد وفاة والده وتدير أمور الدولة على أيامه . ثم تولى الاستدارية عوضا عن الأمير يلغا الساعى رغم كونها من وظائف السيف ، دون أن يخلع زى الكتاب ، وصار له ديوان كدواوين الأمراء وطبول وكاتبه الناس بالأمير وعاش عيشة ملكية من حيث الأعطية والأسمطة التى كان يعطيها ، وأكثر من الممالك والخيول والماشية . ثم خرج من القاهرة مغاضبا الأمراء وصار الى ناحية تروجه يريد جمع العربان ومحاربة الدولة فلم يتم له ذلك فعاد الى القاهرة واشترك مع الأمير يشبك فى محاربة فرج بن برقوق وانهزم مع يشبك فذهب الى الشام وحرص الأمير شيخ نائبها على السلطان . ثم استطاع أن يستميل السلطان ويتخلص منه وينصبّ عبد العزيز بن برقوق مكانه . ثم أعاد فرجا من جديد فجعله هذا أميرا وفوضه كل شىء . وكان ابن غراب يقول انه لو أراد لأخذ الملك لنفسه (١) .

وهذه أمثلة قليلة نجدها هنا وهناك فى كتب العصر وهى تشعرنا بأن الأمر لم يكن شذوذا وانما كان قاعدة عامة فى عهود السلاطين جميعا وفى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء على السواء . وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون فى الحكم ويوجهون مصائره دون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية الذى أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر ، قياسا على ما حدث تحت الممالك

(١) خطط المقربرى .

الشراكية حين شل اقتصاد البلاد وضعفت قيم الحياة المدنية فيها . ونحن نعلم أن رجال الدين كانوا يتمتعون وقتئذ بنفوذ وامتيازات واسعة ويحسنون استعمال السلاح ويشاركون في الحروب^(١) . ونعلم أنهم كانوا ينهرون السلاطين والأمراء حتى دخول نابليون مصر وأن السلاطين والأمراء كانوا يجلسونهم ويقدمونهم على أنفسهم ويقبلون قدم من يعتقدون في قداسته منهم ولا يشذ عنهم في ذلك رجال مثل بييرس وبرقوق^(٢) . وقد كان أقصى المماليك وأشرسهم خلقا يلوذون بالأزهر ويحتمون بشيوخه اذا خشوا عقاب الدولة حتى آخر أيامهم^(٣) . كذلك نعلم أن

(١) انظر « السلوك » .

(٢) وبين من عرض لهذا العصر من الكتاب المحدثين من يقول بأن هؤلاء المشايخ كانوا لا يحجمون عن المعارضة السافرة للحكام . انظر كتاب « البيت السبكي » لمحمد العقاد حسين .

(٣) كان العلماء هم الذين توسطوا لدى نابليون للإفراج عن المماليك المسجونين وأضافوهم في الأزهر .

ونحن نقرأ في « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لعبد الرحمن الشيزري :

« وذكروا أن أتابك طغتكين سلطان دمشق طلب له محتسبا فذكر له رجل من أهل العلم فأمر باحضاره فلما بصر به قال : انى وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الأمر كذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند فانهما حرير واخلع هذا الخاتم فانه ذهب فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير : « ان هذا حرام على ذكور امتي حل لائاثا » . قال فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع مسنده وخلع الخاتم من اصبعه » .

ونقرأ في « التصوف في مصر ابان العهد العثماني » لتوفيق الطويل :

« وقد ضاق السلطان الغورى بشمس الدين الديروطى لانه يتهمه بالتقصير في شأن الجهاد وتسامع الديروطى بذلك فمضى اليه حتى اذا حياه استقبل السلطان تحيته بالصمت فقال الشيخ ان لم ترد السلام سقط وعزلت . فقال السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ثم قال علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد الى يد ثم من الله عليك بالحرية والاسلام ورقاك الى أن صرت سلطانا على الخلق . عما قريب يصيبك المرض الذى لا ينجح فيه طب ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا مظلماً ثم يدسون انفك هذا في التراب ثم تبعث عاريا عطشان جائعا ثم تقف بين يدي الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ثم ينادى المتادى من كان له حق او مظلمة على الغورى فليحضر فيحضر خلائق لا يعلم حصرها الا الله . »

أرباب الحرف كانوا يسبون السلاطين في الطرق ومواجهتهم ويتظاهرون

وأرسل السلطان في طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه فما رأى أعز من الشيخ ولا اذل من السلطان في ذلك المجلس » . عن الشعراني : « الطبقات الكبرى » .
ونقرأ في « تاريخ ابن آياس » :

« وفي يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزيني بركات بن موسى مع الشيخ أبي السعود وسبب ذلك أن شخصا من أيتيا يبيع الجلود يقال له الدمراوى كان مكاسا على بيع الجلود فجار عليه ابن موسى فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبي السعود واحتمى به فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك وقد شنع فيها فتوقف ابن موسى في أمره ولم يلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله في أمر الدمراوى فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره فلما حضر عنده في كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : يا كلب كم تظلم المسلمين ؟ فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ثم وضعه في مكان وأرسل خلف الأمير علان الدرادار الكبير فلما حضر قال له ضعه في الحديد واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين . فلما طلع الأمير علان وشاوره في أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ أبي السعود أرسل السلطان يقول للشيخ أبي السعود مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر بأشهار ابن موسى في القاهرة ثم يشنقونه على باب زويلة فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التي في كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس في الحديد ينادى عليه هذا جزء من يؤذى المسلمين فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتيقة وهم ينادون عليه ... »

ونقرأ في « تاريخ الجبرتي » :

« وفيها (سنة ١١٩١ هـ) في أوائل شهر جمادى الاولى وقعت حادثة في طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر وذلك أنه آل اليهم مكان موقوف وجدد واضع اليد ذلك والتجأ الى بعض الأمراء وكتبوا فتوى في شأن ذلك واختلفوا في ثبوت الوقف بالاشاعة ثم أقاموا الدعوى في المحكمة وثبت الحق للمغاربة ووقع بينهم منازعات وعزلوا شيخهم وولوا آخر . وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخا منهم يسمى الشيخ عباس والأمير الملتجئ اليه الخصم يوسف بك فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير حنق لذلك ونسبهم الى ارتكاب الباطل فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين فطردوا المعينين وشتموهم وأخبروا الشيخ الدردير فكتب مراسلة الى يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاذة الحكم الشرعى وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر . فعند ما وصلوا اليه وأعطوه التذكرة نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا في صحنها وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع

تحت نوافذ القلعة وينكتون على أهلها^(١) ويثورون على الأمراء والمشايخ
ويمنعونهم من الزيادة في الضرائب بل ويحملونهم على مملأتهم بالغائها

الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء واغلق أهل الأسواق
القريبة الحوانيت وبلغ الأمراء ذلك فأرسلوا الى يوسف بك فأطلق المسجونين
وأرسل ابراهيم بك من طرفه ابراهيم أغا بيت المال فلم يأخذ جوابا وحضر
الأغا الى الغورية ونزل هناك ونادى بالامان وأمر بفتح الحوانيت فبلغ مجاوري
المغاربة ذلك فذهب اليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي
والمسارق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار فركب عليهم وأشهر فيهم
السلاح هو ومماليكه فقتل من مجاوري المغاربة ثلاثة أنفار وانجرح منهم كذلك
ومن العامة وذهب الأغا ورجع الفريق الآخر وبقي الهرج الى ثاني يوم . فحضر
اسماعيل بك والشيخ السادات وعلى أغا كتحدا الجاويشية وحسن أغا آغات
المتفرقة والترجمان وحسن أفندي كاتب أحواله وغيرهم فنزلوا الأشرقية
وأرسلوا الى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك
عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا الجامكية والجراية فركبوا
ورجعوا . واصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه واسماعيل بك مظهر
الاهتمام لنصرة أهل الأزهر فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع
المؤيدي وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ ابراهيم السندوبى ملخصها
أن اسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء حوائجهم وقبول فتواهم
وصرف جماكيهم وجراياتهم وذلك بضمنان الشيخ السادات له . فلما حضر
الشيخ ابراهيم بالتذكرة وقراها الشيخ عبد الرحمن العريشى جهارا وهو قائم
على أقدامه فلما سمعوها أكثروا من الهرج واللفظ وقالوا هذا كلام لا أصل
له وترددت الارساليات والذهاب والمجيء بطول النهار ثم اصطلحوا وفتحوا
الجامع في آخر النهار وأرسلوا لهم في يوم الخميس جانبا من دراهم الجامكية
ومن جملة ما اشترطوه في الصلح عدم مرور الأغا والوالى والمحاسب من حارة
الأزهر . تاريخ الجبرتي .

«... وطلق الشيخ حسن الجداوى احدى سيدات القاهرة في غيبة زوجها
على أيام الأمير يوسف بك الكبير وهو من أمراء أبى الذهب فاشتكى الزوج
الى هذا الأمير فأراد هذا الأخير أن يعطل الطلاق فثار المشايخ وذهبوا اليه
وصرخ عليه الشيخ على الصعيدى وسبه وقال له لعنك الله ولعن اليسرجى
الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » . تاريخ الجبرتي .
(١) ولم يكن الأمر يختلف عن ذلك كثير الاختلاف فى القرن الثامن عشر
فنحن نقرأ فى تاريخ الجبرتي :

« وفى منتصف شعبان (سنة ١١٩٩) ورد الخبر بوصول باشا مصر
الجديد الى ثغر الاسكندرية وكذلك باشا جدة ووقع قبل ورودهما بأيام فتنة
بالاسكندرية بين أهل البلد وآغات القلعة والسردار بسبب قتل من أهل
البلد قتله بعض أتباع السردار فثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه
وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس
وهم يضربونه ويصفونه بالنعال » .

«... وفى يوم السبت ثامن (جمادى الأولى سنة ١٢٠٢) وقع بين أهل
بولاق وبين العسكر معركة بسبب افسادهم وتعديهم وفسقهم مع النساء

كما فعل صلاح الدين وبيبرس والناصر قلاوون من بعده . وكانوا في أول أيام المماليك يستتكرون صعودهم الى مراكز الحكم جهارا (١) ويبدون في ذلك روحا من الدعابة أبعد ما تكون عن الاستكانة والخنوع . كذلك نعلم أن أهل المدن كانوا يصنعون وقتئذ أنواع السلاح جميعا ويحملونها في الطرق ويتبارون بها في الميادين العامة ويشتركون في حرب

واذية السوق وأصحاب الحوانيت وخطفهم الأشياء بدون ثمن فاجتمع جمع من أهل بولاق وخرجوا الى خارج البلدة يريدون الذهاب الى الباشا يشكون ما نزل بهم من البلاء فلما علم عسكر القليونية ذلك احتصموا بأسلحتهم وحضروا اليهم وقاتلوهم وانهزم القليونية فنزل الأغا وتلافى الأمر وأخذ بخاطر العامة وسكن الفتنة .

ونهب العرب قافلة لبعض تجار القاهرة فذهب هؤلاء يشكون للوالي فقال لهم هذا انهم يستحقون ذلك بسبب تحايلهم على عدم دفع المكوس فأجابه بعضهم وهو السيد باكير وقال له : « يا مولانا الوزير جرت العادة أن التجار يفعلون ذلك ويقولون ما أمكنهم وعلى الحاكم التفتيش والفحص . فاغتاظ من جوابه وقال انظروا هذا كيف يجاوبني ويشافهني ويرد على الكلام والخطاب ما رأيت مثل أهل هذه البلدة ولا أقل حياء منها . وصارت يده ترتعش من الغيظ . » تاريخ الجبرتي .

وقد بلغ الأمر حد أن حرم على المماليك التدخين في الطريق فالجبرتي يقول: « . . . وفي يوم الجمعة نودي على المماليك أن لا يخرجوا من بيوت أسيادهم ولا يركبوا على انفراد ويمشوا بالمدينة وكان من السنن السابقة في آداب المماليك أن لا يركبوا من بيوت أسيادهم منفردين أبدا فترك ذلك في جملة المتروكات وتزوج المماليك وصار لهم بيوت وخدم ويركبون ويفدون ويروحون ويشربون الدخان وهم راكبون في الشارع الأعظم وفي أيديهم شبكات الدخان من غير انكار وهم في الرق ولا يخطر ببالهم خروجهم عن الأدب لعدم انكار أسيادهم . »

(١) « وكان (أيبك) ملكا شجاعا كريما عاقلا سيوسا كثير البذل للأموال أطلق في مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يحصى كثرة حتى رضى الناس بسلطان مسه الرق وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك الى أن مات وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه اذا ركب ومر بالطرقات ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة . » « النجوم الزاهرة » . والمقريزي يقول ان العامة كانوا ينتظرون تحت نوافذ القلعة أيام قلاوون صائحين : « يا ابو عيشة اركب وكون طيب يا ابو عيشة . » . وذلك حين احتجب خوفا من ثورة الصالحة والظاهرية . « السلوك » . وقد نشأ حينئذ لون جديد من الأدب انفردت به مصر وهو اللون الذى بداه ابن مماتى بكتابه « الفاشوش في حكم قراقوش » وكان يرمى الى السخرية من الترك وحكمهم .

لمغل والصليبيين^(١) وأن أهل الأسكندرية كانوا يملكون على أيام ابن بطوطة مستودعات كبيرة تزر بأشكال السلاح ويرفضون أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم . ونعلم أن أبناء البلاد جميعا كانوا يجتمعون وقتئذ في نقابات لها قوانينها وتقاليدها ورؤساؤها وأن هذه النقابات كانت تتمتع ، ازاء أعضائها ، بسلطة إدارية - قضائية - مالية واسعة تجعل منها وحدات حكومية قائمة بذاتها تعترف بها الدولة وتعتمد عليها وتحسب حسابها الى حد بعيد^(٢) .

ومن السخف أن يقال أن المماليك كانوا ينظرون الى أبناء البلاد كعنصر مغتصب ويرفضون الاختلاط بهم ويكفونون ارستقراطية قائمة بذاتها . فقد كانت تقوم بين الفريقين فواصل شديدة دون شك ولكنها كانت من طبيعة الفواصل التي تقوم الى اليوم بين الطبقات المختلفة في المجتمع الواحد ، من طبيعة الفواصل التي تقوم الآن بين الصناع والزراع وأصحاب المهن الحرة وأهل الدولة ، الى جانب الأنفة التي تثيرها صناعة السلاح فيمن يشتغل بها عادة وما كانت تدفع بهم اليه في ذلك الوقت من الاستهانة بغيرهم خصوصا اذا كانوا ممن ينصرفون لتحصيل خبزهم اليومي بالبيع والشراء . وقد كان المملوك يحمل لابن زميله نفس الشعور الذي يحمله لابن البلد فهو أيضا في عينه سوقي يتكسب ولا يقضى اليوم مثله ويده على مقبض سيفه . يضاف الى ذلك أن علاقات المماليك بأمرائهم والأمراء بعضهم البعض وعلاقاتهم جميعا بالسلطان كانت تتخذ هي أيضا أشكالا ذليلة حقا من تقبيل الأقدام الى السجود الى التمرغ في التراب الى القيام بأعمال الخدم ، وهي عادات أتوا بها من الاصقاع التي نشأوا فيها ، وكانت لا تمنع بعدد من أن يشب الأمراء على السلطان فيقتلوه أو يفتك الأمراء بعضهم البعض أو يقف المماليك للأمراء في الطرق ويضربونهم ضربا مبرحا كما كانت لا تمنع السلاطين والأمراء من ضرب المشايخ الذين كانوا يجلسونهم ويريدون الجنة على أيديهم بالمقارع أو المماليك من تخطف عمامتهم أو هؤلاء وأولئك جميعا من التزاوج والاختلاط الحقيقي الواسع فلا شك في أن الأمراء ، مثل سنقر الأعسر الذي رأينا^(٣) ، كانوا يتزوجون من العائلات المصرية ، كما كان المصريون

(١) خطط المقرئى .

(٢) انظر مؤرخى ذلك العصر M. Clerget : Le Caire

(٣) انظر صفحة ٣٥ .

يتزوجون من بناتهم ، مثل القاضي أبى بكر الذى تزوج من ابنة الأمير قانصوه وأخت أبى المحاسن التى تزوجت من قاض سورى ثم من قاض مصرى ، وكما كان المماليك يتزوجون من المدن المصرية التى ينزلونها . ولم يكن انفراد المماليك فى ذلك الوقت بصناعة السلاح وقيادة الجيش وحيازة الاقطاعات يجعل منهم عنصرا غاصبا يمكن مقارنة وضعه من قريب أو بعيد بوضع الجيوش الأجنبية فى بعض بلاد الشرق اليوم . فقد رأينا كيف كان هؤلاء المماليك يهبطون مصر فرادى سعيًا وراء الرزق ولم يتصلوا قط بالبلاد التى استجلبوا منها فضلا عن اعتمادهم عليها فى الصعود الى الحكم أو الاحتفاظ به أو توجيه سياستهم فيه ، ورأينا أن الاقطاعات لم تكن ، آخر الأمر ، سوى الوسيلة التى اهتدى اليها أبناء ذلك العصر لرصد ما ندعوه اليوم باعتمادات الدفاع ، كما لم يكن المماليك سوى جند الجيش الثابت الذى اضطرت الحروب المستمرة مصر الى انشائه بين نهاية العصر الفاطمى وآخر أيام الأيوبيين . ونحن نعلم أن عدم وجود نظم التجنيد الحديثة فى ذلك الوقت ، والاتجاه الدينى الذى اتخذه وعى الشعوب فى الوقت نفسه ثم تقدم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، كان يميل بالمصريين حينئذ عن الانخراط فى الجندية وترك الجيش لمن لا سبيل له الى الارتزاق غيره من أولئك الرجال الغلاظ الذين كانوا يفدون عليهم من أصقاع آسيا ، وذلك طالما كان السلم مستتبًا أو كانت الحروب حروبا داخلية تشنها الدول الاسلامية بعضها على بعض ، أو تضرمها الأحزاب المختلفة فى الدولة الواحدة ، ولا تتعرض الأمة الاسلامية من جرائمها لخطر كبير يستدعى هبوب المسلمين جميعا لذوده عنها . ونعلم أن المصريين اشتركوا فعلا فى مواقع الحروب الصليبية والمغولية الكبيرة وأن حثالة أهل المدن جعلت تدخل الجيش ، اذ كسدت الأعمال فى المدن بعد ذلك وهبط مستوى المماليك وجعلوا يستنكفون من السير الى الحرب ويفضلون استئجار من يحل محلهم فيها ، قبيل دخول العثمانيين وتحت الأمراء المماليك . وقد ظهرت هذه الظاهرة فى أوروبا أيضا فى ذلك العصر فكان أبناء الجمهوريات الايطالية التى يقارنها مؤرخو أوروبا بالجمهوريات اليونانية فى التعلق بالحرية السياسية، يفضلون فى ذلك الوقت تحمل أرزاق الجند المستجلبين على ترك أعمالهم والذهاب الى

صفك الدماء^(١) . ومن الواضح أن الرجل الذي يقضى الأسابيع والشهور في صنع تحفه أو نقش باب أو زخرفة حائط يجد اتفاق الوقت في التقتيل جنونا ليس بعده جنون ويفضل أن يتحمل أجر من يقوم بذلك مكانه مهما ارتفع قدر هذا الأجر دون أن يفكر فيما قد يؤول به إليه ذلك في مستقبل الأيام^(٢) .

ونحن لا نكاد نجد للعناصر المدنية المصرية في حياة مصر العامة أثرا يذكر منذ نهاية الممالك البرجية ولا نكاد نرى على سطح المجتمع المصرى حتى دخول الفرنسيين سوى البكوات الممالك والموظفين العثمانيين ومشايخ الأزهر وفئة ضئيلة من كبار التجار . ونلاحظ اختفاء المدنيين عموما من الوظائف الحكومية وحلول رؤساء الوجاقات العثمانية وفرق الممالك ، الذين كانوا يبدأون حياتهم عسكريين ويظلون عسكريين بطابعهم ونظرهم الى الأمور ومجافاتهم لكل تدبير حضارى ، محل تلك الطبقة الغزيرة المثقفة من القضاة ، التى كانت تدبر أمور الدولة تحت السلاطين ، في جميع هذه الوظائف ، فيما عدا ما هو خاص منها بالمسائل الدينية أو جباية الضرائب التى كان يقوم بها الأقباط حتى نهاية القرن الثامن عشر . كذلك نلاحظ اختفاء كبار رجال العلم أمثال ابن خلدون والمقرئى والسيوطى ، ويرونا تركّز الحياة الفكرية في الأزهر بعد أن كانت تنتشر بين جوامع القاهرة وجوامع المدن الكبرى جميعا ، وتحول المستوى الفكرى العام الى الجمود الذى وجدنا عليه الحياة الأزهرية في مطلع هذا القرن .

والمقرئى يصف ما كانت عليه هذه الحال على أيامه وصلتها بالأزمات المالية فيقول : « اعلم حرسك الله بعينيه التى لا تنام وركنه الذى لا يرام ان الناس بأقليم مصر في المالية على سبعة أقسام : القسم الأول أهل الدولة . والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية .

(١) دائرة المعارف الايطالية .

(٢) وقد كان نظام البدلية من النظم التى عرفتها أوروبا الحديثة ايضا

وأقرتها الثورة الفرنسية . انظر *L'égalité des citoyens devant les charges publiques*, par Jean Belin.

والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب
البز ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق • والقسم الرابع أهل الفلح
وهو أهل الزراعات والحراث وسكان القرى والريف • والقسم الخامس
الفقراء وهم كل الفقراء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم •
والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن • والقسم
السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السوّال الذين يتكففون الناس
ويعيشون منهم •

فأما القسم الأول وهم أهل الدولة فحالهم في هذه المحن على ما يبدو
لهم ولمن لا تأمل عنده ولا معرفة بأحوال الوجود له أن الأموال كثرت
بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذه المحن باعتبار ما يتحصل لهم من خراج
الأراضي فإن الأراضي التي كان مبلغ خراجها من قبل هذه الحوادث مثلا
عشرين ألف درهم صار الآن خراجها مائة ألف درهم • ويقول ان هذه
الزيادة في دخل أهل الدولة كانت صورية بسبب هبوط القوة الشرائية
للت نقد ثم يعرض للياسير من أهل التجار وأصحاب البز فيقول انهم كانوا
يخضعون هم أيضا لنفس هذه القاعدة ثم ينتقل الى أهل الفلاحة فيقول :
« فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالى المحن بقلة رى الأراضي » •
ويلاحظ بعد ذلك أن الفقهاء وطلاب العلم أصبحوا في عسر شديد
ثم ينتقل الى أرباب المهن والأجراء فيقول : « ان أجورهم تضاعفت
تضاعفا كثيرا الا أنه لم يبق منهم الا القليل لموت أكثرهم بحيث لم يوجد
منهم الواحد الا بعد تطلب وعناء والله عاقبة الأمور • وأما القسم السابع
فهم أهل الخصاصة والمسكنة فنى معظمهم جوعا وبردا ولم يبق منهم الا أقل
من القليل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ^(١) » •

ولكن أثقل آثار النظام المملوكى في حياة المجتمع المصرى كان بلا شك
ذلك الذى أصاب طائفة الزراع منذ أول عهد المماليك • والمقرىزى
يصف هذا الأثر فيقول :

« يسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك
الناحية الا أنه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق بل هو قن ما بقى ومن
ولد له ^(٢) » • وذلك أن الزراع كانوا يستطيعون حتى آخر أيام الفاطميين أن

(١) • كشف الغمة •

(٢) خطط المقرىزى •

يرتقوا من أدنى درجات المجتمع الى أسماها دون أن يعوقهم عائق من النظم العامة اللهم الا شرط الدين ان كانوا غير مسلمين فيما يتعلق بشغل بعض المناصب الحكومية ومصاهرة الأسر الاسلامية . فقد كانت الدولة تطرح الأراضي الزراعية التي تملكها ، وهي غالب الأراضي الصالحة للزراعة ، في مزايدات عامة دورية . وكان لكل من يريد أن يتقدم الى هذه المزايدات أن يصل عن طريقها الى ما يستطيعه من الثراء . كذلك كانوا يستطيعون أن يتركوا الزراعة للاشتغال بأى عمل آخر وأن ينتقلوا من مكان الى مكان كما يشاؤون ، ثم ظهرت الاقطاعات العسكرية بنظمها الدقيقة فخرجت الأراضي الزراعية من نطاق الاقتصاد العادى لـ « تتحجّر » فى نظام ادارى خاص وأصبح الزراعة لا يستطيعون أن يكونوا غير اجراء لدى المقطعين . ومن البديهى ألا تكون علاقة الزراعة بمقطعيهم قد هوت الى الصورة التي يرسمها المقرئ مرة واحدة وأن تكون تدرجت اليها شيئا فشيئا بدافع ثقلها الذاتى وتطور الظروف الاقتصادية العامة . فقد رأينا أن الأصل فى الاقطاع العسكرى كان أن يربط ريع بعض الأراضي على ثقات الدفاع ، ومن ثم كانت الأحباس الجيوشية وأحباس صلاح الدين فى العهد الأيوبي ، وهي أحباس كانت الدولة تستغلها بطريق المزايدات ولا تغير بذلك من حالة الزراعة شيئا . ثم كان ضغط الحرب وتوالى الأزمات المالية وتغلب التقاليد المغولية فكان توزيع الدولة هذه الأراضي بين رجال الجيش ليحصلوا منها أجورهم . والظاهر أن حق هؤلاء الرجال كان مقصورا ، أول الأمر ، على الحلول محل الخزانة العامة فى علاقتها المالية بمؤجر الأرض المقطعة فينال أجره من المؤجر مباشرة بدل أن يناله من الخزانة العامة بعد أن يؤدى إليها هذا الأخير ما عليه ^(١) ثم تحول الى حق انتفاع كما رأينا حين ظهرت فكرة تنمية الانتاج الزراعى بالاستعانة بالمقطعين فى الاشراف عليه وبرزت حدود الاقطاع .

(١) وقد حدث مثل ذلك فى الامبراطورية العثمانية فنحن نقرا فى تاريخ الدولة العلية العثمانية ، لمحمد فريد أن ديمورطاش باشا وزير مراد خان أسس فرق سيباء واقطع كل نفر منها جزءا من الأرض يزرعه أصحابه الاصليون مقابل جعل معين لصاحب الاقطاع وذلك بشرط أن يسكن الجندى فى أرضه وقت السلم ويستعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته وأن يقدم جنديا آخر معه وكان لا يرث هذه الاقطاعات الا الذكور فاذا لم يكن هناك ذكور عادت للدولة .

ولم يكن أمام المقطع حينئذ الا أن يزرع الأرض بنفسه أو لحسابه أو يؤجرها أو يشارك في زراعتها . ونحن نستطيع أن نجزم بأن مقطعى العهد الأيوبي والعهد المملوكي لم يزرعوا الأرض بنفسهم قط فلا وجود لأثر لهذه الزراعة لدى مؤرخي ذلك العصر ، اذا استثنينا ما يقوله المقرئى فى « كشف الغمة » عن حراثة الجند الأرض على أيام العادل عندما فتك الوباء بالفلاحين وخلا الريف من أهله وهو أمر يبدو أنه لم يمتد العهد به أو يتكرر . ثم اننا نعلم أن حروب العهد الأيوبي المتصلة كانت تضطر الجند الى البقاء فى الثغور والتنقل الدائم ونعلم أن صناعة الحرب تقدمت حينئذ تقدما كبيرا كان لاشك يضطر المشتغلين بها الى الانصراف لشئونهم ونفهم ذلك خصوصا من النظام الدقيق الذى وضعه قلاوون لتنظيم حياة المماليك منذ صباهم الى أن يدخلوا الجيش العامل ومن محاولات السلاطين الذين سبقوه فى هذا السبيل . ونعلم أخيرا أن المماليك كانوا يقدمون مصر للعمل فى جيشها والارتقاء عن طريقه الى أرفع المناصب لا للاشتغال بالفلاحة .

بقى أن يزرع المقطع الأرض لحسابه أو يؤجرها أو يزارع فيها أى أن يقدم الأرض للزارع فيزرعها ثم يشترك الاثنان فى المحصول .

ونحن نجد علامات المزارعة هنا وهناك حتى آخر أيام المماليك الشراكسة فمؤرخو ذلك العهد يقولون ان الزراع كانوا يضيفون المقطعين ويهادونهم بأقذار مختلفة من الكشك والفراخ وما أشبه ذلك حتى سلطنة الناصر اذ انقلبت هذه المهادة الى حق ثابت من حقوق المقنطع . ويقولون أيضا ان الدولة كانت تحصل الخراج ، أى ضريبة الأرض ، من المحصول تحت يد الزراع . فيقول المقرئى ان زراع اقطاع برقوق كانوا يأتون القاهرة يحاسبونه على خراجه ، أى نصيبه من محصول الاقطاع ، فيحيلهم الى صديقه القاضى عبد الواحد بن اسماعيل . ويقول ابن اياس ان الأمراء كانوا يتذمرون من زيادة الخراج على الأرض لأنه كان يدفع الفلاحين الى تركها وان الفلاحين رفضوا تقديم خراج المقطعين حين علموا بانهمزامهم للعثمانيين لأنهم لم يعودوا أصحاب الحق فيه . وفى هذا ما يدل على أن الزراع لم يكونوا

في جميع هذه الحالات عمالا مأجورين ، والا لما التزموا بمهاداة مؤجريهم ولما كان تحت أيديهم محصول تتقاضى الدولة منه ضريبتها ويأخذ منه المقطع نصيبه . ويلاحظ أن نصيب المقطعين من المحاصيل كان يدعى ، كما نفهم من عبارة المقرئى ، بالخراج ، نقصد بنفس الاسم الذى كان يطلق على ضريبة الدولة ، نعى أن الفلاح كان ملزما بخراجين خراج للدولة يصيب نصيبه ونصيب المقطع جميعا ، وهو الضريبة التى كان يؤديها أيضا قبل ظهور الاقطاعات ، وخراج المقطع ، أى نصيبه من المحصول بدل الأجر الذى كان يؤديه عند التأجير بالمزايدة حين كان نظام المزايدات قائما .

ولكننا لا نجد أثرا للزراعة لحساب المقطعين وتحول الزراع الى اجراء مقيدى بالأرض كما يقول المقرئى ، خصوصا وانه هو نفسه يقول ان الفلاحين كانوا يهجرون الأرض لارتفاع أجرها أى انهم كانوا يؤجرونها ، اللهم الا اذا كان المقصود بهذه الحالة ما كان يحدث فى ذلك العصر بالذات فى الامارات الاقطاعية الأوربية من قيام الزراع بزراعة اقطاع سيدهم نظير منحه اياهم مساحة معينة يزرعونها لأنفسهم وينقوتون محصولها المعهود . غير أن انتشار الاقطاعات وتوحد نظم العمل بها ثم ميل الفلاحين المعهود الى ملازمة الأرض التى ولدوا عليها وما كان ينبى على توارثهم العلاقات بالمقطعين وعدم تخلصهم منها بانتقال الاقطاع من مقطع الى آخر كانت لا بد تنتهى فى الأزمات المالية الشديدة ، وعلى وجه الخصوص فى آخر أيام المماليك والعصر العثمانى ، بهذه الحالات جميعا الى ما يشير اليه المقرئى من سقوط الزراع الى حالة تشبه الرق وتؤدى على كل حال الى قيام طبقتين مقفلتين لا تداخل بينهما : طبقة المقطعين أى الحائزين للأراضى ، وهم جميعا من المشاركة الأغراب ، كما شهدنا ، وطبقة الزراع أى أهل الريف الذين يعملون بالزراعة ولا يستطيعون أن يصبوا الى أكثر من استئجار بعض هذه الأرض .

وهكذا كان المجتمع يتكون وقتئذ فى مصر من طوائف أربع : المماليك ورجال الدين وأهل الصناعة والتجارة والفلاحون . والطبقة الأولى تنفرد ، من حيث تكوينها ، بقصرها الانتماء اليها على من يستجلب من أصقاع آسيا خصيصة للانخراط فى الجيش . كذلك تنفرد طائفة الفلاحين بتقيدها الى طائفة المماليك فهم تعمل فى العادة لديها ومن أجلها . أما الطائفتان الأخريان فمفتوحتان لمن يريد أن ينتمى اليهما — وان كانت

طائفة أصحاب الحرف تأخذ الى حد بعيد بقاعدة التوارث — وكاتا تغذيان صفوفهما فعلا من أبناء الريف وأبناء الممالك على السواء . ونحن اذا لحظنا ما كان للزراعة من أهمية بالغة في الحياة الاقتصادية في ذلك العصر في الغرب والشرق ، وما كانت تقتضيه مواجهة حالة الحرب التي كانت تكتنف مصر حينئذ من بروز الطبقات التي تتناسل وتتكاثر وتكسب الأمم مناعتها الجنسية ، وهى الطبقات الزراعية ، وتركيز السلطة العامة في أيد قوية صلبة ، وهى أيد لا تنتجها عادة الا هذه الطبقات ، استطعنا أن نتصور مدى الأثر الرهيب الذى كان ينجم عن اقصاء أبناء الريف المصرى ، وهم بعد غالبية أهل البلاد الأصليين ، عن الطبقة الحاكمة ، التى كان يستحيل عليهم الارتقاء إليها ، فى حياة البلاد العامة . استطعنا أن نتصور فظاعة الشلل الاجتماعى الذى كان يصيب مصر فى عصر الاختلاط ذلك بالذات من جراء القفل على أصلح أبنائها للعيش فيه والقيام بالتزاماته فى طبقة مغلقة لا تستطيع أن ترتفع عن الأرض ، واستطعنا أن نفهم لم كانت مصر تضطر الى استعارة من يشغل بعض أجهزتها الحكومية من الخارج ، وكل هذا فى الوقت الذى افترقت أثناءه عن الخلافة العباسية ، أى أصبحت دولة قائمة بذاتها ، ودخل غالب أبنائها الاسلام فصاروا يستطيعون الارتقاء الى مراكز الحكم دون أن تقوم فى وجههم عقبة اختلاف الدين التى كانت تقوم فى وجههم من قبل والتى كانت أكبر عقبة تعترض الدورة الاجتماعية فى ذلك الزمن .

وقد كان هذا النقص الرهيب الذى امتد حتى آخر أيام الممالك يجد بعض ما يسده فى الدور الذى كان يقوم به رجال الدين وطوائف أهل الحرف فى الحياة الاجتماعية والحياة العامة تحت السلاطين كما رأينا . ولكنه لم يكن يسده سدا تاما فرجال الدين ، أو هكذا كانوا على الأقل وقتئذ ، قوم يفضلون السماء على الأرض ويدينون بالعالمية ويرون يد الله فى كل شيء . وهم يميلون لذلك الى ترك تصريف أمور هذه الدنيا الى هذه اليد القادرة والانصراف الى العمل الصالح ، بعيدا عن مغريات الحياة وما من شأنه أن يعرض بهم لارتكاب الخطيئة ولاسيما الاشتغال بأمور الحكم . وقد تكون هذه الفلسفة فلسفة صادقة تنبعث من شعور صحيح ولا تمنع أصحابها أن يكونوا رجالا أشداء يسوسون الأمم ويخوضون الحروب اذا كان المجتمع فى دور صعود كما كان الأمر فى صدر الاسلام

أو كان معتنقوها أصحاب استعداد ذاتي كما كان بعض خلفاء عصر
الأفول الاسلامي . وقد تكون دعوى فارغة ترمى الى ستر قصور
شخصي أو حب السلامة أو قلة الحيلة كما كان الأمر ولاشك الى حد
بعيد في ذلك العصر ، فيضعف أصحابها عن مواجهة أعباء الحياة العامة
ويتجنبون مشاكلها ويقبعون في بيوتهم يزدردون ما قسمه الله لهم من
رزق حتى اذا أقحموا في هذه الحياة اقحاما كانت نظرتهم اليها مخالفة
لما يجب أن تكون ، تحمل على سطحها وفي جوهرها آثار بصر غير عاد
أعشاء طول التأمل في نور السماء . وقد كان كبار أهل الدين يرفضون
حينئذ الاهتمام بالحياة العامة صراحة وينعون على من يشذ منهم عن هذه
القاعدة ويعدون الاشتغال بأمور الحكم عارا وأى عار^(١) ويغلبون نص
أحكام الشريعة على كل اعتبار آخر فيرفضون أن تزداد الضرائب لمواجهة
مصاريف الدفاع في الوقت الذي يهدد فيه المغول الحدود المصرية ويهددون
معا الحضارة الانسانية جميعا^(٢) .

والتجار والصناع يشاركون في الغالب رجال الدين في عالمينهم هذه
الى حد بعيد فالتكسب ورأس المال عادة شيء لا وطن له يتلمس غايته
في كل مكان^(٣) . وهو الى هذا ماكر مرن محب للاستقرار لا يقدم على
الثورة وقلب الأوضاع وانشاء النظم الجديدة الا اذا ضاقت به ظروفه
ضيقا شديدا . وقد كان للتجار وأهل الحرف في الحياة العامة الغربية بعد
الحروب الصليبية دور هام بل الدور الأول أحيانا لأنهم استطاعوا أن
يعيشوا خارج دائرة المجتمع الاقطاعي الذي نشأوا فيه وأن يقيموا بالمدن
التي كانوا هم أهلها وحكامها وأن يستعينوا بالكنيسة في محاربة الأمراء
الاقطاعيين وبالأمراء الاقطاعيين في محاربة الكنيسة وقيموا أنفسهم دولا
يدافعون عنها ويشرعون لها ويدبرون أمورها . ولكن مصر لم تنقسم

(١) ونحن نقرأ في « تاريخ ابن اياس » : « وأما ما كان من أمر الشيخ
أبي السعود فإنه لما فعل بابن موسى ما فعل وعاقبه على إساءته لبعض العامة
قامت عليه الشائرة وأنكر عليه الناس والفقراء وقالوا إيش للشيخ
شغل في أمور السلطنة واستقلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله
بابن موسى » .

(٢) وتوفيق الطويل يرجع الى تصوف هؤلاء المشايخ حالة مصر
الاجتماعية في العهد العثماني أنظر « التصوف في مصر ابان العصر
العثماني » .

(٣) وقد تعاون المحروقي فعلا في القرن الثامن عشر مع الفرنسيين
والأتراك والماليك ومحمد علي ، على التوالي . انظر « تاريخ الجبرتي » .

الى ممالك وامارات أو بلديات مستقلة قط ولم يقم فيها مجتمع مدنى منفصل عن المجتمع الريفى يوما ما ولم تفلت السلطة فيها من العاصمة لتنتهى الى يد هيئة مستقلة عنها أو تتخذ أوضاعا جديدة مرة واحدة . فكان السلطان وقضاته ونوابه وماليكه هم الذين يحكمون فى القاهرة وأعلى الأرض وأسفل الأرض على السواء وكان التشريع هو التشريع والنظام العام هو النظام العام ولم يكن لذلك من سبيل لنشوء مجتمعات غريبة تختلف عن المجتمع الأصلى . ونحن نعلم فعلا أن التجار وأصحاب الحرف كانوا يفضلون وقتئذ مدارة أهل الدولة وتجنب شرهم واستمالتهم على الوقوف فى وجههم ما استطاعوا . فما يصطدم الأمراء بعضهم البعض أو يثور المالك على الأمراء أو يتربص الجميع بالسلطان حتى يقفل كل منهم حانوته وينقلب الى أهله ينتظر انقضاء الأزمة أو فورة الغفلة التى أثارته . وكان يمكن لهذه الظاهرة وقتئذ ما عرفه ذلك العصر من نظم ادارية ومالية خاصة كانت تجعل من مختلف طبقاته مثل مجتمعات متفرقة فقد رأينا كيف كان أصحاب الحرف يجتمعون وقتئذ فى طوائف منتظمة تتمتع بسلطة ذاتية واسعة تجعل منها شبه حكومات صغيرة الى جانب الحكومة الأصلية . يضاف الى ذلك أن اعتماد المالية العامة وقتئذ ، سواء فى الشرق أو الغرب ، على دخل الأموال التى تملكها الدولة دون الضرائب الحقيقية ، كان يبعد ما بين الحاكمين والمحكومين فى ميدان السياسة وميدان الحرب على السواء ، ويجعل من الحكم مسألة خاصة لا تكاد تعنى غير القائمين به اللهم الا فى الحالات التى تعظم فيها الأمور ويضطر الحاكم الى طلب المال من الرعية فتنسب هذه وتسمع صوتها وكثيرا ما تثور أيضا .

وقد وهنت طبقة رجال العلم وأهل الحرف فى هذا المجتمع بعد ذلك ، كما شهدنا ، بوهن الحياة المدنية التى كانت تنجبها ، وطغت الموجه المملوكية على كل شىء منذ ابان عصر الممالك الشراكية حتى ظهور محمد على ، وهذه هى الفترة التى عاشت مصر أثناءها أظلم أيام حياتها الطويلة على الاطلاق .

obeikandi.com

الموجة الغريبة

قلنا ان حروب الصليبيين كانت ترجع ، فيما كانت ترجع اليه ، لما بدا على المجتمع الأوروبي في نهاية عصر الوسط من انتعاش . وقد اتصل هذا الانتعاش بعد ذلك وكان من بواده ظهور بحر الشمال وسيطرة أوروبا على البحر المتوسط واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والأمريكتين ، هذا الاكتشاف الذي يعده آدم سميث بحق أكبر حدث في تاريخ الإنسانية الى أيامه على الاطلاق ، ثم ما أعقب ذلك من نمو اقتصادي لا سابق له ، اذ كانت أوروبا تتصل بأسواق الشرق الأقصى اتصالا مباشرا وتضع يدها بغتة على عالم ثان وتنتقل بالتالى ، من الانتاج المحلى البسيط لأسواقها المحدودة ، الى الانتاج الضخم للعالم الجديد وشعوب آسيا وأفريقيا أيضا ، وتزاو ما يستتبع هذا الانتاج من تجار ونقل (١) . ومن ثم كان ازدهار التجارة والصناعة فيها ازدهارا رائعا (٢) وكانت عودة الحياة الى مدنها بعد أن هجرتها الى الريف ، عشية العصر الاقطاعي ، وكان ظهور المنشآت الصناعية والتجارية والمصرفية الحديثة (٣) .

وكان المجتمع القائم على هذا النمو الاقتصادي يأخذ من ناحيته ، أثناء ذلك ، بأسباب الرقى الذى نشهده في الغرب ونفسه عليه الى اليوم ، فقد اتسع نشاطه حتى أصبح يشمل الشرق الأقصى والعالم الجديد وآسيا الوسطى ، أى المناطق التى جعل أبناء أوروبا ينزحون اليها ويتجرون معها فيثرون ويتكاثرون ويحيون حياة رخية جديدة . وتمايزت وظائفه فافترقت الشئون الزمنية عن الشئون الدينية وتنوع الاقتصاد وظهرت العلوم المختلفة . وبرزت أجهزته فكانت الدولة الحديثة والكنيسة الحديثة والجامعات والمصارف . وكان بوجه عام أن هبط الناس من العالم السماوى الذى حملتهم اليه المسيحية الى الأرض هذه

A. Smith : The wealth of nations . (١)

Luzzato : Storia economica . (٢)

Pirenne : Histoire économique et sociale de l'Europe : (٣) بيزين :

« التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لأوروبا الوسيطة » ، (au Moyen Age .)

الماثلة بين أيديهم وأقبالهم خفافا على استثمار خيراتها ، وقد أسرتهم متعتها وملأت مشاعرهم مباهجها وراعتهم أسرارها وما يحمله الكشف عنها من ترغيب في المادة وشحن للهم واعتداد بالنفس بدل انتظار المعجزات وترقب يد الله أن تمتد من بين السحب .

وقد لازم هذا النمو وتفاعل معه ما كان لابد حادث في عالم الفكر أيضا من تحول عميق شامل فعاد المفكرون يدرسون آثار الماضي الإغريقي - الروماني ، حين كان الناس يعيشون على هذه الأرض كما كان معاصروهم يريدون أن يعيشوا ، ويبنّون من حيث انتهى أسلافهم ويتعمقون مشاكل الحياة المادية بعد أن طال تعمقهم للحياة الآخرة ، ومن ثم كان الأومنيزم والنهضة ومذهب العقلين والمذاهب الفلسفية الحديثة ، وكان الاتجاه الى العلوم الطبيعية والدراسات التطبيقية التي ثارت بالعالم من جديد باختراعات القرن التاسع عشر .

وصحب هذا التحول تطور بالغ في الأوضاع الاجتماعية والسياسية أيضا فقد استطاعت المدن أن تسيطر على المجتمع الريفي القائم حولها باجتذاب أهله وتمويل أشرافه والتحكم في اقتصاده أى إخضاع حياته جميعا لمقتضيات حياتها هي . وهنا تتحطم القيود التي تربط الريفيين بالأرض وتتراخي علاقاتهم بسادتهم وتظهر الملكية الفردية ، نعنى تتحلل مقومات النظام الإقطاعي وتتجه الى الاستخفاء^(١) . وتنتعش الدورة الاجتماعية أثناء ذلك فينشط تنقل الفرد داخل طبقته ويسرع ارتفاع الطبقات من الأسفل الى الأعلى وتطفو على سطح المجتمع عناصر جديدة من رجال أعمال وساسة وعلماء ، صعدوا من صفوف الصانع والتجار ومزاوولي الأعمال الحرة الذين نهضوا بالمدن وخبروا حياتها وأقاموا نظمها ، أو هبطوا من صفوف النبلاء الإقطاعيين الذين استطاعت الحياة الجديدة أن تشدهم الى عربتها . وعندئذ يبدأ النزاع على الحكم بين هذه العناصر الجديدة والعقلية الإقطاعية القديمة فينادى الأولون بالحرية التي يحتاجون اليها للوصول الى الحكم وتوجيهه الوجهة التي تلائمهم ويتمسك الإقطاعيون بالنظم القديمة ولا ينفك هذا النزاع قائما

(٣) بيرين : « التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لأوروبا الوسيطة » .

حتى يتخذ الشكل الذى بلغه بروسو ومنتسكيو وفولتير وأتباعهم ثم
ينفجر بالثورة الفرنسية ، اذ تداعت النظم الاقطاعية جميعا وانتقل الحكم
من أيدي الأقطاعيين الى أيدي هذه الطبقة الجديدة من أبناء الصانع
والتجار والزراع الذين شقوا الحياة بسواعدهم وعاشوا مسائلها
يوما بعد يوم وأقاموا مجتمعا جديدا واسع الأفق كثير المشاكل دقيق
التركيب (١) .

★ ★ ★

وكان الشرق العثماني يحيا أثناء ذلك حياته الخاصة بعيدا عن
التطورات التى أصابت الحياة الغربية ومقوماتها وقوانينها . وقد
سبق أن رأينا ما انتهت اليه الحياة الاجتماعية لهذا الشرق تحت الممالك
وما نزل بمصر خاصة عقب انتقال التجارة العالمية الى الاطلنطيق وظهور
العثمانيين . ورأينا كيف ارتدت مصر الى الحياة الاقليمية المحدودة بعد
ذلك وكيف لم يكن العثمانيون فى نهاية الأمر سوى موجة جديدة من
هجرة أهل آسيا الوسطى الى حوض البحر المتوسط ، يمتازون بما امتاز
به من سبقهم الى تلك الهجرة من اكراد ومغل وشراكسة من خشونة
بدوية مقاتلة . ومن ثم كانت غاراتهم المتوالية على المسيحية الأوروبية
وضعف استجابتهم لدواعى الحياة المدنية وعدم اكتراثهم أيضا
للاكتشافات الجغرافية الجديدة على الاطلاق، فهم لم يتصلوا بأمريكا من بعيد
أو قريب ولم يحاولوا شيئا فى سبيل منافسة طريق الرجاء الصالح بله
تعطيله (٢) وقنعوا بما عرفوه وعرفته البلاد التى استولوا عليها من نظم
اقتصادية أصابها ما أصابها من انتكاس فى ذلك الوقت بالذات .

وقد كان من شأن مضى الغرب فى الطريق الفسيح الجديد الذى
رأينا ، بعد انقباضه فى عصر الوسط ، وتعرش الشرق فى الطريق الذى
كان آخذا به منذ الفتوح العربية ، بعد الامعان فى الاتساع ، وعدم
طروء عوامل فعالة ، كالعوامل الخارقة التى طرأت على حياة الغرب ،
من اكتشافات جغرافية الى اختراعات علمية الى ظهور طبقات جديدة ،

(١) Guglielmo Ferrero : Le Pouvoir (عكليم فريرو : « الحكم ») .

(٢) ونحن نفهم من مصطفى زياده ان الممالك ظلوا يحاولون تعطيل

هذا الطريق حتى دخل العثمانيون مصر فأهملوا ذلك انظر Foreign Relations of Egypt in the fifteenth century .

على حياته ، كان من شأن ذلك أن ما انكسرت سورة الغارات العثمانية في القرن السابع عشر والتقى العالمان في ميدان الحياة المدنية حتى طغى الغرب على الشرق وغمره غمرا ، كما يحدث حين يلتقى سائل في مستوى عال بسائل في مستوى أقل منه ارتفاعا فيطغى عليه ويغمره ؛ ومن ثم كانت جهود العثمانيين منذ ذلك الوقت لسد هذا الفراغ والسمو بسلطنتهم الى المستوى الذى بلغه الغرب أى كان ما تواضع مؤرخو بنى عثمان على تسميته بالاصلاح الاسلامى ، وهو الاصلاح الذى لا يزال نسمع عنه ونشهد بعض مظاهره في بلاد الهنرق جميعا ليومنا هذا^(١) . وقد بدأت هذه الحركة في صورة محاولات قام بها السلاطين وأعوانهم المباشرى لتوطيد نظم الامبراطورية ومعالجة ما بدا بها من نقص ، كانت ترجع اليه ، في رأيهم ، الهزائم العسكرية التى نزلت بها خلال القرن السابع عشر ، تقصد في صورة السعى للعودة الى تقاليد السلف الصالح ، ومن هنا كان الاتجاه الى اعادة تنظيم الجيش والوقوف في وجه الميول الانفصالية للولايات والنظر في احكام المالية العامة ؛ ثم اتخذت صورة الاستجابة للضغط الدولى ، اذ كان ما يثيره اتجاه السلاطين هذا الجديد من معارضة داخلية ، وما كانت هذه المعارضة تبعثه من اضطراب في بنيان الامبراطورية ، يغرى بها الدول الكبرى جميعا . واذا كان فريق من هذه الدول يقصد وقتئذ الى القضاء على العثمانيين وكان الفريق الآخر يريد الابقاء عليهم كعنصر من عناصر التوازن الدولى ، فقد كان الخلاف يقف بها جميعا عند التدخل السلمى في شؤونها الداخلية والعمل على الملاءمة بين نظمها والنظم الغربية بطريق الايعاز أولا ثم طريق الضغط السياسى والعسكرى ؛ ومن ثم كانت المذكرات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية والاتفاقات السياسية التى شغلت العواصم الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكانت تلك السلسلة الطويلة من التنظيمات التى امتدت حتى أول القرن العشرين ، وكانت المستحدثات

Berard : Le Sultan, l'Islam et les Puissances, Engelhardt : (١)
La Turquie et le Tanzimat .

العسكرية والادارية والدستورية التى أخذت بها الاستانة أثناء ذلك كالنظام الجديد والمحاكم المختلطة والمجالس الشورية^(١) .

وكان فى هذا الاتجاه الغربى شىء من شتى العناصر التى كانت تكيف موقف الدول الكبرى من المسألة العثمانية حينئذ : كان فيه شىء من رغبة روسيا فى تفكيك أوصال الامبراطورية العثمانية بإثارة شعوبها المسيحية واحلالها المحل الذى يمكنها ، وهى المتصدرة لزعامتها ، من تحقيق غاياتها الخاصة . وكان فيه شىء من رغبة انجلترا فى تثبيت العثمانيين والاحتواء بهم من سورة الخطر الروسى . وكان فيه شىء من نزعة فرنسا الى التوسع وخلافها مع النمسا وسيرها خلف عربة السياسة الانجليزية . وكان فيه الكثير من ميل أوروبا جميعا الى بسط سلطانها على السلطنة العثمانية واستثمار أموالها وتوظيف أبنائها فيها ؛ كذلك كان فيه دون شك بعض العداء القديم بين المسيحية والاسلام ، وهو العداء الذى برز بعد ذلك فى ثورة أوروبا للدفاع عن الحركة الانفصالية اليونانية وما صاحبها من تهويل ، لا يزال ما كتب حينئذ وبعد ذلك فى تاريخ الاغريق وآدابهم وعلومهم يحمل طابعه الى اليوم .

وقد أثر تحول وضع الغرب من الشرق على هذا الوجه فى حياة مصر أيضا منذ نهاية القرن السابع عشر : أثر فيها من ناحية علاقاتها بالسلطنة العثمانية وأثر فيها من ناحية اتصالها بالقارة الأوروبية مباشرة . وكانت مصر تمس فى ذلك الوقت قاع الهوة التى دفعتها اليها أحداث القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد أن تحللت صلتها بالآستانة تحللا زاد فى خلل أوضاعها الداخلية والخارجية جميعا فتفاعل ذلك التحول وظروفها الخاصة هذه فى تكيف الاتجاهات التى أخذتها بعد ذلك .

ونحن نعلم فعلا أن مصر استهلكت القرن الثامن عشر بحركة على الكبير وهى حركة تحولت من منافسة عادية على مشيخة البلد بين الأمراء المماليك

(١) المرجع السابق .

الى حرب انفصالية شنها شيخ البلد المنتصر على السلطان^(١) واتجه أثناءها
اتجاهها دوليا لا عهد للبلاد به منذ أمد بعيد فاتصل بروسيا^(٢) وتعاون مع
حكومة البندقية وفتح الثغور المصرية للتجارة الغربية^(٣) . وقد أجابت
تركيا على حركة على الكبير بحملة عسكرية قصدت بها الى التخلص من
أصدقاء الروس في مصر ورد نظم الحكم الى ما كانت عليه قبل أن تتحول
تحت ضغط المماليك^(٤) ولكنها لم تعد تعدل بعض الأنظمة العسكرية
والحجر على حرية الذميين ورفع نصيب الجند من حصيلة الخراج ، كما
حدث في الولايات الأخرى اذ كانت السياسة العثمانية تقوم فيها وقتئذ
جميعا بمثل هذه المحاولات ولا تصل الى أبعد من هذه النتائج .

كذلك نعلم أن تطاحن الأمراء وضعف الولاة واضمحلال المماليك
خصوصا بعد سنة ١٧٨٦ ، وهى السنة التى منع فيها السلطان بيع الرقيق
الى مصر ، وما كان يبعثه كل ذلك من شعث فى الشئون العامة ، دفع
وقتئذ بالمدينين الى الثورة وزاد فى قيمة صوتهم لدى هذه الجهات جميعا
حتى انتهى الأمر بهم الى المطالبة بتسوية جديدة لعلاقاتهم بالحكام .
ونحن نعلم بهذه التسوية من الجبرتي فهو يقول : « وفى شهر ذى الحجة

(١) S.L. Aly bey el Kebir . وقد خلع على الكبير الوالى وفتح الشام
والحجاز واليمن ونادى به شريف مكة سلطانا لمصر والبحرين ، تاريخ الجبرتي .
(٢) Marcel : L'Egypte (مارسيل : « مصر ») . وهو يقول ان محاولات
روسيا السياسية فى مصر استمرت بعد على الكبير أيضا حتى كان
ربيع ممالكها فى سنة ١٧٦٨ من الروس وصار عهد أبراهيم ومراد يعد
عهد النفوذ الروسى . كذلك يقول محمد فريد ان الجيش الذى قاتل به
على الكبير أبا الذهب كان به ٤٠٠ جندي روسي وأربعة ضباط من نفس
الجنس : « تاريخ السلطنة العثمانية » .

ويلاحظ أن اتصال على الكبير بروسيا وتعاونه مع البندقية يفسران
الى حد بعيد ما كان يتهم به من ميل للمسيحيين .

(٣) Charles Roux : L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte .
(شارل رو : « انجلترا وقنال السويس ومصر »)

وكان لعلى الكبير مستشار بندقى الجنس يدعى روستو .

(٤) ومع ذلك كانت فرق المماليك خير مافى السلطنة العثمانية وقتئذ
على الاطلاق . وقد ظهر ذلك فى الاصطدامات التى وقعت فى النصف الثانى
من القرن الثامن عشر بينهم وبين القوات العثمانية والفرنسية والانجليزية
والجبرتي يقول ان الشيخ العروسي قال لاسماعيليك حين فكر فى استقدام
الجند من الاستانة للاستعانة بهم على أعدائه ان الجند المصريين خير من
الأتراك وانه من الأفضل اعطاء الأولين ما كان يريد اعطاءه الآخرين .

(سنة ١٢٠٩ هجرية) وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوى له حصة فى قرية بشرق بلبيس حضر اليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفى وذكروا أن أتباعه حضروا اليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه فاستغاثوا بالشيخ فاغتاز وحضر الى الأزهر وجمع المشايخ وقلقوا أبواب الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئا ، ففعل ذلك فى ثانى يوم وقلقوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا الى بيت شيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك . وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم فسألهم عن مرادهم فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتوها وأحدثتموها . فقال لا يمكن الاجابة الى هذا كله فانتا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء الممالك والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ . فقال حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب فانقض المجلس وركب المشايخ الى الجامع الأزهر فاجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا فى المسجد . وأرسل إبراهيم بك الى المشايخ يعضدهم ويقول لهم أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى وأرسل الى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك فبعث مراد بك يقول أجيبكم الى جميع ما ذكرتموه الا شيئين ديوان بولاق وطلبتكم المنكر من الجامكية ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم وندفع لكم جامكية سنة تاريخية اثلاثا ثم طلب أربعة من المشايخ وعينهم بأسمائهم فذهبوا اليه بالجيزة فلافهم والتمس منهم السعى فى الصلح على ما ذكر . ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة وفى اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل إبراهيم بك فاجتمع الأمراء هناك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وكان المرسل اليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعى

خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيسا موزعة على أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثه والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ما عدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة . وكان القاضي حاضرا بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفر من عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بك وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضا وانجلت الفتنة » .

وهكذا كان مشايخ الأزهر يقومون في هذا المجتمع بدور كبير يجعل منهم جهازا من أجهزة الحكم القائم ويؤدي بهم الى الوقوف في صفه كلما هدده خطر خارجي^(١) . وقد وقفوا في صفه فعلا حين فجأ حسن باشا القبطان الأمراء المماليك بحملته ثم هبط الفرنسيون مصر . كذلك كان امعانهم في الاشتغال بأمور الحياة يؤثر في وضعهم الاجتماعي ويكاد يجعلهم سادة اقطاعيين كالأمراء المماليك سواء بسواء . والجبرتي لا ينى يشير الى هذه الظاهرة وينعيها على مشايخ عصره فيقول : « ولما انقضى هذا الأمر واستقر الباشا واطمأن خاطره وخلص له الاقليم المصرى وثرر الأسكندرية الذى كان خارجا من حكمه حتى قبل مجيء الانجليز — فان الأسكندرية كانت خارجة عن حكمه فلما حصل مجيء الانكليز وخروجهم صار الثغر في حكمه أيضا — فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافى البلاد التى التزموا بها لأنه لما ابتدع المغارم والشهريات والقرض التى فرضها على القرى ونظام الكشوفية جعل ذلك عاما على جميع الالتزامات والحصص التى بأيدي جميع الناس حتى أكابر العسكر وأصاغرهم ما عدا البلاد والحصص التى للمشايخ

(١) لاحظ الشيخ محمد عبده هذه الظاهرة وراى ما كانت تشتمل عليه من اتجاه الى القيام بالحكم يرجع بعضه دون شك الى طبيعة وظيفة رجال الدين فى الحكم الاسلامى من ناحية والى تحلل نظم الحكم المملوكية الذى كان سائرا فى طريقه حينئذ من الناحية الأخرى . انظر ذلك فى « محمد على الكبير » لشفيق غربال وان كان سعادته لا يؤيد هذا الرأى .

خارجة عن ذلك ولا يؤخذ منها نصف الفائظ ولا ثلثه ولا ربهه وكذلك من يتسبب لهم أو يحتمى فيهم • ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ومن فلاحهم تحت حمايتهم ونظير صياتها واغتروا بذلك واعتقدوا به وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة وافتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ التاموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الأولف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعذيب والضرب بالفلكة والكرابيج المعروفة بذب الفيل واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم في الارساليات بالبلاد وقدروا حق طرق لاتباعهم وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وانذارات عند تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة وانقلب الوضع فيهم بضده وصار دينهم واجتماعهم ذكر الامور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بتردادهم والترداد عليهم والمهاداة فيما بينهم الى غير ذلك مما يطول شرحه » •

وقد قال المشايخ أنفسهم للوالى أحمد باشا حين هبط القاهرة : « لسنا أعظم علمائها (أى علماء مصر) بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة وأهل الحكم فيها » • وبلغ بعضهم فعلا وقتئذ حدا من النفوذ لأبأس به ، كالشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار ،^(١) وجمع الى الثراء مصاهرة الأمراء كوالد الجبرتى الذى ورث عن صهره قيادة حصون الطور والسويس بالرغم من اشتغاله بالعلم •

(١) كان الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار يتشبه بالأمراء حتى فى اللباس ويقتنى العبيد والقصور وقد رفض أن يسلم حسن باشا الجزائرلى مبلغا أودعه لديه ابراهيم بك وأنب الباشا لقبضه على نساء الامراء ورغبته فى بيعهن ثم قال له حين أمر بأن يأخذ الكاتب اسمه واسم المشايخ الذين من رأيه ليبلغها للسلطان : « أكتب ما تشاء من الاسماء ولا مانع لدى من التوقيع عليها » . تاريخ الجبرتى •

ونحن نعلم أيضا أن اخفاق تركيا في استعادة سلطانها على مصر ، وقصور القوى التي كانت تتجاذب النفوذ في البلاد عن اجتياز مرحلة هذا التجاذب الى دور الانشاء لحكم جديد ، أديا الى ما كان يؤدي اليه حينئذ ضعف الشرق في جميع الميادين ، من تحول التيار الغربى ، الذى كان يهب على ربوعه ، من الضغط الخارجى الى التدخل المباشر ، فكانت الحملة الفرنسية وتقلها بغتة الى صميم مصر أحدث ثمرات التقدم الغربى (١) اذ كانت فرنسا تسير حينئذ على رأس هذا التقدم وكان نابليون أبنه عبقرية سياسية عسكرية عرفت القارة الأوروبية بعد قيصر وشارلمان وكان الجيش الذى هبط معه الاسكندرية خير من يمثل أحدث ما بلغته هذه القارة فى العلوم والفنون والاتجاهات الاجتماعية الحديثة على وجه العموم .

وقد أقبل نابليون على مصر وفى صدره ذكرى الاسكندر وقيصر وماضى البحر المتوسط ، نعى ذكرى العالم الذى اشتركت مصر فى بناء صرحه ، وما استقر بها حتى صرف قواده الى البحث عن معالمها القديمة (٢) واتجه الى تنظيم ادارتها وتنسيق مواردها وربط ما بينها وبين بلاد البحر المتوسط ثم وصل هذا البحر بالبحر الأحمر (٣) وكان هو ما كاد يهبط الأسكندرية حتى أذاع على أهل البلاد منشورا يحدثهم فيه عن ماضيهم البعيد وينوه لهم بصداقته للسلطان ورعاياه ويعرض لهم بالحكم الذاتى (٤) . ولكن هذا المنشور لم يغن عنه شيئا ولم يكد المصريون يلتقون بالقادمين وجها لوجه حتى انفجرت الحرب وظلت تتقد بلا انقطاع طوال مدة الحملة (٥) . فقاوم أهل الأسكندرية الغزاة

(١) كانت أوروبا تحاول فتح أبواب مصر لنفوذها خصوصا الاقتصادى منذ القرن السادس عشر وكان ممثلو فرنسا فى القاهرة والاستانة يقترحون احتلالها منذ أوائل القرن الثامن عشر . Freycinet : La question égyptienne . (فريسنيه « المسألة المصرية ») . وشارل رو يقول ان النمسا كانت تفكر فى الاستيلاء على مصر من قبل ذلك .

(٢) كانت لدى نابليون تعليمات بوصف أرض الفراعنة وصفا علميا . فريسنيه .

(٣) أعلن نابليون عن رغبته فى وصل البحرين وسافر الى السويس للنظر فى تحقيق ذلك . تاريخ الجبرتى .

(٤) وكان قد لوفح بالحكم الذاتى للايطاليين أيضا فى مستهل حملة إيطاليا فيسر له ذلك الحملة تيسرا بالغا .

(٥) Jonquière : l'Expédition d'Egypte .

بعضيهم — وكان زعماءهم قالوا لرجال نلسون قبل ذلك بأيام أن مصر أرض السلطان ولا شأن لأحد بها وطردهم شر طردة « حتى تتحقق ارادة الله » كما يقول الجبرتي — بينما كان مشايخهم يجأرون بالدعاء في الجوامع وكانت الحامية التي استجلبوها من بدو البحيرة تنسحب مدحورة على عجل • وقاتلهم الدمنهوريون قتالا شديدا ثم وقف لهم المماليك في الرحمانية وانهزموا لهم بالقرب من القاهرة في موقعة عنيفة؛ لعلها آخر موقعة نازل فيها فرسان عصر الوسط علم الحرب الحديث ، واستمروا يهاجمونهم بعد ذلك من وقت لآخر • وثارت عليهم القاهرة المرة تلو المرة كما ثارت عليهم المدن الأخرى ما استطاعت •

وقد قاتلهم الجميع لأنهم رأوا فيهم أعداء دينهم الدائمين وأبعدوا في ذلك حتى أقبلوا على التنكيل بمن كان يقوم بين ظهرائهم من غير المسلمين خصوصا بعد أن انقاد بعض هؤلاء لعصيتهم الدينية وانضموا الى الغزاة وخامروهم واحتضنهم الغزاة واستعانوا بهم^(١) • وقاتلوهم لأنهم لم يفقهوا دعوتهم الى الحرية السياسية فأبى العلماء أن يزينوا صدورهم بالطيلسان ، رمز الثورة الفرنسية ، وكان أحرار أوروبا يتخاطفونه حينئذ^(٢) ، ورأوا فيه رجسا من عمل الشيطان ، ورفضوا أن يعينوا

(١) وقد دفع المصريون الضريبة التي فرضها السلطان لترحيل الفرنسيين بلا تردد لأنها كانت تخلصهم من الكفار • تاريخ الجبرتي • والجبرتي أيضا يقول ان عثمان بك رفض عرض الانجليز عليه معونتهم بعد نزولهم الاسكندرية ، اول ايام محمد على ، قائلا انه مسلم وهم نصارى • « وحضر الانجليز بعد ذلك الى الاسكندرية فوجدوه (أى الألفى) قد مات فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا الى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم فيقولون لهم انما جئنا الى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الألفى قد مات وهو شخص واحد منكم وانتم جمع فلا يكون عندكم تاخير في الحضور لقضاء شغلكم فانكم لا تجدون فرصة بعد هذه وتندمون بعد ذلك أن تلكاتم • فلما وصلتهم مراسلة الانجليز تفرق رأيهم وكان عثمان بك حسن منعزلا عنهم وهو يدعى الورع وعنده جيش كبير فأرسلوا اليه يستدعونه فقال انا مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت الفرنسية والآن أختم عملي والتجئ الى الأفرنج وأنتصر بهم على المسلمين أنا لا أفعل ذلك » • تاريخ الجبرتي •

(٢) وفيه (٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣) طلب صاري عسكر بونابرت المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرت من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به الى الأرض واستغفى وتغير مزاجه وامتنع لونه واحتد طبعه • فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم

قاضيا من بينهم بدل القاضي التركي قائلين ان تعيينه من حق السلطان ، وأنكروا عرض نابليون الوظائف العامة عليهم وقالوا له ان العامة لا يخشون سوى الأتراك^(١) ، ولم تبث الحملة في مفكرهم وعلى رأسهم الجبرتي سوى العبر الدينية والاخلاقية بل ان الجبرتي لا ينى عنى على الثوار ثورتهم التى ألحقت البلاء بالناس . ولكنهم اشتدوا فى قتالهم قبل كل شئ حين اصطدم تصورهم الحكم ووظيفته ومداه بتصورهم هم : فقد كان المصريون فى ذلك الوقت لا يكادون يعرفون لهم حكومة حقيقية تحكمهم^(٢) وكان تدخل ادارة السلطان فى أمورهم ضيقا متقطعا ، بينما كان الفرنسيون يجيئون من عالم تطور فيه الحكم الى حلقة متتابعة من الأنظمة الدقيقة المتصلة بنشاط الأفراد جميعا وكان هذا التطور هو الذى قاد خطاهم الى تنظيم الملكية وترتيب الأحوال الشخصية واعادة ربط الضرائب وهو الأمر الذى أثار القاهرة مرتين^(٣) .

وقد أخفقت الحملة الفرنسية كحملة عسكرية ولكنها أفلحت فى

أحباب الصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم . فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا المسلمين . تاريخ الجبرتي .

(١) « وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر (سنة ١٢١٣ هـ) ارسلوا لطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر فلما استقر بهم المجلس خاطبهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات فوق الاتفاق على . . . » وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتحذا بكر باشا والقاضى وقلدوا محمد آغا السلمانى أغات مستحفظان وعلى آغا الشعراوى والى الشرطة وحسن آغا محرم أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك فلا يحكمهم سواهم . تاريخ الجبرتي .

(٢) سبق أن عرضنا لهذا الموضوع عند التحدث عن نظام الحكم تحت السلاطين وأشرنا الى استئثار رجال الدين بالتشريع والقضاء وقيام الطوائف بجانب كبير من وظائف الدولة . وقد زاد هذا الاتجاه تحت المماليك بسبب فوضى الحكم وتنازع الحكام . ونحن نعلم أن مهمة الأمراء كانت لا تعدو وقتئذ جباية الضرائب والمحافظة على الأمن والسير الى حروب تركيا مع المسيحيين .

(٣) Lacroix : Bonaparte en Egypte .

توجيه أضواء العلم الحديث الى ماضى مصر البعيد ولفت نظر الدول لفتا
عنيفا الى أهمية مركزها السياسى ثم فتح نفوس بعض أبنائها للتيارات
الغربية الحديثة . ونحن نجد أول صدى هذه التيارات فى مشروع
المعلم يعقوب لتحرير مصر من الحكم العثمانى^(١) . ويعقوب من الأقباط
الذين لازموا الفرنسيين منذ بدأت حملتهم فتمثل آراءهم السياسية ،
وكانت الى ذلك الوقت مشبعة بروح الثورة الفرنسية ، وما كاد يتبين
اضطرارهم الى ترك البلاد حتى عزم من ناحيته على الرحيل الى أوروبا
والسعى لتحقيق الاستقلال المصرى بتخويف انجلترا مما لا بد سوف
يبعثه انهيار السلطنة العثمانية من تنافس بين الدول ويعرض مواصلاتها
مع الهند له من أخطار ، واستمالة رأى العالمى بما لمصر القديمة من أياذ
على الحضارة الانسانية . والأثر الفرنسى فى تفكير يعقوب هذا واضح
لا يحتاج الى تبين فقد كان المصريون وقتئذ ، مسلمون ومسيحيون ،
لا يذكرون من ماضيهم القديم شيئا ، وكانت فكرة الاستقلال الحقيقى
عن السلطنة العثمانية لا تخطر لهم على بال ، ولم تكن انتفاضات الأمراء
المماليك ، فيما عدا حركة على الكبير — وقد رأينا صلتها بالسياسة
الروسية والبندقية — تذهب الى أكثر من محاولة ايثار أصحابها بالحكم
دون الولاية . وما كان من الممكن أن تتجه غير هذه الوجهة والامبراطورية
العثمانية يومئذ هى العالم الاسلامى فى مجاهدته المسيحية ، وسلطانها
على مصر مقصور على تعيين وال ، يحق لمن ولى عليهم أن يحاكموه
ويخلعوه ، وارسال فرمانات تشريعية أو ادارية أو مالية ، يحق لمن أرسلت

(١) كان يعقوب من الأقباط الذين ظهوروا فى تيار على الكبير وسياسته
الدينية السعوية . وقد مكّنه العمل لدى سليمان بك ، وكان يومئذ
من أعظم الأمراء شأنا ، من تتبع أحوال مصر السياسية والمالية والعسكرية
فى فترة من أشد فترات حياتها تعقدا والاشتراك فيها اشتراكا أكسبه خبرة
واسعة . وهكذا ما كاد نابليون يدخل القاهرة ويتصل برؤساء الطائفة
القبطية ويفكر فى الاستعانة بهم فى سياسته المالية والادارية حتى برز
بروزا سريعا واختير لمعاونة ديسييه فى حملة الصعيد . وقد رحل فعلا
مع هذه الحملة وبقي الى جانب ديسييه حتى نهايتها ثم عاد معه الى
القاهرة وظل يتعاون مع الفرنسيين حتى صار أمير القوات القبطية التى
أقدم هؤلاء على انشائها حين فكروا فى تجنيد أهل البلاد . دوين .

انظر أيضا Homsy : Le général Jacob

لهم أن يطلوها ، واستجلاب خراج يستطيع من حين لآخر ألا يرسل ، فضلا عن ما يبنى على التغير عن طاعة السلطان من دخول في عالم العلاقات الدولية الذى كان الممالك لا يعلمون من أمره الا ما يبلغهم عن طريق التجار أو الرسل (١) . وقد اتجه الألفى (٢) بعد يعقوب الى الانجليز واستعان بهم في محاولة استعادة الحكم ومضى في ذلك شوطا بعيدا ، ولكنه لم يكن في ذلك أكثر من حاكم معزول يلتبس السبيل الى استرداد حكمه فلم يرتفع الى الوعي المصرى الذى بلغه يعقوب . ونحن لا نحس خلجة استقلالية واحدة في سرد الجبرتى سيرة على الكبير أو الألفى فهو لا يعدو سرد كاتب أمين سيرة رجلين نابيين ، بل ان الجبرتى لا يذكر انقطاع الباب العالى عن ارسال الولاة الى مصر على أيام على الكبير الا عابرا ولا ينفك يثنى على حسن بلاء العثمانيين في ذودهم عن الاسلام والمسلمين (٣) . هذا الى أننا نعلم أن أفكار يعقوب كانت تنتشر وقتئذ بشكل أو آخر على السنة الفرنسيين والغربيين على وجه العموم (٤) وان حركته ماتت بموته في فرنسا بعد ذلك وعادت أمور مصر سيرتها الأولى فكان زعيم أكبر حركة سياسية هزت كيانها بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر رجل دينى هو السيد عمر مكرم .

(١) وقد كتب المشايخ الى السلطان والى شريف مكة بايعاز من نابليون يخبرونهما بأن الفرنسيين لم يمسوا حقوق السلطان فقد كانت النقود المصرية لا تزال تضرب بصورته وكان اسمه لا يزال يذكر فى خطبة الجمعة . تاريخ الجبرتى .

(٢) كان الألفى بعكس معاصريه من الامراء على نصيب من الثقافة والفطنة السياسية وقد أدرك أن انتصارات الفرنسيين على الانجليز انتصارات عابرة وان اقتتالهم لابد آيل الى توطيد النظم المملوكية بينما كان مجيء الأتراك الى مصر بمناسبة الحملة الفرنسية الخطر الحقيقى الذى يهدد هذه النظم . كذلك أدرك الخطر الذى نجم عن تمزيق الحملة الفرنسية للفرق المملوكية وحاول أن يعالجه بلم شمل الممالك الباقين وتوطيد صلته بقبائل البدو فتزوج منهم وعاشرهم . تاريخ الجبرتى .

(٣) وهو ثناء رده محمد فريد بعد ذلك فى كتابه « تاريخ السلطنة العلية » .

(٤) يقول جويمار ان السكرتير الذى اشترك فى احاديث يعقوب وحرر المذكرة التى حفظها ربان الباخرة الانجليزية التى نقلته كان من رجال الحملة الفرنسية المعروفين بكثرة المشاريع وسعة الخيال .

والسيد عمر مكرم من تقباء الطوائف التي كانت تقسم السلطة العامة في ذلك الوقت وتقوم كوحدات حكومية صغيرة الى جانب الحكومة فكان له حرس وجند وكان يزاول السلطة القضائية ازاء المنتمين الى طائفته ويدير أوقافا واسعة تكفل له استقلالاً مالياً لا بأس به وتصل بينه وبين الحياة الاقتصادية التي كانت تتأثر يومئذ باضطراب السلطة العامة وثقل الضرائب وهياج الجند . وقد اشترك في جميع المؤامرات التي حيكت بالقاهرة لاجراج الفرنسيين من مصر وقاد ثورة المدينة عليهم وانتهى الى الاضرار بزعامتها عند ما تركوا البلاد وبدأ النزاع بين القوات العثمانية على مغامرات الحرب وشعر المدنيون بالحاجة الشديدة الى التكتل والذود عن أنفسهم ^(١) . كذلك نظم دفاع الدمنهوريين ^(٢) عن مدينتهم حين هاجمها مماليك الألفى في ذلك الوقت بالذات وغذى الدفاع عن رشيد من الانجليز . وكان يصحب نشاطه العسكرى هذا بنشاط سياسى عريض فيوجه مثليه خارج القاهرة ويراسل الأمراء محاولا اقضاءهم عن المدينة ، حين يخشى شر دخولهم على أمنها ، ويقف في وجه فرقهم ، حين تدخلها مرغما اياها على الانسحاب ، ثم يظهر محمد على في التخلص من الجند الثائرين وقوادهم وينصبه واليا ويخرق بهذه التولية التقاليد التي ألفتها البلاد الى ذلك الوقت خرقا شديدا . فقد كان المتبع قبل ذلك أن يخلع الأمراء الوالى الذى لا يريدونه وينتدبون من يقوم مقامه الى أن يأتى الوالى الجديد فيحل محله . ولكن الخلع هذه المرة جاء على يد المدنيين ولم يأت على يد الأمراء ثم انه لم يقف عند حد انتداب من يقوم مقام

(١) باع اهل القاهرة حينئذ ثيابهم ليشتروا السلاح ويدافعوا به عن أنفسهم وقد ساهم المحروقي في هذه الثورة بادارته وثروته وعلاقاته في جميع انحاء البلاد . تاريخ الجبرتنى .

(٢) كتب اهل دمنهور الى السيد عمر مكرم يخبرونه بأن جند الاسكندرية تركوا المدينة حين نزلها الانجليز ولجأوا الى دمنهور وان هذا الامر اخاف كاشف المدينة وجنده وحملهم على الهرب بأسلحتهم رغم تذكير الأعيان اياهم بمعاونتهم لهم ضد الألفى . وقد اشترك الدمنهوريون جميعا في الدفاع عن مدينتهم حتى النساء . ويلاحظ ان محمد على كان قد نصب واليا في ذلك الوقت . تاريخ الجبرتنى .

الوالى المخلوع الى أن يأتى الوالى الجديد بل تجاوزه الى تعيين هذا الوالى أيضا . ومن ثم كان اعتراض الوالى المعزول وعدّه خلع أهل البلاد له اعتداء على حقوق السلطان وقوله ان الفلاحين لا يملكون الحق فى خلعه . وقد جلس السيد عمر مكرم بعد ذلك يرقب أعمال الوالى الجديد ويحصيها عليه فعاونه فيما أجازره منها وبدأ يناوئه حين تخلص هذا الوالى من الخطر الانجليزى وبعض الخطر المملوكى وبدأ يقيم حكمه الجديد ويحتاج فى ذلك الى مال كثير كان لا يستطيع أن يجده الا بضبط الحسابات القديمة وفرض الضرائب الجديدة والاعتداء على الحقوق المكتسبة . ولكن هذه المناوأة لم تمتد حينما حتى استطاع محمد على أن يذر الشقاق بين السيد عمر مكرم وأعوانه وينفى السيد عمر مكرم الى دمياط ويخضع المشايخ جميعا لارادته .

وقد برر السيد عمر مكرم السياسة التى اتبعها مع الولاة فى حديث له مع صديق لأحدهم . فقال له ان المقصود من «أولى الأمر منكم» فى الآية القرآنية الكريمة هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان حين يكون عادلا . وأضاف الى ذلك أن الشعب يخلع الولاة من قديم الزمن ويستطيع أن يخلع الخليفة والسلطان اذا حادا عن الصراط المستقيم وأنه ما دام العلماء قد أفتوا بوجوب مقاتلة الوالى وأعوانه لافتناتهم على حقوق الناس فقد أصبح فى حل هو ورجاله من مقاتلتهم^(١) . ونحن نعثر هنا على التصور الاسلامى للحكم فى جميع العصور . نعثر عليه فى القرن التاسع عشر ولدى أكبر شخصية ظهرت على مسرح السياسة المصرية بين الحملة الفرنسية ومحمد على . ونذكر من مقارنة الأثر العميق الذى كان لحركة السيد عمر مكرم بضيق الحدود التى اتخذتها حركة يعقوب كم كان ضمير مصر لا يزال أقرب الى ماضيها الاسلامى منه الى التيارات الغربية الحديثة .

وقد أخفق يعقوب لأنه كان يمثل فى مطلع القرن التاسع عشر أول محاولة فى طريق لم تتبين معالمه الا فى القرن العشرين وأخفق السيد عمر

(١) تاريخ الجبرتنى .

مكرم لأنه لم يستطع أن يؤدي ثمن الحكم الاسلامى الذى أراده .
أخفق الاثنان ونجح محمد على .

ومحمد على من أبناء مقدونيا الصلبة الذين جندتهم تركيا لاستخلاص مصر من الفرنسيين . فلم يكن من الرجال الذين كانوا يحكمون حينئذ الامبراطورية العثمانية^(١) ويبدون ما تبديه من تفكك وتردد وانحلال ، وما ولج القاهرة وهى وقتئذ فى معترك التيارات المختلفة حتى رسبت به طبيعته السليمة و انتهت به الى التمكن من القبض على ناصيتها وتوجيهها وجهته . وكانت هذه التيارات حينئذ عنيفة حقا فقد قبل الفرنسيون أن يغادروا البلاد ولكنهم لم يقبلوا النزول عنها حتى لا تقع فى يد منافسيهم . وساهم الانجليز فى اجلاء الفرنسيين . بعد أن شهدوا الضرر البالغ الذى يستطيع من يأخذ مصر أن يلحقه بمصالحهم الجديدة فى الشرق . وصاروا يرون لهم حقوقا عليها ويشعرون على كل حال بالحاجة الشديدة الى تتبع ما يحدث فيها فأبقوا بها بعض جندهم وجعلوا يأتلون الممالك لعلمهم ناصروهم فى سياستهم هذه . واستعاد العثمانيون مصر بعد توضحيات كبار ولكنهم لم يستطيعوا أن يستخلصوها لأنفسهم من جراء هذه السياسة الانجليزية الفرنسية ورغبة الممالك فى الاستئثار بالحكم من جديد . وكان يزيد فى هذا التضارب شدة انشقاق الممالك على أنفسهم وتفكك القوات العثمانية^(٢) وتردد السياسة الانجليزية والفرنسية فيما يخلق بها أن تتبعه ازاء مسألة مصر هذه الجديدة ثم اضطراب أمور الحكم أشد الاضطراب بعد ما أصاب نظام الممالك أثناء حملة العثمانيين والحملة الفرنسية من رجات شداد^(٣) . وهكذا اتصلت الحرب فى مصر بعد

(١) وقد عيَّره السلطان فى فرمان خلعه فى حرب سوريا الاولى بأنه كان شخصا عاديا . انظر دوين فى مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية . وقد اعتمدنا فى الصفحات الآتية على الوثائق الغزيرة المنشورة فى هذه المطبوعات نقلا عن محفوظات سراى عابدين وسنكتفى عند الإشارة اليها بذكر جامعى المراجع المختلفة منها .

(٢) كان يوسف باشا يحتل القاهرة وأهم قواعد الصعيد بثلاثة آلاف رجل وقبطان باشا يحتل الدلتا بعشرة آلاف رجل . سان ماركو : مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

(٣) سان ماركو : مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

خروج الفرنسيين وانقسمت البلاد الى مناطق يحتلها الأتراك ومناطق يحتلها الانجليز ومناطق يحتلها المماليك . وضاحت سلطة الحكومة الشرعية حتى صارت لا تكاد تتجاوز مدينة القاهرة . وجعل الجند يتكثرون طوائف حول من يعطيهم ما يريدون أو يرون أنهم يستطيعون برفعه وتمكينه من السلطان أن ينالوا ما يريدون . وأخذ القتال يمتد من القاهرة الى مديريات الدلتا ، حيث الألفى ورجاله ، والصعيد حيث بقية المماليك وغالب الفرق العثمانية ويتحول الى سطوات على المدن والقرى وما بين يدي أهلها من زاد ومال . وقد دفع هذا المدنيين الى قتل محالهم واللجوء الى مشايخهم فأغلق المشايخ جامعهم واجتمعوا بالقاضى وقدموا له شروطا علقوا بقبولها انتهاء هذا الاضراب العام ومضاعفاته فأرسل القاضى هذه الشروط الى الوالى فطلبهم الوالى ولكنهم رفضوا الذهاب اليه وأعلنوا الثورة .

وقد شهد محمد على هذا الانحلال العام فثار بنفسه ما ثار بنفس أقرانه من رغبة فى محاولة أمر . وتطورت هذه الرغبة لديه الى ادارة الحكم حين خبر الحوادث وقاس مواهبه بمواهب من يحيط به من قواد وحكام متهافتين فوسمت هذه الارادة سلوكه بطابع الزهد فى المغامرات العارضة والميل الى التعاون مع القوى السياسية الحقيقية المشتركة فى هذا النزاع فعارض الولاة المغامرين وخامر المماليك ، وهم أول الأمر القوة العسكرية القوية الوحيدة فى البلاد ، ثم اصطف الى جانب المشايخ حين تبلور الشعور العام فى ثورة صحيحة . وكان فيما لدى قادة هذه الثورة من رغبة فى القضاء على القوضى ، دون طموح واع الى الحكم المباشر ، وحاجة دفيئة الى ساعد قوى يحل محل سواعد المماليك التى نعم نسيجها ، وما به هو من حاجة الى سند يوصله الى الحكم ، وهو ليس من رجال الاستانة فيستعين بها أو أصحاب العصبيات الكبيرة بين الجند فيعتمد عليهم ، ما يقرب بينه وبينهم ويشركهم فى اتجاه واحد . وهكذا ما انفجر بركان القاهرة حين أذن تولى خورشيد ببلوغ القوضى غايتها حتى كان محمد على الرجل الوحيد الذى يستطيع الثائرون أن يطمئنون اليه ويأنس من نفسه قبول الأخذ بسياستهم . وقد صارحهم بذلك وأشار

الى ما كان لهم من سلطان وما كانوا يستطيعونه بهذا السلطان من الزامه بهذه السياسة ان حاد عنها فبايعوه واليا وكتبوا الى الآستانة بذلك (١) .

(١) وقد شهدت القاهرة حينئذ أياما من انبل الأيام يصفها الجبرتي فيقول : « فلما أصبح الأحد ثانی عشرة (سنة ١٢٢٠) ركب المشايخ الى بيت القاضي واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم . ومن الأولاد من يقول يا لطيف ومنهم من يقول يا رب يا متجلى أهلك العثماني ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك . وطلبوا من القاضي أن يرسل باحضار المتكلمين في الدولة لمجلس الشرع فارسل سعيد آغا الوكيل وبشير آغا الذي حضر قبل تاريخه وعثمان آغا كتخدا والدفتردار والشمق انجى . فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ففعلوا ذلك وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم للناس واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض مال الميرى المسجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوه معهم ووعدوه برد الجواب في ثانی يوم . وفي تلك الليلة أرسل الباشا مراسلة الى القاضي يرقق فيها الجواب ويظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة فلما وصلته التذكرة حضر بها الى السيد عمر أفندي واستشاروا في الذهاب ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه وغلب على ظنهم انها منه خديعة وفي عزمه شيء آخر لانه حضر بعد ذلك من اخبرهم أنه كان أعد أشخاصا لاغتيالهم في الطريق وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر ان عوتب بعد ذلك . فلما أصبح يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضي وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوه من الدخول الى بيت القاضي وقفلوا بابه وحضر اليهم سعيد آغا والجماعة وركب الجميع وذهبوا الى محمد علي وقالوا له : اننا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ثم رضى وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فالبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة ، وأرسلوا الى احمد باشا الخبر بذلك فقال : اني مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة !! وأصبح الناس وتجمعوا أيضا فركب المشايخ ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم الأسلحة والعصي وذهبوا الى بركة الأزبكية حتى ملأوها . وأرسل الباشا الى مصر العتيقة فحمل جمالا من البقسماط والذخيرة والجوخانة وأخذ أغلالا من عرصة الرملة وطلع عمر بك الأرئودى الساكن بيولاقي عند الباشا بالقلعة واجتهد السيد عمر النقيب وحرص الناس على الاجتماع والاستعداد وركب هو والمشايخ الى بيت محمد علي ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصي والنباييت ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات ويسرحون احزابا وطوائف ومعهم

ولئن كان تولى محمد على الحكم يستطيع أن يوجّهه وجهة جديدة
فما كان بمستطيع أن يغير الظروف التى أنشأتها بين عشية وضحاها .
فقد كان الممالك لا يزالون يريدون العودة الى الحكم وكان جند
الحكومة هم نفس أولئك المرتزقة المتمردين الذين فتكوا بالولادة
السابقين وكان الانجليز والفرنسيون ما زالوا يناوئون بعضهم بعضا فى
مصر وفى الأستانة ، حيث بدأ القائمون بأمور السلطنة يشعرون أن والى
مصر هذا الجديد ليس كغيره من الولاة ، ومن هنا امتداد الحرب
الداخلية وحاجة هذا الوالى الشديدة الى المال واضطراره من جراء ذلك
الى فرض الضرائب الجديدة والمطالبة بالضرائب القديمة وتسوية المشايخ
بالمكلفين العاديين واحتجاج هؤلاء وبخاصة السيد عمر مكرم على ذلك
ثم تغييرهم عليه . وقد تخرجت حاله تخرجاً شديداً حين استطاع الأتقى
أن ينال بمعونة الحكومة الانجليزية أمر خلعه وتعيين موسى باشا محله .
واقدم الانجليز على مهاجمته بأنفسهم فأخذوا الأسكندرية وزحفوا
الى رشيد . ولكنه استطاع أن يتغلب على الوالى الجديد وعلى

المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحي ووجهات السور . ثم اتفقوا على
محاصرة القلعة ، فأرسل محمد على باشا عساكره فى جهات الرميّة والحطابة
والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصريّة وطريق الصليبة وناحية بيت
أقبردى وجلسوا بالحمودية والسلطان حسن وعملوا متاريس فى تلك
الجهات ، وذلك فى تاسع عشرة ، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة . . .
« وفى ذلك اليوم ركب السيد عمر أفندى فى قلة من الناس وذهب
الى بيت حسين بك أخى طاهر باشا ، وكان هناك عمر بك الذى نزل من
القلعة فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة فى الكلام طويلة . ومن جملة
ما قال : كيف تعزلون من ولاء السلطان عليكم وقد قال الله تعالى :
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟ فقال له : أولو الأمر العلماء
وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وجرت العادة من
قديم الزمان أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان حتى الخليفة
والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونهم . ثم قال : كيف
تحصروننا وتمنعون عنا الماء والاكل وتقائلوننا ؟ نحن كفره حتى تفعلوا معنا
ذلك ؟ قال : قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاء .
فقال : ان القاضى هذا كافر ! فقال : اذا كان قاضيك كافرا فكيف بكم
وحاشاه الله من ذلك ، انه رجل شرع لا يميل عن الحق . وانفصل المجلس
على ذلك وخاطبه الشيخ السادات فى مثل ذلك فلم يتحول عن الخلاف
والعناد . هذا والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل
واتخاذهم الأسلحة والنبايّة حتى أن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه
أو يستدين ويشترى سلاحا ، . تاريخ الجبرتي .

الانجليز^(١) وعلى الممالك وأن يفرق شمل المشايخ ويضرب على أيديهم ويركز السلطة في يده كما لم يركزها وال عثمانى أو أمير من الأمراء الذين تعاقبوا في مشيخة البلد منذ أول القرن الثامن عشر . فقد كان هؤلاء الولاة يصطدمون أول الأمر بنفوذ السلطان ثم جعلوا يصطدمون بسلطة الأمراء حين ضعف السلاطين ، وكان الأمراء إذ استأثروا بالحكم ينقسمون على أنفسهم ويشعرون في هذا الانقسام بحاجتهم الى أبناء البلاد فيلتسبون معونة مشايخهم ويستشيرونهم ويستجيون لتوجيهاتهم، أما هو فكان يستأثر بالحكم في وقت احتاج فيه السلطان لولائه وانتهى الممالك أو كادوا وفقد المشايخ استقلالهم الاقتصادي بفقدهم الالتزامات والأوقاف وأصبح هو الحاكم وحده .

وكان هو يختلف بعد ذلك عن سبقه وعاصره من الولاة حنكة وعزما . ولكنه كان مثلهم ومثل معاصريه منهم على وجه الخصوص رغبة في الاحتفاظ بولايته والاستقلال بها ما استطاع . وهو يقول فعلا لقنصل فرنسا — حين يهبط قبطان باشا الاسكندرية بأمر خلعه وتولية موسى باشا — انه لن يترك له مصر بعد أن أخذها بحد السيف . ويطلب معونة حكومة هذا القنصل المالية والعسكرية عند نزول الانجليز في الاسكندرية استجابة لدعوة الأتقي ثم يقول له إذ تمتد الحرب معهم انه اذا ما واجههم وانتهى منهم فسيحتفظ بولايته تلك ويحاول أن يصل بها الى ما كان عليه بايات أفريقيا الشمالية في علاقتهم بالسلطان . وهو يخشى بعد ذلك تربص انجلترا لحكمه في البحر المتوسط والبحر الأحمر واضمار فرنسا أخذ مصر وأشراف السلطنة العثمانية على الانهيار والتفتت بين ورثيها العديدين^(٢) فيتجه بتفكيره أول الأمر الى مصادقة الانجليز والتحالف معهم حتى ينجو بولايته هذه الثمينة^(٣) ثم يتجه الى

(١) وقد رفض أهل الاسكندرية حينئذ السماح بدخول جند الباشا مدينتهم وأرادوا الدفاع عنها بأنفسهم . تاريخ الجبرتي .

(٢) كانت المفاوضات بين الدول على اقتسام الإمبراطورية العثمانية على قدم وساق : فريسينيه .

(٣) وارتن بك يقول لقنصل انجلترا بعد اتفاق لندن أيضا ان محمد علي نادم على مخالفته السياسة الانجليزية في سوريا ويرى في صداقة الانجليز خير ضمان له .

(محمد صبرى : « الإمبراطورية المصرية تحت محمد علي ») .

فرنسا حين يرفض الانجليز عروضه ويبدأ معها ذلك التعاون الطويل الذى امتد حتى أيام اسماعيل . وهو لا يهمل فى قلبه هذا بين أبواب السلامة المختلفة أمر تقوية حكمه باستجلاب من تصل اليه يده من جند مرتزقة حتى يستطيع أن يحتفظ بمصر على كل حال . كذلك لا ينسى أنه من كبار موظفى السلطنة العلية، وأنه يستطيع أن يتقدم برضا السلطان عليه فى مناصب السلطنة حتى يصل الى أعلاها^(١) ، ومن هنا سلسلة الحروب التى خاض غمارها منذ سنة ١٨١١ حتى نهاية حرب اليونان ، اذ بدأ حرب الحجاز ولما تهدأ البلاد من سطوات المماليك ، وهاجم السودان سنة ١٨٢٠ ، وهاجم اليمن سنة ١٨٢٣ . وقد قام بحرب الحجاز استجابة لأمر السلطان ورغبته هو فى بسط نفوذه واخضاع الوهابيين الذين كانوا يهددون كيان الامبراطورية العثمانية حينئذ . وأقدم على حرب السودان وحرب اليمن ، استرضاء للسلطان ، وسعيا وراء المال والرجال ، وسيلتيه المفضلتين للظهور والدفاع عن النفس ، أو المساومة بقوة اذا ما انهارت هذه الامبراطورية وأذن وقت انقسامها .

وقد بلغ فعلا من ذلك ما أراد فارتفع نجمه فى سماء الآستانة ، واتجهت الأنظار صوبه حين شبت حرب اليونان وأخذت تتطور تطورا خطيرا حقا . وكان هو قد رأى ما قد يؤدى اليه اشتراكه فى هذه الحرب من ظهور على مسرح السياسة الدولية ، وصعود الى المرتبة التى تصبو اليها نفسه ، فلم يتردد فى انتهاز الفرصة التى أتاحتها له . وكانت أوروبا المعنية بمسألة اليونان — لا سيما فرنسا وانجلترا — قد رفضت الى تلك الساعة المشاريع الكثيرة التى عرضها عليها هذا الوالى من تعاون الى تحالف الى احتواء . وفضلت المضى فى طريق الآستانة القديم على سلوك طريقه الأسكندري الوعر . كذلك كان السلطان قد رفض السماع الى المشاريع العديدة التى أنهاها اليه بعد أن عنى بوضعها فى اطار مصالح سلطنته ، من العمل على تحويل مصر الى حصن يدفع عن الامبراطورية

(١) كان ولاية مصر يطمحون لارفع مراكز الامبراطورية ويعودون الى

الآستانة اثرياء ويتحكمون فى سياستها . L'Empire Ottoman

غائلة الغرب أو شبه مملكة قائمة بذاتها يكون لها في مقاتلة هذا الغرب المسلمين موقف خاص يمكنها من تعزيز مركزهم ، اذا وقع ما كان يخشاه الجميع واستولت أوروبا على أراضيهم . الى ضم سوريا لمصر أو توحيد القيادة العسكرية للقاهرة ودمشق وبغداد في يده ، الى الاعتراف له بمثل مركز بايات أفريقيا الشمالية ، اذ أدرك السلطان ما كان ينطوى عليه هذا المنطق من ناحية الواقع من قضاء على وحدة الامبراطورية — كان الطرفان قد رفضا السماع له ، ولكنهما ما شهدا الدور الحاسم الذي قامت به قواته في تلك الحرب العصيبة حتى بادر كل منهما الى طرق بابه فعرضت أوروبا عليه أن يخرج من الحرب وله صداقتها وطلب اليه السلطان أن يواصلها وهو يعرض له بولايات سوريا الثلاث والقيادة العامة في هذه الحرب بالذات . وقد اشتد بعد ذلك ضغط أوروبا على الآستانة وتحول الى شبه حملة أوروبية على العثمانيين ، ورأى هو ما في ذلك من خطر على العالم الاسلامي ، فاتجه بتفكيره اتجاها جديدا وكتب الى الآستانة يحذرهما من التردى في ذلك المأزق ويقترح قبول صلح مؤقت تفيد منه الامبراطورية في تقوية نفسها والاستعداد للحرب من جديد . ثم يخطو خطوة ثانية ويقترح أن يعهد اليه السلطان في انهاض الامبراطورية واستغلال مواردها واعدادها للدفاع عن نفسها . ويشير الى بعض ما يجب عمله في سبيل ذلك من تعبئة الشباب المثقف وتوجيهه الى العلوم العسكرية والارتفاع به في انشاء قوات حديثة ويطلب أن يزوده السلطان ويزود ابنه ومساعدته بثلاثة أو أربعة من خيرة رجاله ، كيما يستعين بهم ^(١) في تحقيق هذه النهضة . ولكن الآستانة جعلت أصابعها في آذانها وواصلت العمل بسياستها الموضوعة حتى بلغ الروس ادريانوبل . وفرضت الدول عليها الاعتراف باستقلال اليونان . وهنا عاد محمد على من سماء فلسفته السياسية العثمانية الى حقيقة حاله الراهنة . فهو قد خسر قسما من جيشه في اليونان ، وفقد أسطوله جميعا في نافارين ، ولم يفر بشيء جديد من السلطان . وهو قد لمس بيده عبث الأمل في قدرة حكام الامبراطورية على انهاضها ، كما كان يريد المسلمون حينئذ جميعا ، وفي قبول السلطان

(١) محمد صبرى .

الاعتماد عليه في ذلك رغم رغبته الشديدة فيه واعتقاده في استطاعته ، وهو قد لمس أيضا ، ان كان ما زال في حاجة الى ذلك ، الضعف الرهيب الذي كانت عليه الامبراطورية العثمانية والذي كان لا يقصدها عن غايتها الا انشقاق الدول الكبرى في ذلك الوقت على نفسها بصدد سياستها الشرقية . وهو ينتهي من ذلك الى العدول عما كان قد أخذ به نفسه لتلك الساعة من تجنب الخروج السافر على السلطان ومحاولة الارتفاع بالامبراطورية برضاه والامتناع عن فرض نفسه عليه فرضا . ويفكر في الاعتماد على ضعف السلطان وقوته هو ، وفساد ضمائر أعوان السلطان وثرائه هو ، واختلاف أوروبا وترددها ، في الوصول الى ما يريد اليه ، بعد لفه في الأشكال الجذابة التي تبرد جروح المجروح وتيسر قبول المعارض ، كما سبق أن فعل في مصر حين قصد الى الاستئثار بولايتها . وكان هو قد اتجه منذ حرب الحجاز الى الرغبة في الحصول على سوريا (١) ، وطالب السلطان بها كضرورة عسكرية لانهاء هذه الحرب على خير وجه ثم كجزء من مشاريعه الدفاعية عن الامبراطورية العثمانية ثم كشواب له على خدماته الثمينة . وكانت تميل به ناحية سوريا وقتئذ صلتها الطبيعية بمصر وتفوقها على الولايات العثمانية القريبة منه في الرجال والمال ، ثم أمل بعيد قريب ظل يملأ صدره حتى مماته ؛ فقد كان هو قبل كل شيء وزيرا من وزراء تلك الامبراطورية الضخمة التي اتفق المسؤولون عنها والمهاجمون لها على حاجتها الى الاصلاح ولكنهم لم يدروا من أين يبدأونه أو يشعروا بالقدرة على تحقيقه . وكانت الولايات العثمانية تثور حينئذ الواحدة اثر الأخرى فتتوزع بشوراتها أهل الآستانة وتوشك أن تحملهم كل حين على خلع السلطان . وكان هو بعد ما أتم من فتوح ومد من أسباب قد رفع نفسه فوق الولاة جميعا وأصبح علما من أعلام هذه الامبراطورية ، والرجل الذي آمن غالب رجالها بقدرته على تحقيق ما لم يحققه لها غيره . وهكذا من يدري ؟ لعله اذا تقدم في سوريا وقارب الآستانة ، وأشار الى أعوانه

(١) محمد صبرى .

داخلها وخارجها ، أو زحف الروس اليها ، لعله يشهد ما كان يتوقعه الجميع من خلع كبار السلطنة لعاهلهم ودعوتهم له هو الى العاصمة ، قائداً أو مشيراً أو وصياً أو من يدرى ماذا ؟ وحينئذ يستطيع أن يحتل المركز الذى خلق له ويشرف على مصائر العالم الاسلامى ويملا الفراغ الذى كان يحطه عن الغرب . وكان قناصل الدول يدركون ذلك ويتحدثون به . فكتب قنصل فرنسا الى حكومته يقول ان محمد على يريد الذهاب الى الشرق من طريق سوريا أملاً فى أن يحمله حادث هو وابنه الى غايته . وكتب قنصل إنجلترا الى وزيره يقول ان ابراهيم دعا رجاله الى شرب نخب انتقال محمد على الى الآستانة وهو يغادر الاسكندرية مبجراً الى سوريا وان هذه الدعوة كانت تعبر عن حقيقة أفكار والده . وكتب قنصل النمسا الى امبراطوره بما يشبه ذلك (١) . وهكذا كانت سياسة محمد على تقوم على الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها ، ثم تمتد ، بدافع تخوفها من انهيار الامبراطورية العثمانية ، وطموحه الشخصى ، الى الرغبة فى توسيع حدودها ، والبلوغ بها الى الخطوط الطبيعية التى تمكنها من القيام بنفسها ، ثم تعلق الى محاولة الوصول الى الآستانة لتحقيق ما كان يصبو اليه العالم الاسلامى حينئذ من انهاض الامبراطورية العثمانية . وكانت تدفع لذلك به دفعا نحو سوريا ، وتميل به عن الانسياق خلف مشروعات تركيا فى آسيا (حملة بغداد) أو شرق البحر المتوسط (حملة المورة وكريت) ، ومشروعات فرنسا فى أفريقيا الشمالية (حملة الجزائر) ، وان كانت لم تمنعه من النظر فى جميع هذه المشروعات والانتفاع بها أوسع الانتفاع ، كما فعل باستغلال كريت فى سياسته البحرية حين أعطاها تركيا اياه ، وانتهاز مشروع الجزائر لمحاولة الحصول على ما كان يحتاج اليه من مال فرنسا وسفنها حين عرضته عليه الحكومة الفرنسية . كذلك لم تمنعه من السعى للتحالف مع إنجلترا خوفاً من اتساع نفوذ فرنسا فى أفريقيا الشمالية وأثره عليه ، ومن عرض التحالف على فرنسا ليؤثر بوساطته فى سياسة أوروبا ويبعث فيها الشقاق .

(١) المرجع السابق .

وقد وقع أثناء ذلك بألبانيا ما غدى آماله تلك ومد لها في الاتساع ،
اذ ثار واليها على السلطان وتآمر الولاة الآخرون على خلعه ، واتصل
بمحمد على طالبا مؤازرته . ورأى محمد على ألا يتورط مع هؤلاء
الثائرين ما دام يستطيع بالوقوف بينهم وبين السلطان أن يستفيد منهم
ومنه على السواء ، فقتع بتمويلهم والتربص خلف حدوده حتى اذا
اتتصروا فرض عليهم ارادته واستولى على ما يستطيع أن تصل اليه يده
من أراضي الامبراطورية ، واذا انهزموا لم تتأثر علاقاته الدقيقة بالسلطان ،
واستمر يعبىء الجند ، ويبنى السفن ، ويضع المشروعات انتظارا لما يأتي
به الغد . ولكن الثورة أخفقت بعكس ما كان يتوقعه الجميع ، ووقع
الثوار في الأسر ، ووقف السلطان على دخائل المؤامرة ومنها الجزء
الخاص به . فزاد بذلك توتر العلاقات بين الطرفين ، وأصبح لا أمل له
في المحافظة حتى على الشكليات ، ولا مفر له من اللجوء الى الحرب ان
أراد أن يأخذ سوريا ، ويحمل الآستانة على الاستجابة لارادته . وقد لجأ
الى الحرب فعلا ، وان هو أعطاهما شكل الحملة العقابية على والى عكا
لتعطيله تجارته ورفضه رد من فر اليه من الفلاحين المصريين . وعزم
على الوقوف أول الأمر عند دمشق نظرا لأهمية هذه المدينة لدى السلطان
حتى لا يضطره الى المعارضة ، على أن يفعل الله بعد ذلك ما يشاء .
ولكن عكا لم تسقط بالسرعة التي تسمح للسلطان بقبول ما أريد له ،
وأثارت الحرب بسوريا والولايات الأخرى ما كان يشير به كل اعتداء على
عاهلها من تحفز وتمرد وقلب لروح التذمر المنتشرة الى ثورة سافرة ،
فبدأ السلطان يحتج ، وبدأت أوروبا تنتبه ، وبدأ الجو يتوتر . ووقف
السلطان من كل ذلك موقف صاحب الحق المهضوم ، ومحمد على موقف
المعتدى العاصي . وأخذ كل من الاثنين يتلمس ما يدفع به عن نفسه ،
فأعلن السلطان عصيان محمد على وولده ، واتهم محمد على السلطان
بافساد الاسلام والمسلمين ، ثم هدد بخلعه واعادة الخلافة العربية .
وكان مشروع الخلافة العربية حينئذ في جو السياسة الدولية ، فقد سعى

له الوهابيون وثاروا من أجله^(١) . وفكرت فيه فرنسا غير مرة^(٢) ، وكان المحيطون بمحمد على وإبراهيم من الضباط والفنيين الغربيين الذين كانوا يدرسون ماضي العرب ويعجبون به لا ينفكون يتحدثون به . وقد انتهى احتدام النزاع بينه وبين السلطان الى العزم به على السير بالحرب الى أقصى ما يستطيع ما دامت انفجرت ، وما دام هو أصبح في غير حاجة الى مهادنة الآستانة . وهكذا لم يقنع بعكا حين سقطت ، وأمر قواته بالاستيلاء على سوريا جميعا . وبرر أمره هذا لقناصل الدول بقوله ان الامبراطورية العثمانية شارفت الانهيار ، وان القسم العربى منها حقيقة لا ريب فيها ، وان روسيا لا شك ماضية في الدفع بتركيا الى مقاتلته حتى تقضى عليهما معا . ولكنه يريد مع ذلك أن يحتاط لغده فيستطلع رأى فرنسا وانجلترا في الموقف . ويصرح لفرنسا أنه لا مانع لديه من أن يقف عند حده ويبلغ انجلترا انه ان أرادت أمسك عن الزحف الى الآستانة . ثم يخشى امتداد الحرب وانتفاض الولايات ، وما قد يعقبه من تدخل الدول^(٣) . فيدعو الدولتين لتنبية السلطان الى ما فى سياسته ازاءه من خرق ، والى ضرورة قبول الأمر الواقع وانهاء الحرب ، ويطلب من فرنسا أن تستميل انجلترا اليه وتمنعها من مساعدة خصومه . وتتسع اقتصاراته أثناء ذلك فيشتد ميله للذهاب الى الآستانة حيث يستطيع أن يسوى كل شئ ، ويحقق ما يريد ، وينفذ مشروعاته العربية والاتصالية والوراثية جميعا . ولكنه يفضل الانتظار الى أن تثور الآستانة على سلطانها^(٤) حتى لا يستفز الدول ، وينهى ابنه عن التسرع

(١) J. Raymond : Mémoire sur l'origine des Wahabys . وكانت

الثورة الوهابية ترمى الى خلع سلطان الاتراك واحياء الخلافة العربية .

(٢) فريسينية . وهو يقول ان البرلمان الفرنسى كان فيه اتجاه لانشاء دولة عربية تضم القسم العربى من الامبراطورية العثمانية . وقد تحدث نابليون الى علماء القاهرة فى إعادة الخلافة العربية وخاطب قنصل فرنسا فيها محمد على .

(٣) كان زحف محمد على يفرح الاتراك لانهم كانوا يعدون السلطان رجلا متفرنجا ويثير اضطرابات كبيرة فى الولايات .

(٤) دوين . وكان هناك مشروع ثورة على السلطان فى ازميز والآستانة معا .

في الرحف اليها . فقد كان ابراهيم يريد هذا الرحف ويرى فيه الضمان الوحيد لمستقبل أسرته ، ولا يسوءه أن تسقط الامبراطورية ، وهو لا يشعر نحوها بما كان يشعر به والده الذي شب تحت سمائها ولم يود في حياته شيئا كما ود أن يصلحها . وكلما زاد دنو قواته من الآستانة قل حديثه عن الخلافة العربية وكثر تأكيده للقناصل بأنه لم يفكر قط في الاستقلال عن السلطنة وترددت اشارته الى موقف روسيا من تركيا وضرورة اصلاح الامبراطورية وما سيؤدي اليه اصلاحها من تقوية تفيد انجلترا وفرنسا في نزاعهما مع روسيا ، وحذر الدولتين من التدخل المسلح بما قد يثيره ذلك من حرب دينية بين المسلمين والمسيحيين . ولكن تدخل الدول لم يتأخر بعد ذلك طويلا ، فقد رأى السلطان أن حركة محمد علي هذه لم تكن في نهاية الأمر الا حركة عدائية تقصد الى عرشه ، فألقى بنفسه بين ذراعى روسيا ، وهنا اضطربت أوروبا جميعا وبادرت الى العمل في الآستانة والاسكندرية في وقت واحد ، طاغية بمصالحها العالمية على هذا النزاع العثماني الداخلي . وقد انتهى الأمر بأن أقرت تركيا الحالة القائمة على أن يبقى محمد علي في حظيرتها ، وانقلب كل من المتخاصمين الى داره وهو يشعر أن الأزمة ما زالت قائمة ، وأنها لا شك منفجرة من جديد ، وأن هذا الاتفاق ما كان الا هدنة ترجع الى تردد الدول وعدم استعدادها ورغبتها في التخلص من الخطر الروسي قبل كل شيء . ومن ثم كانت مواصلة الاستعداد للقاء جديد ، وتحرش تركيا بعد ذلك بمحمد علي تحرشا قابله بالتعامل الصامت والتفكير العميق . ثم الكتابة الى الدول بأنه لم يسبق أن فكر في الاستقلال بمصر ولكنه أصبح مضطرا ازاء تحرش السلطان واستعداداته الى التفكير في هذا الاستقلال ، وبخاصة أنه يتفق واختلاف البلاد العربية التي كان يحكمها عن بقية الامبراطورية ، فضلا عن كونه الضمان الوحيد الممكن لانهاء الحرب بين الاسكندرية والآستانة التي كان يفيد منها الروس ولا يفيد منها أحد سواهم ، ويضيف الى ذلك أنه اذا أفلح في مسعاه فسيجرد جيشا قويا ينقذ به تركيا من الخطر الروسي . وقد أعقب ذلك بعرض الأمر على الآستانة في سنة ١٨٣٧

عرضا صريحا ، ولكنه لم يلق الا الرفض الرسمى منها ومن تلك الدول
ثم العداء السافر من ناحية السلطان اذ اجتازت جيوشه الجديدة حدود
سوريا . وهنا انفجرت الحرب من جديد ، وانهمزت القوات العثمانية
مرة أخرى ، وعادت الولايات تتحفز وتثور ، فتدخلت أوروبا تدخلا
سريعا ، بل ومنعت الطرفين من التفاوض فيما بينهما ، وتولت الأمر
بنفسها لتفصل فيه طبقا لمصالحها التي كان هذا النزاع المستحكم يقلقها
كل حين .

ومحمد على في هذه الحرب الثانية يتجه بتفكيره أول الأمر اتجاهها
جديدا ، ولا سيما بعد ما وثق من رفض أوروبا مشروعه الانفصالي عن
الامبراطورية العثمانية . فهو يقول لقنصل روسيا — قبل أن تلتقى
قوات ابنه بقوات السلطان في سوريا — انه لا يريد الاستقلال ، ولكنه
يريد الوراثة لأسرته . ويقول لقنصل فرنسا انه لم يعمل ما عمل في مصر
ليتمتع بشماره وال تركى يأتي من بعده . وهو لا يكاد يثير هذه المرة
مشروع الخلافة العربية القديم أو ذكر ما كان يوحى به من الوحدة
الجنسية بين البلاد التي كان يحكمها ، بل لا يفكر في الرد على اعتداء
السلطان بالتلويح باعادة هذه الخلافة أو التمهيد لها . ولكن نبأ يأتي من
الآستانة فيحفزه من جديد ويعدل به عن وجهته هذه ، فقد سقط السلطان
حينئذ مريضا ، واتجه التفكير الى الوصاية على ولي عهده ، نعى
عاد المشروع الذي كان والى البانيا وضعه وكان هو اشترك فيه ، ولاحق
له من جديد فرصة الانتقال الى مقر السلطنة حيث مجال العمل الحقيقي
الذي كان يصبو اليه . وهنا يرتد تفكيره الى الآستانة وتعبئة القوات
اللازمة للدفاع عن المسلمين ، ان عزم الروس على الزحف اليها ، واقامة
وصاية قوية يكون له أمرها . ويبعد في ذلك حتى يشر قنصل فرنسا
بقرب اتساع نفوذ حكومته في الآستانة ، يريد بذلك التلويح بدنو أجل انتقاله
اليها وهو صديق الفرنسيين الحميم . ثم يفكر في تزويج ابنه سعيد من
أخت السلطان توثيقا للعلاقة بين الأسرتين ، ويتأهب للسفر من وقت لآخر .
وقد فطن قنصل فرنسا لتحول محمد على هذا التحول الجديد ، وكتب
الى حكومته مؤكدا أنه سيقدم هذه المرة على العمل وحده مهما فعلت

الدول ، ويعلم نفسه حاميا للإسلام والمسلمين ، فهو لم ينس عثمانيته ، ولم ينس أنه ملزم بالدفاع عن الأراضي المقدسة وديار المسلمين . وقد صرح محمد علي نفسه بعد ذلك للقناصل أنه اذا زحف الروس الى الآستانة فسيبادر الى مساعدة اخوته ويأمر ابنه بالسير الى الأناضول ويجند من لديه من عمال لا يقلون عن ٧٠ ألف ويقاقل بهم أعداء المسلمين^(١) . ولكن السلطان يموت دون أن يحدث هذه المرة أيضا شيء من ذلك أو يدعوه داع الى تولي الوصاية التي عهد بها على عجل الى خسرو . وهنا هاجت هاججة محمد علي من جديد ؛ فقد كان خسرو خصما شخصيا له منذ أن عرفه في مصر واحتك به في حرب اليونان وواجهه في سوريا ، ثم انه كان متهما بممالة الروس والتفريط في السلطنة ، وقد جهر لذلك بعزمه على السير الى الآستانة لينقذ السلطان الشاب من هذا الرجل . واستدرج القوات البحرية العثمانية بعد أن هزم القوات البرية في سوريا فأتى الأسطول التركي الى الأسكندرية يقوده قائده . وكان خسرو يتوقع ثورة محمد علي هذه فكتب اليه يعده بالوراثه في ولاية مصر ، ولكن هذا الوعد يزيد في ثورة محمد علي بدل أن يهدئها فيطالب الدول باقصاء خسرو من منصبه وارضاء رغباته جميعا ، ويعود مرة أخرى الى سماء فلسفته العثمانية من ضرورة اصلاح الامبراطورية وانقراذه هو بالقدرة على ذلك ، الى توقعه أن تشور الآستانة أو يدعوه كبارها بينهم الى التهديد بانارة ثورة اسلامية شاملة ان وقفت الدول في طريقه . ثم يكتب الى حكام الولايات وشيخ الإسلام مقارنا ماضيه بماضي خسرو ، طالبا معوتتهم في اقصائه والعمل على انهاض امبراطوريتهم ، ولا يني يستعد أثناء ذلك للسير الى الآستانة وترك حكم مصر لابنه ، وهو لا يلحظ ما بين طموحه هذا الى حكم الامبراطورية وسعيه الى الاحتفاظ بحكم مصر والبلاد العربية الأخرى من تناقض صارخ لعله كان السبب الأكبر في رفض السلطان ورفض الدول مشروعاته العديدة في الاعتراف لمصر بمركز

(١) كان وزراء السلطان يقولون حينئذ ان المصريين مسلمون مثلهم ومن الأفضل أن يحكموا هم الآستانة من أن يحكمها الروس . مجلة القاهرة مارس سنة ١٩٤١ .

خاص يتخذها وسيلة يدعم بها الامبراطورية العثمانية ، ما دامت كل تقوية لمصر لا بد مفضية الى اضعاف تركيا ، وما دام ذهابه هو الى الآستانة لا بد مفض اما الى عودة مصر الى حظيرة الامبراطورية واما الى ارتفاع مصر على تركيا وهو ما كان لا يريده أحد . ولعله هو كان في قرارة نفسه لا يرمى الى أكثر من أن يعمد اليه في القيام بشئون السلطنة على أن تنال أسرته مقابل خدماته اقطاعا وراثيا كالاقطاعات التي كانت تقرها نظم الحكم التركية منذ أن نشأت^(١) .

ولكن أوروبا تأبى السماع له هذه المرة أيضا ، وتقنع بدفع الآستانة الى الاجابة على الدعاوى الاصلاحية العريضة التي كان يروج بها لحكمه ، بنشر مشروع من المشروعات الاصلاحية الكثيرة التي كانت توضع حينئذ في وزاراتها . فيصدر دستور كلخانة ويبلغ الى جميع الولايات ، والى مصر أيضا .

وهنا تنصح له فرنسا بالنزول عن الولايات التي تحت يده مقابل الحصول على حق الوراثة في حكم مصر ، ولكنه لا يقبل النصيحة بعد أن انتصر على السلطان ، وأخذ أسطوله وجعل يواصل السعى للذهاب الى الآستانة . وعندئذ وقفت أوروبا جميعا في وجهه مرة أخرى وفرضت عليه اتفاق لندن الذي أقر له الوراثة ، ولكنه كبل يديه وقيدته الى عربة الامبراطورية العثمانية من جديد .

وكما كانت سياسة محمد على الخارجية نتيجة تفكيره العثماني وعلاقة مصر بتركيا والضغط الغربى ، كانت سياسته الداخلية تصدر عن تفاعل هذه العوامل نفسها وملابسات مصر الخاصة . وقد سبق أن رأينا كيف كان قد قضى على المماليك وأقصى مشايخ الأزهر من الحياة العامة واستأثر بالسلطان من دونهم هو وأعوانه من رجال الحملة العثمانية . وكان القضاء على المماليك يحرم الحكومة خير جندها

(١) وكان قنصل النمسا يعد اصراره على بتر القسم العربى من جسم الامبراطورية العثمانية في سبيل دعمها شيئا خارقا (Paradox) . سان ماركو .

وأجهزتها التنفيذية جميعا ، ولكنه كان يرد إليها الاقطاعات التي كانو يملكونها ، وكانت تعادل ثلث الأراضي المزروعة ، في الوقت الذي كانت الملكية الزراعية تكاد تكون فيه منبع الثروة الوحيد بالبلاد . بيد أن يد محمد على لم تقف عند جنى هذه الثمرة الطبيعية لاختفاء الممالك ، وامتدت الى الملكيات الأخرى أيضا ؛ فقد كانت الخزنة العامة وقتئذ فارغة ، وكان هو يريد جيشا يمكنه من الاحتفاظ بولايته ويطمع في توسيع هذه الولاية وفرض نفسه على الآستانة . وكان يحتاج في ذلك الى نظام دقيق واستعداد مستمر محكم ، ومالية قوية تقوم به . ولكنه — فيما عدا هذه الأراضي التي آلت اليه — كان لا يكاد يملك شيئا يذكر . فقد بلغت التجارة والصناعة حالة شديدة من البؤس ، وتوزعت الأراضي الأخرى المزروعة بين مشايخ الأزهر ، وهم معفون من الضرائب ، والأوقاف الدينية وهي تصرف ولا تغل ، وبعض صغار الملتزمين الذين كانوا لا يحسنون الاستغلال الاقتصادي . وكانت حقوق هذه الطوائف الثلاث الى ذلك حقوقا تكاد تكون غير شرعية ، وان اتصلت مدة من الزمن ؛ فقد نال المشايخ أراضيهم عن طريق الالتزام ، ولكنهم لم ينقيدوا بشروطه ، ولم تكن الأوقاف آخر الأمر سوى صورة من صور التحايل على ابتذال مال الدولة ، كذلك لم يكن صغار الملتزمين على الدوام ممن يطرقون الى الأمر سبله الصحيحة . ومن ثم كان فرضه الضريبة على أراضي المشايخ والأرزاك والأوقاف ، ثم استيلاؤه على هذه الأراضي ، ثم الغاؤه نظام الالتزام وقضاؤه على الطبقة الموسعة الوحيدة في البلاد وهي طبقة الملتزمين ، اذا استثنينا بعض كبار التجار ، واضطراره من لا مورد آخر له منهم الى مزاوله الزراعة أجراء ، واستثثاره بالنشاط الاقتصادي كاستثثاره بالنشاط السياسي من قبل . وقد أراد بعد ذلك أن يستغل هذه الأراضي أوسع استغلال ، فاتجه الى ضبط ريعها ، وتوزيع اليد العاملة فيها ، والملاءمة بين حاصلاتها وحاجات الاستهلاك المحلي والتصدير ، واستعان في ذلك بما وضعه فريق السان سيمونيين — وكانوا يجدون في انقاذ سياستهم الاشتراكية في مصر وقتئذ — من مشروعات الإصلاح

والتعمير^(١) . واندفع في سياسته المالية هذه حتى منع الفلاحين من التصرف في حاصلاتهم ، فكان يعين لهم الأنواع التي يريدونها ثم يأخذها منهم بالسعر الذي يقدّره ويقوم بتوزيعها في الداخل والخارج^(٢) . وكان يلجأ الى العنف حين يشهد ما يؤدي الى هذا العنت من نتائج اجتماعية واقتصادية ، اذ يهجر الفلاحون الريف هرباً من هذا النصب الذي لا غناء فيه . أو يقللون من انتاجهم فيدفعهم الى الحقول دفعا وهو لا يرى لم يجب أن يترك هؤلاء الفلاحين وشأنهم يزرعون ما يشاؤون ويبيعونه كما يشاؤون فينال التجار وبخاصة المصدرين منهم وغالبهم من الأجانب غالب ربحهم ولا ينال هو هذا الربح لينفقه فيما هو أجدي على البلاد مما يصرفه فيه هؤلاء التجار ، ويستطيع أن يزيد منه بادخال الحاصلات المختارة ، ويقول ذلك للقناصل حين يراجعونه في سياسته الاقتصادية هذه في غير استنكار أو استكبار .

وهكذا امتد احتكار الحاصلات الزراعية الى احتكار توزيعها وتصديرها ، وتصنيع الباقي منها . واستمر محمد على يحمل على كنفه هذا العبء الضخم حتى كان الاتفاق التجاري الانجليزي - التركي في سنة ١٨٣٨ وتعهد تركيا بالغاء نظام الاحتكار في أنحاء الامبراطورية العثمانية والزامها اياه بالعدول عن نظامه هذا وقفل مصانعه الواحد بعد الآخر والاستعاضة عن أرباحه الزراعية والتجارية برفع ضرائب الأرباح على التجارة والزراعة رفعا شديدا^(٣) . وقد بلغ محمد على من سياسته هذه ما أراد رغم الأثر الاقتصادي والاجتماعي الرهيب الذي تركته ، فارتفع دخله من ١١٠٣٥ جنيه في نهاية القرن الثامن عشر الى ١١٩٩٧٠٠ جنيه

(١) ومن ثم ما يعمد اليه بعض مؤرخي محمد على من رد سياسته الاقتصادية الى اشتراكية السان سيمونيين واهمالهم صلة هذه السياسة بنظام الاحتكارات التي كانت تزاوله الامبراطورية العثمانية وقتئذ (يلاحظ ما بين هذا النظام ونظام الاقطاعات تحت السلاطين من صلة) واوضاع الاقتصاد الاسلامي عموما .

(٢) Crouchy : The economic development of modern Egypt .

(كروشلي : التقدم الاقتصادي في مصر الحديثة ،)

(٣) كروشلي .

في سنة ١٨٢١ و ٣٠٦٤٣٠٠ جنيه في سنة ١٨٢٦ . ولكنه استطاع قبل كل شيء أن يعنى بمسائل لم يألّف حكام الشرق في ذلك العهد أن يعنوا بها عناية كبيرة . وقد رأينا كيف كان الممالك قليلة الحساسية بالمسائل الاقتصادية على وجه العموم ، وكيف كانت أيام العثمانيين أيام كساد شامل . أما هو فقد اضطر أن يزرع ويتجر ويصنع واضطر ، لما كان يرمى اليه بالنزول الى هذه الميادين من الاستعانة بشمارها في حلبة سياسته الخارجية ورغبته في أن يحكم كما يجب بلادا كانت القارة الأوروبية تمد اليها منذ نحو قرن شباكها الاقتصادية المشعبة ، أن يفعل كل ذلك في أحدث صورة يستطيعها ، مستعينا بالاكتشافات العلمية والفنيين الغربيين . ومن ثم كان فتحه أبواب مصر لهجرة الأجانب وكانت اقامته القنوات والقناطر والطرق ، وكان انشاؤه المصانع والبيوتات التجارية وخلق الادارات اللازمة للاشراف عليها . وكان ظهوره أيضا بمظهر المصلح الذي ينفذ الى جانب المصلحين الكثيرين الذين لا ينفذون ، أو اذا نفذوا وقفوا عند الأشكال فارتدوا الملابس الأفريقية وحلقوا لحاهم ولوتوا ألسنتهم ببعض اللغات الأجنبية ، مثل حكام الآستانة الذين كانوا يجدون أنفسهم بعكسه أمام نظم قائمة لا يقوون على التخلص منها ، كما تخلص هو من بقايا النظم المملوكية ومنطق المشايخ ، ويتلقون من الغرب مشاريع ضخمة تعرض للمسائل من جميع نواحيها ولكنها لا تقف بها عند ما يمكن ازدراده وتنفيذه تنفيذا شرقيا كما كان يستطيع هو أن يفعل بالتعاون مع قناصله وفنييه الذين كانوا رجال أعمال قبل أن يكونوا شيئا آخر .

وقد استطاع بفضل هذه السياسة أن ينشئ الجيش الجديد الذي كاد يحمله الى الآستانة وينفق على الحروب المتصلة التي خاض غمارها ويقيم الصناعات الأساسية اللازمة لها . وكان هو قد عمد أول حكمه الى الاستعانة بالمرتقة من الجند متأثرا في ذلك تقاليد الامبراطورية العثمانية . ثم أراد أن يفرض على من لديه منهم التنظيم الحديث الذي اقتنع رجال الامبراطورية بضرورته منذ أن اتصلوا بالغرب الجديد

فثاروا عليه فعزم على التخلص منهم وتحول الى تجديد أهل البلاد كما كان يفعل بعض الولاة والأمراء المماليك حين كانوا يستعينون في حروبهم بالبدو والسود وأبناء الريف . وشجعه على المضي في ذلك ما كان يكفله له هذا النظام من قصد في النفقات وقدرة على تجديد صفوف الجيش تجديدا يسيرا . وهكذا كان المصريون يعودون الى صناعة السلاح بعد أن هجروها منذ أن اتصلت مصر بالامبراطورية اليونانية والرومانية والعربية وهى امبراطوريات كانت تعتمد في حروبها على المرتزقة من شعوبها الخشنة ، ويجتمعون في كتلة واحدة منتظمة ويلتقون في ميادين القتال بالشعوب الأخرى فيشعرون بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم عن غيرهم . وقد استتبع تكوين هذا الجيش قيام المرافق والمدارس والادارات اللازمة لتغذيته ، وكانت تستخدم هى أيضا أهل البلاد وتدريبهم وتوجههم الوجهة التى تقتضيها الحياة الجديدة ، أى تبعث نواة هذه الدولة الفتية بجوهرها المصرى ، وأوضاعها الأهلية ومواردها الخاصة .

وأفاد من هذه السياسة أيضا الاتصال المستمر بأبناء أوروبا هؤلاء الذين كانوا يعملون حينئذ كل شئ ، ويشرفون على كل أمر ، ويمثلون الحضارة الجديدة والنفوذ السياسى فى أجلى معانيهما (١) . فكان يلقى تجارهم وصناعهم وعلماءهم كل يوم ، وكان يسمر فى ساعات فراغه مع طائفة ذكية منهم ، ويحاول أن يتعلم كل ما يستطيع أن يتعلمه من خيارهم ، ويتطور بذلك تطورا لم يفتر قط فى السنين الأربعين التى قضاها فى الحكم (٢) . بيد أن أثر اتصاله هذا بالغرب لم يبلغ صميم نفسه ، أو ينل من معدنها البتة ، وإنما ظل يعمل خارجها ، ظل يعمل فى دائرة الوسائل التى كانت تتلمسها لبلوغ غاياتها الخاصة ، ومن هنا ما تنفرد به سياسته من حزم ، وما يبدو عليها أيضا من تناقض بين المظاهر الحديثة والنزعات القديمة . فهو يقيم المجالس الاستشارية ولكنه يغلب عليها

(١) وقد كتب الى الاستانة فعلا يقول انه يعلم ما يحدث فى أوروبا من تدخله مع التجار . أمين سامى : « تقويم النيل » .
(٢) وكان يعترف بذلك للقناصل صراحة .

ارادة الحاكم^(١) . وهو ينشئ المدارس ثم يغلقها في غير ما تردد حين يرى تحقيقها للغايات القريبة التي قصد بها اليها^(٢) . وهو يقيم المنشآت الزراعية والصناعية الحديثة ، في الوقت الذي يتمسك فيه بسياسة اقتصادية عتيقة تكاد تنتهي بالبلاد الى الخراب . والنزعات القديمة تتغلغل لديه في المظاهر الحديثة وتكبح جماحها بقوة تنبثق من شخصية سليمة لم يرتفعها الشك أو يتطرق اليها التردد . وهي بعد شخصية حاكم عثمانى عريق من نسيج الحكام الذين قادوا المسلمين الى الانتصارات الصليبية والمغولية وأقاموا حكم المماليك وبنى عثمان . فهو مثلهم لا يرى من الحكم الا الجانب العسكرى ، ولا ينظر الى الحياة المدنية الا كوسيلة من وسائل الانتصارات في ميادين القتال^(٣) ؛ فيسأل القناصل ماذا لم يفعل لمصر ؟ ألم يعطها جيشا وأسطولا ومدافع ؟ ويقول لقنصل فرنسا انه يريد أن يكون في كل وقت على أتم استعداد عسكرى حتى لا ينسأ المسلمون . ويكتب لمديره قائلاً ان رفاهية مصر ترجع لجيشها . ويستنكر تفكير أوروبا في حرمانه من بلاد أخذها بحد سيفه . واذا أراد أن يعبر عن نجاح حكم أو ثراء ولاية ذكر عدد الجند الذين يستطيع أن يجندهم منها^(٤) . وهو مثلهم لا يفرق بين الناس الا بمقياس الدين ، فلا يفهم لما تقف أوروبا في وجهه على طريق الآستانة وهو وسلطانه من دين واحد . ولا يدرك لم تخش أوروبا انفصاله مادام باقيا على اسلامه كما كان . ويعجب من استنكار القناصل التجاء الأسطول العثمانى الى الأسكندرية ما دامت ميناء اسلامية كالآستانة . ويخطب في قواد هذا الأسطول فيدعوهم ألا ينسوا أنهم ورجاله من دين واحد^(٥) . وهو يصرف أمور المحكومين تصريف رب العائلة أمور أبنائه ؛ فلا يفرق بين المالية العامة والمالية الخاصة . ويهدد مرؤوسيه « بالفلكة » ان أهملوا في تأدية

(١) انظر مثلا محمد عبد الكريم عزت : « تاريخ التعليم في مصر » .

(٢) محمد عبد الكريم عزت : المرجع السابق .

(٣) وقد اعترف لقنصل فرنسا بنفسه انه لم يفرغ لوسائل مصر الداخلية كما يجب . سان ماركو .

(٤) انظر تقويم النيل وسان ماركو .

(٥) المراجع نفسها .

واجباتهم ، ويخاطب أعوانه مخاطبة الشيخ أبناءه القصر^(١) . وهو الى ذلك يكاد لا يخرج طوال حياته في تصور علاقته بالسلطان عن دائرة صلات الحاكم الاقطاعى بعاهله : فيعد نفسه مكلفا بوضع سيفه وماله رهن مشيئة السلطان ، ويرى في ارضائه الوسيلة المثلى للارتقاء الى أسمى مناصب الامبراطورية ، ويفخر بأنه لم يحكم مصر قط كما كان يحكمها على أيامه ، ويفتبط أشد الاغتياب بتوليته اياه قيادة قواته في اليونان ، ولا يظهر في نهاية حكمه الا وقد شد الى وسطه السيف الذى أهده له بعد تصفية نزاعهما ، وما ترتفع به الحوادث الى سماء الفلسفة السياسية حتى ينسى كل شىء ما عدا سلامة السلطنة العثمانية وضرورة العمل على صيانتها واصلاح أمرها . فيتحدث الى خليل باشا رسول السلطان اليه في أشد ساعات نزاعهما في اعداد جيش كبير يزود به عن هذه السلطنة . ويداعب الأمل كل حين في أن تدعوه الآستانة الى تدليل ما لم تقو على تذليله من مشاكلها المعقدة . ولم تكن في رغبته في الاستئثار بحكم مصر ما يتعارض شديد التعارض وتصوره هذا ، فقد كانت السلطنة العثمانية تقطع ولاياتها الى عهده ، وقد وعده السلطان صراحة بشىء من ذلك في حرب الحجاز^(٢) ، وقال هو لقنصل فرنسا أثناء الحملة الانجليزية أنه سيعمل على تثبيت أمره في مصر والوصول بها الى مركز ولايات أفريقيا الشمالية . ولم يفكر حين رأى ألا فائدة من محاولة التعاون مع السلطان في غير الاحتفاظ بولايته لأبنائه ضمن نطاق السلطنة العثمانية . هو حاكم عثمانى فذ شاء له عدم انتمائه الى الطبقة الحاكمة العثمانية لعهدده ، وما اضطره اليه من فرض ارادته على هذه الطبقة فرضا ، وتفكك الامبراطورية العثمانية الذى منعها من القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ، أو الاتقاء بمواهبه حين استفحل ، ووقوف أوروبا بينه وبين السلطان بما كانت تتمتع به وقتئذ من نفوذ فائق ، شاء له كل ذلك أن يقف ارتقاعه الطبيعى الى سماء السلطنة ، وأن يقصى عن مقرها الرئيسى

(١) شفيق غربال : «محمد على الكبير» .

(٢) دى فييت : «مجلة القاهرة» عدد مارس سنة ١٩٤١ . انظر أيضا

رينيه قطاوى في مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

ويزدهر في الأقاليم ، حيث أقام من ولايته دولة جديدة ، استمدت من مركزها وشخصيته هو بريقا خاصا ، وبقي طوال حياته بريئا من الانحلال الذي خص به حكام تركيا وقتئذ ، ولا نزال نرى بعض أعراضه في حكام الشرق الى اليوم من جراء توزع ضميرهم بين الشرق والغرب . وهو يختم بذلك سلسلة الحكام المعالقة الذين أنجبته الامبراطورية الاسلامية ، ويضع حدا فاصلا بين عصرين مختلفين في تاريخ هذا الجانب من الشرق الاسلامي بقامته هذه الجبارة التي تجعل منه ندا عظيما لبيرس وقلاوون وأباطرة بنى عثمان الأولين . ولعل السلطنة العثمانية لم تخسر آخر أيامها مثل ما خسرت باقصائه عن مقاليد الحكم فيها .

قلنا ان النزاع بين محمد علي وحكومة الآستانة انتهى الى معاهدة لندن في سنة ١٨٤٠ . وكانت هذه المعاهدة تحقق نقطة التوازن بين ميول أطراف النزاع جميعا : كانت تحقق الغاية التي لا يستطيع محمد علي بقواه السياسية الخاصة بلوغ ما يفوقها ، وتشبع رغبة الآستانة في المحافظة على وحدة السلطنة ، وهي محافظة كانت لا تتعارض حينئذ واعطاء الولاة حق الوراثة مادام مقيدا بقيودا محكما ، وترضى رغبة الدول العظمى في الابقاء على الامبراطورية العثمانية واعطاء ولاياتها وخصوصا مصر الاستقرار الذي تحتاج اليه في توسعها الاقتصادي . وكانت الى ذلك لا تقفل الباب دون تحقيق الغايات الأخيرة لهذه الأطراف جميعا ، فقد كان توارث الحكم في مصر يمكن محمد علي وأولاده من انتظار اليوم الذي يستطيعون فيه الاستقلال بولايتهم أو يقرر فيه السلطان الاستعانة بهم فيصلون الى قمة السلطنة التي كان حكمها أمل جدهم الأكبر . وكان بقاء مصر ضمن نطاق الامبراطورية يمكن الآستانة من ترقب الساعة التي تقدرها على العودة بالحالة الى ما كانت عليه . وكان اشتراك أوروبا في تسوية النزاع بين السلطان ووزيره يعطيها المركز الممتاز الذي أرادته ويمكنها من الاشراف على شئون الطرفين (١) .

وقد كان الاعتراف لأبناء محمد علي بحق الوراثة في حكم مصر ينشئ

(١) فريسينيه ومحمد أبو طائلة : « مركز مصر الدولي » .

بها أسرة حاكمة تتعاقب على عرشها في الوقت الذي كانت عودة الحياة الى البحر المتوسط تفتح فيه أمامها آفاقا واسعة ، وكانت تركيا نميل الى الأفول بعد أن بلغت غاية ما تستطيع أن تصل اليه امبراطورية قديمة ، وكان يقيم بذلك مصالح محلية ازاء المصالح العثمانية والأوروبية القائمة . وتاريخ مصر حتى قبيل سقوط اسماعيل هو تاريخ جهود هذه الأسرة في تثبيت أقدامها ومحاولة تركيا استرجاع ما نزلت لها عنه من سلطان وتسرب الموجة الغربية من كل ثغرة تصل اليها في بناء هذا الحكم الجديد . وكان محمد علي قد عمد بعد عقد معاهدة لندن واطمئنانه الى علاقته الجديدة بالسلطان^(١) الى التقرب من تركيا وتجنب النفوذ الأجنبي بعد أن تلون بلون الوصاية ذلك الثقيل ، فزار الآستانة ، ووطد صلته برجالها ، وعارض في فتح قناة السويس ، ووضع يده على المواصلات التي أنشأتها الشركات الانجليزية ، وجعل يتحاشى انجلترا بفرنسا وفرنسا بانجلترا محاولا التخلص منهما جميعا . وأتى عباس بعده فاقتدى به في ذلك ، وأبعد ابعادا كبيرا . فقد كان عباس يؤمن بسلامة هذه السياسة من تلقاء نفسه ويميل اليها ميلا طبيعيا ، وهو قد ربى تربية عثمانية محضة^(٢) ، ولم يعرف الغرب من قريب أو بعيد ، ولم يستطع أن يساير تيار جده وعمه فنأى عنهما في آخر أيامهما وعاش على اتصال بمن كان ينكر سياستهما ويحقد على أعوانهما وبخاصة الأجانب^(٣) . وما تولى الحكم حتى بادر الى القضاء على بقايا هذه السياسة ، فأقصر الجيش ، وأزال ما كان يقوم على هامشه من منشآت . وأقل ما وجد من المدارس . وهدم الأسطول الذي كان يصل البلاد بالخارج^(٤) . وفرض القيود على الأجانب المقيمين بالبلاد ، وتخلص ممن كان يعمل منهم في المصالح والمعاهد . وفعل كل ذلك وهو يضع يده على ما فيه من وجوه النقص

(١) محمد صبرى وهاناتو .

(٢) سان ماركو .

(٣) أمين سامي : « تقويم النيل » . وقد صرح ليونج انه يبغض الفرنسيين ويعتقد انهم خانوا محمد علي .

(٤) Brehier : L'Egypte de 8971 à 1900 .

والاهمال وكأنه يعالج ما غرّ فيه جده . ثم أراد أن يتفادى قناصل الدول أيضا فانتقل الى صحراء العباسية واحتجب عنهم هم الذين استعبدوا جده وكان هو يفضل عليهم السلطان لاسلامه ومسيحياتهم على الأقل . ولكنه ما كاد يصطدم بميل تركيا الى انتهاز سياسته هذه الشرقية ومحاولة تضيق حقوقه حتى اضطر أن يخرج من عزلته هذه ويتقرب الى ضامني معاهدة لندن وانجلترا صاحبة الأثر البعيد في نفسه ونفس جده على وجه الخصوص فأعانتته انجلترا وتقاضته ثمن معوتتها هذه خطأ حديديا تستخدمه تجارتها الشرقية بين الأسكندرية والسويس ، ثم تركته يعود الى صحرائه من جديد (١) .

وقد أعقب عباسا سعيد فعاد الاتجاه الى الغرب ، وعاد هذه المرة شديدا جارفا . وكان سعيد ولد في مصر بعد أن استجمعت الأمور لوالده واتضحت لعينيه مشروعاته السياسية الواسعة وما يتصل منها بالتعاون الغربي فرباه تربية حديثة مع لفيف من المصريين تحت اشراف بعض الأساتذة من الفرنسيين . وقد أكسبته هذه التربية الحديثة شغفا بأشكال الحضارة الغربية ، ولكنها لم تكشف له عن سر انحطاط العالم العثماني الذي كان يخرج منه وكانت تكرهه فيه ، أو تكشف له عن جوهر الازدهار الغربي الذي كان يبهره : لم تضع تحت عينيه المسائل بحدودها جميعا فيستطيع أن يتبين معالمها ويرى طريقه بينها ، ومن ثم كانت مشاركته حكام الامبراطورية ، الذين كانوا ينالون مثل هذه التربية وقتئذ ، في بؤادر الانحلال والتردد التي برأت منها طبيعة جده ، وسيره سيرتهم في حب الظهور بمظهر الحاكم العصري ، والأخذ بأساليب الحياة الحديثة ، وبغضه الأتراك الذين كانت أوروبا ترميهم حينئذ بكل نقيصة ، وتقربه الى المصريين ، واتخاذ لهجة قومية لا عهد لأحد من الحكام بها

(١) وعاش أيضا عيشة الولاة المتقدمين فصاحب البدو والمشايخ وامر موظفيه بارسال لحاهم كما يفعلون في «دار السعادة» واوصى بمعاملة ذوات مصر بالشدة لانهم اعتادوا ذلك واقتنى الممالك وكون جيشا البانيا من ستة آلاف رجل وأخذ ما وصلت اليه يده من مال الدولة وصادر ونفى . «تقويم النيل» .

في مصر من قبل^(١) ، ثم مبادرته الى تطبيق ما كانت الآستانة تحاول تطبيقه من التنظيمات ومبادئ الحكم الحديثة ، كالقرعة والملكية الفردية وحرية التجارة ، وابعاده في ذلك بايعاز مستشاريه الغربيين الذين كانوا يهبطون عليه ولكل منهم مشروع يعرضه ، وقنصل يوصى به ، ويدافع عنه ، ومواجهة كل ذلك دون أن يكون له مرجع ثابت يرجع اليه ، أو طبقة حاكمة قوية تثبت خطاه ، أو نظرة شاملة توجه سيره . وكان سعيد يشبه عباسا بعد ذلك في براءته مما يمكن أن يعد طموحا سياسيا حقيقيا فيما عدا الاحتفاظ بالحكم ؛ فهو لم يفكر في توسيع ولايته أو الانفراد بأمورها الا حين هددت الحرب تركيا بالانهيار ، ولم يصطدم بالسلطان الا على سبيل الدفاع عن حقوقه المقررة ؛ ومن هنا خلق عهده من الرجات الشداد وما يصحبها من ارهاق في الداخل ، ورضا العامة على حكمه وتمكنهم تحته من الانصراف الى أمورهم والعمل على انمائها الى حد بعيد .

ونحن نجد في هذا الجانب المشترك بين عباس وسعيد أحد وجوه الاختلاف بينهما وبين اسماعيل الذي ولى بعدهما ؛ فقد كان اسماعيل بعكسهما ذا طموح وارادة واتجاهات خاصة . وكان قد أقام حيناً في النمسا وفرنسا ، واتصل بحكاهما ، واختلف الى معاهدهما ، ثم قضى بعض شبابه في الآستانة متنقلا بين مناصبها الكبرى ، ثم استقر في مصر بين مزارعه ودواوين القاهرة . وكان يعرف لذلك الشرق والغرب معرفة مباشرة ، ويعرف مشاكل مصر من قريب ، ويصل من طريق هذه المعرفة الى ما كانت طبيعته تجعله أهلا له من رغبة في حكم حقيقي يصدر في اتجاهاته عن وحيه هو لا عن وحي خارجي ، ويتخذ تلك الأوضاع الغربية الحديثة التي راقته ، وكان حكام الشرق يحتذون على مثالها منذ قرن أو يزيد . وكانت الحياة المصرية تنذر حين ولى اسماعيل بتطور عاجل ؛ فقد رأينا كيف كان محمد علي قد أقدم على الاستعانة بالغرب ولكن الى حد ، فلم يستقدم سوى الخبراء أو الصناع أو المشيرين ، ولم يتوان في العمل على اعداد الشرقيين الذين يحلون محلهم ، ولم يطلق

الحياة الاقتصادية من قيودها الحكومية الا حين فرضت عليه علاقته بتركيا ذلك فرضا . وأتى عباس من بعده فذهب بسياسة الحذر هذه الى غايتها ، ثم تولى سعيد فكانت حرية التجارة والصناعة والمواصلات كما أرادها الغرب ، وكان تعاقب المهاجرين على مصر من كل صوب ، ثم اقبال رؤوس الأموال الأجنبية ، ومصر وقتئذ في مثل الظروف الاقتصادية التي وجدها الفرنسيون عليها حين هبطها نابليون ، مضافا اليها اختفاء طبقة الملتزمين والتجار وأهل الحرف التي كانت تشغل قبل ذلك مركز الطبقتين الثرية والمتوسطة فيها ، بعد أن احتكرت الحكومة الزراعة والتجارة والصناعة جميعا ، فتحول أربابها الى أجراء ، ولم يبق هناك الا مالك واحد هو هذه الحكومة المحتكرة . وكانت الحكومة الى عهد سعيد تحصل ما تستحقه لدى أجرائها عينا ، ولا تملك رؤوس أموال سائلة تذكر ، وتخضع الى ذلك في مزاولة سلطاتها جميعا لتنفيذ السياسى الذى كانت تتمتع به الدول فى القاهرة بحق الوصاية التى خولته اياها معاهدة لندن . وكان قناصل هذه الدول يعاملون ولاية مصر وقتئذ كصنائع من عمل حكوماتهم ، أو وكلاء عهد اليهم فى رعاية مصالحها ، ويتولونهم بالثناء والوعيد . ومن ثم كان انتهاء الأموال القادمة الى طرق أبواب الحكومة بصفتها المنتج الأكبر والوحيد الذى يريدها ، أو السلطة الوحيدة القائمة التى يستطيع أن يتجه اليها أصحابها للحصول على ما يدعونه فى مجتمع لم تمهد أرضه للاستغلال الصناعى والتجارى ، وفوزها على الدوام بما تريد ، وانقلاب القناصل الى سماسرة ينالون الامتيازات لأصدقائهم أو شركائهم ، ويقرضون القروض ويتممون الصفقات ، وتحولهم على كل حال الى أدوات لهذا الغزو المالى الخاطف الذى كان يغزو الاقتصاد الزراعى المصرى ويعمل فيه عمله المحتوم . وكان أحكم ما يعرض على الولاية حينئذ من مشروعات مالية وأضحى وأخطرها مشروعات عالمية تفوق حاجات البلاد ، وتدور جميعا حول وصل مراكز الانتاج الغربية بمنابع تموينها ، وأسواق استهلاكها ، فى آسيا وأفريقيا ، كبسكة حديد السويس والقناة وسلسلة السكك الحديدية والتلغرافية والموانى والفنارات التى تمت تحت اسماعيل . فلم تكن

سكة حديد السويس — حين دفع الانجليز اليها عباسا دفعا — تدور بخلده ، أو تتصل بحاجات البلاد الاقتصادية اتصالا مباشرا . وما كان مشروع القناة — حين احتال دى ليسبس على سعيد للشروع فيه — بالشئ الذى تؤمن به أوروبا نفسها ايمانا صادقا ، ومع ذلك نالت انجلترا سكة حديد السويس ثمنا لمساعدة عباس فى الاحتفاظ بحقوقه كاملة . ونال دى ليسبس قناة السويس مقابل ثنائه العاطر ووعوده السخية . ومضت القاهرة فى تنفيذ المشروعين بخطى سريعة كانت تثير أهل البلاد ومعارضة الدول التى كانت لا تفيد من مثل هذه المشروعات فائدة مباشرة .

وهكذا كان اسماعيل يجد خلف ارادته فى الحكم الحقيقى ، حين ولى مصر ، تيارا دوليا قويا ، وروحا داخلية ظاهرة ، ومن هنا اعتناقه السياسة التى كانت تنتهجها انجلترا فى محاربة مشروع القناة ، من المناداة بوحشية السخرة التى كانت تلجأ اليها شركة القناة ، الى ابراز الخطورة السياسية التى كان ينطوى عليها امتلاك هذه الشركة مساحات واسعة من الأراضى المصرية ، الى الاحاح فى انشاء قضاء منظم يضع علاقة الأجانب بحكومة البلاد ورعاياها فى حدود طبيعية ، ويقفل الباب فى وجه الامتيازات التى كان ممثلو فرنسا ينالونها من حكاهم^(١) ، ثم كثرة الاعتداءات على الأجانب التى صحبت ارتقاءه العرش . وقد أثارت هذه السياسة فرنسا فى وجهه فبدأت تناوئه وتهيج عليه الآستانة والرأى العام المصرى . وكانت الآستانة التى أراد هو الاحتماء بها تتردد بين لندن وباريس ولا تجسر على الانحياز لاحدهما . كذلك كانت انجلترا لا تريد أن تسير معه الى آخر الشوط ، أو أن تغير من سياسة الشك التى كانت تتمسك بها ازاء أبناء محمد على . وهكذا اضطر هو أن يلين ويلتقى بشركة القناة عند النقطة التى ترضاها ولا تؤذى كرامته ، ويدفع ثمن

(١) انظر محمد صبرى وسان ماركو . وقد طلب اسماعيل من قنصل

فرنسا حين ذهب يهنئه أن يبلغ امبراطوره انه رجل جد يحسب حسابه وكان ذلك أول النزاع بينه وبين الحكومة الفرنسية M. Sabri : L'Empire egyptien sous Ismail (محمد صبرى : الامبراطورية المصرية تحت اسماعيل ،) .

ذلك ملايين الجنيهات التي أقرضته إياها البنوك الفرنسية ، وبخاصة حين وجد أن فرنسا كانت لا تزال الدولة الوحيدة التي يستطيع أن يلجأ إليها الولاة حين يريدون الوقوف في وجه تركيا أو الحصول على ما يريدونه منها . وكان هو يريد الكثير ؛ كان يريد أن يتخلص من قيود اتفاقية لندن وينشئ ملكية زاهرة كتلك التي أعجب ببريقها في الغرب ، ويصدر في ذلك عن طموح شخصي لحياة تلك الملكيات ، ومعرفة دقيقة لنقط الضعف في الآستانة ، ثم عزة نفس شديدة أورثه إياها الاتصال بالغرب والشعور بضالة مركزه . ومن ثم كان ميله لمحاولة شراء الأعوان في مقر السلطنة دون الالتجاء للحرب ، وكان التردد الذي يبدو في تقط كثيرة من سياسته ، وكان اهتمامه بالرأى العام الغربى أى اهتمام . وقد استطاع أن ينال حق الوراثة الذى أرادته لأبنائه واللقب الذى أرادته لنفسه ليخرج من زمرة الولاة العاديين . واستطاع أن يعيد الصفاء الى جو صلاته بالآستانة حين أراد أن يتمتع بما نال من النجاح في جولته بالعواصم الأوروبية قبيل افتتاح القناة ، ويحصل على ذلك القدر من الاستقلال الادارى والمالى الذى كان يحتاج اليه احتياجا شديدا لمحاولة السيطرة على الظروف المالية التى كان يواجهها حينئذ ، فأنكرت عليه الآستانة ذلك وخاصته .

وكانت هذه الظروف المالية ترجع الى ما اضطر أن يحتمله في سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة ، وترضى السلطان ، والتقرب من العواصم الغربية ، ثم ما اختطه لنفسه من سياسة مالية أراد أن يتجنب بها ما انتهت اليه اتجاهات سعيد المالية من نتائج وخيمة . وكانت هذه السياسة تقوم على استثمار مرافق البلاد بانشاء شركات قوية كالتى كانت تقوم في أوروبا لذلك الوقت ، يعهد اليها بهذا الاستثمار ، ويشارك هو ورجاله في رأسمالها ، ويخضعها لقضائه . وكان هو يقصد من ذلك الى تنسيق الاستغلال الاقتصادى ، والاسراع فيه ، وتقادى الضغط الأجنبى من طريقه ، ولكنه كان يعرض الخزانة العامة ، وكانت ما زالت منذ أيام المماليك المتأخرين لا تفرق عن مال الولاة ، الى أخطار الاستغلال التجارى ، دون أن يستطيع بعد ذلك الاستغناء عن رؤوس الأموال الأجنبية وخبرة أصحابها ، وما يصحب ذلك من تدخل قناصل الدول بنفوذهم السياسى العريض . وقد أخفقت غالب هذه الشركات كما تخفق

مشياتها من شركات الاستغلال المالى الحكومية عادة وتحولت ، مثل امتيازات سعيد ، الى وسيلة من وسائل ابتزاز الخزانة العامة . كذلك تحول القضاء المختلط ، الذى أنشأه الى جانبها ليحده من تدخل الدول وتسربه من ميدان الأعمال المالية الفردية الى دائرة الصلات السياسية ، الى أداة حجر على تصرفاته وماليته هو ، فلم يكن الأمر بعد أمر قناصل يتكسبون أو يتحكمون ، بل أمر أوضاع اقتصادية واجتماعية جديدة تتسرب من الغرب الى المجتمع المصرى الزراعى القديم ، وتتخذ فيه مكانها ، وتفرض عليه قوانينها . وكانت هذه الأوضاع تفعل ذلك حينئذ فى جميع بلاد الشرق : كانت تفعله فى تركيا ، وتفعله فى تونس ، وتفعله فى بلاد العجم أيضا . ولكن هذا الاخفاق كان يدفع نفسه المغامرة الى الابداع فى هذه السياسة ، ومحاولة الاستعاضة عما خسر فيها ، وتوسيع سلطانه التوسيع الذى يمكنه من المضى الى غايتها ، بدل الوقوف به عند محاولاته الأولى . وهكذا كان يقيم السكك الحديدية والتلغرافية والقناطر والمباني وهو يقترض . ويرشى السلطان ورجاله والعواصم الغربية وساستها ويرسل الحملات العلمية والعسكرية الى أفريقيا وحالة البلاد المالية على شرم ما يكون . ويصرف مليون جنيه على افتتاح القناة وهو يشارف الافلاس (١) .

(١) ترجع فخامة هذا الافتتاح الى رغبة اسماعيل فى انتهاز فرصته والسير بالازمة التى كانت تقوم حينئذ بينه وبين الاستئانة الى غايتها ، ولكنها لا شك تتصل أيضا بميول الترف التى صحبت حكمه ، والتى أراد غالب مؤرخيه أن يردوا اليها افلاسه (عبد الرحمن الرافعى ومحمد صبرى) وحاول الباقون تغطيتها مستعينين بما عرف عنه فى شبابه من ميل للادخار أو ما قام به من مشروعات عامة لم تكن كلها اسرافا (سان ماركو وكرابيتس) . والحقيقة عندنا هى أنه بينما كان محمد على لا يريد من القاب الشرف غير اسمه ولا يصبو الى منافسة السلطان الا فى سلطته ، كان أبنائه يريدون أن يكونوا ملوكا ويتمسكون بمظاهر الملك فى انتظار ذلك ويفعلون هذا بحماسة الملكيات الجديدة وعلى سبيل الدعوة الداخلية والخارجية . وقد أنشأ عباس لنفسه قصورا وفرض على رجاله أن يقيموا لانفسهم مثلها . وأراد سعيد لنفسه بلاطا عصريا كبيرا وحرسا ملكيا زاهيا . ودأب الانان على احاطة حركاتهما بأبهة مسرحية فاقعة ، ولكنهما لم يتركا لاسماعيل شيئا يذكر خصوصا بالقياس الى ما كانت تصبو اليه نفسه الطموح بطبيعتها . وهكذا اضطر اسماعيل أن يقيم ما تحتاج اليه الأسرة الجديدة من قصور دفعة واحدة ، وأن يجمع بين ذلك وبين تجميل عاصمته تجميلا حديثا ، وأن يفعل هذا فى الوقت الذى كان يسير أثناءه بسياسته المالية الانشائية سيرا سريعا .

وكان اسماعيل يمضى فى سياسته هذه بنفسية الشرقين الأولين ، الذين قضوا طرفا من شبابهم فى الغرب ، فبهرتهم أنواره ، وعادوا الى بلادهم يتوقدون رغبة فى الوصول بها الى ماوصل اليه أقرانهم هناك . وما تتيح لهم فرصة العمل لذلك حتى يندفعوا فى تغيير ما يحيط بهم وغيونهم مسددة الى المثل التى بهرتهم . وهم يستعملون فى تغييرهم هذا وسائل البيئة التى نشأوا منها ، ويصلون الى نتائج تخالف النتائج التى ترقبها لاختلاف المادة التى بين أيديهم عن المادة التى صنعت منها مثلهم ، وما يتنبهون الى ذلك حتى ينتهوا الى حالة بين الشك والاستهتار ، ويقيموا فى مكان منعزل بين عالمهم هذا الذى لم يعد يروق لهم وذلك العالم المثالى الآخر الذى لم يستطيعوا الانخراط فيه . وهم يكادون يدون عندئذ بطبيعتين : طبيعة المزدرى للعالم الأول وما هو حقيقى بأن يصدر عنها من صرامة ، وطبيعة الدخيل فى ذلك العالم الثانى وما هو قمين بأن يصحبها من تكلف . ومن ثم كان الطابع الحديث الذى جهد طوال حكمه أن يطبع مصر به ، واسرافه فى المناسبات التى كان يقيمها لأهل البلاد^(١) والأجانب^(٢) ، وسعيه لتكوين أرستقراطية مصرية^(٣) يزين بها بلاطه . وكان فى الوقت نفسه ما يأخذه بعض مؤرخيه على حكمه من استبداد واستهتار واقدام على أشد الوسائل للتخلص من الأعوان السابقين أو المنافسين الخطرين . وقد استطاع اسماعيل أن يدعم سياسته هذه بناء الدولة المصرية الناشئة ، وأن يدعم شخصيتها . واستطاع أن يوجه الى القاهرة كثيرا من الرجال الأقوياء الذين كانوا يفكرون حينئذ فى مصائر الشرق ومشاكل اصلاحه ، كالأفغانى ومريديه . ولكنه اضطر أن يستدين ليؤدى ثمن كل ذلك فى الداخل والخارج ، واضطر أن يستدين بالشروط الباهظة ، التى كانت ماليته الزراعية ومركزه الخاص من الامبراطورية العثمانية والدول

(١) كحفلات زواج بناته ، أنظر وصفها فى تقويم النيل .

(٢) مثل حفلة قناة السويس .

(٣) وكان يكثُر فى سبيل ذلك من اهداء الاراضى لرجال حاشيته

وتزويجهم من جواريه . تقويم النيل .

الغربية وبعض الحظر الذى فرضته عليه الآستانة فيما يتعلق بالقروض الخارجية ، ثم بقاء ادارته على الأسس المرتبكة القديمة ، تدفعه الى قبولها دفعا . وما توانى فى الوفاء بديونه حتى تداخلت مصالح دائنيه فى مصالح الدول التى ينتمون اليها ، وأرادت هذه الدول أن تقيد يديه وتحكم باسمه ، وما كاد يرفض ارادتها هذه حتى أسقطته .

ونحن نلمس فيما أسلفنا من سيرة ولاية مصر هؤلاء ، فى الوقت الذى كانوا يمثلون فيه القوة السياسية المصرية الوحيدة ، الدور الكبير الذى كان يلعبه الغرب فى الحياة العامة المصرية . نلمسه فى تحول النزاع بينهم وبين السلطان من نزاع اقطاعى داخلى الى مسألة دولية مشعبة ، ونلمسه فى أهمية المركز الذى كان يشغله الفنيون الغربيون فى جميع ميادين نشاط هؤلاء الولاة ، وميدان النشاط الاقتصادى على وجه الخصوص . ونلمسه فى نحو حياة البلاد جميعا نحوا ، نجد دوافعه فى اتجاهات الحياة العالمية أكثر مما نجد لها فى مقتضياتها الخاصة ، وينتهى لذلك الى الخروج بطواهرها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية جميعا عن مجراها الطبيعى وافساد تكوينها وتشويه معالمها . نلمس ذلك ونرى بعد أثره فى تحول تفكير الولاة ورجالهم أيضا من عدم الانقياد لتعاليم الغرب ، الى تحت الضغط الخارجى ، الى السعى الملح لتأثر هذه التعاليم عن ايمان ورغبة فيها ، وارتفاع الأساليب الغربية تبعاً لذلك الى مثل عليا يحتذى بحياة المصريين على منوالها ، وشعور المصريين فى سبيل تحقيق ذلك الى الحاجة للخبرة التى أنتجت هذه الأساليب .

والغرب فى هذه الفترة ينظر الى مصر نظرة الصانع الى شئ من صنعه ، فيذكر ممثلو فرنسا محمد على كل حين بأيادى حكومتهم البيضاء عليه ويصرح « السان سيمونيون » المرة تلو المرة أنه منفذ وصية نابليون الأمين فى مصر^(١) ويعد الموظفون الأجانب فى الحكومة المصرية تقسهم تابعين لحكوماتهم ويخاطبون زملاءهم المصريين وكأنهم أصحاب البلاد .

(١) وقد شربوا نخبه ونخب نابليون عند وضع حجر الاساس فى قناطر محمد على .

ويختلف قنصل فرنسا في الأسكندرية مع السلطات المصرية فيدعو مواطنيه صراحة الى الوقوف في وجه هذه السلطات . ويقول المسؤولون عن مشروع القناة في عريضتهم الى نابليون الثالث ان استقلال مصر من صنع فرنسا ، ويطلبون تدخله على هذا الأساس (١) . والولاة يشعرون بدا في ذلك من خطر يهددهم فيتملقون هذا الغرب ويخشون مثليه ويجتهدون في كسب اعجاب الرأي العام فيه ، حتى اذا أخفقوا في ذلك عادوا يتجهون الى الآستانة ، عاصمة تلك الامبراطورية العثمانية الضخمة التي ظلوا الى آخر أيامهم يعدون أنفسهم من كبار موظفيها قبل أن يكونوا شيئا آخر (٢) .

(١) محمد صبرى .

(٢) وقد ترك الهامى مصر الى الآستانة بعد وفاة والده عباس وأقام بها اخوه اسماعيل من بعده وعمل اسماعيل نفسه في حكومتها قبل ان يتقلد الولاية وتولى اخوه وزارة المالية فيها بينما كان هو يحكم مصر . « تقويم النيل » .

obeikandi.com

أعراض المراهقة

أسقطت الدول اذا اسماعيل قبل أن تستكمل الدولة التي أنشأها جده عناصر تكوينها جميعا . وكان سقوطه عاقبة رفضه النزول لها عن معنى الحكم الذى كانت هذه الأسرة الحاكمة الفتية تريد أن تزاوله ورغبة الدول فى تعهد مصالحها بنفسها بعد أن بلغت ما بلغت من نمو فى مصر ثم بقاء الحكم الذى كان يمثل من غير سند حقيقى يستند اليه : فلا هو بقى فى حظيرة الحكم العثمانى فيستطيع أن يلوذ بعطفه ، ولا هو انخرط فى العالم الغربى الذى كانت ظروف نشأته تدفعه الى ابتغاء رضاه ، ولا هو استطاع أن يثبت جذوره فى الأرض التى اتخذها فيتمكن من الاعتماد عليها فيما عسى يفجأ به من ضغط خارجى . وهكذا لم يثر خلع اسماعيل معارضة مصرية حقيقية^(١) وان كان معنى هذا الخلع ، نعى اتجاه التيار الغربى الى الاستيلاء على الحكم ، قد وجد من هذه الأرض بالذات تلك المعارضة المستميتة التى أدت الى الثورة العربية ، ثم حركة سنة ١٩١٩ ، ثم المفاوضات المصرية الانجليزية المتوالية .

وقد سبق أن رأينا كيف أقصى محمد على عن مناصب الحكم العناصر التى كانت تنهض به منذ أيام الأيوبيين ، بقضائه على النظم المملوكية ، وكيف استعان بمن اجتلب من عثمانيين ، واستقدم من فنيين غربيين ، وعبا من أهل البلاد ، فى انشاء جيش حديث وادارة جديدة ومالية انشائية . وقد احتفظ خلفاؤه بهذا الجيش ، وحاولوا اكمال هذه الادارة ، وساروا حثيثا فى طريق تنمية هذه المالية الانشائية . فأبقى عباس على المدارس العسكرية الرئيسية ، رغم غلقه المدارس عامة ، ووضع سعيد نظام اقتراع ثابت مثل ما فعلت تركيا وقتئذ ، واستقدم اسماعيل المدربين العسكريين من أمريكا ، وعمل ثلاثتهم على اقامة الدواوين الجديدة وافتاد المشروعات الاقتصادية الضخمة ، فكانت الوزارات المختلفة ، وكانت سكة حديد السويس وقناته والسكك التلغرافية والمنشآت

١٦٨

الزراعية والصناعية والتجارية الأخرى^(١) ، وكان ما صاحب ذلك من ارتفاع في الدخل القومي ، وزيادة في عدد السكان ، وتطور في الملكية الزراعية أيضا ، اذ تبلور حق الانتفاع الذي أنشأه محمد علي ، وثبتت معاملته على أيام سعيد ، وتحول الى ملكية تكاد تكون تامة ، حين قبل اسماعيل مشروع المقابلة ، ثم الى ملكية تامة بقانون سنة ١٨٨٠ . وهكذا قام على أنقاض النظام المملوكي الذي كان يتنفس في جو الأمة الاسلامية العالمي ، والى جانب الأسرة الحاكمة الجديدة التي كانت تتعاقب على عرش البلاد ، جيش أهلي ، وطبقة من موظفين وطنيين ، وطائفة ملاك زراعيين محليين ، أى ظهرت مصالح أهلية تنفرد بأوضاعها الخاصة ، وتصدر في حركاتها عن نفسها ، وتقيم هيكل مجتمع جديد . ونحن نشعر بظهور هذا المجتمع منذ الصدر الأول من القرن الثامن عشر فيما يذكره الجبرتي عن الكبرياء التي كان يثيرها الثوب العسكري فيمن كان يجندهم محمد علي من أهل الريف وفقراء المدن ، وما يقوله المؤرخون الفرنسيون^(٢) عن النعرة التي كانت حملات الشام تثيرها في جند ابراهيم ، وما نلاحظه من تردد معاني الوطنية في كتابة رفاة الطهطاوي^(٣) وعلى مبارك وغيرهما من كتاب ذلك العصر ، ووصف عرابي لأثر أحاديث سعيد معه في أمور مصر في نفسه ونفس من تصل اليهم من أهل البلاد^(٤) . ثم نلمسه لمسا يسيرا تحت اسماعيل في ظهور

(١) ارتفعت مساحة الأراضي المزروعة بفضل هذه المشروعات الى ٦١٠٧٤٢٠٠ فدان وارتفع عدد السكان في الوقت نفسه الى خمسة ملايين وربع مليون . كروشلي .

(٢) دوين ودريول وسان ماركو .

(٣) « ويضع لمطالعة المدارس كتاب « مباهج الالباب المصرية في مناهج الاداب المصرية » وهو أول كتاب عربي ينزع الى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى الوطن ، ومصر ومزاياها . وتشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر الكتاب ، فيذكر كيف تؤدي في البلاد المتقدمة ، ونبدأ مما قام به بعض رجال المسلمين في سبيل المنفعة العامة وواجب الاغنياء ، وكيف يربي الاولاد ، وفصولا في الاقتصاد المصري من منابع الثروة وتقسيم الاعمال الى منتجة الاموال وغير منتجة ، ويعود الى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها في الأمم وتاريخ مصر ازاءها الى عهد محمد علي ، ويذكر الاصلاحات التي عملها ، ثم يذكر الامال التي يأملها في المنافع العامة في المستقبل . ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الامور المستحسنة . وهو - في كل ذلك - يجمع بين ثقافته الاسلامية وثقافته الفرنسية » . رفاة الطهطاوي . مجلة الثقافة عدد ٢٣٥ في ٢٩ يونيو سنة ١٩٤٧ .

(٤) مثل خطاب ٤ نوفمبر سنة ١٨٥٩ . انظر محمد صبري .

طبقة ذكية من رجال الحكم لا نجد لها نظيرا الى جانب محمد على أو عباس أو سعيد ، تصدر في أعمالها عن تقدير مستقل لمصالح البلاد ، وتحجب الجالس على العرش تارة وتقف في وجهه طورا . فنوبار يضع الجانب الأكبر من سياسة اسماعيل الخارجية والمالية والداخلية ويرمى ، بين ما يرمى اليه من انشاء المحاكم المختلطة ، الى الحد من سلطة الخديوى^(١) . وصديق المفتش يتزعم التيار الوطنى الذى أدى الى وضع قانون المقابلة ، ويجالد التدخل الانجليزى الفرنسى فى مالية البلاد ، وينتهى الى السقوط صريحا فى سبيل مجالدته هذه . وشريف يرفض أن يصدر فى الحكم عن غير تقديره للأمور ويذهب بالتفكير فى اصلاح نظمه الى حد المعارضة السافرة للخديوى^(٢) . كذلك نلمسه فى الاتجاه الذى اتخذته الحياة النيابية المصرية فى الصدر الأخير من القرن التاسع عشر .

فنحن نعلم أن اسماعيل أنشأ فى سنة ١٨٦٦ مجلسا استشاريا يقوم الى جانب الدواوين الحكومية ويعينها على تأدية وظيفتها . وقد جعل هذا المجلس يظهر ويستخفى دون أن يكون له أثر فى حياة البلاد حتى كانت الأزمة المالية ، وتناوش اسماعيل ومدينيه ، واتجاه فرنسا وانجلترا الى التدخل فى الادارة المالية ، اذ أخذ اسماعيل يشعر بالحاجة الى سند يعتمد عليه ، وجعلت قيمة المحكومين ترتفع فى جلبه العراك السياسى ، وانتهى الأمر الى تعاون اسماعيل وهؤلاء المحكومين ، حين فكرت انجلترا وفرنسا فى الحجر عليه ووضع يدهما على ادارته ، فكان قانون المقابلة ، واقالة الوزارة المختلطة ، ثم اقامة الحكم النيابى الحقيقى ، اذ أجمع اسماعيل على المضى فى معارضة دائنيه ، وطمح أهل البلاد الى الاستيثاق من ثمره تعاونهم هذا ، وكان ما أعقب ذلك من وقوف النواب الجدد فى وجه التدخل الأجنبى والفساد الداخلى وما أدت اليه وقتهم من انفجار الثورة العرابية .

وهذا المجتمع الجديد يتجه قليلا قليلا الى الشعور بنفسه كشيء

(١) عبد الرحمن الرافعى : « الثورة العرابية » .

(٢) « محمد شريف باشا » نشرة الحزب الوطنى .

يختلف عن المجتمعات الأخرى ، اسلامية كانت أو غير اسلامية : يتجه الى تكوين ما ندعوه بالوعى القومى . فالطهطاوى^(١) يكتب فى الوطنية والتاريخ المصرى القديم وواجب العمل لرفاهية مصر ، وهو أمر لا نجده فى الجبرتى مع قرب العهد بينهما . وعلى مبارك يضع لفظ «مواطن»^(٢) للتفريق بين أهل البلاد وغيرهم . وعرابى يستعمل لفظ « المصريين » و « الأمة المصرية » بمعناه الحديث ، ويعد من ليسوا من أهل البلاد ، سواء كانوا من الأرمن أو الأتراك ، أى سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ، أجنب لا يحق لهم أن يحكموها^(٣) ، وهو أمر جديد أيضا لا نجد له أثرا فى التفكير المصرى منذ أن احتضنته الموجة المسيحية . وكتاب العصر الآخرون يشعرون بهذه الحقيقة ، وان فى اضطراب ، ويشعرون من يقرأهم بها أيضا بطريق أو آخر .

والأسرة الحاكمة الناشئة تقوم فى هذا التحول بدور هام ، فهى التى تلقى بذوره بسعيها الملح فى اقامة حكمها الجديد ، وتنضج ثماره بكفاحها فى سبيل استكمال عناصر هذا الحكم ، وتبرز حدوده باتجاهها الاتصالي عن الامبراطورية العثمانية . فينشئ محمد على الجيش الذى ثار على الشراكسة أيام عرابى ويرسل البعثات العلمية التى ركزت الوعى الحديث ويشير حرب الشام التى بعثت النعرة المصرية ، ويفذى ابراهيم بنداياته وتصريحاته حركة الخروج السافر على الامبراطورية العثمانية ،

(١) « وهناك صفة هامة من صفات رفاة تستحق الالتفات والتسجيل : فقد كان فيها الرائد الأول للمصريين جميعا فى العصر الحديث : تلك هى عاطفة الوطنية القومية . كان رفاة يحب مصر حبا قويا ملك عليه نفسه ، وكان الدافع له الى الاخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه . وقد تغنى بهذا الحب كثيرا فى شعره بل نحن لانعدو الحقيقة اذا قلنا ان معظم شعره قصائد ومقطوعات وأناشيد وطنية لم يسبق اليها أو الى مثلها أحد من المصريين . »

وفى كتبه المختلفة كان يعقد الفصول الطوال للتحديث عن الوطن والوطنية وتحليل هذا المعنى وضرب الأمثلة بمن عاشوا وضحوا فى سبيل أوطانهم . أثارت هذه العاطفة فى نفسه طبيعته الحيرة وقواها ثقافته الواسعة فى باريس ودراسته للعلوم الفلسفية والاجتماعية والسياسية هناك ، وأذكأها أيضا أنه شاهد ثورة الشعب الفرنسى فى سنة ١٨٣٠ فقد رأى بعينه كيف يبذل الفرنسيون ارواحهم فى سبيل وطنهم وحريرتهم . جمال الدين الشيال : « رفاة الطهطاوى » .

(٢) وهى ترجمة لفظ citoyen الشائع حينئذ فى فرنسا .

(٣) « تقرير عرابى » .

ويبعث سعيد ، بتقريب أهل البلاد اليه واعادته اللغة العربية لغة رسمية وتفخه في المصريين المحيطين به ، الروح التي خرج منها عرابي^(١) ، ويقضى اسماعيل حكمه عاملا على انشاء الأرستقراطية الوطنية التي ثارت في وجهه ووجه ابنه من بعده .

وكل هذا يبدأ هينا ثم يغلظ ويتبلور ، فالطهطاوى يكتب في الوطنية المصرية ولكنه اسلامى قبل كل شيء . وعلى مبارك يقرب عنه الى الفكرة القومية ولكنه لا يظهر وعيا مصرية كاملا . وعرابى يحيط بالشعور المصرى بغلاف عربى اسلامى لا يزال يحيط بشعور الكثير منا حتى اليوم . وقد رأينا كيف كان محمد على وابراهيم يترددان بين الفكرة العثمانية والفكرة العربية . وكيف كان عباس وسعيد واسماعيل من رجال السلطنة العلية قبل أن يكونوا شيئا آخر . وكيف كان ثلاثهم بعيدين عن الشعور بقومية مصرية صحيحة بعد أهل البلاد أنفسهم عنها . وقد كان الحكام يدعون أهل البلاد ، وكان أهل البلاد يدعون بعضهم البعض حتى مطلع القرن العشرين : « الأهالى » و « العباد » و « الناس » و « أولاد العرب » كما كان الحال على أيام الامبراطورية الاسلامية .

(١) قال عرابى لبنت ان سعيدا أهدها كتابا عن الحملة الفرنسية على مصر وقال له : انظر كيف ترك أبناء وطنك الفرنسيين يضربونهم (ولم يلاحظ أن المضروبين كانوا مماليك وأتراكا) . وأضاف عرابى الى ذلك أنه فهم من قراءة الكتاب أن انتصار الفرنسيين يرجع الى تنظيمهم وتمرينهم (لم ير هو أيضا غير الناحية العسكرية) وأنه من الممكن أن يؤخذ بهذا التنظيم في مصر اذا أنشئ فيها الحكم الدستورى . انظر بلنت : التاريخ السرى لاحتلال مصر .

وقد خطب سعيد في نوفمبر سنة ١٨٥٩ أثناء الحرب الفرنسية النمساوية فى مادبة عامة قائلا انه تأمل حال الشعب المصرى المضطهد الذى استعبده شعوب الأرض من الرعاة الى الاشوريين الى العجم الى الليبيين الى السودانيين الى الاغريق الى الرومان الى الايوبيين الى العباسيين والفاطميين والكرد والشراكسة والأتراك ونابليون (من الجلى أنه درس تاريخ مصر فى مراجع غربية) ويريد كمصرى أن يربى هذا الشعب ويجعله كفءا للاستغناء عن مساعدة الأجانب . وقد أغضب هذا الخطاب بعض الأمراء والحكام من الأتراك . انظر محمد صبرى .

(٢) انظر وثائق العصر فى « تقويم النيل » .

وهذا التمايز التدريجي يبدو بقوة نسبية بين الذين يواجهون مشاكل الحكم أو يشغلون المراكز الرسمية أو يمثلون المصالح المادية ، ثم يضعف بين الطبقات الأخرى حتى يكاد يختفى بين المفكرين ، ويظل مختفيا بين العامة الى عهد قريب ، نعى أنه ينبثق من طبيعة الأمور ، ولا يهبط من وعى سابق أو فكرة جديدة أو قديمة تجددت . فمحمد على يحس الفروق الكبيرة التى تقوم بين مصر وسائر السلطنة العثمانية رغم عثمانيته ، وإبراهيم يفوقه فى هذا الشعور وإن لم يرتفع به ذلك الى درجة الوعي المصرى . وقد كان الطهطاوى من أبناء الملتزمين الذين فقدوا التزاماتهم وهبطوا الى الفلاحة أو طرّقوا أبواب الوظائف الحكومية ، فكان اماما ، ثم مبعوثا يدرس فى باريس ويتصل بمستشرقها ويطلع على بحوثهم فى تاريخ الاسلام وتاريخ مصر^(١) . وكان على مبارك أحد الصبية الذين انتزعوا من آبائهم وأغلقت خلفهم أبواب المدارس الأميرية ثم عادوا ذات يوم الى عائلاتهم فى ملابس « ولى النعم » الرسمية المقصبة^(٢) . وكان عرابى من أبناء الريف الذين دخلوا الجيش وعاشوا فى بلاط سعيد واسماعيل^(٣) . كذلك كان نوبار من حفدة باغوس ربيب محمد على^(٤) . وشريف ابن قاضى تركى رباه محمد على أيضا^(٥) . وصديق المفتش من المقربين الى الأسرة الحاكمة^(٦) . وسلطان باشا وزملاؤه المطالبون بالحياة النيابية والقائمون بشئونها بعد ذلك من الملاك الزراعيين الذين أقرضوا الخديو وشعروا بضعف

(١) جمال الدين الشيال : « رفاعة الطهطاوى » ، وأحمد أمين : مجلة الثقافة أعداد ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ سنة ١٩٤٣ .

(٢) نشأ على مبارك كرفاعة الطهطاوى فى عائلة شتتها ظلم الحكام فهاجرت الى الشرقية ونزلت على بعض قبائلها . وقد أراد لنفسه أن يكون كاتباً لا فقيهاً كما كان والده ، حتى يكون قريباً من الحكام ثم عرف ذات يوم أن هؤلاء الحكام يتربون فى المدارس الأميرية فاستعلم هل كان أبناء الفلاحين أيضاً يستطيعون دخول هذه المدارس والتحق بإحداها بالرغم من معارضة أهله واختطافهم إياه منها وثابر على الدرس حتى بعث الى فرنسا فى حياة محمد على . على مبارك : الحطط التوفيقية .

(٣) « الحركة القومية » لعبد الرحمن الرافعى .

Holynsky: Nubar. (٤)

(٥) « محمد شريف » ،

Egypt's Ruin . (٦)

مركزه فأرادوا أن يقاسموه سلطانه (١) . كذلك كان العرابيون أول أمرهم ضباطا ثائرين على ما نزل أو خشوا أن ينزل بهم من ضيم ، وقواد جند يريدون أن يشغلوا المراكز الرئيسية التي كان لا يشغلها لذلك الوقت الا الشراكسة ، ويقبضوا على ناصية الحكم كوسيلة للدفاع عن أنفسهم مما كانوا يدعونه الغدر الشركسي (٢) . وفي هذا ما يفسر بعض اتهام الشيخ محمد عبده العرابيين والعثمانيين والخديويين بالأثرة والهوى ، وان كان ليس فيه ما يطعن في حركتهم كحركة وطنية فليس في تاريخ الحركات الوطنية حركة واحدة لا تتصل ناراها من بعيد أو قريب بالمصالح المادية للذين أثاروها أو قاموا بها (٣) .

وقد كان محمد عبده وأقرانه من مفكرى ذلك العصر يتجهون بعكس ذلك اتجاهها اسلاميا قبل كل شئ . فكان الأفغانى يحب البلاد الاسلامية وكأنه يحب المقاطعات المتجاورة في البلد الواحد ويدعو أهلها جميعا الى احياء الاسلام (٤) . وكان محمد عبده يكافح في سبيل الأمة

(١) « وقد أشعر مشروع البكرى لتسديد الديون الناس بقوتهم وحاجة الحاكم لهم وزادت من رغبتهم في الاشتراك في الحكم » . « تاريخ الشيخ محمد عبده » .

(٢) قال محمد عبده : « أما عرابي فلم يكن يخطر بباله أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا فلم يكن له هم سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدد والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ لأنه هو واخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة » . عثمان أمين : « محمد عبده » .

(٣) « تاريخ الشيخ محمد عبده » ، و « الاسلام والتجديد في مصر » . (٤) وكان يرى في التدخل الغربى حربا صليبية جديدة ويظن أن سبيل الشرق الوحيد الى النهوض هو القيام بحركة دينية كحركة لوتير في الغرب ويلاحظ أنه أفغانى يدعو دعوة سياسية في مصر . أنظر محمد سلام مذكور : « جمال الدين الأفغانى » .

« . . . هال الأفغانى أن يرى الشرق بين أنياب الاستعمار الأوروبى تنوشه من كل جانب وتدميه في الصميم من قلبه ووجدانه ، ومع هذا فهو يفت في سبات عميق ، وأهله في فرقة كلها التخاذل والتنافر ، والدولة التى تحمل لواء الخلافة ليست لها صلات صحيحة - كما يقول - بأمم الشرق وأقطار العربية . . . » .

« . . . أقول هال السيد الأفغانى ما رأى وما كان يتوقع من مقدمات الحوادث ، وأقزعه ذلك الشتات في الجامعة الاسلامية ، وتحقق له أن الفرقة علة الشرق المتوطنة وداؤه المتمكن ، فنهض يصيح بارباب الغيرة من ملوك

الاسلامية قبل كل شيء^(١) وكان صديقه وزميل كفاحه الشيخ رشيد

المسلمين وعلمائهم من أهل الحجة والحق الا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ،
ويجمع شتتهم ، وأن يتعاونوا على صون الوحدة عن كل ما يثلها ،
فيكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة ، وطلبوا سعادة ، والرمق باق ،
والآمال مقبلة . ولقد كان ذلك المصلح العظيم يرى أن قيام هذه الوحدة
للمسلمين مما تقضى به الضرورة ، وتحكم به العادة حتى يقيموا بذلك
سدا يحول عنهم تدفق السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ،
ومن ثم ظل طول حياته ينهض بهذه الدعوة وينادى بضرورتها في كل
مناسبة سانحة ، وفي كل مكان تنزله به قدمه ، ثم أراد أن ينظم سبيل
الدعوة ، وأن يقوى من صوتها وأغراضها ، فأنشأ جمعية « أم القرى »
وهو في مكة لتدعو الى الجامعة الاسلامية تحت لواء خليفة واحد
يسيطر على العالم الاسلامي أجمع ثم ألف جماعة « العروة الوثقى » وهو في
باريس من مسلمي الهند ومصر وشمال افريقيا وسوريا ، وأصدر بالاشتراك
مع الشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » لسانا لحالها وتعبيرها عن
أغراضها ، وكان هدفها وحدة المسلمين وإيقاظهم من سباتهم ، وتنبيههم
الى المخاطر التي كانت تهددهم ، وأرشادهم الى سبيل مواجهتها والتغلب عليها .
كانت دعوة جمال الدين تنلخص في أن الوحدة بين المسلمين ضرورة
تقضى بها الطبيعة والعادة ، ويؤيدها العقل والنقل ، وتقرها شواهد التاريخ
للجماعات البشرية ، وعوامل الاجتماع والالفة بين الأمم والشعوب ، وكان
يضرب لذلك الامثال والسوابق في تاريخ الوحدة الاسلامية في الصدر
الاول ، والوحدة الجرمانية في العصر الحديث ، أما المبررات والدعائم التي
تقوم عليها هذه الوحدة ، فقد أشار اليها اشارة عابرة في احدى مقالاته
اذ يقول : « ان من أدربه الى بيشاور دولة اسلامية متصلة الاراضي متحدة
العقيدة لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس
بالشجاعة والبسالة ، فلو اتفقوا فليس ذلك ببدع بينهم . . . »

• • • ماذا كان يرجو السيد الافغانى من وراء الوحدة ؟ وماذا كان يعلق
عليها من الآمال والأغراض ؟ ويحدد لها من الأهداف والغايات ؟

لقد كان الرجل يقف من ذلك بادى الامر عند مسألة المسائل ، فكان
كل ما يرجو أن تكون الوحدة قوة دفاعية تقف في وجه الاستعمار ، وتقوم
سدا يحول عن المسلمين السيول المتدفقة عليهم من كل جانب ، ومعنى هذا
أنه كان يرجو من الوحدة أن تكون وقاية وحماية ، هدفها الوقوف في وجه
الخطر وكفى . الافغانى والوحدة الاسلامية . الرسالة عدد ٦٦٦ فى
٢٣ ابريل سنة ١٩٤٥ .

(١) « وكان (الشيخ محمد عبده) يرى أن المحافظة على الدولة العثمانية
ثلاثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطة الدين
الكافلة ببقاء حوزته ويقول : وانا لله الحمد على هذه العقيدة عليها نحيا
وعليها نموت . » تاريخ الشيخ محمد عبده .

ويبدو سوء ظنه بالأجانب ومقته لنفوذهم فى وصفه لهم بالـ « شياطين »
وقوله ان « الأجانب من فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا أنشأوا مدارس
أجنبية فى البلاد الاسلامية ليحاولوا هدم عقائد المسلمين ويستغلوا أهواءهم
نحو البلاد التى يمثلونها » . انظر « الاسلام والتجديد » .

رضا ينكر الروح القومية ويجدها بدعة مؤذية حتى آخر أيامه^(١) . وهذا الشعور الدينى هو الغالب على العامة فى مصر والبلاد الاسلامية الأخرى الى اليوم . وآية ذلك ما انتهت اليه الحركة العربية وما تنتهى اليه فى الغالب كل فورة شعبية من نوعها .

والوعى المصرى الجديد يبدى فى اتصاله بالتيارات الخارجية مظاهر رد فعل بينة وان ضعفت^(٢) ، تبدأ فى الميدان السياسى ، بحكم اشتداد هذه التيارات فيه وتكوّن طبقة حاكمة وطنية ، ثم تمتد الى الميادين الأخرى . وقد قاوم محمد على هذه التيارات ، وقاومها اسماعيل ، ثم انتقلت المقاومة من الولاة الى أهل البلاد ، فكانت الثورة العربية ، وكان اخفاق كل هذا فى الدورة الأولى منه لحدائث هذا الوعى وميوعته وتوزع أفكار أصحابه فقد رأينا كيف كان محمد على عثمانيا قبل أن يكون شيئا آخر ، وكيف كان سعيد واسماعيل يترجحان بين الشرق

« وكان يرى أن « علاج هذه العلل (علل مصر) لا يكون بنشر الجرائد اذ هى ضعيفة السلطان وليس شفاؤها بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة على الطراز المعروف بأوروبا ، لأن هذه المدارس وما يدرس بها من علوم يمكن أن تتخذ وسيلة لتقوية النفوذ الأجنبى ولا هو بالتعليم الأوروبى وتقليد العادات الافرنجية فلم ينجح التقليد الا فى اطفاء روح الناس واخضاعها لسلطان الأمم التى يقلدونها فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ بأحكامها على ما كان فى بداية أيام الخلفاء الأوائل ، فاذا قاموا بشئونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحققة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنسانى » . « مجموعة العروة الوثقى » . انظر « الاسلام والتجديد فى مصر » .

وقد كتب فى العدد الثانى من العروة الوثقى تحت عنوان « الجنسية والديانة الاسلامية » يقول ان العصبية الدينية تعلو العصبية الجنسية ويطالب بحكومة اسلامية عامة ويريد اصلاح الأمة الاسلامية .

(١) « فعلت (الوطنية) فعلها فى غير أصحاب العمائم من المتعلمين : لأن هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية الا فى الدين » . الشيخ رشيد رضا . انظر « الاسلام والتجديد فى مصر » .

(٢) والشيخ محمد عبده يقول ان أحكام المحاكم المختلطة على الحديو وعمل الناظرين الانجليزى والفرنسى وتأليف اللجنة المالية المختلطة وما أثاره كل ذلك من الكتابة فى أنواع الحكومات هى التى أثارت رأى العام . « تاريخ الشيخ محمد عبده » .

والغرب^(١) . ونحن نعلم أن الحياة النيابية لم تكن أول عهد البلاد بها الا شكلا من أشكال نشاط السلطة التنفيذية^(٢) ، وان هذه السلطة لم تكن حينئذ في جوهرها الا صورة من صور الحكم العثماني الفاسد بكل ما خص به من خشونة وقسوة واضطراب^(٣) . وكانت الطبقة الحاكمة سواء القائم منها بالحكم أو المتربع على كراسى النيابة ما زالت تتلمس الطريق الى العثور على نفسها فهي تتكلم لغة مهشمة بين عربية وتركية وتبدى أفكارا مشوهة بين تركية وعربية وغربية وتتخذ اتجاهات تتأرجح بين الحيطة الشديدة والشطط الأهوج . ومعاصرو عرابي يرجعون اخفاق حركته الى جهله^(٤) وعدم ايمان أعوانه بالقضية التي كانوا يدافعون عنها ، ونحن لا نستطيع أن نقرأ تاريخ الحركة العرابية اليوم ولا نميل الى الأخذ بهذا الرأي . وقد خسر الرجل المعركة فكان أول ما فكر فيه أن ينجو بنفسه من انتقام الشراكسة الذين خاصمهم وانتقام الحكومة التي كانت الى عهده تلقى بأعدائها في البحر « بعد أن تضعهم في صناديق مقفلة مثقوبة » كما يقول في تقريره وأن يلجأ الى الانجليز^(٥) . وخسر النيابيون معه معركتهم فنفضوا يدهم منها وانقلبوا الى ديارهم راشدين^(٦) .

★ ★ ★

» وقد دخلت مصر بالاحتلال الانجليزي الذي أعقب الثورة العرابية دورا جديدا من أدوار التطور الذي أخذت بأسبابه منذ نهاية القرن الثامن عشر ، إذ كان التيار الغربي ، الذي كان يؤثر فيها من خارج الحكم ،

(١) Wallace : The egyptian question (والاس « المسألة المصرية »)

(٢) « كان أعوان اسماعيل وتوفيق ممن لا يقيمون وزنا للشعوب . ومعاصرو اسماعيل يعتقدون أنه أراد بإنشاء المجلس النيابي في سنة ١٨٦٦ أن يعيد ديوان محمد علي . وقد فكر بعد ذلك في تحويله الى برلمان حقيقي حين فكرت انجلترا وفرنسا في إلغاء المقابلة » . « تاريخ الشيخ محمد عبده » . انظر أيضا Broadly : How we defended Arabi

(٣) وقد أقر اسماعيل بنفسه في سنة ١٨٧٨ أن ادارته ما زالت ادارة افريقية ووافق على اقتراحات ويلسون باصلاحها .

(٤) « تاريخ محمد عبده » . والاس يقول ان عرابي كان رجلا سليم النية وانه تنازل عن مشاريعه القومية عند أول اخفاق صادفه .

(٥) والاس .

(٦) عبد الرحمن الرافعي .

يعمل فيها من داخله أيضا ، بعد أن انتقلت السلطة العامة من الولاة إلى ممثلى أكبر دولة تستطيع أن تمثل هذا التيار وهى إنجلترا . وكانت هذه السلطة تنتقل حينئذ إلى الأيدى الجديدة فى أوسع ما بلغته من حدود ، وترتكز من طريقها على سطوة امبراطورية قوية ، أقوى امبراطورية عرفها العصر الحديث . ولكن هذه الامبراطورية كانت تواجه فى البلاد خصوصا ثلاثة : كانت تواجه معارضة الدول الكبرى التى هبطت الوادى باسم الذود عن مصالحها وعلى رأسها فرنسا ، وتواجه برم العرش الذى قدمت بحجة تربيته ، وتواجه سخط المحكومين الذين كانوا يقومون فى ذلك الحين بالذات بأول المحاولات الواعية للاشتراك فى حكم أنفسهم . وقد كان من شأن معارضة الدول تلك أن بقى مركز إنجلترا فى مصر دون سند قانونى صحيح^(١) وان اتجهت السياسة الفرنسية فى القاهرة إلى الأخذ بيد الحركة الاستقلالية المصرية . كما كان من شأن تناطح صاحب السلطة الشرعى ومزاوليها غير الشرعيين أن جعل كل من الطرفين يجهد جهده فى تثبيت جذوره فى ميدان صراعهما المشترك واثارة الغبار فى وجه الآخر ، والبحث عن الأعوان بين أهل البلاد . ومن ثم كان الدور الذى لعبه الخديو عباس فى حركة مصطفى كامل وكان التجاوب الذى حدث بين حزب الأمة ولورد كرومر . كذلك كان من شأن تزمزج المجتمع المصرى الجديد أن ظهرت هذه الحركة الوطنية المصرية التى بدأت بمصطفى كامل وما زالت تتأجج نارها حتى اليوم .

ونحن نشهد أثر هذا التحول فى الوجهة التى أخذتها حياة البلاد بعد الاحتلال فى جميع الميادين ولا سيما الميدان الاقتصادى . وقد سبق أن رأينا كيف تدهور الاقتصاد المصرى تحت العثمانيين حتى كانت الصناعة حين هبط الفرنسيون الأسكندرية خليطا من حرف بدائية لا غناء فيها ، وكانت التجارة فى غالبها تجارة اقليمية محدودة . ورأينا كيف اتجهت سياسة محمد على فى هذا الميدان إلى الاستغلال الحكومى والتركيز والدفع إلى الأشكال الجديدة ، وكيف اضطر فى الجزء الأخير من حكمه إلى الرجوع عن ذلك . ثم تولى سعيد واستجابت مصر من جديد إلى التيارات الغربية فظهرت المشروعات الاقتصادية الضخمة والاتجاه

(١) وهو أمر دهش له اللورد لويد جورج فيما بعد . انظر Egypt since Cromer .

الى انفاذها بمنح امتيازات الاستغلال للراغبين فيها ، وما انبنى على ذلك من اقبال رؤوس الأموال الأجنبية . ثم أنى اسماعيل فكانت سياسة انشاء الشركات التى تشارك الحكومة فيها رؤوس الأموال الأجنبية هذه . وكان أبناء البلاد يقفون فى هذه الحالات جميعا بعيدا عن هذا الميدان ، بعد أن فقدوا خبرتهم به أيام العثمانيين ، وهبطوا بما كانوا يزاولونه منه الى المستوى البدائى الذى كانت عليه حياتهم الاجتماعية فى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم قضى على كل احتمال لمقاومتهم باختفاء الهيئات التى كانت تجمع بينهم فى صدر القرن التاسع عشر^(١) ، وتحولهم الى اجراء للدولة الجديدة ، وبقي الميدان الاقتصادى مقصور على عمل الحكومة ونشاط ممثلى الاقتصاد الغربى .

ونحن نعرض بطلائع هذا النشاط فى مصر منذ الصدر الأول من القرن الثامن عشر فيما نعلمه عن اقبال عليه المجتمع المصرى على استيراد الفاخر من ثيابهم وأثاثهم وأسلحتهم من الخارج وارتفاع عدد المهاجرين بين تجار الأسكندرية والقاهرة ، وظهور الأجانب فى مصانع الأسلحة ببيوت الأمراء المالكين قبيل الحملة الفرنسية ، ثم اتصال سياسة على الكبير الاقتصادية بسياسة حكومة البندقية ، وفتح الانجليز طريق البحر الأحمر على أيام أبى الذهب ، واحتياج محمد على الى الفنيين الأجانب فى كل ما أخذ به من أسباب التعمير ، وشعور عباس وسعيد واسماعيل بنفس الحاجة^(٢) . وقد اشتد هذا النشاط بعد ذلك وتغلغل فى سائر فروع الاقتصاد المصرى حتى صار هذا الاقتصاد جزءا مكملالاقتصاد الغربى قبل أن يكون شيئا آخر . فلم تنشأ سكة حديد السويس كما رأينا الابغية تسهيل المواصلات البريطانية مع الهند ولم تشق قناة السويس بعدها الا لسد حاجات التجارة العالمية . وظهرت البيوتات المالية الكبيرة فيما بعد، فكان أكبر عمل لها هو تزويد الأسواق الأوروبية بالخامات المصرية . وكانت البلاد توجه حينئذ انتاجها تبع حاجات هذه الأسواق قبل كل شئ فتزرع القمح اذا أرادت هذه الأسواق قمحا ، وتزرع القطن اذا

(١) نقصد بهذه الهيئات الطوائف التى كان ينتظم فيها التجار والصناع والتى حلتها الحكومة فى الصدر الاول من القرن التاسع عشر ، أمين سامى : « تقويم النيل » . ونحن لانجد فى مصر بعد وفاة المحروقى تاجرا واحدا يشغل المركز الذى كان يشغله فى الحياة الاقتصادية .
(٢) ارتفع تعداد الأجانب فى مصر سنة ١٨٧٦ الى ١٠٠ ألف .
فريسينيه .

أرادت هذه الأسواق قطنا ، وتربح أو تخسر تبعا لنزوع أو سقوط أثمان محصولاتها هذه فيها^(١) . وقد زار سعيد انجلترا فطلب اليه رجال الأعمال من الانجليز أن يزيد في زراعة القطن وزارها اسماعيل من بعده فقابلته ممثلو الصناعة الانجليزية واحتجوا على عدم اهتمام حكومته بتيسير اصدار الخامات المصرية اليهم^(٢) . وكانت الأزمة التي انتهت بخلع اسماعيل أزمة مالية قبل أن تكون أزمة سياسية ، كما كان أول مظاهر السياسة الانجليزية والفرنسية ازاءها هو المطالبة بتعيين فرنسي وانجليزي بوزارتي المالية والأشغال ، وهما وزارتا الاستغلال المالي في ذلك الوقت^(٣) . وحدث كل هذا حدوثا هينا وب نفس الشكل الذي كان يحدث به في ذلك الوقت بالذات في تركيا وتونس وفارس والبلاد الشرقية الأخرى^(٤) ولا بد أن يحدث به كلما اتصل اقتصاد زراعي

(١) ولا تزال هذه الظاهرة واضحة الى الآن في محصول القطن .

(٢) محمد صبرى .

(٣) « مصر للمصريين » للنقاش .

(٤) وانتشار هذه الظاهرة في أكثر من ولاية عثمانية وفي تركيا نفسها في وقت واحد ثم تشابه أجزائها في هذه البلاد جميعا وانتهائها الى نفس النتائج الاجتماعية والسياسية يبين لنا كم يشط الذين كتبوا تاريخ مصر في ذلك العصر حين يرجعون بها الى اسراف الحكام واعوانهم او الى سياسة أوروبية محكمة طويلة الأجل لم يكن سياسة أوروبا أهلا لها يوما الا في حسن ظنهم (عبد الرحمن الرافعي ومحمد صبرى) .

ونحن نقرا في بحث للاستاذ أحمد أمين بالعدد ٣٢٧ من مجلة الثقافة (٣ أبريل سنة ١٩٤٥) في حياة خير الدين باشا التونسي وصفا للحالة المالية والاجتماعية في تونس في القرن التاسع عشر ، من الخير أن يقرأه كل من لا يؤمن بهذا الرأي . فهو يقول :

« وعماد أهلها (أهل تونس) الفلاحة ، وآلاتها وأساليبها هي بعينها ما كانت عليه في القرون الأولى قبل الاسلام وقبل الرومان ، وساهم بعض الاوروبيين في الزراعة ، فطعموا الأشجار وبخروها ولقحوها ، فدرت عليهم من الأرباح ما لم ينله سكان البلاد . ثم قبض هؤلاء الأجانب على الأسواق الخارجية ، وخاصة في أكبر غلة للبلاد ، وهي زيت الزيتون ، فمن ناحية أنشئوا المعاصر التي تدار بالبخار ، ومن ناحية وضعوا أيديهم على ما ينتجونه وما ينتجه الأهالي واحتكروا التجارة الى الخارج الا القليل النادر من أهل البلاد . وكان التونسيون يصنعون نوعا من النسيج اسمه « الشاشية » وكانت مصانعها كثيرة ، وكانت مصدر رزق لكثير منهم ولكنها كانت تصنع بالآلات القديمة ، فلما تقدمت الصناعة في أوروبا ، وكانت الآلات تدار بالبخار وتنتج انتاجا كثيرا حتى من الشاش هذا رخص سعره ، وأصبحت الصناعة في تونس بضربة قاضية حتى لم يبق من مصانعها التي تبلغ الألف غير ثلاثين ، وناهيك بما يجره ذلك من الفقر والحراب ، كما زاحمت « الجزمة » « البلغة » وقضت عليها ، واختل الميزان

متأخر باقتصاد صناعي حديث (١) .

التجاري فكثير الوارد وقل الصادر وتغلب الفرنسيون والايطاليون على السوق وأمسكوا بزمامه

• . . . وأما ادارة البلاد ففوضى أى فوضى ، فالحاكم حاكم بأمره ، وأحب الناس اليه من يجمع له من حله وحرامه ، ولا ضابط فى دخل ولا خرج ، والعدل والظلم متروكان للمصادفات ، فان تولى بعض الامور عادل عدل ، وكان العدل موقوتا بحياته - وقلما يكون - ونظام القضاء والجيش والادارة والضرائب وجباية المال وانفاقه على النمط العتيق البالى وكثير من الامور تنفذ بالاوامر الشفوية، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها . وكانت تونس اذ ذاك تحت حكم البايات ، والباى فى تونس لقب كالحديو فى مصر وكان الباي يتبع الدولة العثمانية تبعية ضعيفة ، فيساعدها فى حروبها ويحمل اليها مقدارا من المال وكثرا من الهدايا ، واذا حدث مشكل دولى فى تونس تدخلت الدولة العثمانية لفض النزاع ، وأرسلت مندوبا من قبلها ليشرف على الحل ونحو ذلك ، أما فيما عدا هذا فولاية تونس شبه مستقلة والباى حر التصرف .

ولكن فرنسا كانت قد استولت على جارتها « الجزائر » ووضعت نصب عينيهما أضعاف علاقة تونس بالدولة العثمانية شيئا فشيئا وتوثيق علاقاتها هى بها شيئا فشيئا وانتهاز الفرص للتغلب عليها نهائيا .

وكان باى تونس الذى ملك خير الدين هو الباي أحمد باشا الذى كان واليا من (١٢٤٣ - ١٢٧١) وقد أنعم عليه السلطان محمود بالخلعة السنية ورتبة المشيرية . ونحن نعلم أنه فى عهد السلطان محمود هذا الجأته الظروف القاسية ، وضغط أوروبا ومطالبها وضعف حال دولته الداخلية ، الى أن يجتهد فى تنظيم الدولة على أسس جديدة يقتبس فيها من نظم أوروبا وقوانينها وادارتها .

وكان مما فعل أن أرسل الى الباي أحمد هذا يطلب اليه أن يدخل الانظمة الحديثة فى تونس وخاصة فى الجيش فطلب الباي الامهال قليلا والتدرج فى التغيير بسبب عادات البلاد وتقاليدها وعقليتها ، ثم أخذ فعلا فى تنظيم الجيش

• وما زال مصطفى خزنة دار يستنزف موارد البلاد حتى نصب معينها فاتجه الى أوروبا يستدين منها وفى أقل من سبع سنوات بلغ الدين ١٥٠ مليون فرنك

ويصف المؤلف الأزمة المالية فى تونس وهى لا تعدو ما حدث فى مصر ثم يقول :

« ومن ناحية اخرى تدخلت الدول الأوروبية تريد المحافظة على ديونها واقترحت فرنسا تشكيل لجنة مالية ووافقتها انجلترا وايطاليا وصدر مرسوم من الباي سنة ١٢٨٦ هـ بتشكيلها من فرنسيين وانجليز وايطاليين ويرأسها موظف تونسي وجعلت مهمتها توحيد الدين وتحديد الفوائد وادارة المرافق التى خصصت لهذا الدين تماما كما حدث فى مصر .

(١) يونج : « مصر منذ عهد المماليك » . وهو يلاحظ ان الافلاس الذى انتشر فى الدول الشرقية حينئذ كان ظاهرة من ظواهر انتقالها الى النظم الغربية .

وقد اتسع هذا النشاط بعد الاحتلال الانجليزى فشمّل أدوار الاتّاج والتوزيع جميعا . وكثر المشتركون فيه فصاروا يعدون بمئات الآلاف بعد أن كان عددهم لا يزيد على بضع مئات ، أول حكم محمد على . وارتفعت رؤوس الأموال الأجنبية الموظفة في مصر فبلغت ٧٣٢٦٠٠٠ ر. جنيه في سنة ١٨٩٢ و ٦٢٨٠٠٠٠ ر. جنيه في سنة ١٩٠٢ و ١٧٦٠٠٠٠ ر. ٨٧٧ جنيه في سنة ١٩٠٧ و ١٥٢٠٠٠٠ ر. ١٠٠ جنيه في سنة ١٩١٢ ، فيما عدا الدين العام ورأسمال شركة القنال . وكانت ثلاثة أرباع هذه الأموال تشتغل بالاستغلال الزراعى والعمليات المتصلة به من توزيع وتصدير ، بينما كان الباقي يشتغل بالخدمات اللازمة للمجتمع القائم على هامشه من نقل وإضاءة الخ . . . ، وتبعث حركة تصدير ترتفع قيمتها في سنة ١٩١٢ الى ٣١٦٦٢٠٠٠ ر. جنيه ، بلغت نسبة القطن فيها ٩٣٪ ، وحركة استيراد ترتفع قيمتها في سنة ١٩١٣ الى ٢٧٨٦٥٠٠٠ ر. جنيه ، استنفدت غالبا المنسوجات والمنتجات المعدنية ، وتوجه بذلك اقتصاد البلاد نحو التوسع في الاستثمار الزراعى والاعتماد على الاستيراد فيما يتعلق بالمنتجات المصنوعة (١) .

وهذا النشاط الاقتصادى يتركز في يد العناصر الأجنبية التى تموله وتشرف عليه وتنهض بشئونه جميعا فيما عدا الأعمال البسيطة التى لا يمكن جلب من يقوم بها من الخارج جلبا اقتصاديا . وغالب هذه العناصر من أنشط من نشأ في الغرب من تجار وصناع وفنيين زاولوا مهنتهم في أشد من ظروف مصر ، أى هى العناصر التى كانت تنقص المجتمع المصرى بعد أربعة قرون من الحياة الزراعية المغلقة . وهذه العناصر تحتفظ بعد هبوطها البلاد بدينها ولغتها وعاداتها فتقوم بذلك بينها وبين المجتمع المصرى طبقة عازلة تفصل بينهما . ويزيد من صفاقة هذه الطبقة استثمار هؤلاء الأغراب مع قلة عددهم (٢) بالثروة المنقولة وقنوع أهل البلاد بالثروة الزراعية ، اذ يتأثر وضع كل من المجتمعين بطبيعة الاقتصاد الذى يزاوله ، فيكون المجتمع الأجنبى مجتمعا مدنيا رعى الحال خفيف الحركة رائق الاشكال ، ويكون المجتمع الوطنى مجتمعا زراعىا محدود الربح

(١) كروشلى . وكانت نسبة مساحة زراعة القطن من المساحة المزروعة جميعا حينئذ ٢٢٪ وتأتى مباشرة بعد المساحة المزروعة ذرة .
(٢) عدد الأجانب في مصر حسب تعداد سنة ١٩٣٧ : ١٨٦٥١٥ نسمة .

بطيء الحركة متواضعا ، ويبلغ هذا الاختلاف حد أن تتأثر به النظم العامة أيضا فتكون للأجانب قوانين ومحاكم وإدارة خاصة تكتسب من شدة الظاهرة التي لفظتها واستنادها الى النفوذ السياسى الأوروبى حيوية بارزة وتصير بذلك لسانا أوروبيا ممتدا في صميم المجتمع المصرى •

وقد كان المجتمع المصرى يتكون فى سنة ١٨٨٢ من ٢١٠٤٠٠٠ شخص لا يكادون يعرفون غير الزراعة ، فصار ٢٥٨٠٠٠ منهم يعملون فى سنة ١٩٠٧ فى الزراعة و ٣٥٦٤٢٥ يعملون فى المرافق العامة و ١٣٥٦٤٥ يعملون فى التجارة و ١٠١٠٢٦ يعملون فى النقل • وكان غالبه يعمل أجيرا لدى الدولة أول حكم اسماعيل ، فتكونت له طبقة من أثرياء الملاك لا يقل عددها فى سنة ١٩١٣ عن ٤٠ ألف شخص ، وظهرت على سطحه طبقة من مزاوى الأعمال الحرة بلغت عدتها فى سنة ١٩١٣ ١٣٥٧٣٣ شخص (١) • وكان ينتشر فى الريف ولا تكاد تقوم له فيما عدا القاهرة والاسكندرية مدن حقيقية ، فأخذ يتجمع عند عقد المواصلات ومراكز التصدير والاستيراد فى القاهرة والاسكندرية والمدن الأخرى ، وينشئ بها حياة حضرية تحمل ميسم طبيعته الزراعية هذه وأثر التيار الجديد الذى يعمل فيه • ففى هذه المدن يلتقى أبناء البلاد من ريفيين وحضر قريبي العهد بالريف من مستخدمي المنشآت التجارية الجديدة وموظفى الادارة الحكومية ومزاوى الأعمال الحرة بأولئك الأجانب الذين قدموا البلاد ليعملوا فيها ، وكانوا يعيشون الى جانبهم ويعملون معهم فى ميدان الاتاج • وهم ينكرون هؤلاء الأجانب وينظرون اليهم شذرا ويحذرونهم (٢) اذ هم يشعرون بضالة الدور الذى يقومون به فى ميدان

(١) كروشلى •

(٢) « ان الذى يسمع احاديث الاجانب وراء ظهورنا يعجب من هؤلاء الذين عاشوا بيننا عشرات السنين ولم يفهمونا ، بل لم يحاولوا أن يفهمونا فالاجانب فى مصر خائفون من نيات المصريين ، يتصور بعضهم ان استقلال مصر التام خطر عليهم وأنه لولا جيش الاحتلال لما بقى عندنا اجنبى على قيد الحياة وأنه اذا خرج الانجليز من مصر فسيقوم المصريون قومة رجل واحد ويذبحون الاجانب اجمعين !!!

هذه الصورة البشعة التى يهمس بها بعضهم فى آذان بعض وفى آذان كبار الاجانب الذين يزورون مصر او زاروها أثناء الحرب • • • • • « والذى يجب أن يفهمه الاجانب هو أن المصريين لا يكرهونهم بل أنهم يؤمنون بما آداه بعضهم لمصر من خدمات جليلة ، ويعترفون

هذا التعاون المشترك وينفسون على هؤلاء الأغراب حياتهم هذه الأنيقة ويرون في نشاطهم الصناعي - التجارى وأرباحه السريعة ابتزازا لكدهم ومالهم ليس بعده ابتزازا . وقد يزيد من ألم شعورهم هذا اشتراك باعثيه في المسيحية تلك التى كانت لا تزال فى نظر السواد الأعظم منهم عنصر التفريق بين المجتمعات ثم مشاركتهم فى المصالح والتفكير أولئك الغاصبين من الانجليز الذين كانوا يزاولون السلطة العامة حينئذ . كذلك يشعر الأجانب بعلو شأن الدور الذى يشغلونه ويصعب أن يشغلوا مثله فى بلاد استكملت نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ويجتهدون فى الذود عن المراكز التى نالوها بذلك الاستهتار الذى يثيره الشعور بضعف المنافسين والقيام فى بلاد غريبة لا رقيب فيها من السلطة العامة أو البيئة الاجتماعية وشيء من العداء الدينى والعنصرى لا شك فيه أيضا . ولكنهم يتفاعلون بحكم قيامهم جنباً الى جنب وخضوعهم جميعاً لأثر البيئة الطبيعية المشتركة ، فيتأقلم الأجانب خصوصاً المستوطنين منهم حتى يكادوا يضيّقون بالاقامة فى بلادهم اذا عادوا اليها ويسرون على كل حال الى اتخاذ عادات المجتمع الوطنى والتحدث بلغته والاندماج فيه . ويتجه المصريون الى الأخذ بأساليب الحياة الغربية عن رغبة فيما لهذه الحياة من رونق يروقههم ، ويبعدون فى ذلك قبل أن يكمل تحول حياتهم الى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى تبعث هذه الأساليب ، فيسقطون فى التفرنج وهذا الاختلاف العنيف بين الحياة فى المنازل والحياة خارجها ، ثم ما يلاحظ الآن على الجيل الجديد من تكالب على الربح العاجل لمواجهة

بفضل كثير منهم على الصناعة والتجارة فى مصر ، ونحن نرى أن هؤلاء من حقهم ومن واجبننا نحوهم أن نفسح لهم الطريق وأن نعاملهم كأنهم منا »

« ونقطة الخلاف الوحيدة هى أننا نرغب فى أن يكون الأجانب كالمصريين سواء بسواء ، لهم حقوقنا وعليهم واجباتنا ، ولكننا لانقبل أن تكون الحقوق لهم والواجبات علينا !! ولا نرضى أن يجعل الأجنبى ملاذة السفارة البريطانية لا الحكومة المصرية ونرفض أن يعد هؤلاء الكتابة باللغة العربية تعصبا وهمجية ورجوعا الى القرون الوسطى . . ونأبى أن يرى المالىطى نفسه من جنس أعلى من الجنس المصرى ، ونعجب عند ما نسمع أن المصرى المتعلم الذى قضى سبعة عشر عاما فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية وحصل على أرقى الشهادات لا يساوى مرتبه فى شركة أجنبية مرتب أجنبى قضى عامين فى مدرسة ابتدائية ولا يعرف سوى أن يرطن بلغة أجنبية . . » لسنا متعصبين : أخبار اليوم ٤٥/٧/٧ .

مقتضيات الحياة العصرية ومخلفات الحياة القديمة وبخاصة قلة الدخل الزراعى وكثرة نسل العائلة الزراعية وثقل التزاماتها (١) .

وهذا التفاعل بين المجتمع المصرى والمجتمع الغربى سريع بين غير المسلمين من أبناء البلاد والشرقيين النازلين عليهم ، بطيء بين المسلمين ، وهو بين الفريقين أنشط فى محيط المتعلمين والمستغلين بالحياة الصناعية والتجارية منه بين من عداهم . والأمر فى الحالة الأولى أمر التجاوب الدينى ، فالمصرى والشرقى المسيحى عموما لذلك العهد أقرب الى الأجنبى المسيحى منه الى المصرى أو الشرقى المسلم ، وفى الحالة الثانية أمر الاستجابة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تصحب الحياة الصناعية الحديثة حيثما وجدت . وهو فى الحالتين مصدر هذه الحياة المهلهلة التى نجدها لعهدنا هذا خصوصا فى المدن الكبرى ، حيث تقوم هذه الدور العصرية ، التى لا تختلف فى شىء عن دور مدن الغرب ، الى جانب البيوت المتواضعة التى تمثل مجتمعا آخر قبل أن تمثل عدم مساواة اجتماعية حقيقية ، وتلتقى أحدث الأزياء العصرية بأزياء الشرق القديم وتختلط العربية باللغات الأجنبية فى كل مكان .

ولم تكن السياسة المسيرة لهذا المجتمع تبنى الى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ما من شأنه الخروج به من هذه الأوضاع السقيمة الى حياة كاملة يحياها لنفسه فاتجاهها العام طوال القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين اتجاه زراعى يرمى الى تنمية المحصولات الزراعية التى يمولها الغرب كما يشاء ويشتريها بالأسعار التى يريد (٢) ثم يبيع أصحابها ما يحتاجون اليه منها بعد أن يحولها الى منتجات مصنوعة . وهى تقصد بصفة عامة الى تثبيت أهل البلاد فى وضعهم وقتئذ من المجتمع الغربى بتضييق آفاقهم وابعادهم عن مقومات الحياة الحديثة وتشويه ماضيهم التشويه الذى يلقى فى روعهم أنهم لم يكونوا قط غير ما كانوا أو خيرا مما كانوا . وهكذا كان القطن المصرى يزرع

(١) والذين تصدوا لتشريعنا الاجتماعى أصملوا حتى الآن هذه الظاهرة أى ظاهرة قيام العامل أو الموظف عادة بالصرف على أسر عديدة يكاد يكون الوحيد الذى يعمل فيها ، ومن ثم كان اتجاههم لرفع الأجر بدل الاكثار من العمل .

(٢) أنظر : A.A.I. El Critly و T. Rothstein : Egypt's ruin ، Structure of Modern Industry in Egypt فى عددى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٧ من « مصر المعاصرة »

ويصدر الى حد كبير بأموال انجليزية ، وكانت معاهدنا الحديثة تقوم الواحد بعد الآخر بالرغم من معارضة الحكام ، وكان تاريخنا القديم والقريب وما زال يدرس في مدارسنا تدرسا بادي التشويه واضح الأغراض .

وليس يعنينا هنا أن نستوضح هل كانت هذه السياسة تصدر عن ارادة مبيتة لابقاء مصر في الوضع الذي كانت تشغله من النظام الاقتصادي - السياسي الانجليزي أو تنبعث عن خطأ في تقدير الحكام أو ترجع للظروف المالية التي كانت عليها مصر في القرن التاسع عشر ، ولا الى شيء عداها ، فاننا كما بينا نردها في الأصل الى الفروق التي وجدها الشرق والغرب بينهما حين عادا الى الالتقاء في القرن الثامن عشر . المهم عندنا هو أن دخول إنجلترا مصر أعقبه اتساع في التيار الغربي الذي كان ينفخ في أطرافها منذ القرن الثامن عشر ، وأن انتقال السلطة الى يد الانجليز صحبه الاتجاه بالنمو الذي كانت تمضي فيه ، سواء بقواها الخاصة أو بدافع هذا التيار ، الى خدمة المجتمع الغربي الى حد بعيد ، وأن العامل الأكبر الذي كان يتسلح به التيار الغربي ، سواء حين اتخذ شكل النفوذ السياسي أو شكل التأثير الاجتماعي ، كان العامل الاقتصادي الذي كان ينقص المجتمع المصري حينئذ بحكم الظروف التي أحاطت به تحت المماليك .

وقد ظل المجتمع المصري محتفظا بطابعه الزراعي ذلك حتى قبيل الحرب العالمية الثانية اذ ظهرت صناعة الغزل والنسيج والصناعات الأخرى التي شهدنا ازدهارها أثناء هذه الحرب ونشهد كفاحها الآن . وهي صناعات تختلف عن ما عهدته مصر في القرن التاسع عشر من حيث قيامها كثمرة من ثمرات التفكير الاقتصادي الفردي فلم تكن ضرورة من ضرورات الحرب أو المالية العامة كصناعات محمد علي أو صورة من صور النشاط الحكومي كغالب صناعات اسماعيل . واحتوت على جناح مصري بحت هو جناح بنك مصر وشركاته . ولكنها تشاركها في قيام غالبها برؤوس أموال أجنبية وتركز ادارتها وقواعدها الفنية الى حد كبير في يد ممثلي رؤوس هذه الأموال .

وهذا التوسع الصناعى يتضافر وانتشار التعليم ، ثم استعادة البلاد سلطتها التشريعية فى سنة ١٩٣٦ ، وما انبنى عليه من خضوع الجاليات الأجنبية التى تشغل بهذا النشاط لنفس القوانين التى تنظم حياة بقية المجتمع ، الى دفع ظاهرة التفاعل بين الحياة المصرية والحياة الغربية ، التى أشرنا لها ، الى الانتشار وانشاء طبقة صناعية جديدة تتكون — فى الأسفل من عمال وموظفين يبلغون فى سنة ١٩٣٧ ، ٣٧٠٣٧٩ عاملا وموظفا ، ويرتفعون فيما بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٥ الى نحو مليون — وفى الأعلى من طاقة من الفنين وأصحاب المصانع والشركاء فى الشركات المختلفة . وهذه الطبقة الجديدة لا تزال تتذبذب بين التكوين الزراعى الذى نشأت عليه والتكوين الصناعى الذى تتجه اليه ، فغالب عمال الصناعة يأتون من الريف ويترددون عليه ويتزوجون منه وقد يعودون اليه أيضا ، وغالب رجال الأعمال ينحدرون من أصل زراعى ويجمعون بين الأعمال الصناعية والزراعية فى وقت واحد ويهتمون بهذه أكثر مما يهتمون بتلك عادة . ومن هنا صدى العقلية الزراعية لدى العمال وأصحاب الأعمال على السواء ، وميوعة العقلية الصناعية لديهم ، وقلة من يدعون « بالمقاولين »^(١) ، نقصد أصحاب المشاريع الصناعية والتجارية الحقيقيين بينهم ، وقنوعهم فى الغالب بتوظيف بعض أموالهم فى الصناعة أو التجارة . وهذا التكون القلق لعقليتنا الصناعية يتضافر وقلة عدد الذين يحملونها فى الحد من تأثيرها فى الحياة العامة . ونحن نشعر الآن فى المدن بوجود عمال الصناعة ونكاد نشعر به فى الريف أيضا لما يحدث من اتجاه الشباب الريفى الى المراكز الصناعية ونشهد ظهور طبقة من موظفى المؤسسات الصناعية والتجارية فى دور التكوين . كما نجد فى مجالس المنشآت أسماء مصرية غير قليلة ولكننا لا نجد أثرا لكل ذلك فى تكون الطبقة الحاكمة أو اتجاهاتها ، فالغالبية الساحقة من أعضاء هيئتنا التشريعية زراعيون ، ومن النادر أن نجد وزيرا غير زراعى أو حقوقى أو موظف سابق ، قد يكون له نصيب كبير أو صغير فى منشأة صناعية ولكنه مازال زراعيا تكوينا ومصلحة واتجاها .

(١) entrepreneurs.

وهنا نضع يدنا على خصلة هامة من خصال مجتمعا الحديث ، فهو كما رأينا مجتمع زراعى يتجه الى الاقتصاد الصناعى . ولكن هذا الاقتصاد الصناعى الذى ينتهى الى مشاركة التجارة الخارجية فى التحكم فى حياة البلاد الاقتصادية جميعا ، اذ هو الذى يشتري محاصيل الأرض ويحولها ويلقيها الى الاستهلاك ، وهو الذى يعول بالضرائب التى يؤديها مرافق حياتها الجديدة ، وهو الذى يعطى عمالاً من يزيد عن حاجات العمل الزراعى ، هذا الاقتصاد مازال يتركز فى أيدٍ أجنبية تقوم بينها وبين المجتمع الوطنى حدود من الفوارق الجنسية والدينية والفكرية . وهو بحكم وضعه هذا يؤثر فى المجتمع الوطنى من حيث المشاركة فى تنمية ثروته واعداد عناصره الصناعية وتجديد حياته ولكنه لا يؤثر مباشرة فى الحكم ولا يشترك بالتالى فى وضع التشريع الخاص به لأنه لا يتمتع بالحقوق السياسية ولا يعقل أن يتمتع بها فى دولة حديثة تقوم على التفريق القومى .

* * *

وقد عاد الحكم الى أبناء البلاد بمعاهدة سنة ١٩٣٦ المصرية الانجليزية بعد الكفاح السياسى الذى بدأ بمصطفى كامل .

ومصطفى كامل^(١) من بيئة على مبارك^(٢) ، نقصد من ثمرات العهد الجديد ، فهو ابن مهندس تربى فى المدارس الأميرية وخدم فى الجيش واختلف هو أيضا الى المدارس الأميرية فلم يتصل بالأزهر صغيرا أو كبيرا ثم التحق بالمعاهد الفرنسية فى القاهرة ثم فى فرنسا . وقد رأينا كيف كان الجيش المنبت الأول للفكرة المصرية^(٣) ونحن نعلم أن الخديو عباس ما كاد يرتقى العرش حتى أنشأ يهيج طلبة المدارس الأميرية على الانجليز وقرّب اليه مصطفى كامل ولم يقطع صلته به حتى غادر

(١) على كامل : « مصطفى كامل » .

(٢) كان طلبة المدارس حينئذ يترددون على على مبارك . المرجع

السابق .

(٣) كان والده يتحدث اليه فى شئون مصر وتاريخها وإبطالها .

المرجع السابق .

كرومر مصر^(١) . كذلك نعلم أن مصطفى كامل كان وثيق الصلة بممثلي فرنسا في الوقت الذي كانوا يعلمون فيه في مصر على معاكسة السياسة الانجليزية^(٢) .

ونحن نرى أثر تربية مصطفى كامل بالمدارس الأميرية والمعاهد الفرنسية في تفكيره والوجهة التي اتخذتها حركته . فهو بلا منازع أول مصري اكتمل لديه الوعي المصري وأدى هذا الوعي تأدية من يشعر بمعناه شعورا لا تردد فيه ، وإن ظل يتمسك بفكرة الوحدة العثمانية التي كانت تعتمد عليها سياسة الخديو عباس حينئذ ويجهد في الملاءمة بينه وبين هذه الفكرة في كتاباته وأحاديثه مع من يتصل بهم

(١) « الاسلام والتجديد في مصر » .

« ... لقد كنا سبعة : الخديو ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ولبيب محرم (أخو عثمان باشا محرم) وسعيد شينى ومحمد عثمان (أبو أمين عثمان باشا) وأنا - فكونا تحت رعاية الخديو عباس جمعية سرية فى بادىء الأمر - وكانت هذه الجمعية هى الحزب الوطنى . كانت الكلمة فى تحرير مصر يومئذ فى يد أوروبا على العموم ، وفرنسا على الخصوص ، ومن أجل هذا قرر الحزب أن يوفدنى الى سويسرا لمحاولة الحصول على الجنسية السويسرية (التى كانت تكتسب بقضاء سنة فى سويسرا) . وكان الغرض من الحصول على الجنسية السويسرية أن أعود الى مصر وأقوم بتحرير صحيفة تحمى الامتيازات الأجنبية » . لطفى السيد : « حديث لطفى السيد باشا » . « اللواء الجديد » العدد ٥ فى ١٠/١٢/١٩٤٤ .

« ... حدثنا سموه يوما بمونترو - وقد استمع الى الحديث معى اثنان من رؤساء الوزارات فى البلاد العربية لا يزال أحدهما على قيد الحياة وهو الآن بالقاهرة - عن ذكرياته الأولى فقال :

« تملكتنى وأنا عائد من النمسا على أثر وفاة والدى فكرة واحدة هى فكرة انقاذ الوطن من غاصبيه . وكنت أردد فى نفسى أن والدى اذا كان يحسب أنه مدين للانجليز بمناصرتة على « العربيين » فانى لا أدين لهم بشئ على الاطلاق ، اذ اتولى الحكم بحق الوراثة وبفرمان من الباب العالى ولا علاقة لهم البتة بالاثنين ، انما أنا أحب بلادى وأريد لها الحرية والسيادة . ولما وصلت الى مصر اتجهت الى الجيش اعتمد على ضباطه وأشير الى شدة اتصالى بهم واتخاذى اللباس العسكرية لباسى العادى ، ولما أفلت الضباط من يدى اذ دخلوا الماسونية الايقوسية التى كان يرأسها السردار تحولت الى الشباب فلبست اللباس المدنى وقربت منى مصطفى كامل ولجنته السرية التى كنت أجمع بها ليلا فى مسجد بناحية سراى القبة » . محمود عزمى : « عباس حلمى الثانى » . جريدة المصرى ٢٣/١٢/١٩٤٤ .

(٢) « الاسلام والتجديد في مصر » .

من ساسة غربيين (١) . وهو يعتمد على فرنسا في محاولة استخلاص مصر من الانجليز يأخذ من الفرنسيين أسلوبهم في نقد هؤلاء ولا يكف عن ذلك حتى يرى بعينه تحلى الفرنسيين عن القضية المصرية . وهو الى ذلك أول مفكر مصرى تقرأه فنكاد لا نجد له الا ثقافة غربية (٢) ، يختلف حظها من العمق والاتساع ولكنها غربية في جوهرها وطابعها . فهو يطرق الأبحاث القانونية فيكتب في « الادارة » و « الرق عند الرومان » . ويريد أن يفيد بمجلته المدرسية فيغمرها بالبيانات عن أوروبا والطرائف المقتطفة من المراجع الأوروبية . وهو يخطب وينشئ فلا ينسى أن يقول أن أوروبا فيها هذا وفيها ذلك . وهو يكتب الى أخيه برغبته في دخول مدرسة الحقوق الفرنسية فيقول له انها مدرسة « الحرية » ومن « صنع فرنسا » ، ثم يكثر من الكتابة في معنى الوطنية وينشر الأناشيد التي تمجدها ويذكر حق المحكومين في اسقاط الحاكمين ويريد أن يكون حكم البلاد الى الأذكىاء المتعلمين من أبناءها . وهذه جميعا أفكار جديدة لاشك انها أو أن لهجتها على الأقل ليست من نتاج التربية الشرقية الخالصة في ذلك الحين .

وتربية مصطفى كامل هذه الجديدة تنتهى به الى تصور أوروبا وعلاقتها بالشرق والوسائل القمينة بسد الفراغ القائم بينهما تصورا أقرب الى الاتجاه مفكرى القرن العشرين منه الى الاتجاه المفكرين الذين سبقوه . وهو يتحدث يوما الى على مبارك في ذلك فيقول له أن تقدم أوروبا يرجع عنده الى العقائد السياسية التي تؤمن بها طبقها الحاكمة وانصراف هذه الطبقة الى خدمة الشعب واثابتها الصالحين من أبناءها . ويكتب في وصف له للقسم الشرقى من معرض ليون الفرنسى فيقول : « أن للشرقى الذى يزوره أن يبكى بلاده وأوطانه ويندب بعد ذلك قومه وعشيرته ويأسف على بلاد ضاعت من أبناءها بالحق والحسد وذهبت غنيمة الغرب

(١) اقرأ حديثه مع الأميرلاى بادنج فى « مصطفى كامل » لعلى كامل .

(٢) وقد انصرف بعد أن خاب أمله فى فرنسا الى دراسة تاريخ مصر

والاسلام ولكن الوفاة أعجلته عن الإبعاد فيها .

بسبب حب الذات المستحكم بين أهلها ودس الأجنبي» (١) . ثم يبدى الشك في حكمه الاتجاه الغربى الذى أراده جيله لمصر ، فيقول فى وصفه ذلك أنه كلم حراس هذا القسم الجزائريين بالعربية « فسألونى عن تقليدنا للأفرنج فى الملابس ، فأجبتهم جوابا فى الحقيقة غير مقنع » . ونحن نلمس هنا أثر هذا التشقق بالثقافة الأجنبية دون أساس شرقى تستند اليه فى تفخيم الحياة الغربية لدى أصحابه ونرى الجزع الذى مازال الاطلاع على حضارة الغرب يبعثه فى نفس أجيالنا الجديدة وما يصحبه من سعى لتعليل هذه الحضارة بالفضائل الأخلاقية التى تنسب للغربيين حيناً وحكمه حكاهم حيناً آخر ثم ما يحيط بذلك من حيرة من شأن الطريق التى أخذتها مصر هل هى الطريق الصواب وماحكمة سلوكها على كل حال دون أية طريق أخرى .

وكما قام الحزب الوطنى مستندا أول أمره الى العرش نشأ حزب الأمة على صلة بوجود الانجليز (٢) . وقد ورث حزب الأمة من الحركة الوطنية التى سبقت الاحتلال مجافاتها الخديو ونزعتهما الاصلاحية (٣) . وكان يتكوّن فعلا من أبناء الملاك الزراعيين الذين اشتركوا فى الحركة العرايية وبعض المفكرين المجددين ويتجه الى معالجة مشاكل البلاد الاجتماعية بحكم صلة رجاله بمصالح البلاد المادية وهى مصالح كان تنظيمها لا يتعارض وقتئذ وسياسة الانجليز (٤) بينما كان نشاط الحزب الوطنى يتجه فى الغالب الى الدعاية الوطنية واستئالة رأى العام الدولى بحكم صلته بسياسة الخديو وفرنسا وقرب عهد البلاد بالاحتلال (٥) .

(١) وقد كتب فى هذا الدس رواية الاندلس عند ما اتجه الى درس التاريخ الاسلامى .

(٢) عباس العقاد : « قصة الأحزاب » ، أخبار اليوم ١٦/١١/١٩٤٦ .

(٣) وقد وضع حزب الأمة عند تشكيله برنامجا سياسيا على غرار برامج الأحزاب فى الخارج .

(٤) ومن ثم كان التجاوب الذى نشأ بين كرومر ومحمد عبده .

(٥) وكان هذا الاتجاه يبعد مصطفى كامل عن الوطنيين الآخرين كمحمد عبده وسعد زغلول . انظر رأى محمد عبده وسعد زغلول فى مصطفى كامل فى « الاسلام والتجديد فى مصر » .

وقد حرم انقلاب السياسة الانجليزية ، بعد عزل كرومر ، من مناوأة السلطة الشرعية الى مصافاتها — حرم الحزب الوطنى وحزب الأمة من الدعاية الخارجية التى كانا يعتمدان عليها وتركهما لقواهما الخاصة ، فمال الحزب الوطنى الى انتقال الخديو واتجه حزب الأمة الى مهاجمة السلطة المحتلة واشترك الاثنان فى المطالبة بالحياة النيابية حتى خفت صوت الحزب الوطنى بعد وفاة الرجلين اللذين قام على آكتافهما وتحول حزب الأمة الى حزب الوفد ، عقب الحرب العالمية الأولى ، وسلم قيادة لسعد زغلول .

وسعد زغلول ينفرد دون عامة كبار ساسة مصر فى القرن العشرين بنشأته المصرية الفارقة ومروره بجميع أطوار الحياة المصرية بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين . فهو قد نشأ فى البيئة الريفية الوطنية واختلف الى الأزهر أيام الأفغانى ومحمد عبده واشترك فى الحركة العرابية ثم درس الحقوق الفرنسية وصاهر مصطفى فهمى صديق الانجليز ، أى جمع الى التريبة المصرية والثقافة الأزهرية المجددة شيئاً من الثقافة الغربية ووفد من التيار الدستورى العرابى على بيئة المتصلين بالانجليز ^(١) . ومن ثم كان اختلاف معنى الوطنية عنده عنه عند مصطفى كامل وعند معاصريه فهمى لم تكن لديه الحس المرهف والجرح الدامى والتفرز المتصل الذى كوّنته لدى مصطفى كامل بنيته العلية وقرب عهده بالعدوان الانجليزى واتصاله المباشر بالغرب . ولم يكن الشعور بما بين مصر والغرب من فروق تؤدى التريبة الغربية ، وما يصحبها فى العادة من ابتعاد عن القوى الشعبية ، الى التهويل من قدرها والرغبة فى تخطيها كما كانت لدى ثروت وعدلى ومحمد محمود . وانما كانت عزة نفس قوية وثقرة حق مهضوم وأباء ريفيا عريضا ، كانت مجموعة صفات أخلاقية ، ان صح تعبيرنا هذا ، صقلتها الجبلية الريفية والتريبة الاسلامية والثقة

(١) «ثم ان سعدا دخل فى أطوار التفرنج فى معيشتة وأفكاره الاجتماعية والقانونية وغلبت نزعتة الوطنية عنده فكرة الجامعة الاسلامية وظل يقول بأن المسلمين لا يرتقون ارتقاء صحيحا الا بالاصلاح الدينى الذى كان يدعو اليه الحكيمان أستاذاه وأستاذ أستاذاه » . الشيخ رشيد رضا: المنار الجزء ٣٨ .

بالنفس ، وهى ثقة عززتها بعد ذلك الانتصارات الشعبية الساحقة ، فهو بلاشك أقوى من استطاع هز ضمير المصريين والشرقيين على وجه العموم فى الصدر الأول من القرن العشرين . ومن ثم كان أيضا قبوله الحكم والتعامل مع الانجليز المسيطرين عليه ومحاولته حل القضية المصرية بما رآه من بعد أن تأصلت جذور الاحتلال وألف المصريون مظاهرة ويسوا من معاونة تركيا وفرنسا لهم فى مناهضته مناهضة جديدة .

وبعد زغلول أصبحت الحركة الوطنية حركة مستقلة تستمد قواها من ذات نفسها ، وتقتعد مكان الصدارة من الحياة السياسية المصرية . وقد انصرفت هذه الحركة أول الأمر الى منازلة المحتلين وبخاصة فى المؤتمرات الدولية ! ثم أعلن تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ و صدر الدستور ، فجمعت الى ذلك السعى الى الحكم كحق من حقوقها الأصلية والوسيلة المباشرة لمعالجة علاقاتها الخارجية والعناية بمصالح البلاد عناية مصرية صميمية . وأبرمت المعاهدة المصرية الانجليزية فى سنة ١٩٣٦ فمالت الى محاولة تعهد هذه المصالح . وكانت هذه الحركة تنمو أثناء ذلك وتتشعب فى جداول صغيرة تتخذ مكانا خاصا من المجرى العام وتقوم أحزابا يفرق بعضها عن البعض ولكنها تشترك جميعا فى نسيجها وتفكيرها ووسائلها : فهى على كل حال لفيف من الملاك الزراعيين وخريجي المدارس الجديدة ولاسيما المحامين والأدباء وطلبة العلم . وهى على كل حال تعد القضية المصرية مسألة اقناع يحاوله أصحاب حق يريدون استعادته كما يحملوا غاصبي هذا الحق على رده فى سبيل المحافظة على مصالحهم الخاصة . وهى على كل حال تتخذ شكل الدعاية الصحفية والمساعى الشخصية ، وتلجأ الى هذه وتلك فى الحكم وخارج الحكم على السواء . ووضع المسألة هذا الوضع يهبط بها من مستوى النضال بين أمة تريد أن تستقل ودولة تريد أن تستعمر الى مستوى التحليل على الفوز بالحكم بين بضعة أفراد يطمحون اليه وممثلى الدولة المحتلة التى تتصرف فى أمره . وهؤلاء الطامحون لا يجدون وراءهم عادة سوى صلاتهم الخاصة (١)

(١) « اجتمع منذ أيام فى مكتب الأستاذ عبد الحميد عبد الحق فريق كبير من المشتغلين بالسياسة والشيوخ والنواب وأساتذة الجامعة والصحفيين للتباحث فى أهم مسائلنا القومية ورسم الطريق لتنفيذها بصرف النظر عن النعرات الحزبية ، ونحن نقتطف هنا فيما يلى بعض أقوال خطباء هذا الاجتماع : عبد القوى أحمد باشا : « اننا لا نجدد فى سياستنا ، بل نتبع وسائل قديمة لا ابتكار فيها ؛ فنحن نعتمد على المظاهرات والتهافتات ، ومنذ

وما قد يعملون على اثارته من تيارات شعبية لا يطول أجلها لعدم صدورها عن مصالح واعية ، ومن ثم انتهاؤهم في الغالب للاستناد الى احدى السلطتين القائمتين ، أى سلطة العرش أو سلطة المحتلين ، وتحول الأزمات المصرية عادة الى مناوشات بين هاتين السلطتين ، وقنوع المجالس التمثيلية الوطنية في هذه المناوشات بدور ثانوى .

سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٦ كان بيد الزعماء مزايدات وطنية ، فاذا طالب أحدهم بالاستقلال طالب الآخر بالاستقلال التام وبعد هذا التاريخ أصبحت هناك مناقصات وطنية لتقديم البضاعة بأسهل ما يمكن بغية اقتناص الحكم ، بشرط أن يرضى رجل الشارع الذى يحمل جلاده على كتفيه ! وأصبح الكثير من الزعماء أثرياء من سوق السياسة ، وأصبحت الأحزاب شركات مؤسسة ومساهمة . وقال : « النفوس مسممة ، واعتقد أننى لو حملت القرآن بيمينى والانجيل بيسارى وذهبت الى النحاس ومكرم لتصفية ما بينهما فلن يسمع لى أحدهما . . . فكيف نصفى جو الاتهام ! ويجب تعديل الدستور وتعديل قانون الانتخاب للقضاء على الخلافات الحزبية والتحكم الحزبى » .

عبد الملك حمزه بك : « هذه الخصومة القتالة بين الأحزاب نريد فضها لو عقد مهادنة بين بعضها وبعضها الآخر ، حتى نستطيع أن نرسم سياسة قومية خارجية يقبلها الجميع لتتخلص من هذا الجمود القديم ، فنحن نتدهور من سنة ١٩٢٠ الى الآن ، حتى لقد أصبحنا على حافة الهاوية . »

يجب أن نعجل باصطفاء جماعة تتعاون لله والوطن على وضع برنامج قومى تلتزم به جميع الحكومات ، ليستطيع الشعب العمل بدلا من تعطيله الآن عن كل انتاج مثمر ، ولنتمكن من استغلال الموارد المدهشة الموجودة فى البلد . »

فكرى أباطه بك : « ان الذى أعلمه أن هذه الوزارة تقف للانجليز ، فمن واجب الجميع أن يقولوا ان ما ترفضه الوزارة الحاضرة يرفضه كل مصرى . من يريد خلق فكرة يجب أن يلاحظ السباق من الزمن ، والأبحاث تحتاج الى وقت ، والعالم الآن فى دور تصفية ، فنريد فكرة معقولة مقبولة نضمن الا تقاوم تحت ضغط العنف والتعسف والحزبية . »

الصحف هى التى تستطيع توجيه الراى العام ، وهى بين حزبية تنطق بلسان الأحزاب بالحق أو بالباطل ، أو مستقلة لا تتدخل بين الأحزاب ، وما نريده أولا هو تصفية الموقف بين الأحزاب لنضمن اتجاه الصحافة الى القومية والى معالجة المسائل الخطيرة بعيدا عن التيار الحزبى ، ونريد لجانا تضم شخصيات قوية من مختلف الأحزاب ، لتواجه الأحزاب ، ولتنفث مبادئنا فى الأحزاب ، ونريد لجنة يمثل فيها كل حزب بعضو معتدل يعمل معنا للاتصال بالزعماء ، لنعقد هدنة فى المعركة الصحفية الحزبية الملوثة . وهذه اللجنة « السمباتيكي » للأحزاب جميعا تذهب للنحاس وللنقراشى ولمكرم وتقول لهم : اختلفوا فى المسائل الداخلية . . . واتفقوا فى المسائل الوطنية . . .

آه لو تعلمون حقيقة مركز مصر فى الخارج ، ستألمون عندما ترونه عظيما ممتازا . . . بينما تجدون هنا « الحيطه مايله » . »

واتجاه حركتنا القومية هذا الاتجاه يقضى عن مجالها القوى الشعبية التى لا قوى لديها دونها ، فما دامت الجماهير شاعرة بأن الأمر لا يعدو أن يكون أمر وصول بعض الرجال الى الحكم ، ولا تجد لدى من يحكم منهم ما يتصل بحياتها اليومية ، ولا ترى نهاية مقارعتهم المحتلين أو مواقعها الهامة ، فهى منتهية الى عدم الاهتمام بها ، اللهم الا فى الأزمات المستحكمة التى ينقلب أثناءها الأمر فيصير أمر كرامة تمنع . ومن هنا قصور حركتنا القومية على طلبة العلم قبل كل شيء وما يعتور حياتنا البرلمانية من نقص نريد خطة اجتماعية تتفق فيها على المسائل الهامة ، وتكون نقطة التقاء بين الأحزاب .

ومع الأسف ، ولسوء حظ البلد ، ينقصنا الوسيط القديم الذى يتوسط بين الأحزاب .

أين الأمير عمر طوسون ؟ وأين عنلى باشا ؟ لا يوجد محايد فى هذا البلد ! والمستقل المحايد مطعم بميل حزبي
عبد الجليل أبو سمرة باشا : « أرى تأليف لجنة لبحث - اليوم لا غدا - المطالب القومية مثل تعديل المعاهدة وغيرها ، ونقر الميثاق الذى تضعه ، كما تقره لجنة الـ ١٧ . ولن يرفض النحاس باشا هذا الميثاق ، كما لن ترفضه كل الأحزاب بل ستعتنقه ، أما مسائلنا الداخلية فأماننا الوقت لبحثها » .
الأستاذ عبد الحميد عبد الحق : « رأيت حسب خبرتى أن السياسة المصرية ارتجالية ، سواء السياسة الداخلية أو الخارجية ، والأحزاب لا تهتم الا بالتوافه ؛ فمثلا اجتماعات الوفد الخطيرة التى تحاط بالسرية لا تسفر الا عن مسائل تافهة لا تتعلق بشئون البلاد ، مثل ترشيح انتخابى أو جمع نقود لجريدة ، أما التعرض لمسائل البلد فتكون من باب العلم ! واعتقد أن باقى الأحزاب كذلك .

بعد سنة ١٩١٩ بقليل أصبحت الأحزاب احزاب حكم ، لا تبحث عن تخليص البلد من الاحتلال ، ولا يوجد زعيم أو فرد فكر فى مدى الاستقلال وأغلب الزعماء جاهلون بالسياسة الدولية ، ومطامع كل دولة فى الشرق الاوسط ، وهم يعتمدون فى معلوماتهم على أنباء الشركات التلغرافية
محمد بك خطاب : « اختلاف الزعماء يؤدى الى الششتاتم والاتهام ، واذا اصطلحوا يتقارضون الثناء ويتبادلون المديح ، ونحن نريد أن نظهر للزعماء أننا نفكر وأننا غير مسلوبى العقل ، ويجب أن يعرف الجميع أن المركز الخارجى فى منتهى الدقة ، وأن الحرب المقبلة ستكون مصر مسرحها » .
الأستاذ زكى عبد القادر : « لاحظ أن أكثرتنا تتشائم من المستقبل ، فلم ؟ لقد خطت بلادنا كثيرا ، فيجب أن نتفائل وأن نحسن الظن بالمستقبل ، ودليل على ثقته بالمستقبل هو احساسنا بعيوبنا ، وهذا هو بداية الاصلاح .
أما اذا رفض الزعماء معاونتنا فى العمل لتحقيق أهدافنا الوطنية ، فأننا نحتكم الى رأى العام ، وهو صاحب الرأى الاول ليفرض رأيه على الزعماء » .
الأستاذ زهير جيرانة : « ان الزعماء يتملقون الرأى العام بدل هدايته وتقويمه وتوجيهه التوجيه الصحيح وهم يسعون الى استدرار تصفيقه وهتافه » . « قالوا عن أهدافنا الوطنية » : أخبار اليوم ١٩٤٥/٧/٧ .

وقلق ، وخضوع الانتخابات النيابية لدينا الى سلطان السلطة التنفيذية ،
ثم بقاء الأداة الحكومية دون تعديل أو اصلاح ، واهمال الدولة لدينا
الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الى عهد قريب .

* * *

وقد صعب الكفاح السياسى واتصل به كفاح فكرى عريض بدأ كما
رأينا فى البيئة الدينية وقت أن كانت هى البيئة الفكرية الوحيدة بالبلاد
ثم تحول عنها الى بيئة أعضاء البعثات العلمية وخريجي المدارس الأميرية
الذين كانوا يتتقنون بالثقافة الغربية ويشعرون بتفوق الغرب ويريدون
مداركته ، أى يمثلون الحياة المصرية الجديدة^(١) . ونحن نعلم عن أعلام
هذا الكفاح فى القرن التاسع عشر أنهم كانوا فى الغالب ممن اتصلوا بالموجة
الغربية الزاحفة وتأثروا بها تأثر رد الفعل بالفعل الذى يبعثه ، واتجهوا
الى الاصلاح الذى يمكن البلاد من الوقوف فى وجه هذه الموجة
أو مسايرتها . فكان حسن العطار أستاذ الطهطاوى من مشايخ الأزهر
الذين شهدوا الحملة الفرنسية وآثارها^(٢) . وكان حسن الطويل أستاذ

(١) وكان غالب مريدى الأفغانى ومحمد عبده فعلا من الموظفين وطلبة
المدارس والمطربين عموما . « الاسلام والتجديد فى مصر » .
(٢) جمال الدين الشيال : « رفاعة الطهطاوى » وأحمد أمين أعداد الثقافة
من ٢٣ الى ٢٤ .

« . . . وعندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر كان العطار فى الثانية
والثلاثين من عمره فسافر الى أسبوط ، ولما استقرت الأحوال عاد الى
القاهرة . يقول على مبارك باشا : « واتصل بناس من الفرنساوية فكان
يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ، فيفيدهم اللغة العربية ،
ويقول : ان بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف
ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم ،
وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة . . . » .

« أيقظت الحملة الفرنسية اذا عقول بعض علماء مصر وخاصة عقول
هؤلاء الأقطاب الثلاثة ، وبهرتهم علوم الفرنسيين وأثرت فى فن كل منهم ،
فكانت كتابة الجبرتى فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقدا لسير الحوادث
ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة . . . » . كما أصبح شعر الحشاش أرق
حاشية ، وأسلس أسلوبا . أما العطار فقد انحرف عن علماء عصره وترك
الدراسات الدينية واللغوية جانبا ، وعنى عناية كبيرة بالدراسات الأدبية
وكون له فى هذا الميدان مدرسة جديدة كان من تلاميذها الذين حذوا حذوه :
الشيخ ابراهيم الدسوقي ، ومحمد عباد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى ،
ورفاعة رافع الطهطاوى الخ . وسيكون لهذه النخبة الطيبة جهود محمود
فى حياة الترجمة الحافلة فى عصر محمد على .

وقد عاش الشيخ العطار حتى ولى مشيخة الأزهر فى عهد محمد على وشهد

محمد عبده من العلماء الذين اتصلوا بحاشية اسماعيل . وكان الأفغانى رجل دولة قاتل الانجليز فى بلاده وشهد الحكم الانجليزى فى الهند وطوف بالبلاد الاسلاميه التى كان هذا الحكم يعنف بها أو يهددها . وكان محمد عبده وأعوانه من الأزهرين الذين اشتركوا فى الحركة الوطنيه المصريه . وقد كان حسن العطار يريد أن يلاحق المسلمون الحضارة التى لمسها فى الحملة الفرنسيه بمعاقبة درس العلوم التى كانت تقوم عليها هذه الحضارة بعد أن ألقوها وراءهم منذ أن خبت حياتهم الفكرية تحت العثمانيين . وكان الأفغانى يقصد الى احياء الاسلام ويرى فى ذلك الوسيلة الوحيدة لانتقاذ المسلمين . وكان محمد عبده يعمل على تجديد الشريعة الاسلاميه وتخليصها مما علق بها فى قرون العبودية . كانوا يرون جميعا الخطر المقبل من الغرب ويريدون الوقوف فى وجهه^(١) بالاعتكاف على أنفسهم وتحليل الأوضاع القائمة وتجديدها ، كانوا يريدون الاصلاح من الداخل ولا ينظرون الى الحضارة الغربية الا كتجربة يستأنس بها حين يحسن الاستئناس^(٢) . ومن ثم كانت ثقافة هؤلاء المفكرين ونحوهم فى تصور الأمور ونسيج نتائجهم شيئاً شرقياً فاقعاً .

هذا التغيير فى الأحوال والمعارف الذى تنبأ به ، وخطب فى الاحتفال الذى عقد بمناسبة عقد الامتحانات الأولى لمدرسة الطب ، وهو أخيراً صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية الحديثة ، وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا (سنة ١٨٢٦) ، وهو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه المتع « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » : جمال الدين الشيبان .

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق : « محمد عبده » .

(٢) ويلاحظ أن حركة الاصلاح ظهرت فى مصر والافغان وايران معا وهى المنطقة التى كانت تمتد بها شرايين المواصلات التجارية الامبراطورية ، كذلك ظهرت فى تركيا وهى حينئذ ميدان التدخل الغربى فى أوسع صورته .

(٣) « » وانه (الأفغانى) ليضرب للمسلمين المثل فى ذلك بأمة الروس وهى كما كانت أمة متأخرة فى الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروبا ، وليس فى ممالكها ينابيع للثروة ، ولكن كانت ، فليس هناك ما يستفيضها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والفاقة والعوز ، غير أن تنبيه افكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم ، واتفاقهم على النهوض به ، وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسلطانها رواسى أوروبا . لم يكن لروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنعها ذلك من اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكرية الى ما عليه جيرانها ، الا أن هذا لم يقعد بها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها حتى

ولكن المفكرين المصريين بعد الاحتلال نقصت غالبهم الثقافة الشرقية الصحيحة بحكم التربية الجديدة التى أصابوها وأصابها مجتمعهم بعد أن أبعدته وجهته الجديدة عن التربية القديمة ، ولم تمهل هذه التربية حتى تستنفد عملها التجديدي ، فاتجه الى المدارس الأميرية والعلوم الحديثة التى كانت تلقنها اياه من حيث انتهى بها الغرب بأوضاعها وطعمها ولونها الغربى ، وانتقل بذلك دفعة واحدة من الثقافة الدينية الراكدة التى كانت ظروفه القائمة تحمله عليها الى آخر تطورات الفكر البشرى ، دون أن يلائم بين هذا الفكر وظروفه الفكرية ، أو أن تقوم بينه وبين الحياة الاجتماعية القائمة تلك الصلة المباشرة التى ينبثق منها فى الغرب . ومن هنا جهل غالب أبنائه بالتراث العلمى الشرقى وعدم تمثلهم الفكر الغربى تمثلا كاملا واضطراب اتناجهم الفكرى وما يصحب ذلك من انكارهم الشرق واعجابهم بالغرب اعجابا لا حد له^(١) . وهكذا لا يعالج كتابهم

صار لجيشها صولة تخيف ، وحملة تخشاهها دول أوروبا . . . » الرسالة عدد ٦١٦ ، ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٥ .

» . . . وكان الأستاذ (محمد عبده) فى ذلك العهد يرى أن ارتقاء المعارف هو سبب رقى الأمم فى الثروة والقوة وكان يقول : « فعلينا أن ننظر فى أحوال جيراننا من الملل والدول وما الذى نقلهم عن حالهم الأول وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء أقوياء حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم ان لم نقل قد تسلطوا بالفعل فاذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ونستعد لخير فيما هو آت وما نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيتهم فى الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها فاذن أول واجب علينا هو السعى بكل جهد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى اوطاننا » . مصطفى عبد الرازق : « محمد عبده » .

(١) وقد لفت هذا نظر الأفغانى ومحمد عبده فكانا يخشيان التعليم الجديد وينكرانه . . . وتحدث الأفغانى عن الأداة التى تهيب للوحدة ، وتجمع حولها العواطف والميول ، وتغرسها عقيدة فى النفوس وفى القلوب ، وحاول أن يجد هذه الأداة فى الصحافة التى كانت قائمة فى أيامه ، ولكنه لم يكن على ثقة بها ، يراها قليلة الغناء والفائدة ، وضرب المثل بما كان من سوء تأثيرها ودعوتها الى التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام ، وجعلها النوافذ والخصاص فى بنيان الأمة أبوابا ليدخل منها الأجنبى ، وكان هذا رايه فى ناشئة المدارس المدنية فى مصر وتركيا لانهم أضعفوا الأمة بدلا من أن تنال بهم القوة والمنعة ، وكل بضاعتهم التفهيق بالفاظ الحرية والوطنية والمدنية ، وهم لا يدركون مغزاها ومرماها ، ولا يقدرّون تكاليفها ، وغاية ما لهم هو الاسراف فى تقليد الأجانب والانسلاخ من قوميتهم . . . » . « الأفغانى » : الرسالة عدد ٦١٤ فى ٩ ابريل سنة ١٩٤٥ .

أمرا حتى يذكروا وضعه القريب^(١) ويستعيروا بعضه وينساقوا في ذلك الى حد الابتعاد عن حقيقته . ولا يخطب خطبائهم حتى يشيدوا بسابقة (١) ونحن نقتطف فيما يلي من الجرائد اليومية والاسبوعية بعض الأمثلة على ذلك .

« . . . وبعد أن استمع المجلس للبيانات التي أدلى بها حضرة حسين سرى بك وكيل وزارة الأشغال العمومية في هذا الشأن . وبعد أن وضع حضرته المشروع على خريطين قدمهما للمجلس : الأولى بتحديد الحى الجديد ومساحته ٢٦٦٦ فداناً منها ٣٥٣ فداناً تملكها الحكومة و ١٦٨٨ تابعة لوزارة الأوقاف . والثانية بالتخطيط المبدئى للمنطقة بعد نقل النوادي اليها وتحويل النصف القبلى من الجزيرة الى منتزه عام أو غابة كبيرة أسوة بعواصم أوروبا استحسن المجلس هذا المشروع بجلسته المنعقدة فى ٣٠ يونية سنة ١٩٣٢ ، . أخبار اليوم فى ١٩٤٨/٢/٧ من تقرير محمد شفيق باشا وزير الأشغال فى سنة ١٩٣١ الى مجلس الوزراء لتجميل القاهرة . » ترى هل انتهز المرشحون الحزبيون فرصة ترشيحهم ليقرأوا على الناخبين برامج أحزابهم ؟ نحن نراهن أن كثيرين من الذين يرسلون طلبات الانضمام الى الأحزاب لم يقرأوا برامجها ، بل لم يسألوا عن هذه البرامج ! وتدور فى رؤوس شبان الأحزاب فكرة أن ينتهزوا فرصة الفراغ من الانتخابات لوضع برامج مدروسة لأحزابهم ، برامج تفصيلية ، تتناول كل موضوع بالبحث العلمى الدقيق ، لا بالألفاظ التى يدخل تحت عنوانها كل معنى ، اللهم الا المعنى المقصود !

وبينما نجد فى كل حزب فى أوروبا وأمريكا لجنة لكل فرع من فروع الحياة الادارية والسياسية والاقتصادية والعمرانية ، نجد أغلب الأحزاب المصرية ليس لها لجان الا اللجان التى تعلن كل ٣٠ يوما الثقة التى لاحت لها أو تقف فى انتظار القادمين والمسافرين على محطات السكة الحديد ! . « الموقف السياسى . برامج الأحزاب » : أخبار اليوم فى ١٩٤٤/١٢/٩ . « ليس من الحق أن ننكر ما بذله الأستاذ الشيال من الجهد فى بحثه (تكوين الشعب المصرى الجديد بعد الفتح العربى) فى مجلة الثقافة من رجوع الى المصادر العربية القديمة ومحاولة تنسيق النقول المختلفة منها مع صحة الاستنباط وبراعة الاستنتاج ، بيد أنى مضطر الى القول بأن المنهج الذى ابتدعه يعوزه الترتيب وتنقصه المحاولة الدقيقة فى البحث عن أصول هذا التكوين وعوامله ومقدار التلوين الذى أدخلته كلتا الشخصيتين العربية والمصرية على الأخرى . وإذا ما عدنا الى مناهج الغربيين الباحثين عن أصول تكون الشعوب الأوروبية وجدناها تختلف عن منهجه اختلافا قوى الأثر بعيد الخطر ، . » حول منهج البحث عن تكون الشعب المصرى الجديد ، مجلة الرسالة العدد ٦٢٤ فى ١٨ يونيه سنة ١٩٤٥ .

غريبة يريدون الاقتداء بها ولا يقص قصاصوهم حتى يلقوا بين يدي قرائهم أوصافا ونعوتا وفي كثير من الأحيان أيضا ألفاظا أجنبية (١) .

وعامة هؤلاء المفكرين يشتركون جميعا في الحيرة من أمر هذا الغرب وخشيته وتملقه ويبدون هذا الشعور في حماسة قد ترتفع أو تهبط ، وقد تتخذ شكل الحب أو شكل البغض ، ولكنها حماسة على كل حال لو جهدت في البحث عن أصلها لما وجدت في الغالب سوى الانبهار الذي يشعر به الطفل أمام لعبة جديدة . والغرب هنا ليس فكرة كاملة ، واضحة المعنى بارزة المعالم ، بل صور ساحرة لا رابط بينها ولا مرجع ترد إليه ، هو الثورة الفرنسية وأبطالها الخرافيون ، أو جهابذة الفكر الحديث وتحليقاتهم الفكرية الشاهقة ، أو لندن وباريس وروما وبرلين ونيويورك برونقها الخلاب ، أو في محيط ما أيضا ، نعومة الحياة في هذه

(١) « تضىء في شوارع القاهرة على دور السينما والمطاعم والمقاهى أنابيب بالأنوار الحمراء والخضراء ، ناطقة بأسماء أعجمية ، فانت ترى: ديانا ، مترو ، متروبول ، كورسال ، ميامي ، لابوتنيير ! ... بل ان اسم القاهرة نفسه يترجم فيصبح « كايرو بالاس » بل ان آخر دار للسينما تشيد في شارع فؤاد الأول قد أطلقوا عليها اسم ريفولي ... ثم اذا جئت الى المطاعم رأيت : أوبرج البيراميد ، أوبرج تيرف ، أوبرج دى لوك ، ارميتاج ، سان جيمس ... الخ .

فماذا نقول في بلد كان يطلق على أحد مسارحه اسم « رمسيس » منذ عشرين عاما ، فانقلب اليوم الى « ريتز » ؟ ! ...

« ... فنحن الذين نريد حماية القومية المصرية ورعايتها ينبغي لنا لفت نظر هؤلاء الذين يعيشون في ظلها الى ضرورة احترامها ، فلا نبقي متخبطين في بلد شرقي بين أسماء أعجمية ، مع أن الشرق القديم والشرق الجديد كلاهما غنى غنى طائلا بأجمل الأسماء » . أخبار اليوم في ١٣/١٢/١٩٤٧ .

« سألت الملكة فيكتوريا سير والتر رالي ذات يوم : كيف نملك العالم ؟ !

فقال لها : الذي يملك باخرة يملك البحار ... والذي يملك البحار يملك التجارة ... والذي يملك التجارة يملك العالم ! . وبالأمس ملكت مصر باخرة جديدة تضارع الباخرتين كوين ماري وكوين اليزابيث في الفخامة والابهة ووفاء الاستعدادات . وأصبح في الأسطول التجارى المصرى أول باخرة مجهزة بمعدات ما بعد الحرب ... » . أخبار اليوم في ١٧/١/١٩٤٧ .

« ... رأيتها خارجة على رأس كريمات العقيلات والأنسات ، تتحدى

معهن حراب الانجليز ، وتصرخ في الجنود البريطانيين أثناء ثورة ١٩١٩ : أطلعنوا صدورنا ! ... أضربوا ناركم لكى تكون في مصر « مس كافل » ، أخرى ! ... » . من تأبين لهدى شعراوى .

العواصم جميعا وما تثيره في النفوس الفتية المحرومة^(١) . هو شيء كالسراب الأغريقى - الرومانى الذى تخيله جمهرة مفكرى الغرب وما زال يتخيله بعضهم الى اليوم أو أصنام المعابد التى كانت تهرع اليها الجماهير فى الأزمنة الخوالى اذا أعياها أمر لم تقو على ادراك كنهه ، أو الواحة الخضراء يصبو اليها الضالون فى صحراء يباب^(٢) . وهذا

(١) « هذه هى فى حقيقتها من وراء الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة بل هذه هى حتى من خلال الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة . فما هذه الأضواء التى تخدع المخدوعين وتطلق السنة الدعاة ! انها الدعارة الفاجرة ، والتحلل الذميم ، والبوهيمية المطلقة . . . انها هى بعينها النكسة الى حياة الحيوانية ، وفوضى البربرية !

ولكن هنا رؤوسا وأقلاما لا تزال تمجد فرنسا ، ولا تزال تتشددق باسم فرنسا ! »

اولئك بضعة نفر عاشوا فى فرنسا فترة من العمر ، فسمحت لهم فرنسا الداعرة باشباع أقصى لذائذهم الحيوانية ، وتروية أظما شهواتهم الحسية . . . ثم عادوا فاذا فى الشرق بقية من تقاليد وبضعة من حواجز فلم يرق لهم ما فى الشرق من « رجعية » ! وظلوا يحنون الى عهد فرنسا الداعر والى لذائذها الممنوعة ، والى شهواتها المحرمة !

قليل منهم وجد فى فرنسا علما وقنا - وان لم يجد لفرنسا قلبا - ففتنه العلم والفن عن أقدس المقدسات القومية والانسانية . فتنه عن كرامة الوطن وعن حرمة الأهل وعن شرف العرض . . . فاذا أحدهم يجادلنى فى أمر الشرق العربى وفضائح فرنسا فيه فيقول : اذا لم يكن بد للانسانية من أن تفقد فرنسا أو تفقد هذا الشرق العربى ، فليذهب الشرق العربى الى الجحيم ؟ هؤلاء نفر منحلون . . . « هذه هى فرنسا » : مجلة الرسالة ، العدد ٦٢٤ ، ١٨ يونيو سنة ١٩٤٥ .

(٢) « ولكن لنعد الى حديثنا فانت تقول ان رجلا على الأرض لا يهملك فاذا كان رجلا من باريس ! وصل أمس فقط من حبيبته بباريس !

— أتوسل اليك ! . . فهذا هو الرجل الذى يهمنى ! . .

— فاذا كان امرأة ! . . ومن باريس وجاءت أمس . . وستسافر غدا ؟ ! . .

— بربك ! . . لم يعد فى قوس صبرى منزع للسهام ! . .

— سنحسن اليك . . لأنك أحسنت الينا ! ستتغدى معها غدا ! . .

« . . . حديثه يا مدام لانجلوكيف بباريس ! . . أنت لا تعرفين كم يحب

باريس ! . . هو . . . أن يعيش الآن ! كيف يعيش الآن . . هل هو يعيش ؟ . .

هل هو عاش منذ ست سنوات . . هل كان كائنا حيا له جسم ينبض وله

الاعجاب المفرط يحمل البررة من هؤلاء المفكرين على أعمال الفكر في أسباب تأخر الشرق عن الغرب وما ينبغي أن يبذل للقضاء عليها . وهم يبدون في هذا اللغز آراء تتنوع الى ما لا نهاية ، تنوع ثقافة الذين يعرضون له والأوضاع التي يتخذونها . فالدينيون يجدون علة تأخر الشرق في ابتعاد أهله عن الدين الصحيح . والدين الصحيح هنا صيغة مبهمه كالصين الاجتماعية المطلقة عادة ، وهي تعنى شيئا يمتد من قفل الأبواب دون كل رجس مسيحي الى الاجتهاد في تطبيق الأحكام الدينية تطبيقا غربيا . وغير الدينيين ينسبون تقدم الغرب الى قوة أخلاق أهله

قلب يخفق ! .. أيمن أن يكون قد قضى ست سنوات في غرفة واحدة مكونة من أربعة جدران بين ناس ليسوا أهله وليسوا أحبائه ، وان جمعته وإياهم كلمة المعروف ؟ أيمن أن يكون قد عاش سبعين شهرا ، في عشرين مترا ، لا يتحول عنها الا إليها ، يجد عندها رزقه ؟ يأكل وينام ويفكر ويتعذب ويشقى ويسعد في هذا الركن الضيق الكنز المحدود القائم ؟ .. أن أفقر الناس يعيشون في فسحة أعظم من فسحته ، وفي عيشة أرغد من عيشته ، وفي نعمة أسعد من وحدته ... وعلى ذلك لم يرد أن يشكو أو يتذمر أو يتألم ويتمرد كان يعلم أنه عابر سبيل ، أنه من أولئك الهمج الرحل الذين لا تطمئن بهم أرض ، ولا تستقر بهم حال ... ان أشباحا جميلة كانت تملأ غرفته وتؤنس وحدته ، صارت غرفته قصرا باذخا منيفا يصعد فيه وينزل ، ويستقبل ويودع ، وينام ملء جفونه ، واذا سهد وارق لجأ الى - الراديو - ذلك الرفيق الوفي الأمين الساهر يضغط عليه لينير ، ثم يخرج عليه ألوانا رائعة رائحة من الموسيقى ، والرقص والحديث والشجن ، والشوق ، والنبأ والرجاء ...

كانت ساعة - بج بن - في لندن هي ساعته تحمل اليه دقائقها المتزنة . الحرية حياته . ان الحرية عنده هي الحب . وهو لا يستطيع أن يعيش يوما ، ولا ساعة ، بلا حب . بلا حرية ! ...

انه هنا منذ ست سنوات أو نحوها .. يعيش في عالم الحيرة الذي لا يحده كورنيش الاسكندرية ولا صخور اسوان .. لقد عاش فوق هذه الصخور وتمشى على الكورنيش فأحس أنه في وطنه غريب انه بحاجة الى أن يبعد عن وطنه ليزداد لوطنه حبا اذ لا يرى سؤاته ، ويزداد له خدمة اذ لا يشقى برؤية هذه السؤات ...

حدثه أيتها السيدة التي جاءت من بعيد تسأل بلاده طعاما وهو يموت لانه بحاجة الى أن يسأل بلدها رزقا ... « » « نحو باريس » : أخبار اليوم في ١٢/٥/١٩٤٥ .

أو اخلاص حكامه أو مركز النساء في مجتمعه الخ^(١) وهذه الحيرة تنتهي بغالبهم الى الشك والاستهتار والتشاؤم^(٢) وتصرفهم في الغالب عن

(١) وهذه بعض الأمثلة من هذا التنوع الذي لا حد له :
« ان داء الشرق هو الاستبداد ، والاستبداد هو أن تتصرف الحكومة في شؤون الرعية كما تشاء بلا رقيب ولا حسيب . واذن فبمعت الاستبداد هو غفلة الأمة ، فالأمة التي لا تقيم من نفسها رقيباً على الحكام ، تحاسبهم عن كل صغيرة وكبيرة أشد الحساب ، سيستبد بها حتماً وكلاؤها ، اذ أن الاستبداد أمر طبيعي في السلطان ، وما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمآخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة ، أو اغفالها ، الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه » طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » للسيد عبد الرحمن الكواكبي . عن الشرق الجديد ، عدد ٣ يونيو سنة ١٩٤٥ .

« ان سر ارتقاء الأمم الغربية هو في تضافر كتابها على بث روح التأثير في العامة بما يزخرقون لهم من الأحاديث وقد ساعدهم على ذلك أن الناس هناك يكتبون باللسان الذي به يتكلمون فتتسرب الى نفوسهم معاني الشاعر وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وان كانوا لا يشعرون ويختلف الحال في مصر عن ذلك لأن للناس لسانين قد تناكرا حتى اختصوا أولهما بالكلام وجعلوا الثاني من نصيب الأقلام فمنع اعوجاج هذا عن استقامة ذاك » حافظ ابراهيم : « ليالى سطيج » .

« ان الحظ في الشرق معقود له اللواء . ولكنهم في الغرب لا يعرفون الا العمل . نحن نؤمن بالخط والقدر والنصيب وهم يؤمنون بالعرق المتصيب والعقل المحكم التدبير والنظام الذي لا يفهم المجاملة ولكن يفهم الحق والواجب . أن أوروبا طحنتها الحرب وخرجت منها مثخنة بالجراح ولكن العمل المتواصل شيشفيها من جراحها فتعود الى مكانتها الاولى في السباق لن تتأخر الا ريثما تنهض . هذه آية العصر وانجيله : ليس من سبيل الى التفوق الا بالعمل » : « نحو النور » الحظ والعمل » الأهرام في ١٩٤٨/٢/٩ .

(٢) ونحن نقرأ في مقال بمجلة الثقافة :

« . . . وهناك فريق من النقاد لا ينفكون يشكون سوء الحال وانتشار العيوب ، وتزايدها يوماً بعد يوم ، ويصورون كل ناحية من نواحي الحياة وقد تطرق اليها الوهن والفساد ، وكل طائفة من الطوائف وقد عمت فيها الفوضى وسادت المآخذ ، وجميع الأفراد وقد صارت أخلاقهم منحلة ، وضمائرهم مينة ، وعوائدهم قبيحة ، ومعاملاتهم سيئة .

ينظرون الى السياسة والسياسيين فلا يجدون منهم صالحاً للبقاء ، أو جديراً بالتقدير . والى العلم والعلماء ، فاذا هم جميعاً سطحيون ، أو مدعون ، علمهم ضئيل ، أو قديم عقيم ، وأخلاقهم ضعيفة أو منحلة ، ويسودهم حب التظاهر والنفاق ، ويملاً صدورهم الحقد والحسد ، ولا تنطوي نفوسهم الا على المكر السيئ . واذا حدثوك عن العامل والفلاح سمعت منهم ادناً الأوصاف وأحط الاتجاهات وأسفل النزعات .

النظر الى وقائع الحياة المصرية القائمة بين أيديهم نظرا عميقا شاملا وتحول بينهم وبين رؤية ما يقع تحت بصرهم منها الا من وراء الثقافة الغربية التي نالوها . وهي تضعف من قوة انتاجهم الفكرى بفصلها اياهم عن الوقائع وابقائهم معلقين بين ذلك المجتمع الغربى الذى لا يحيون حياته وهذا المجتمع الشرقى الذى لما تتوافر له ظروفه والذى تقوم هى بينهم وبينه بأنوارها المضللة . وهى تجعل على كل حال من وضع الشرق دون الغرب شيئا جامدا لا يكاد يتحرك ؛ فالغرب هو هذا الغرب وسيظل كذلك الى آخر الدهر والشرق هو هذا الشرق ، وسيظل هو أيضا كذلك

وبالجملة لا ينتهى حديثك مع هؤلاء الا وقد تملكك اليأس ، ولبست منظارا أسود لا ترى من خلاله أدنى قبس ، ولا يلوح لك أقل أمل ، فتقول عوضنا الله خيرا فى هذه الأمة التنعسة ، التى لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل فى أبنائها خير ولا ينجع فيها علاج ، ولا يجدى فيها نصيح ، ولا تنفع معها أية وسيلة من وسائل التقويم والاصلاح

• • • • • وهكذا ترى مغالاة الفريقين ، الدعاة للقديم والدعاة للجديد ، كلاهما ينحى باللائمة ، ويدعو بقوة الى التطرف فى ناحيته الخاصة التى ينحاز اليها ويدافع عنها بعنف وشدة ، وهذا الأسلوب يكاد يكون طابعا قوميا ، وأعنى به المغالاة فى تصوير العيوب والاغراق فى الانحياز الى جانب ، والشدة والعنف فى العتب وفى الدعوة الى الرأى الذى يرتئيه الكاتب أو الناقد ، وهذا الأسلوب كثيرا ما يشير الحفيظة والعناد ويأتى بعكس المراد .

ثم ان هذا الكلام كله يكون فى معظم الأحيان - ان لم يكن كلها - كلاما عاما عائما ، لا تصحبه آراء أو مقترحات انشائية وان أجدى منها شيء كان فجاء غير مدروس ، لا يستند الى دعائم احصائية ولا نظريات علمية . وانما هو من قبيل الكلام الارتجالى فقط كالذى يكتبه الصبية بمدارسهم فى كراسات الانشاء : « حول النقد والمغالاة فيه » بمجلة الثقافة العدد ٣٣٠ فى ٢٤ ابريل سنة ١٩٤٥ .

ونقرأ فى مقالة بمجلة الرسالة :

« لكل مجتمع علله وآفاته ، ولكننا اذا استعرضنا علل المجتمع الاوروبى كانت هذه العلل خاصة بمجتمع قد تهيأت له جميع الشخصيات القومية ، وتجلت مظاهر القوة ومظاهر الضعف فيه . أما المجتمع المصرى ، فهو مجتمع فى طور الانتقال ، وقد بدأت مرحلة الانتقال هذه منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولم تنته الى اليوم ، فى حين أن شعبا كالشعب اليابانى قطع فترة الانتقال فى سنوات .

ومن أجل ذلك كنا حيث نحن وكانوا حيث هم .

فمما لا شك فيه ، مثلا ، أن اللغة قد قطعت شوطا فى طريق التقلم والدقة والمرونة ، فتركنا السجع والاطناب وما اليهما ، ونحت الكتاب الفاظا

أبد الآبدى ، والعلة الأولى فى ذلك هى أفراد الشعوب الغربية بصفات لا تملكها الشعوب الشرقية ولا سبيل الى أن تملكها يوما ما . ومن هنا اتهم هؤلاء المفكرين العامة بالاستكانة والغفلة والأثرة وكل جريرة أخرى كلما حاولوا شيئا وانتهوا الى ما لا يتوقعونه منه بعكس أقرانهم الغربيين الذين اذا حاولوا شيئا انتهوا فى الغالب الى ما يريدون .

واتجاه تفكيرنا هذه الوجهة ، يتضافر ونشاطنا الاقتصادى الجديد ثم اتصال رأينا العام بمصادر رأى العام العالمى فى نشر طبقة غربية رقيقة حول حياتنا اليومية ، تتكاثر وتشتد اشتدادا ثقيلا فى دائرة نشاط الدولة

جديدة ردت الى اللغة شبابها وبهاءها ، ولكن اللغة لا تزال بعيدة من غاياتها ، ولا تزال فى حالة انتقالية ظاهرة ، كما لا يزال تعليمنا العالى فى الأزهر والجامعة ، وكذلك محاكمنا وقوانيننا مزيجا من تعاليم القرون الوسطى والعلم الحديث ، كما أن حركتنا النسائية يتجاذبها عامل الرجعية والعزلة والجمود من ناحية ، وعامل الطفرة والمطالبة بالغاء نون النسوة من ناحية أخرى

• والواقع أن عللنا وآفاتنا كثيرة نشأ معظمها من الاستعباد وطول عهوده ، وقد أصبحنا وفيينا مركب الشعور بالنقص ، وهذا واضح جلى فى معاملات ، المصريين والأجانب ، وما بقيت هذه العلة بغير علاج حاسم فستظل الامتيازات ، فى نفوسنا وأخلاقنا وان تكن قد محيت فى الورق والمعاهدات .

وقد أصبحت هذه الحالة مدعاة لليأس والتشاؤم ؛ ففريق من المصريين يقول : انه لا أمل فى اصلاح هذا الشعب . وفريق من الأجانب ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير جبرائيل هانوتو ، يقولون : ان مصر لا غنى لها عن الأجانب ، وان مركزها الجغرافى الى جانب ذلك يفرض عليها قبول سيطرة الدولة التى تهيمن على البحر الأبيض ، أى قبول الاستعباد فى شكل من أشكاله .

وقد أخطأ الفريقان فى نظرهم وتشاؤمهم ، ويرجع ذلك الخطأ الى انهما قد أصدروا حكمهما على الشعب المصرى باعتباره قد استكمل أدواته للكفاح ، وأخذ أهبطه وجرب وكبر واستقر ، وبعبارة أخرى قد قطع مرحلة الانتقال وظهرت ملامح شخصيته الثابتة من حسنات وعلل وعورات .

ولو أنهما انتبها الى أن حالة مصر اليوم لا تزال حالة انتقالية ، وأن بعض العلل التى نراها ليست من العلل « المزمنة » ، وقد تكون غريبة عن جوهر الخلق المصرى الصحيح ، وأنها اذا عولجت انتفت عنه ، وزالت كما يزول كل عرض ، أقول لو أنهما انتبها الى ذلك لفهما أن تشاؤمهما أكبر خطر يتهدد الفكرة الاصلاحية بل كل فكرة تطمح الى المثل العليا ، والسير بالبلاد الى أبعد الغايات . • علل المجتمع المصرى • للدكتور محمد صبرى بمجلة الرسالة العدد ٦٠٥ فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥ .

وتتسبب في أمر على جانب كبير من الخطورة من حيث الآثار التي تثيرها وهو سبق التشريع لدينا ظهور الظواهر الاجتماعية التي يتصل بها أو نضوجها النضوج الكامل على الأقل .

وقد رأينا كيف يرجع ضعف مقاومتنا في المحيط السياسي وقلة إنتاجنا في ميداني الاقتصاد والفكر قبل كل شيء إلى عدم انبثاق تلك المقاومة وهذا الإنتاج من حياة اجتماعية زاخرة تجمع بين طبقات المجتمع جميعا في عزمة واحدة فهما لا يعدوان أن يكونا نقرة الطاقة العليا من مجتمع قديم يلجج جوا جديدا ويحاول الذود عن نفسه والملاءمة بين شئونه ومقتضيات هذا الجو . وهذه الملاءمة عسيرة غاية العسر لأنها تقتضي خلق بعض الظواهر الاجتماعية خلقا وتعجل نضوج البعض الآخر وتنسيق أطوار هذه الظواهر جميعا تنسيقا شاملا ، أي تحقيق ما حققه المجتمع الغربي في قرون من السير الطبيعي الهادئ في دفعة واحدة وبتدبير مقصود (١) . وهي تتطلب لذلك درس الظروف القائمة والظروف

(١) والعقاد يصف ما حدث من ذلك في ميدان الأدب فيقول :
« ... ولو لم تكن « البنية الريفية » كذلك لأدركت أن الأدب الغربي - منذ أربعة أجيال على الأقل - لم تنشأ فيه مدرسة واحدة صنعت في أدب قومها بعض الذي صنعه أدياء العربية في الجيل الحاضر والجيل الذي سبقه لأن الآداب الأوروبية تجرى منذ ألف سنة في طريق واحد يتقدم فيها السالكون خطوة بعد خطوة ومرحلة في أثر مرحلة ، ولا ينتقلون فيها إذا انتقلوا فترة بعد فترة إلا من مقدمة محضرة إلى نتيجة منتظرة ، تمشيا مع الحركة المطردة من عصر اليونان إلى عصر النهضة التي جددت بعض مدارس اليونان ، إلى عصر الإصلاح والثورة بلا انقطاع ولا انحراف إلا في أيام الركود والجمود » .

فقصارى ما تصنعه المدرسة الأدبية بين الغربيين أنها تزيد في المجاز أو تزيد في التعبير عن الواقع ، وانها تميل إلى الأسلوب المأثور أو تدخل عليه بعض التصرف والتعديل ، وانها تجمع إليها رهطا من الزملاء بينهم تشابه في المزاج وتقارب في الموضوعات أو تقارب في موضوع الإقامة وفي المناظر التي يلتفتون إليها ويعنون بوصفها ، ثم يرجع الناقد إلى أدب قومهم قبل ظهورهم وبعد ذهابهم فإذا هو متقارب متتابع لا وثبة فيه ولا جنوح عن الجادة التي مهدت من قديم الزمان .

ولا يستطيع أحد من أولئك السماعيين أن يترجم شعر خمسين سنة متوالية إلا بدا له أنه كالحلقة بعد الحلقة في سلسلة واحدة قلما تتباعد

المبتغاة درسا يفوق في العمق والدقة والجهد ما يتطلبه تنظيم الظواهر التي تقوم قياما طبيعيا . وقد غاب هذا عن السلاطين الذين قاموا بأول محاولات هذه الملاءمة في مصر والأقطار العثمانية الأخرى ، فكان ما عرف بالنظام الجديد ، وكانت الدواوين والمحاكم الجديدة ، وكان اخفاق كل ذلك والافلاس المالى أيضا . ثم انتقل الحكم في هذه الأقطار الى أيدي ممثلى الغرب فاتجهت هذه المحاولة وجهة جديدة ينقصها التقدير الصحيح للظروف القائمة ويبدو عليها الميل الى الاعتقاد بأنها ظروف ثابتة لا تقبل التحويل البعيد كما يبدو عليها التغليب الظاهر للأغراض التي يرمى اليها هذا الغرب على الأغراض المحلية الخالصة . وأخذ الحكم يعود بعد ذلك الى أهل البلاد فعادت هذه المحاولات تهدف الى الأغراض المحلية ولكنها ظلت تتجاهل الظروف القائمة وتتأثر بالنضال السياسى وبذلك التفاوت بين هذه الظروف ، وهى كما رأينا فى مجلتها ظروف مجتمع زراعى يتجدد ، وتلك الطبقة الغربية الرقيقة التى أكسبتنا اياها صلتنا بالغرب ونظمنا الاقتصادية الجديدة وانخرطنا فى دائرة الرأى العام العالمى .

ونحن نحاول هذه المحاولات ونعالج مسائلنا على وجه العموم بخبرة من لدينا من عناصر فنية نالت نصيبا من التربية الغربية ، دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة ، ويدفع بها التيار الغربى الذى يحيط بنا من أقطارنا جميعا الى أجهزة الحكم ، دون العناصر التى كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعى الدينى أن يرسلها اليها لو لم يكن هذا التيار الغربى بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسى . وهذه الخبرة هى النتاج المباشر

فى أوساطها وان تباعدت فى أطرافها ، وانه على الاجمال نوع واحد من الادب فى الصميم .

أما أدباء العربية فى الجيل الحاضر والجيل الذى سبقه فقد صنعوا فى تغيير مقاييس الأدب ما لم تصنعه مدرسة واحدة أوروبية فى الاجيال الأخيرة . لأن اختلاف المقاييس هنا هو اختلاف بين لغة ولغة ، وبين طبيعة وطبيعة ، وبين اقليم واقليم ، وبين زمن وزمن ، وبين موضوعات وموضوعات . « المدارس الأدبية » للأستاذ عباس محمود العقاد : مجلة الرسالة العدد ٦٠٩ فى ٥ مارس سنة ١٩٤٥ .

لثقافة الجامعة التي نالتها هذه العناصر في الغرب دون أن تكون بينها وبين الحياة العملية التي انتجتها أو حياة البلاد الحقيقية سبب كبير . وهي تخضع لوضعها هذا حين تفكر وحين تعمل وحين تعالج ظواهر لما تظهر أو ظهرت ولكنها لم تنضج ، كما نضجت مثيلاتها في الغرب ، ولم تتخذ على كل حال نفس الأوضاع التي اتخذتها هناك ، وتفعل ذلك بالأساليب التي ابتدعها هذا الغرب تحت ضغط تلك الأوضاع . وهكذا لم يهتم الذين وضعوا دستورنا يوم وضعوه بدرس ماضينا الدستوري أو حاضرنا الاجتماعي كما اهتموا بدرس الدساتير الأجنبية ، ولم يعن الذين وضعوا نظمنا الحكومية بماضى هذه النظم لدينا كما عنوا بنقل القوانين الفرنسية ، وما زال الذين يضعون تشريعنا الاجتماعي والاقتصادي ينتهجون مثل هذا المنهج الى حد بعيد .

والجو الغربي الذي ينفذ على هذا النحو الى حياتنا العامة والخاصة جميعا يدفع بظواهرها الى النضوج العاجل ولكنه يضعف في نفس الوقت من حيويتها ويميل بها عن مجراها الطبيعي . فمادامت الظاهرة نصيبها من التربة المحلية محدودة ومادام اتصالها بالجو الخارجى مستمرا متروكا لنفسه يكون كما يستطيع أن يكون فسيهد لها هذا الجو في الارتفاع السريع فتصاب بالسطحية والاضطراب والسقوط في التقليد . يضاف الى ذلك أن الصيغة التي نضعها لمعالجة ظواهر حياتنا ، أية كانت ، تنشأ عادة مشوهة بحكم اعتماد واضعها على الاقتباس وبعدهم عن الناحية العملية من هذه الظواهر . ثم أنها تظل ضعيفة فارغة مادامت هذه الظواهر ناشئة لم تكمل ، أو لم تبلغ السعة التي وضعت لها الصيغة المنقولة . ومن هنا ما نلاحظه من تقلص قوانيننا عند التطبيق وطغيان السلطة التنفيذية على السلطات الأخرى والهزات الشداد التي تتعرض لها حياتنا الاقتصادية والاجتماعية بين الحين والحين من جراء شطط التدخل الحكومى . وقد أخطأنا حتى اليوم في اتهام الذين يحكمون بقلّة النشاط وضعف

الوطنية والاستهتار ، والواقع أن غالبهم يريدون الاصلاح صادقين وأنهم لا يقلون نشاطا أو يزيدون استهتارا عن زملائهم في البلاد الأخرى . ولكنهم يختلفون عنهم في أنهم حين يصلون الى الحكم يجدون أنفسهم وجها لوجه أمام مسائل لم يسبق لهم في الغالب أن عاجلوا ولا يجدون الى جانبهم الخبرة الفنية التى تستطيع أن تغذى نشاطهم أو توجهه . وهم يتعرضون حينئذ لما يتعرض له المحكومون من التأثير بالرأى العام العالمى ومصادره التى تجد فى صحافتنا واذاعاتنا الأداة الفعالة التى تحتاج اليها ، فىكون هذا التناقض الذى تمتاز به حياتنا العامة والذى يؤخذ عادة على محمل النفاق المقصود . فالمحكومون يقتدون فى أفعالهم ببعض ما يطالعون كل صباح من أخبار المجتمعات الأخرى ، والحاكمون يغالون فى الغالب فيما يقولون ليرضوا المحكومين ويرضوا اتجاههم الفكرى ويرضوا التيار الغربى الذى يحيط بهم ، والجميع يصدرون فى أقوالهم عن تفكير دخیل ويصدرون فى أفعالهم عن الظروف القائمة لمجتمع ينتقل من حال الى حال .

* * *

هناك اذا مجتمع مصرى جديد ترتفع نشأته الى مطلع القرن التاسع عشر وترجع أصوله فى مجموعها الى تراخى الصلة بين السلطنة العثمانية ومصر ، وتحلل النظم المملوكية ، ثم النزعة الانفصالية التى بدأت تحت مشايخ البلد وبلغت أشدها بمحمد على ثم انتهت الى غايتها عند انفجار الحرب العالمية الأولى ، اذ تضافرت هذه العوامل فى تكوين أسرة مالكة جديدة وحكومة محلية ومصالح وطنية وأتاحت لأبناء البلاد الغلبة على من كان يختلط بهم الى ذلك الحين من عناصر أخرى .

وهذا المجتمع يرث عن ماضيه فكره العربى وضميره الاسلامى ونظمه المغولية ، فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب اليها جميعا تحت الدولة

التركية ^(١) ، ويخضع لتأثير هذه الحضارة الغربية البراقة ، التي تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر ، أى أثناء نكسته العثمانية بالذات ، بفضل الحروب الصليبية ، التي ردت الغرب الى حياة البحر المتوسط وأعادت الصلة بينه وبين ماضيه الاغريقى — الرومانى وأشركته فى ثمار الحضارة الاسلامية ^(٢) ، واكتشاف الأمريكتين ، الذى وسع آفاقه توسيعا لا عهد له به من قبل ، ثم العلوم الحديثة وما مكنته منه فى طريق استثمار هذين العاملين .

وهذا التأثير الغربى يتخذ الى المجتمع المصرى الجديد طريق التغفل الاقتصادى ، فيقيد منابع ثروته باتتاجه ، والنفوذ السياسى ، اذ يبعد هذا التغفل ويدفع بحكومات القائمين به الى الضغط على الحكم ثم الاستئثار به ، والغزو الثقافى ، اذ يشعر أبناء البلاد بمقتضيات الحياة الجديدة التى يتجهون اليها فيقبلون على التعليم الحديث ويشعر الغرب

(١) يلاحظ أن المؤرخين الاسلاميين كالمقرئزى وابن اياس يطلقون على دولة المماليك أيضا اسم الدولة التركية أى أنهم يعدون المماليك أتراكا كالعثمانيين .

(٢) تأثرت النهضة الغربية بالحضارة الاسلامية تأثر النهضة الاسلامية بالحضارة الغربية . ولكن بين التأثيرين أوجه اختلاف غير قليلة يكفي أن نذكر مما يهمنا منها هنا الآن أن التأثير الاسلامى لم يصحبه هذا التغفل الاقتصادى والسياسى البعيد الذى يصحب التأثير الغربى الآن فى الشرق . فلم تنتقل الصناعة والتجارة وأجهزة الحكم الى يد المسلمين فى الأراضى الأوروبية الخارجة عن مناطق الغزو الاسلامى قط . ولم يعتمد الغربيون فى تحقيق نهضتهم على أساليب الحضارة الاسلامية هذا الاعتماد المباشر الكامل الذى نعتمده الآن على أساليبهم . يضاف الى ذلك أن الفروق فى الاستعداد العسكرى بين الغربيين والشرقيين أثناء الحروب الصليبية وغزوات العثمانيين لم تكن على سعة الفروق التى كانت توجد بين جيوش نابليون وفرق المماليك التى قاتلتها . وقد كان الصليبيون يريدون غزو الشرق الاسلامى لا أقل . وفشلوا فى رغبتهم هذه ولكن الى حد اذ استطاعوا أن يقيموا لهم امارات فى ربوعه وأن ينتزعوا منه السيطرة على البحر المتوسط . وهو أمر يدل على قوة ذات بال لا نجد لها نظيرا فى البلاد الاسلامية فى نهاية القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر . ومن الواضح أن غالب هذه الفروق يرجع الى طول الطريق التى قطعها تقدم الحضارة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر أى أثناء النكسة العثمانية .

بالحاجة الى ايلافهم ، فينشر بينهم ما يريده من هذا التعليم ، وتتشأ بذلك طبقة من المفكرين المحدثين ، ترفعها مقتضيات الحياة الجديدة الى الصدارة ، ثم تنتشر الصحف وتعم الاذاعة فتلحق البلاد بدائرة الرأى العام العالمى . وهو يبدأ فى هذه الميادين جميعا كتيار يهب من الغرب ثم ينقلب جذوة تنقد من الداخل . ويكون فى الحالة الأولى شكلا من أشكال التوسع الغربى ، فى حين يصير فى الحالة الثانية عنصرا هاما فى نهضة محلية . ولكنه يبقى فى الحالتين شيئا يفرض على عامة المجتمع ولا يكون ثمرة تنبت من أعماقه ، شيئا يصدر عن ارادة التوسع الخارجية أو ارادة الاصلاح الفردية الداخلية ولا يصدر من قاع الحياة الاجتماعية المحلية . وهو يسير لذلك جنبا الى جنب وظروف هذه الحياة ويبدى خصال كل ارادة تفرض على المجتمعات من تأثر شديد بشخصية أصحابها وميوهم واستعدادهم وتعثر فى سيرها واثارة مالم تفكر فى اثارته قط .

ونحن ما زلنا ننظر الى هذا المجتمع فنبصر عناصر ماضيه هذا القريب وعمل التيار الغربى فيه وتفاعلهما معا .

نبصر هذا الاقتصاد الزراعى الذى مازال يستأثر بالقسم الأكبر من نشاط البلاد ويعتمد على وسائل الاستغلال القديمة ويتحول فى أقل من قرن ، أى منذ أن عرفت الملكية الفردية تحت اسماعيل حتى اليوم ، من اقطاعية حكومية الى اقطاعيات خاصة تشغل الغالبية الساحقة من السكان وتبقيهم من الناحية المادية والمعنوية على ما كانوا عليه فى القرن الثامن عشر^(١) . ونجد الى جانب هذا الاقتصاد ، العقلية الغالبة التى صحبته

(١) ونحن نقرأ فى تقرير لهيئة الأمم عن الحالة فى الشرق نشر فى جريدة المصرى يوم ١٧/٢/١٩٤٨ :

« دول الشرق الأوسط زراعية أكثر منها أى شىء آخر ، والجزء الأكبر من دخل هذه الدول يأتي عن طريق الزراعة ، ونتاج المواد الخام ، والنظام الزراعى فى هذه الدول غالبا ما يتسم بتركيز ملكية الاراضى فى مجموعة محدودة من الملاك الكبار ، وتتسم الحياة الزراعية فى هذه الدول بشىء آخر هو اعتمادها الى الآن على نظم زراعية عتيقة ، وعلى آلات كانت تستعمل بشكلها الحالى منذ آلاف السنين ، وهذا يؤدى الى بقاء مستوى الانتاج ضعيفا ، وإلى قلة دخل الفرد .

منذ أن كان النظام الاقطاعي ، عقلية التوكل وتغليب الحياة الآخرة على الحياة الدنيا وانتظار المعجزات ، وما يتبع ذلك من تقاعس في السعى

ومستوى معيشة السكان في هذه المنطقة منخفض ، وهم يرحلون تحت أعباء المرض ، والفقر ، والجهل ، وهذه الأحوال مجتمعة نستطيع أن نفهم منها نوع الحالة الاقتصادية في هذه الدول التي يعتمد سبعون أو ثمانون في المائة من سكانها على الزراعة .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من ارتفاع نسبة الوفيات ، فإن عدد السكان يتكاثر باستمرار ، وفي مصر مثلاً تضاعف عدد السكان خلال خمسين سنة ، وتضاعف في سوريا ولبنان خلال عشرين سنة ، وفي العراق خلال مدة أقصر من ذلك .

وكان من نتائج هذه الزيادة المستمرة ، أن فاق عدد السكان طاقة النمو الاقتصادية ، مما أدى إلى الضغط على الموارد القائمة ومن ثم إلى تدهور جديد لمستوى المعيشة .

والبنیان الاقتصادي في الشرق الأوسط لم يطرأ عليه تغيير كبير نتيجة الحرب الأخيرة وذلك على الرغم من أن هناك عوامل قد استجذبت ، وكان لها أثر على الأحوال الاقتصادية ، وما زالت الزراعة هي كل شيء ، والأرض هي العامل الاقتصادي الرئيسي .

غير أنه حدثت في هذه الدول نتيجة للحرب الأخيرة ، بعض التطورات الهامة ، وإذا استبعدنا أعمال الرى الضخمة التي كان الهدف منها توسيع رقعة الأراضي الصالحة للزراعة ، وجدنا دول الشرق الأوسط قد ازداد ادراكها لحاجتها الشديدة إلى تعديلات معينة لبعض الأوضاع الخاصة بالنظام الزراعي .

وبدأت إيران وتركيا تخطوان بعض الخطوات في سبيل هذه التعديلات ، ولكن في نطاق ضيق ، ومصر تكاد تقدم الآن على اتخاذ مثل هذه الخطوات . وقد عرف عن الشرق الأوسط منذ زمن بعيد ضعف «رأس ماله» والسبب في ذلك هو ضعف النشاط الاقتصادي الذي يبقى من غير نمو ، ورؤوس الاموال التي تستغل في دول الشرق أجنبية ، ومعظمها يستغل في ميادين معينة مضمونة الارباح ، كالمرافق العامة ، والبنوك ، والشركات ، ورهن الأراضي مثلاً . ولما كان الذي يستغل من رؤوس الاموال الأجنبية هذه في ميادين الصناعة جزءاً لا يكاد يذكر ، كان النمو الاقتصادي بطيئاً .

ونقرأ في تقرير اللجنة المالية بمجلس النواب عن سنة ١٩٤٥ : « أن الملكيات الكبيرة تستغرق ربع المساحة المزروعة ، ويمتلكها ٥ آلاف مالك من ١٧ مليون نسمة . ويبلغ عدد المعدمين من سكان الريف ١١ مليون نسمة » . أخبار اليوم ١٩٤٥/٧/٧ .

وتوزيع اليد العاملة لدينا حسب الاحصاء الرسمي لسنة ١٩٤٣/١٩٤٤ كالآتي : ٤٣٠٨٢٠١ في الزراعة - ٦٠٩٣٣٣ في الصناعة - ١٣٨٩١١ في النقل - ٦١١٦٤ في التجارة - ٥٧٨٠٥٢ في الادارات العامة والخدمات الشخصية .

وعلى ذلك يكون مجموع اليد العاملة التي تعمل بغير الزراعة - ١٣٧٨٨٦٠ .

في طلب الرزق والعلم والارتقاء ، ثم التصور الديني للمجتمع كجزء من تلك الأمة الاسلامية الكبيرة التي تحيا في مملكة الله والتي صار حكمها منذ عصر الأفول الاسلامي لا يعنى الا الخلفاء والعلماء وأولئك الأجناد الغلاظ الذين كانوا يجتلبون من أصقاع آسيا القصصية وينفقون حياتهم في الحروب • نبصر هذا ونلمس أثره في استعصاء ريفنا على مقتضيات الحياة الحديثة ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية ، ^(١) واستئثار أبنائه بالحكم في جميع أشكاله وانفرادهم بالمناصب الكبرى والصغرى الادارية والفنية المدنية والعسكرية والدينية ثم ميوعة حياتنا النيابية ^(٢) وتخطب تشريعنا الاقتصادي الحديث ^(٣) وغلبة المصالح الزراعية لدينا على ما عداها الى حد بعيد ^(٤) •

كذلك نبصر حكما يتخذ أوضاعا حديثة ولكنه مازال يذكر ماضيه

-
- (١) لذلك اذا نادى سياسى ولم يستجب له مستجيب أو عمل مصلح من المصلحين • المستغربين • الكثيرين ولم يثمر عمله أو انقلب حكم ولم يهتز له محكوم يكون المخطيء الذى لم يدرك شيئا هو هذا السياسى أو المصلح أو الحاكم لا المحكومون • والرجل الذى يقتل قريبته لأنها زلت أو يقتل شريكه لأنه سلبه بعض ماله ولا يلبي نداء سياسى يشكو اعتداء أجنبيا أو تأمرا حزبيا يشعر بالشرف ويثور على الحيف الشخصى ولا يشعر بالحقوق السياسية ولا يمكن أن يتهم على كل حال بفقد الكرامة الشخصية •
- (٢) نقصد فتور الانتخابات وتغير نتائجها بتغير لون الوزارات الموجودة فى الحكم وانتقال النواب والشيوخ من حزب الى حزب أو تغير رأيهم فى نفس الموضوع فى نفس الدورة بتغير الحكم •
- (٣) مثل تشريع الضرائب والعمل الخ •••

- (٤) لا يوجد للآن تشريع واحد ينظم العمل فى الزراعة فى حين أن العمل فى الصناعة منظم بقوانين لا حصر لها •

ونحن نقرأ فى محاضرة لوكيل وزارة الشئون الاجتماعية المساعد نشرت بجريدة المصرى الصادرة فى ١٧/٢/١٩٤٨ ما يأتى :

••• ولكن الواقع أيها السادة أن الفلاحين هم المصريون اذ يكونون ثلاثة أرباع السكان وليست حالة الفلاح الراهنة بالحالة الطارئة التى يتيسر علاجها علاجاً سريعاً حاسماً بل هى نتيجة عوامل متعددة سياسية واقتصادية واجتماعية تضافرت منذ أجيال حتى وصلت بالفلاح الى هذه الحالة •

وهناك عامل آخر كان له أثر فى زيادة حالة الفلاحين سوءا على سوء - ذلك أن الدولة لم تعدل فى توزيع خدماتها بين أبناء البلد الواحد الذين يتحتم على أولى الأمر التسوية بينهم فى المعاملة •••••

المغولى فهو يخلط بين الحكم والتحكم^(١) ويطنى على كل شىء كما يشاء^(٢) وبعد الأفراد ومصالحهم وسيلة لوجوده لا غاية لها^(٣) . وهو لا يكاد يميز بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، فيتحول فى سر الى وسيلة من وسائل اصلاح الحال ومحاباة ذوى القربى والاعلان الشخصى . ثم انه لا يقدر وزنا للتشريع الوضعى فيزيد ويتنقص فى تفسيره وتطبيقه أو تعطيله كما يشاء دون أن يكلف نفسه حتى التزام الطريق الصحيحة المؤدية الى ذلك . وهو على كل حال حديث فى تكوينه فليس بين القائمين به من أدنى الدرجات الى أعلاها من عمل به أكثر من جيل أو جيلين ولكنه قديم فى نظمه فهذه النظم مازالت فى جوهرها تلك التى انشئت فى القرن الماضى دون روية أو تعمق .

ونبصر من ناحية أخرى هذا الاقتصاد الصناعى — التجارى الذى مازال يقوم فى غالبه لعهدنا هذا على أكتاف الأجانب ومازال يتركز فى الاسكندرية والقاهرة وبور سعيد ، حيث تقوم هذه الأحياء الحافلة التى لا يكاد يقوم بها شىء مصرى ، والتى تحول منتجات البلاد وتتجر فيها وتبادل بها ما يحتاج اليه أبناءها من منتجات أجنبية ، أى تتحكم فى حياتها الاقتصادية جميعا^(٤) ، وتتحكم فى حياتها الاجتماعية أيضا

(١) والميل الى هذا الخلط يرجع أيضا الى حدائه الحكم أى قرب عهد القائمين به ومن هنا وجوده أيضا فى الحكم المملوكى ، فقد كان هذا الحكم وظل دائما حكم محدثين .

(٢) وقد رأينا الأمثال على ذلك بدون حصر أثناء الحرب حين اضطرت الدولة الى الاهتمام بالاقتصاد .

(٣) والمعاملة التى يلقاها أصحاب المصالح فى المصالح الحكومية ما زالت الى اليوم معاملة السيد للمتبوع .

(٤) لاشك فى أن فى هذه الظاهرة ما يؤذى الكرامة المصرية خصوصا اذا لوحظ أنها ليست بالظاهرة المفتعلة فليست هناك قوانين تقصر النشاط الصناعى والتجارى على الأجانب دون المصريين . انما الامر أمر الخبرة التى اكتسبها هؤلاء الأجانب من مزاولتهم الصناعة والتجارة فى بلادهم أب عن جد وقرب عهد المصريين بهذا النشاط بعد الحراب الاقتصادى الذى منيوا به تحت المالك . ولكنه مما يفوق ايذاء لهذه الكرامة أن يكون كل ما تستطيع أن تفعله الدولة لمعالجة هذه الظاهرة هو اصدار القوانين التى تفرض عليها حقوقا لآبناء البلاد بدلا من التحول بهؤلاء الى القيام هم بهذا النشاط واعدادهم الاعداد الصالح لذلك .

اذ تجتذب اليها اليد العاملة والشباب الحديث وطائفة لا بأس بها من أصحاب السلطان وتنمى الثروة الأهلية وتنتشر أساليب الحياة العصرية (١) . ونبصر هذه المعاهدة العلمية التى أخذناها هى وبرامجها وسبلها فى التعليم عن الغرب والتى تنشئ بيننا وبين هذا الغرب هذه الصلة الفكرية التى تمكننا من تتبع تطوراتهِ وتهيئنا لتلقى آرائهِ ونظمهِ وأساليب حياته . ثم نبصر نظمنا العامة جميعا من الدستور الى أقل القوانين شأنا ، ومن تنظيم السلطات الى التقسيم الإدارى ومن المجالس النيابية الى المحاكم القضائية والإدارية والدينية ، وقد نقلت هى الأخرى عن مثيلاتها الغربية واستعوض بها عما كان فى ماضى البلاد البعيد أو القريب من نظم لم يعن أحد الى اليوم أن يتبين ما الفاسد منها وما الصالح .

نبصر هذه العناصر المصرية والغربية ونلمس أثر تفاعلها لمسا يسيرا فى اتجاهات هذا الجيل المصرى الجديد الذى شارفت طلائعهُ المراكز

(١) وقد حملت الصحف على اشتغال السياسة بالأعمال المالية فى الوقت الذى كانت تحض فيه على الاشتغال بهذه الأعمال بالذات وذلك لما يرمى به هؤلاء السياسة من استغلال لسلطانهم فى مصلحة المنشآت التى يعملون بها . وقد فات هذه الصحف أن قابلية هؤلاء السياسة لاستغلال النفوذ لن تنعدم بقصر نشاطهم على شراء الأراضى دون العمل فى الشركات ، وأنه لاشك فى أننا لن نكتسب الخبرة الاقتصادية التى تنقصنا الآن الا بالاشتراك فيما يوجد منها لدى غيرنا .

وقد يكون من الأجدى أن ننظر الدولة فى أمر أحكام تنظيم امورها هى حتى تستعصى على استغلال النفوذ الذى تخشاه من أن تقيم بين الحياة السياسية والحياة الاقتصادية سدا يحرم الأولى من الخبرة التى تحتاج اليها فى الحكم ، وقد رأينا حاجته اليها ، ويحرم الثانية من العناصر القوية التى تستطيع افادتها . والنزاهة على كل حال ليست فى أن لا تجد الشيء فلا تسرقه بل فى أن تجده ولا تسرقه .

بقى أن القول باستغلال السياسة سلطانهم فى مصلحة المنشآت الصناعية ، حتى اذا سلم بحصوله ، لا يتعارض وما بيناه من بقاء اتجاه الحكم لدينا اتجاهها زراعيا وعدم تأثير الحياة الصناعية فيه . فاستغلال النفوذ لقضاء الحاجات شيء واشتراك العقلية الصناعية فى الحكم أو توجيه السياسة العامة توجيهها صناعيا شيء آخر .

الأمامية من الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية في البلاد (١) . وهذا الجيل ان شئنا هو أول ثمار الحياة المصرية الجديدة فهو أو غالب الطاقة المتعلمة منه على الأقل — وهي التي تعيننا هنا — من أبناء الطبقة المثقفة التي عاصرت كرومر وجاهدته . وهو قد تربى جميعه تربية حديثة (٢) . ونال في الغالب هذه التربية على الأيدي المصرية التي كملها له الاتجاه الوطني في الحكم . ثم هو ينعم الآن بما قطعتة البلاد في هذا النصف الأول من القرن العشرين من تقدم اقتصادي ، نقصد أنه لم ينشأ في بيئة كاليئة التي نشأ فيها رفاة الطهطاوى أو على مبارك أو عرابي أو مصطفى كامل .

وهذا الجيل يعاب الآن من ناحية تربيته وناحية تشبهه بالغرب . وظاهرة التربية هذه ، التي خشاها الشيخ محمد عبده وأتباعه (٣) اذا تركنا الأسباب الفنية التي يردده اليها المتخصصون في هذا الميدان ، ترجع ولاشك الى ما سبق أن أشرنا اليه من الاختلاف بين الحياة في المنازل والحياة خارجها وبين الحياة التي نصبوا اليها والحياة التي نحياها . فقد نال الآباء حظا من التعليم لم تنله أو لم تنل مثله الأمهات . والآباء أنفسهم يختلفون فيما نالوه من تعليم فالكبار منهم شبه أميين والصغار جاوزوا التعليم الأولى ثم وقفوا عند ذلك . والكبار مازالوا ينظرون الى الحياة كما كان ينظر اليها المصريون أيام محمد على وقبل ذلك من حيث علاقة هذا العالم بالعالم الآخر وعلاقة الفرد بالدولة ووضع الفرد من النشاط الاقتصادي على وجه العموم ، وهي النظرة التي يحاربها التعليم الحديث

(١) لسنا نريد أن نذكر أسماء بالذات حتى لا نبعد عن الغرض الذي نقصد اليه ولكن من يتتبع الصحف أو يختلف الى دور الحكم والفكر والاقتصاد لاشك ملاحظ موجة سريعة من الشباب الجديد تصعد الى المراكز الرئيسية فيها أو تحقق بها . —

(٢) ولا يشذ عن ذلك من التحق بالمعاهد الدينية فالتعليم في القسم الابتدائي والثانوي من هذه المعاهد لم يعد يكاد يختلف عنه في المدارس المدنية وفي الكليات الأزهرية الآن مدرسون درسوا في ألمانيا وفرنسا وانجلترا .

(٣) انظر رأى الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا في التعليم الأمري

فى « الاسلام والتجديد فى مصر » .

ويسعى الى القضاء عليها . أما الصغار فقد زرع التعليم الذى نالوه العالم القديم فى نفوسهم دون أن يعطيهم سواها وبعث فيهم الشك والحيرة وان فتح أمامهم آفاقا جديدة وأكسبهم هذا الميل الى تعليم أبنائهم مهما كلفهم من جهد أو عناء .

وقد حدث التشبه بالغرب الذى تنبأ به الشيخ محمد عبده أيضا ولكن على غير الصورة التى خشاها فهو لم يجعل من الجيل الجديد بوقا للاستعمار^(١) ولكنه أسبغ على تصوره الأمور ذلك الشكل الغربى الأجوف الذى يفسد نظرهم للأمور والذى يرجع الى جهل هذا الجيل بالتراث العلمى الشرقى^(٢) والمأمة بالتراث العلمى الغربى المأمة مضطربا وبقاء العلوم الحديثة فى تفكيره مثل السراب المتبدد . فهذا الجيل لا يدرس آثار الشرق القديم أو القريب درسا حقيقيا ولا يتلقى الفكر الغربى من مصادره الأولى^(٣) ولا يجد للعلوم الكثيرة التى تقدم

(١) أنظر « الاسلام والتجديد فى مصر » .

(٢) وقيمة هذا التراث لا يمكن أن يحكم عليها قبل أن تدرس لذلك من العيب أن يقال انه ترك لأنه لا يغنى شيئا . وليس هذا التراث هو الشعر الجاهلى والغزل الاموى فهناك هذه الأبواب الكثيرة الأخرى التى عرض لها مؤرخو الشرق القديم قدر استطاعتهم والتى لن تتضح وتصبح حقائق علمية ان لم نعرض لها نحن بملكاتنا الخاصة .

(٣) « . . . وأنا مع ذلك مؤمن أشد الايمان وأعماقه ، وأقول بأن مصر لن تظهر بالتعليم الجامعى الصحيح ولن تفلح فى تدبير بعض مرافقها الثقافية الهامة الا اذا عنت بهاتين اللغتين (اليونانية واللاتينية) لا فى الجامعة وحدها بل فى التعليم العام قبل كل شيء والادلة على ذلك تظهر لى يسيرة هينة وجلية واضحة ومن أغرب الأشياء فى نفسى وابعدها عن فهمى الا يظن لها ولا يهتدى اليها الذين ينهضون بشئون مصر ويقومون على تدبير أمورها ، والذين يشرفون على التعليم فيها بنوع خاص . وأكبر الظن أن مصدر هذا انما هو ان الجيل الحاكم والمرتقى الى الحكم لا يتقن العلم بالشئون الثقافية فى أوروبا ولا يكاد يعرف منها الا ظواهرها وظواهرها القريبة اليسيرة التى لا يحتاج فهمها ولا العلم بها الى جهد ولا عناء . منهم من تعلم فى المدارس المصرية وانتهى الى غاية التعليم المصرى أيام الاحتلال ثم وقف عند ذلك ولم يتجاوزه فلم يعرف من حقيقة التعليم شيئا أو لم يكده يعرف منه شيئا . ثم دفع الى شئون الحياة العامة فجاهد فيها منتصرا حيناً ومنهزما حيناً آخر وشغل بهذا الجهاد السياسى عن غيره من الشئون وانتهى به الامر الى أن اعتقد أن السياسة هى كل شيء وأن مقاومة الانجليز ومخاصمة الاحزاب هى أقصى ما ينتهى اليه جهد الرجل المصلح فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية ،

اليه أثرا في الحياة اليومية التي يحياها (١) ، ومن هنا ترجحه بين انكار ماضيه ، وبخاصة الجيل الذي سبقه والذي يلقي هو عليه صعوبات حاضرة ، والتعصب الأهوج ، الذي يصدر عن الشعور المتحفز ولا يصدر

ومنهم من اتصل بالجامعات الأوروبية قبل أن يتم التعليم العالي في مصر أو بعد أن أتمه فدرس فيها وظفر ببعض أجازاتها ولكنه درس فيها عجلا وظفر بإيسر أجازاتها وأهونها وانتفع في هذا كله بنظام المعادلات التي تقرأ الجامعات الأوروبية لتيسر على الأجانب الاختلاف اليها وترغبهم في الاتصال بها وتنشر بهذا كله الدعوة لبلادها وتعليمها وأجازاتها في البلاد الأجنبية . . . » .

» . . . وقد عاد هؤلاء جميعا من أوروبا وتولوا الأمور العامة في مصر وهم لا يعرفون من الحياة العقلية الأوروبية الا ظواهرها وأشكالها ومنهم من يعرف ذلك معرفة ناقصة ومنشورة ولكنهم قد عرفوا الحياة الأوروبية المادية معرفة حسنة واستمتعوا بلذاتها أو طبياتها وقارنوا بينها وبين حياتنا المصرية الغليظة المهمة التي لا تخلو من خشونة وشظف والتي لا تخلو مع ذلك من لذة ومتاع فمنهم من قلد أوروبا فأسرف في التقليد ومنهم من رجع الى الحياة المصرية فأسرف في الرجوع وألقى عن نفسه الطلاء الأوروبي ومنهم من توسط بين ذلك واختار لنفسه مزاجا من الحياتين فيه لذة ومتاع وفيه ترف واستمتاع وقليل جدا منهم من تأثر بالحياة العقلية الأوروبية وتعمقها في أثناء إقامته في أوروبا ثم احتفظ بهذا التأثير والتعمق بعد أن رجع الى مصر » . طه حسين : « مستقبل الثقافة في مصر » .

(١) وهذه الظاهرة تلاحظ على وجه الخصوص بين خريجي المدارس التي تهىء للأعمال الاقتصادية فالطلبة وأساتذتهم لم يتصلوا في الغالب من بعيد أو قريب ببيئة هذه الأعمال ولا يمكن أن يقوم لذلك في نفوسهم صلة بما يدرسون .

ويلاحظ أننا نطالب أبناءنا باتقان اللغات الأجنبية ونعيبهم بانهم لا يفلقون في معرفتها أو في اجادة العلوم الاقتصادية كأقرانهم من النزلاء . ونحن ندسى أنهم لا يتكلمون واحدة من هذه اللغات أو يتصلون بمن يتحدثها كهؤلاء النزلاء وأنهم يتحدثون الى ذلك في المنازل بأمور تغلب عليها المسحة الدينية ولا يجدون من يحدثهم في شئون الحياة العملية كما يجد أقرانهم .

وقد يحسن بالذين يتشائمون من أمر تثقيف شبابنا أن يختاروا شأبا مصرية عصريا وقرينا له من أى بلد غربية متقدمة ويقيسوا المسافة بين القيمة العقلية لكل منهما والقيمة العقلية للجيل السابق لها ثم يقارنوا بين المسافتين فسيوضح لهم طول الطريق التي قطعها أبناؤنا رغم ما يحيط بهم من انقلابات وهزات من كل نوع . وأخطاؤنا جميعا فيما يتعلق بأمورنا الخاصة والعامة ترجع كهذا الخطأ الى خلطنا هذا بين تقدمنا بالقياس الى الماضى وتقدمنا بالقياس للغرب الذي سبقنا فى مضمار الحياة الحديثة بقرون يقتضى تغطيتها جهدا خاصا ، ثم ردنا أخطاء الاساليب التي ننتهجها الى نقص فى طبيعتنا لا دليل عليه .

عن الدرس العميق ، ويبدو لذلك في جمل جوفاء لا تغنى شيئا ، ثم الحماس للغرب حماسا يبلغ في خريجي المدارس الأجنبية والمعاهد الخارجية حد فقد الوعي القومى ويضطرب فيمن عداهم بين الارتفاع والهبوط ، ولكنه يشرك هؤلاء وأولئك في التشوق لهذا الغرب والاقتداء به وتقديس ما يصدر عنه تقديس عبدة الأصنام أصنامهم (١) .

وهذا الاختلاف بين دكنة الحياة القائمة ونور الآفاق التى يفتحها التعليم الحديث أمام أبناء هذا الجيل يضعف من تقديرهم لقيم الحياة القديمة ويزيد فى تقديرهم للقيم الجديدة دون أن يثبت معالمها لديهم لأن هذه القيم لا تجد من الواقع الجوهر الذى يملأها فتظل كالأشباح التى تلم بالنائم ليست حقيقة وليست سرايا وانما هى شىء مائع يلزم مؤخر الرأس ويبلبل الفكر ويفسد الرؤية فلا تميز الهام من الثانوى أو العام من الخاص أو الحقيقة من الزيف . ونحن نلمس هذه البلبلة فيما نقرؤه كل صباح ومساء خصوصا عن الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية القديمة والجديدة (٢) وما نشهده من حركات بين الطلبة (٣) وما سمعناه عن تلك السلسلة الطويلة من الاعتداءات السياسية الأخيرة (٤) .

(١) وهذه الحماسة تفرق فى الغالب بين مفكرينا تفريقا تبدو آثاره أحيانا فى حياتنا العامة أيضا فمن هؤلاء المفكرين من يتشيع للفكر الفرنسى ومنهم من يتشيع للفكر الانجليزى أو الالمانى أو الأمريكى . والمتشيعون للفكر الفرنسى يميلون اذا اشتركوا فى الحكم الى الأخذ بالتشريع الفرنسى كما يميل المتشيعون للفكر الانجليزى الى الأخذ بالتشريع الانجليزى الخ . أنظر هذه الظاهرة فى « مستقبل الثقافة فى مصر » .

(٢) وقد وجد أصحاب هذه البحوث حضارة زاهرة فى الجاهلية ووجدوا النظام النيابى فى صدر الاسلام والقنبلة الذرية فى مقابر الفراعنة . (٣) وهى حركات ترمى الى اخراج الانجليز بمقاطعة الدراسة ، وتريد الحرية بحرق أبنية الجامعات .

(٤) « خمسون سنة ؟ وما خمسون سنة فى حياة الامم ؟ مسافة قصيرة تغمض الامة عينها وتفتحها فاذا هى قد عبرت وعبرت وأصبحت فى عداد أجيال التاريخ . ولكننى أقف الآن على شاطئ هذه السنين الخمسين كمن يقف على شاطئ بحر يمتد الى خمسين فرسخا ، وعلى شاطئه القريب عشرة أمتار من الضباب . وعشرة أمتار بالقياس الى خمسين فرسخا شىء يسير ، ولكنه على يسره كاف لأن يحجب عنك البحر كله ، حتى ينقشع ذلك الضباب . والضبابة التى أمام عيني الآن على شاطئ السنين الخمسين - هى نتيجة

واليه أيضا يرجع ما يلاحظ على هذا الجيل ، خصوصا من أتم منهم الدراسة في الغرب ، من تهافت على الحياة المادية ورغبة في الدعة وخلق

التعليم في بلادنا المصرية . فهي - ولا مناص من الحق - نتيجة يؤسف لها من بعض الوجوه على الأقل ، لاننا رأينا أنها ترخى العنان للشر في واحد من كل مائة ، فيصبح على المجتمع كله شرا لا يدفعه المئات . لقد كان اناس منا يحسبون أن الامية هي آفة الرأي العام في بلادنا ، وأنا اذا محونا الامية خلقنا رأيا عاما صالحا للحكم على حقائق الأمور . فهل نستطيع اليوم حقا أن نقول ان محو الامية يغنينا كل الغنى أو بعض الغنى في خلق ذلك الرأي العام ؟ ان العيسوي الذي فجع البلاد في « أحمد ماهر » لم يكن يعرف القراءة والكتابة وحسب ، بل كان من خريجي المعاهد العالية ومن الشبان المعدودين بين أذكاء الخريجين في تقدير بعض عارفه .

ومع هذا استطاع هذا « المتعلم » أن يصدق أن اعلان الحرب في سنة ١٩٤٥ يفرق البلاد المصرية في بحر من الدم ويجر عليها الخراب ويقضى على أسطولها التجارى ويسخر الألوف من أبنائها لشهوات المستعمرين .

وظهر جهله الفاضح في أقل من شهر واحد ، ولكن ظهور هذا الجهل لم يمنع شابا آخر تخطى التعليم الثانوى الى التعليم العالى أن يصدق أن « محمود فهمى النقراشى » سلم فلسطين لليهود وسلم السودان للانجليز . ولم يمنع شابا آخر تخطى التعليم الثانوى أيضا أن يصدق أن هدم محكمة الاستئناف على رؤوس ألفين من المستشارين والقضاة ورجال القانون ووكلاء الدعاوى واصحاب القضايا والباعة والشهود هو عمل يرضى الله ويأمر به دين الاسلام .

وهذا كله لم يمنع كثيرا من الشبان المتعلمين أن يصدقوا أن الجيل الذى عاصر الاحتلال من المصريين جيل خائن بأسره لم يصنع صنيعا قل أو كثر في خدمة القضية المصرية ، ومن حقه أن يباد وأن تستباح سمعته وحرите بغير اكرات .

وهذا اللغو الذى صدقوه بغير مشقة لا يدخل فى دماغ بهيمة تمشى على أربع ، لو أن بهيمة تمشى على أربع تصفى الى كلام وتتكلف أن تسيف ما تصفى اليه لأن أضيق فكر - يستحق أن يسمى فكرا - يفهم أن الفضل فى خدمة الوطن يحسب لمن عاصر السطوة الأجنبية ، ولا يحسب لمن جاء بعد زوالها أو جاء بعد أن خفت وطأتها على كاهل الأمة .

هذا كله صدقه أولئك المتعلمون لأن التعليم لم يتغلب على نزعة الشر فى طباعهم ، فماذا نرجو من نشر التعليم بعد خمسين سنة ان كان انتشاره سيطرد على هذا المثال ؟

أقصى ما نرجوه أن يصبح كل فرد فى مصر متخرجاً من مدرسة ابتدائية أو ثانوية . فهل نضمن بعد ذلك رأيا عاما صالحا للحكم على حقائق الأمور .

يسأل سائل : أظن أن التعليم لا يفيد ؟ وجوابى البديهي : كلا ان التعليم لا يفيد ما يفيد فى تربية الأمم ، ولكنه تعليم اللباب لا تعليم القشور : تعليم المعرفة والتربية النفسية لا تعليم المراسم والأوراق والألقاب . وتعليم

بين الحضارة الحقيقية وهذه الأشكال المترفة التي تتخذها في بعض العواصم الغربية . فما داموا قد حصلوا مثل ما يحصله أقرانهم هناك من علم وما دام ما حصلوه لم يبلغ بهم جوهر الأمور فهم يخلطون بين الأصول والفروع . ونزعتهم الى ذلك تغذيها السن كما تدفع اليها أقرانهم في الغرب ولا يرددهم عن الانسياق اليها ما يرد هؤلاء من الجوانب الخسنة للحياة الغربية كالخدمة العسكرية والحرب وصعوبات السعى للرزق . ومن هنا

المراسم والأوراق والألقاب هو الذي أخرج لنا أولئك المفتونين ، ويمكنهم من الظهور بين الناس بمظهر العلماء وأغناهم بهذا المظهر الكاذب عن طلب المعرفة الصحيحة ، لأن المهم عندهم أن يحصلوا على « مستند » بأنهم متعلمون ، لا أن يكونوا في الحقيقة متعلمين . ومثل هذا الاعتقاد خطر على أكبر العقول ، فما بالك بعقول الأغرار الذين لا تقوم عوجهم استقامة منتظمة في أساليب التعليم . إن هذا الاعتقاد اذا دخل عقلا حال بينه وبين الاصفاء الى رأى نافع أو فكرة صائبة . لأنه يستكبر أن يتعلم من أحد ويستكبر أن يصارح نفسه بالحاجة الى مزيد من التعليم . ولينه مع هذا يفلق أذنيه عن كل كلام يسمعه ، فانه في هذه الحالة سيفلقهما عن سماع النافع والضار على السواء . ولكنه في الواقع يسمع الضار ولا يسمع النافع ، لأن الأعوج المغرور يستمع لما يرضى غروره ولا يستمع لشيء غيره ، وهنا الطامة الكبرى التي تعميه عن الحق وتجعله عامدا أن يحجب عينيه بيديه .

فالمغرورون في كل عصر ، وفي كل أمة ، هم أسهل فريسة للدجالين والمضللين . وكل من قال لواحد من هؤلاء المغرورين انك قد استوفيت كمالك وانك أنت بدعة الأزمان فهو مصدق ، وما يقوله له مسموع ومقبول ، وكل ما عداه غير مسموع ولا مقبول .

لقد كان سهلا على العيسوى أن يفهم ضلالتة ، أو يتأنى على الأقل في حكمه لو استطاع أن يسيخ أنه قد يخطئ وأن أحمد ماهر قد يصيب . ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيعه ، لأنه يريد أن يقترب وأن يصدق ما يرضى غروره دون غيره . ولذلك فتح دماغه لتلك الضلالة التي لا يفتح لها دماغ الجاهل الساذج بغير غرور .

فاذا كان تعليمنا سيطرد على هذا المثال فلا خير فيه ، والجهل خير منه وأسلم .

أما اذا كنا متجهين بالتعليم الى وجهة المعرفة الصحيحة والتربية النفسية وكان أبناؤنا سيذهبون الى المدرسة للحصول على العلم لا للحصول على « مستند » بالعلم ينفخ أوداجهم ويغلق أبواب عقولهم عن الصواب ، فنحن صائرون الى القوة والمجد ، حين يصبح المصريون أربعين مليوناً متعلمين مثقفين صالحين للحكم على حقائق الأمور . « مصر بعد خمسين سنة » : الأستاذ عباس محمود العقاد ، أخبار اليوم في ٢٢ يناير سنة ١٩٤٩ .

هذا التهالك الذى نسمعه فى الغناء ونقرأه فى الصحف ونراه فى الأشرطة السينمائية .

وهذا الجيل يتنقص أيضا بأزوراره عن الأعمال المالية وإقباله على الوظائف رغم ما يهديه إليه الناصحون من نصح لا يقرنونه بالعمل . ولا شك فى أن هذا الأزورار يرجع فى غالبه الى ما رأينا من غلبة الطابع الزراعى على الاقتصاد المصرى وما يبنى عليها من بقاء المجتمع محدود المعاملات قليل الربح كثير الأخطار . وهو لا يمكن لذلك أن يعالج بالنصح والانتقاد انما يكون علاجه باستثمار الأموال المصرية فى الصناعة والتجارة وإقامة المنشآت التى تستخدم أبناء البلاد وتدريبهم تدريباً عملياً نافعاً . وليس لدينا على كل حال ما يدل على انصراف من التحق بالأعمال المالية ونجح فيها من أبناء الجيل الحاضر عن ميدان هذه الأعمال رغبة فى التوظيف . انما الذى نشهده الآن وشهدناه أثناء الحرب الأخيرة ، حين كثرت المنشآت الصناعية ونشطت المعاملات ، هو عكس ذلك بالذات فقد أقبل الموظفون وقتئذ على ترك وظائفهم للالتحاق بهذه المنشآت . وهكذا يكون الأمر أمر الأوضاع الاقتصادية والثقة بالمستقبل قبل أن يكون شيئاً آخر .

ومما يصدر عن هذه الظاهرة الأخيرة ويلحق بها ، هذا النهى المادى الذى يلحظ على الجيل الحاضر ويدفع ببعض أبنائه الى ما تنهى عنه الأخلاق السليمة كارتشاء الموظف وعبث الطبيب وغش المهندس الخ . . رغبة فى التزيد من الربح . فهذا أيضا يرجع الى ندرة المعاملات وعدم اكتمال وعيها الى الحداثة أيضا . فهذا الجيل ان شئنا أول جيل يتكسب بمزاولة الصناعة والتجارة ويواجه تكاليف الحياة العصرية دون أن تكون وراءه ثروة خاصة . وهو لذلك يحاول الاكثار من الربح ما استطاع ولا يتقيد بالتقاليد الصناعية والتجارية أو مقتضيات الاستثمار الحكيم . وقد سبق أن رأينا كيف ينظر المجتمع الزراعى عادة الى الانتاج الصناعى والتجارى نظرتة الى الابتذال أو الاستغلال الأثيم .

وشعور هذا الجيل بالفروق الاقتصادية التي تقوم بينه وبين الغربيين هو بعض العلة فيما يديه من جفاء نحو الأجانب المقيمين بين ظهرائه ، وهو جفاء يحمل عادة على محمل البغض للغرب ويبعث لذلك الدهشة فيمن يقارنه بانتشار أساليب الحياة الغربية بين أبناء البلاد . والواقع أن هذه الظاهرة تشتمل على عوامل مختلفة ففيها دون شك شيء من تشفى المستضعف الذي استعاد قواه ، وشيء من أثر الخلافات الدينية القديمة ، وشيء من هذا التوتر الذي ينشأ بين قوم يلتقون كل صباح ومساء ولا يتواصلون ، وفيها قبل كل شيء الرغبة الملحة التي يشعر بها الجيل الجديد في هذه الحياة العصرية التي استأثر بها هؤلاء النزلاء الى الآن ، وهي لا تتعارض لذلك والميل الى الغرب في شيء بل تبدو بين أصحاب هذا الميل ، وخصوصا بين من قضى منهم بعض حياته في الغرب وأصبح يرمى بالابتعاد عن صميم الحياة الشرقية أكثر مما تبدو لدى غيره ، ولا تعدو لذلك أن تكون هي الأخرى في جوهرها مظهرا من مظاهر التوازن الآخذ سبيله بين المجتمع الغربي والمجتمع المصري ، بعد ما قطعه هذا الأخير في هذا الصدر الأول من القرن العشرين ، في طريق التقدم الاجتماعي والسياسي (١) . ونحن لم نتصل على كل حال بالغرب صلة التزاور والصداقة والتعامل كما اتصلنا به في هذه السنوات الأخيرة ولعل تزواج المصريين من الغربيين لم يبلغ ما بلغه في هذه السنوات أيضا قط . وقد أفاد اتعاش الحياة الاقتصادية في هذا النصف الأول من القرن العشرين ، وانتشار التعليم ، ومجاهدة قادة الفكر في اذاعة الفكر الصحيح ، وما صحب ذلك من انتشار هذا الجو السياسي الجديد الذي أعقب نزول الاحتلال السياسي عن معاقله الأمامية — أفاد دون شك في تثبيت أقدام هذا الجيل وتقوية شخصيته وتجنبيه ، ولو الى حد ، الحيرة التي عاناها الجيل السابق من أمر الطريق التي يحسن بمصر أن تسلكها كما يحقق أهدافها . ونحن نقرأ الآن لكتابنا حتى من قنع منهم بفتات الثقافة الغربية

(١) أنظر وصف عوارض هذه الظاهرة في « هموم الشباب »

لعبد الرحمن بدوي .

وعرف في شبابه بالابعاد في التقليد والتشيع للغرب ، فشعر بهم وقد عادوا يعكفون على أنفسهم وتراثهم الوطني وجعلوا يستمدون من عودتهم هذه شخصية جديدة وأسلوباً في التفكير والكتابة جديداً . وما الحركات الإسلامية المنتشرة الآن إلا صورة من صور هذه الظاهرة في الجناح الذي لم يتصل بالغرب من المجتمع . كذلك نعثر بين تناجنا الفكرى الحديث على آثار ذات قيمة علمية لاشك فيها ، ونسمع من القائمين بالحكم في ميدان النضال السياسى لهجة حرة لم تكن نسمعها حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، ونجد بين المحكومين ابعادا في هذا الاتجاه يكاد ينقلب الى استهتار بكل ماهو أجنبى واستعلاء عليه ، ثم نرى هذا الاقبال على النشاط الصناعى والتجارى الذى كان يلقي الرهبة فى نفوسنا حتى الأمس القريب ، وان كنا نلمح فى كل هذا أثر قادة الرأى فى اتباعهم وتحول الأوضاع السياسية العالمية ونمو الثروة فى البلاد ، أكثر مما نلمح أثر العمل الإيجابى المدبر .

ونحن ننتهى من هذه النظرة السريعة لأوضاعنا الحاضرة الى ما وصلنا اليه بالعرض لأهم أحداث تاريخنا تحت الممالك من أن الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شئ أمر فقر الدم هذا الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس العشر والتاسع عشر ، فحد من نشاطها الاقتصادى ، وهبط بحياتها الاجتماعية الى الحضيض ، ودفع بفكرها الى الجود الأزهرى . أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يستطيع أن يتردى فيه شعب من دمار الى أحدث ما انتهت اليه البشرية المتمدنة ، ويحاول أن يساير هذه الحياة الجديدة دون تقاليد أو مقومات حقيقية ، وهو يتعثر لذلك بين هشيم الماضى وعقبات الحاضر ولا يريد أن ينظر الى ظروفه الخاصة النظرة المجردة التى تستحقها ، ويعالجها بالحزم الذى تقتضيه . ومعالجة مثل هذه الحالة لا تستطيع أن تستقيم إلا بتنقية هذا الدم وتغذيته والاكتثار منه ، وهو عمل يقتضى مجهودا كبيرا يشترك فيه جميع أفراد المجتمع ، لأنه يتصل بنشاط كل منهم . هذا اذا كان المجتمع قد بلغ من الرشد ما يشعره بحقيقة أوضاعه والا كان هذا المجهود من واجبات الدين

ينهضون بالحكم والصفوة التي تقوم الى جانبهم . وقد صرفنا كفاحنا
السياسى — وهو أيضا كما رأينا صورة من صور قصورنا الاجتماعى —
صرفنا عن مواجهة ذلك المجهود ومازال يفسد علينا محاولته . كذلك
مازال غالب الطبقة الحاكمة فينا يظنون صادقين أن العناية بمسائلنا
الداخلية تأتي في المرتبة الثانية بعد مجاهدتنا الانجليز ولا يرون أن أوضاع
الأمم في ميدان الحياة الدولية ليست ، آخر الأمر ، سوى الانعكاس
المباشر لظروفنا الداخلية في هذا الميدان ولا شأن كبير لها بمهارة الرجال
الذين يحكمون أو دهائمهم أو ما يتصايحون به كل حين من تحالف الأحزاب
السياسية أيضا . وقد تحالفت الأحزاب لدينا فعلا فلم تتقدم أمورنا في الداخل
أو الخارج خطوة واحدة بل عقدت تلك المعاهدة المصرية الانجليزية التي
تتنكر لها هذه الأحزاب الآن ، لأن نصوصها لم تزد في قوة مصر الذاتية
ولم تضعف من قوة انجلترا الذاتية فبقى وضع كل من البلدين على ما هو
عليه وبقي القوى منهما يؤثر في الضعيف كما حدث وكما سيحدث في الصلات
بين الأفراد وبين الدول في كل زمان ومكان . وهكذا ظل الساسة
يتلقون التعليمات من ممثل السلطة المحتلة ، وموظفو الدولة يترجعون
بين السلطة الشرعية والسلطة غير الشرعية ، ومصالح البلاد تدور في فلك
مصالح هذه السلطة الأخيرة ، بينما نحن نشهد الآن تحولاً حقيقياً في هذه
الصلوات وتحرراً ملموساً من ناحية الذين يحكمون لاشك فيه ، لأن
سنى الحرب الأخيرة شهدت ارتفاعاً في قوى البلاد لا ريب فيه أيضاً وظهور
جيل جديد أوفر شعوراً بالوعى القومى من الجيل الذى سبقه وتطوراً
في تكوين الطبقة الحاكمة ، وكل ذلك في الوقت الذى تغير فيه جو السياسة
العالمية وتضعفت قوى الامبراطورية الانجليزية . نشهد هذا ونعلم أن
المعاهدة المصرية الانجليزية مازالت قائمة كما كانت منذ سنة ١٩٣٦ .
ولسنا نريد أن نقول بهذا أن وضع انجلترا في مصر لا يؤدي الى تعطيل
النهضة التي نريدها ولكننا نريد أن نقول أنه لو درس الطالب فأتقن
دراسته وعمل العامل فأحسن عمله وحكم السياسى فأحسن حكمه
لما استطاعت انجلترا أن تقاوم احسانهم مقاومة مثمرة ولكانت خسرت
أكبر تكأة لها في البلاد .

وقد بذلت ومازالت تبذل دون شك جهود كثيرة في طريق معالجة ما يدعى بالمسائل الداخلية أو الاصلاح الاجتماعى ، تقصد هذا النقص في تكويننا كمجتمع حديث ، بذلت في ميدان التعليم والاستثمار الزراعى على وجه الخصوص ، وهى تبذل الآن في ميدان العلاقات الاجتماعية والاقتصاد ان شئنا أيضا ، وكانت النتيجة هو ما يعاب على هذه الجهود الآن من التعثر والوقوف عند القشور ، كما عيب ذلك على حكام الآستانة والولاة العثمانيين ، لأنها لم توجه الى صميم الأمور ولم تنظر الى حالة المجتمع كشيء يتم بعضه بعضا . ونحن لا نريد أن نعرض هنا للجدل القائم الآن في كل مكان حول دور الاقتصاد في الحياة الاجتماعية ونقنع بالإشارة الى ما يقربه حتى أشد المفكرين انكارا للمادية التاريخية من ما بين حالة المجتمعات وحظها من الثروة ، وبين الأوضاع التى تتخذها والطرق التى تنتهجها في انتاجها وتوزيعها من صلة مباشرة^(١) . وقد سبق أن تحدثنا طويلا عن الحالة الاقتصادية التى كانت عليها مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ورددنا اليها قبل كل شيء ما كانت عليه البلاد وقتئذ وما زالت عليه من ضعف ظاهر ، كما رددنا اليها التوغل الغربى في حياتها الاقتصادية والثقافية والسياسية . وقد كان أول ما يجب بذله في سبيل الاصلاح الاجتماعى هو معالجة هذه الحالة بتنحية الثروة^(٢) . ولكن الذى حدث وما زال يحدث هو أن محاولاتنا الاصلاحية تركت هذا الجوهر للعروض ، وانصرفت عن معالجة الفساد الحقيقى لنقف عند

(١) أنظر ذلك مثلا لدى سبنسر وبازيتو وهما من خصوم المادية التاريخية .

(٢) وقد تنبه المسؤولون أيضا الى هذا أخيرا ؛ فنحن نقرأ فى تلخيص لتقرير اللجنة المالية بمجلس النواب عن السياسة المالية العامة فى سنة ١٩٤٨ ما يأتى :

« . . . وقد مهدت اللجنة لذلك ، بكلمة اشارت فيها الى أن الاستقرار الاقتصادى هو الأساس الذى يقوم عليه سبيل عالمى دائم ، وهو لسبيل كذلك الى اقامة التوازن الداخلى فى كل بلد وأبانت أن دعم الاقتصاد القومى ، يساعد على تحقيق الامن والتضامن الاجتماعى ومواصلة التقدم فى كل مناحي الحياة . ثم عرضت لما بينته فى تقريرها فى السنة الماضية من أن علة الجماعة المصرية هى فقدان التوازن والاستقرار الاقتصادى ومن أن الفقر هو الداء الأصيل وليس الجهل والمرض سوى بعض آثاره . وأنه ليس أدل على هذه

معالجة آثاره ، فوجئت تثقيفنا وجهة لا صلة لها بحياتنا اليومية (٢) وأقامت نظم الحكم الحديثة دون أن تعنى بإيجاد الأساس الذي تقوم عليه (٣) . وهي تصرف الآن الملايين في الارشاد الاجتماعي لتوجه وتهذب قوما تعلم أنهم لا يأكلون ، ثم اذا خرج شبابنا من معاهده ولم يجد عملا ، أو أقبل على العمل الحكومي ، أو حاول الأعمال الحرة ثم أخفق ، أو انخرفت نظم الحكم لدينا عن الطريق التي أريد لها ، أو ضاعت الملايين التي تصرف في الاصلاح الاجتماعي مدى ، قلنا فيما بيننا أن الذنب ذنب هذا الشعب الذي لا يفقه . وقلنا فيما نعلن أن الذنب ذنب هذا أو ذنب ذلك النفر من المسؤولين ، وأن الحال على ما يرام ، وأن هذه الأمة خير أمة تسعى في الأرض . وتركنا الأمور تجري في أعنتها الى أن يأتي الله أمرا كان مفعولا .

والذنب من قبل ومن بعد هو دون شك ذنب الذين يحكمون . ذنب الذين يحكمون ولا يقوون على الخلاص من سياسة التستر التي تجرى عليها أمورنا الى اليوم ، سياسة التستر التي لعلها كانت من الحقيقة من أن الاوبئة التي اجتاحت البلاد في السنوات الأخيرة كانت أكثر فتكا بين الطبقات الفقيرة . وأن آخرها - وهو وباء الكوليرا - الذي اكتسح أرض الوطن قد خلف وراءه آلاف الضحايا واستهدفت البلاد بسببه لشلل تام في كيانها الاقتصادي والاجتماعي لم يدرأ عنها خطرهم الا ما بذل من مجهود جبار ..

.. وبعد أن أثبتت اللجنة الاحصاء الأخير لقسم الاقتصاد الزراعي والاحصاء بوزارة الزراعة مبينا فيه دخل كل فئة ودخل كل فرد ، قالت ان هذا الاحصاء واضح الدلالة على أن الدخل من الملكية الزراعية مع انخفاضه يترجم عن سعة في الفوارق بين الحدود العليا والحدود الدنيا لفئاته . فان متوسط الدخل القومي السنوي من الملكية الزراعية يتراوح بين جنيهين و ١٧ جنيها للفرد من صغار الملاك وبين ١١٧ جنيها و ٤٩٨٩ جنيها للواحد من كبارهم وهم يمثلون الأقلية ٠٠٠ » . جريدة الاهرام في ١٨/٢/١٩٤٨ .

(١) وقد رأينا أن صناعاتنا جميعا تجتلب فنييها من الخارج وأنا ضعفاء كل الضعف في العلوم الاقتصادية والاجتماعية .
(٢) ونحن ما نكاد نفك الخط كما يقال حتى ننادي بضرورة اصلاح حال الفلاح لأنه جاهل مريض فقير ومع ذلك نعطي هذا الفلاح حق تغيير الحكومات من طريق الانتخاب المطلق ولا نعهده لمزاولته .

مقتضيات النضال السياسى فى مصر حين كان الأمر أمر تقوية الروح المعنوية بين المحكومين ، واقناع العالم بأنهم شعب حقيق بالاستقلال ، مثله مثل غيره من الشعوب . لا يقوون على الخلاص من هذه السياسة وانتهاج سياسة تقوم على مواجهة الحقائق بعد أن رُد الحكم الى أهله واستكملت البلاد وعيها وقامت على قدميها وأصبحت فى حاجة الى معالجة مسائلها معالجة حقيقية فليس من العيب أن تتأثر أمة بعوادي الزمن، إنما العيب كل العيب فى أن لا تقاومها أو أن يكون كل ما تستطيع أن تقاومها به هو التستر عليها والمنافقة فى أمرها .

والعلة فى هذه الطريقة التى يجرى عليها الإصلاح لدينا هى، كما رأينا ، أن الذين يشرعون يقلدون الغرب بدلا من أن يدرسوا الحقائق الواقعة ، ويخلطون بين الأوضاع الاجتماعية والقوانين التى تنظمها فينقلون هذه وهم يظنون أنهم ينقلون تلك . ونحن نعلم أن من أكثر قوانيننا خطرا ما ترجم ترجمة سيئة أو جمع جمعا سريعا دون أن يكون لمن ترجمه أو جمعه صلة مباشرة كبيرة بالظواهر التى تعالجها . ونرى ما يصيب حياتنا اليومية من جراء هذا ونكاد نلمح الجرائم التى تحملها القوانين المنقولة وهى تفرخ فى مجتمعنا هذا الناشء الذى كان من المستطاع ، لو أحكمنا التفكير ، أن نضع له — وأماننا خبرة العالم أجمع — خير تشريع يمكن أن يضعه البشر . ولسنا نعرف مسؤولا واحدا يقدر مسؤوليته ولا يشكو قلة الخبرة الفنية لدى معاونيه وأثر الاضطراب السياسى فى عمله . وما دامت الخبرة الفنية لا توجد فى الداخل لأنها لا يمكن أن تنشأ هكذا من لا شئ أو من التعليم النظرى ، ولا يمكن استقدامها من الخارج لأن سياسة التستر لا تسمح بذلك ، فستظل حياتنا الاقتصادية ، وهى كما رأينا أضعف ما فى كياننا الحديث ، معرضة لهذه الهزات الشداد التى تصيبها الآن ، وتظل أمورنا جميعا مجردة من التنسيق الذى تحتاج اليه كل الاحتياج ، ان أردنا أن نسير حقيقة الى الأمام ونقطع المسافات التى تفصلنا عن هذا الغرب الذى نعجب به .

ونحن لا نريد أن نعرض هنا للتشريع الاقتصادى والمالى والاجتماعى الذى ظهر لدينا فى السنوات الأخيرة ، فليس هذا مجال ذلك ، فضلا عن

أن الذين وضعوا هذا التشريع يلمسون الآن أخطاءه ولا ينكرون ما أحاط بوضعه من شعث ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل ما يقوم بشأنه في روع الكثيرين منا حتى اليوم ، مما يتصل بهذا البحث ، من ناحية نشاطنا الصناعي ومستقبله وعلاقته بحياتنا الاجتماعية وتبديد ما يعلق بكل ذلك من وهم ليس من الخير أن يستمر . ونحن نقسم الآن من هذه الناحية فريقين : فريق يرى أننا بلد زراعى وسيبقى كذلك الى آخر الدهر . وهذا الفريق ، وإن قل عدده في السنوات الأخيرة ، مازال يضم غالب أصحاب الأراضي الزراعية ، ويتمكن بنفوذه في دوائر الحكم من توجيه التشريع المالى والاجتماعى الى ما يرجح كفته ^(١) ، ويجد في دعاية البلاد التى تنافس صناعتنا ما يدعم فلسفته ^(٢) . وفريق يرى أن مصر فى حاجة الى الصناعة لمواجهة مسألة النسل وقلة الأراضي الزراعية ^(٣) . وهذا الفريق يثير الآن مسائل عديدة انتقل اليه بعضها من الفريق الأول ، فهو يتساءل من أين لنا الخامات التى نغذى بها صناعتنا ونحن لا نملك منها شيئاً كثيراً ، وكيف

(١) من أمثال ذلك الفروق بين الضرائب المفروضة على الصناعة والتجارة والضرائب المفروضة على الزراعة وذلك بالرغم من كثرة ما تصرفه الدولة على مشاريع الري .

(٢) أنظر مثلاً مقالة الايكونوميست الصادر فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦ عن الصناعة المصرية .

(٣) ومسألة النسل هذه - وهى بلا شك من أخطر المسائل التى ستواجه البلاد حين تنصرف حقيقة الى معالجة الهام من شئونها - أثارت وما زالت تثير نقاشاً طويلاً ينتهى المشتركون فيه عادة - وهم يتأثرون فى ذلك بنظرية ملتوس رغم ما وجه اليها من نقد سليم - الى ضرورة الأخذ بتحديد النسل . وهذا الرأى يذكرنا برأى آخر كانت بعض دوائرنا تنادى به الى عهد قريب فى صدد ما يجب أن تكون عليه سياسة التعليم فى مصر فقد كانت هذه الدوائر ترى أنه ما دام القصد من التعليم على وجه العموم هو الاعداد للتوظيف ! فلا يجب أن يتجاوز التعليم قدر التوظيف .

والذين ينادون بمثل هذه الآراء ينسون أن هذا العالم لم يبلغ بعد منتهاه ، وأن العلم مفتاح كنوزه ، وأن سياسة التحديد التى ينادون بها تنتهى فى الغالب الى افقار دم من يأخذ بها واضعاف أجهزته ، وآية ذلك ما صحب هبوط النسل فى غالب الأمم من الانهيار . وخير لنا أن نعنى بتثقيف الأفراد واعدادهم ليقوواهم على تذليل الصعاب التى يواجهونها ، وهم لابد مواجهون شيئاً منها على كل حال ، من أن نحرمهم الحياة أو نتركهم فى جهل الانعام . وقد كنا فى عهد محمد على مليونين ونصف وكنا لا نكاد نأكل ونحن الآن عشرين مليوناً لا تقل حال واحد منهم عما كانت عليه حينئذ من أية ناحية نظرنا اليها لاننا أوجدنا منابع للثروة لم تكن نعرفها فى ذلك الوقت .

تستطيع هذه الصناعة ، متى قامت ، أن تناهض البلاد الصناعية في الداخل والخارج ، وهل اذا احتاجت في ذلك الى معونة الدولة ، وجب على الدولة أن تقدمها اليها ، والى أى حد يجب أن تقدمها اليها ، ومن أى نوع تكون ، وما الحقوق — وهنا يرتفع صوت الدوائر المسئولة على وجه الخصوص — ما الحقوق التي يجب أن تحوّلها هذه المعونة للدولة ؟

والقول بأن مصر في حاجة الى الصناعة لمواجهة مقتضيات زيادة النسل قول لا يعدو الصواب ، ولكنه ليس الصواب كله ، فليس أمر الصناعة لدينا أمر موارد جديدة ينبغي لنا أن نجدها كما نسد بها عوزنا ، ونستطيع أن نتصرف عنها ان كف عوزنا هذا بأن قل النسل أو عثرنا على موارد أخرى فاستصلحنا الصحارى أو زدنا في قيمة محاصيلنا . انما هو أمر نوع الحياة التي نريدها لنا ولأبنائنا من بعدنا ، هل هي هذه الحياة العصرية التي لا تنى تسير من اكتشاف الى اكتشاف وترفع من شأن البشر وتفتح أمامه آفاقا لا آخر لها ، وهي الحياة التي تتركز في الحواضر الصناعية الجبارة التي نعجب بها جميعا^(١) ، أم هي هذه الحياة القديمة بجوها الراكد وآفاقها الضيقة وعلاقاتها البدائية ، وهي هذه الحياة الزراعية التي لم تعد تستطيع أن تشغل الا مركز التابع من المتبوع بالقياس الى الحياة الأولى . وقد فاتنا ونحن ننقل نظم الغرب وندهش لتقلصها لدينا ، فاتنا أن هذه النظم وضعت لمجتمعات صناعية ولم يكن من المستطاع الا تقلص لدينا ما دام مجتمعنا مجتمعنا يغلب عليه الطابع الزراعى . فهذا الحكم النيابى الذى نريده على كل حال وهذه القوانين الاجتماعية التي وضعناها أو نريد أن نضعها وهذه الأوضاع العصرية التي نريد أن تجرى عليها حياتنا العامة والخاصة جميعا أشياء انتجتها مجتمعات تعيش متجمعة في المصانع وقصدت بها الى معالجة ظواهر حياتنا الخاصة ولم تنتجها المجتمعات الزراعية^(٢) .

(١) والدليل على ذلك ، ان كان الأمر في حاجة الى دليل ، هو أن الحياة المصرية الجديدة هي حياة مصر الصناعية وأن المصريين الجدد هم الذين يعملون في المصانع والمتاجر .

(٢) ونحن نعلم أن فى الغرب من يرتفع بالحياة النيابية الى أثينا وروما وأن فى الشرق من يجدها فى صدر الاسلام ونود أن نحيل الأولين على مومسن وفوستيل دى كولانج ناصحين اياهم بأن يقرأوهما بامعان ونحيل الآخرين على كتاب « عثمان ، لطف حسين » .

ونحن لا نريد أن نقول بهذا أن مرجع الحضارة هو نوع الإنتاج ولا شيء عداه ، إنما نريد أن نقول أن الثروة وإنتاجها وتوزيعها عوامل هامة في تكييف الأوضاع الاجتماعية التي تتخذها الشعوب ، ومن ثم يصير أمر تصنيع حياتنا أمرا لا مفر منه ، لا حلا من حلول نستطيع أن نتخذه ونصرف عنه حسب ظروف النسل ، وتصير مسائل المواد الخام والمنافسة الدولية ومعونة الدولة التي تثار الآن عقبات تقتضى التذليل لا شروطا يشرط بقيامها هذا التصنيع (١) .

(١) ونحن نقرأ فى مقالة للأستاذ العقاد بمجلة أخبار اليوم فى هذا الشأن ما يأتى :

« ان مصر فى خلال خمسين سنة ستصبح فى عداد الأمم الصناعية الكبرى . فكهربية الحزان ، وهذه الثروة المعدنية التى تتفجر من باطن الأرض ، وهذه المساعى التى تنصرف الى الأعمال الحرة ، والابتكار فى استخدام المال فى غير الزراعة أو الموارد المألوفة منذ القدم - هى ضمان ذلك المستقبل الذى نرقبه ونتمناه . »

وستحل لنا الصناعة مشكلة كنا نحسبها عصبية على الحل قبل عشرين أو ثلاثين سنة ، وهى مشكلة الازدياد المطرد فى عدد السكان مع وقوف الثروة الزراعية عند حد لا تتعداه .

ولكن الصناعة ستفيدنا فى غير هذه المشكلة ، وهى وحدها غنم عظيم يستحق ما يبذل فيه من جهود .

ستفيدنا فى عقولنا وأخلاقنا ومقاييس حياتنا الاجتماعية ، ونظراتنا الى قيم الحياة .

لأنها ستنقل المجتمع المصرى من « بنية بسيطة ساذجة » الى « بنية مركبة متقدمة » .

فلا يخفى أن الارتقاء هو الترقى من البساطة الى التركيب ، وأن الجماد أبسط من النبات ، والنبات أبسط من الحيوان ، والحيوان أبسط من الانسان ، وهكذا يطرد الأمر فى جميع التراكيب .

ومجتمع يقوم على الزراعة وحدها أبسط من مجتمع يقوم على الزراعة والصناعة والأعمال الاقتصادية المختلفة والتجارية المتنوعة .

ذلك ارتقاء فى الملكات والهمم ، وارتقاء فى تعدد جوانب الفكر والخلق ، وارتقاء فى القدرة على التعاون بين أنواع الأعمال وطوائف العاملين .

وهذه هى المزية الاجتماعية النفسية التى تهيئها لنا الصناعة المتقدمة وما يقترن بها من أعمال الأحاد والطوائف والجماعات .

وغير بعيد على مصر مع أطراد هذا التقدم - أن تصبح على شاطئ البحر المتوسط أقوى دولة فيه ، دون استثناء دولة من الدول التى لا تدرك شأوها الآن .

وغير بعيد كذلك أن نواجه العالم برسالة ثقافية روحية ، تتوافر عندنا على نشرها أسباب القوة والمعرفة والغنى ، فتبرز مصر الى مكان الصدارة ،

وتعلم الانسانية شيئا جديدا فى عالم جديد ، كما علمتها بالامس شيئا جديدا فى العالم القديم . » « مصر بعد خمسين سنة » ، أخبار اليوم فى ٢٢ يناير

سنة ١٩٤٩ .

ومسألة المواد الأولية هذه لا تعدّ ، حتى لدى من يثيرها ، بالمسألة الخطيرة حقا ، فقد كشفنا في المدة الأخيرة عن شيء منها وما زلنا نستطيع أن نكشف عن غيرها . ونحن لم نشعر على كل حال في الأوقات العادية بالحاجة الى مادة تستخدمها صناعتنا وعجزنا عن جلبها بأسعار لا تزيد زيادة ذات بال على أسعارها في بلادها . وليس كل بلد غنى في المواد الأولية بلدا صناعيا وليس كل بلد فقير في المواد الأولية أو بعضها بلدا غير صناعي . وقد كانت إنجلترا أكبر الدول المنتجة للمنسوجات القطنية وهي لم تزرع القطن قط ، ولا نظن أنها كانت تجبرنا على زراعته جبرا . وسويسرا بلد صناعي الى أقصى حد وهي مع ذلك ليست أحسن منا حالا من ناحية المواد الأولية . ونحن على كل حال أثرياء في مادة لا يجدها غيرنا بالكثرة أو الجودة التي نجدها لدينا ، وهي ما تستطيع أن تؤديه هذه الملايين من السواعد الفتية الذكية التي تبحث الآن عن عمل ولا تجده وتضيع فيما لا غناء فيه ملايين الساعات من الانتاج .

وأمر المنافسة أمر اتقان وسعر . والاتقان لا بد آت مع الزمن ، ولا سيما اذا قامت عليه الدولة ومدت له الأسباب بالتيسير الحكيم والاعداد والتشجيع فنحن شعب ذكي وأماننا خبرة هذه القرون من الحياة الصناعية نستطيع أن نفترق منها ما نشاء ما دمنا نفترق بحكمة . والغرب لا يخترع كل يوم ، ثم انه يخطأ ويخطأ كثيرا ، وفي مقدورنا لذلك اذا قبلنا أن نتحمل ما يقتضيه ذلك من جهد أن نقطع في سنتين ما قطعه هو في قرون بعد أن أصبح الطريق أمانا طريقا معبدا ظاهر المعالم .

كذلك ليست الأسعار شيئا جامدا لا يتحول . وتكاليف الانتاج مرتفعة لدينا الآن لحدائث المنشآت وقلة الانتاج وارتفاع أجور الفنيين وعلو سعر رأس المال ولكنها لا بد منخفضة متى تكونت التقاليد الصناعية واتسع الانتاج وكثر الفنيون ونمت رؤوس الأموال . ونفقات انتاجنا الزراعي لا تقل - رغم عراقته - عن نفقات انتاجنا الصناعي ، ونحن مع ذلك ما زلنا نزرع ونحصد ونعيش مما نحصد . ولا شك في اننا نستطيع أن نزيد في انتاجنا الحالي وفي النعشة التي

يبعثها منذ الآن في أطراف المجتمع جميعا الى اضعاف أضعافه دون أن نخرج الى الأسواق الخارجية حيث المنافسة التي قد لا تقوى عليها لاشتباك العوامل السياسية والمالية بالعوامل الاقتصادية فيها ، اذا واجهنا اقتصادنا الزراعى بالحزم الذى يقتضيه ورفعنا من شأن المشتغلين به وزدنا بذلك فى عدد المستهلكين لمنتجاتنا الصناعية . فنحن لا نتج الآن الا لهذه المدن القلائل التى تنتشر فى أعلى الأرض وأسفل الأرض دون أهل هذا الريف الشاسع الذى يبلغون نحو ثلاثة أرباع أبناء البلاد لأنهم لا يكادون يستهلكون الا ما يصلون الى تحصيله من المواد الضرورية لحياتهم المتواضعة . واليوم الذى نصل فيه الى ذلك ونزيد عدد مصانعنا بما يقتضيه — وبعضها يكفى الآن وحده دون أن يكون كبيرا غاية الكبر لاستهلاك البلاد بأسرها من سلعة بعينها — نكون قد بلغنا من التقدم الاجتماعى ما نستطيع أن ننظر معه بعين مطمئنة الى المنافسة فى الأسواق العالمية لأنه يكون اليوم الذى يرد فيه الى الحياة المنتجة جميع هؤلاء الملايين من التعماء الذين لا يعلمون الآن شيئا من عالمنا هذا أو يعوقون سير البلاد بثقلهم الميت .

ولا يضير الدولة فى شيء أن تمتد يد المعونة الى الصناعة فى دور نشأتها فقد مدتها لها دول غيرها من قبل ولا شك فى أنها ستمدها اليها فيما تستقبله من الأيام أيضا لأنها ضرورة لا مناص منها لكل صناعة ناشئة ضرورة الوصاية للقصر ، ما دامت هذه المعونة معونة حكيمة تقصد الى اعطاء الصناعة ما حرما اياه عدم تأصل التقاليد الصناعية أو شذوذ الأوضاع الاقتصادية أو الفقر فى المواد ، وما دامت تعمل على تهيئتها للاستغناء عنها قليلا قليلا فى حدود ما تستطيع . وهذه المعونة تستطيع أن تكون فنية فتعمل على توفير اليد العاملة المتخصصة ، أو مالية فتخفف الضرائب حين يجب تخفيفها ، أو ترفع الرسوم الجمركية ما دام رفعها لازما وما دام الجهد مبذولا لتجنبه ، فنحن نحمل القطن ومحصولات زراعية أخرى ، وليس فى العالم دولة لا تحمى شيئا مما تزرع أو تصنع . ليس هذا بضرير الدولة ، وهو ليس أيضا ، فى ظروفنا الحاضرة ، بضرير المستهلكين فليس الأمر لدينا الآن ، كما هو لدى غيرنا ، أمر الحصول

على سلعة معينة بسعر يزيد أو يقل بل أمر استطاعة الحصول أو عدم استطاعة الحصول على هذه السلعة اطلاقاً . تقصد أمر التفضيل بين أن تقوم لدينا مصانع تعطى عمالاً لمن لا يعمل أو يعمل بما لا يسمنه من جوع ، فيستطيع أن يحصل على ما يحتاج إليه بسعر يزيد سعره في البلاد الأخرى ، وبالتالي يحصل على بعض حاجاته ، على ألا تقوم هذه المصانع البتة ويبقى هؤلاء الملايين الذين لا يعملون أو يعملون بما لا يسد رمقهم حيث هم . وأكبر الظن أن قيام الصناعة لدينا على يد الأجانب هو الذى يدفع بنا الآن الى هذا التفريق الغريب بين المستهلك والمنتج ، وهو تفريق لا يوجد في الواقع المحسوس ، فكل منا منتج ومستهلك في وقت واحد وان جاز أن يختلف إنتاج كل منا عن استهلاكه . ونحن لن نستهلك ان لم ننتج وكل خروج عن هذه القاعدة قرينة على شذوذ اقتصادى ليس من الخير أن يستمر . ومصانعنا وان ملكها أجانب فهي ثروة مصرية وملكيته لا بد آيلة للتصدير الى حد بعيد .

وقد قلنا انه لا يضير الدولة أن تمد يد المعونة للصناعة في دور نشئها قاصدين بذلك أن نقول انه لا يؤذيها من الناحية المالية ، أما من الناحية الاجتماعية والسياسية فهذه المعونة واجب من أول واجباتها . ونحن لا نقول هذا لأن دوائرها المسئولة تنكره ولكن لأنها أو لأن بعضها على الأقل ما زال ينظر الى الصناعة — مع اقراره بهذا الواجب — كشئ لا صلة لها به ويريد أن يرتب عليها للدولة حقوقاً ازاء ما يقدمه اليها من معونة ، وهى نزعة هذه الأخيرة تسير منذ حين في الاتساع بدافع تيار التأميم في الغرب . وانكار الصلة المباشرة بين النشاط الاقتصادى ومصير الدولة وهم غريب من نوع التفريق بين المنتج والمستهلك ، فما نظن دوائرها المسئولة تنكر انها قد أفادت من حصيلة الضرائب على الصناعة والتجارة في تمويل مشاريعنا الاقتصادية والاجتماعية العامة الجديدة الى حد بعيد . ولا نظن أن هذه الدوائر لا يهمها حقيقة أن تندثر الصناعات فترتد الى الاقتصاد الزراعى المحض ويقل دخل الدولة ويعود أهلها الى ما كانوا عليه أسلافهم تحت الممالك الى جانب ما يصيب

المجتمع بأسره من جراء ذلك . وقد اتجهنا أخيرا الى وضع سياسة خارجية نسير على هداها ولا سياسة خارجية بدون قوات مسلحة ولا قوات مسلحة بدون أسلحة ولا أسلحة بدون الصناعة القومية التي تنتجها أو تستطيع أن تنتجها وقت الحرب . والدولة لدينا تتدخل الآن في نشاط الأفراد جميعا أكثر مما يجب . وهي ليست حقيقة في حاجة الى الائتام ببعض بلاد الغرب والمد لنفسها في هذا التدخل خصوصا في ميدان الإنتاج فهو ميدان كثير الحساسية دقيق التركيب ثم انه جديد عليها وهي فقيرة في الفنيين وليس من مصلحة البلاد أن تنقل الى هذا الميدان أيضا — وهو بعد أكبر آمالها في مستقبل خير من هذا الحاضر — ما تشكوه هي من الاضطراب ووجوه النقص التي يعلنها الجميع .

لنقنع الدولة اذا بالتعزيد دون التدخل ، وتعمل قبل كل شيء على التيسير ما استطاعت . ففي نظمنا الادارية الحاضرة ما أصبح يتعارض وحاضرنا ويعوقه اعاقا ما أحوجنا الى الجهد الذي نبذله في مواجهتها . وتشريعنا المالي والاجتماعي في حاجة الى الاصلاح والتكميل . وقد آن لنا أن ننصرف الى درس أمورنا الدرس العسير الذي تستحقه وان نتخذ لذلك العدة التي يقتضيها فقد نضج وعينا ولمسنا بيدنا في السنوات الأخيرة عاقبة الارتجال وليس من العيب أن نجهل ما لا سابق عهد لنا به ، وأن نستعين بخبرة القرون التي نالها غيرنا وأن نتعلم . انما العيب في أن نتستر على كل ذلك وأن نغلب الأغراض العاجلة على الغايات البعيدة .

obeikandi.com

عقد النقص

والنتائج السلبية التي تسفر عنها سياسة مجتمعنا الحالي على الوجه الذي رأينا ترد عادة الى طبيعة أهله ، ولا ترد الى التفاوت الذي شهدنا بين حقيقة ظواهره والوسائل التي تعالج بها . وهكذا يتحول الفرق بين مصر والغرب من حقيقته الزمنية ، نغنى حقيقته كفرق كمتى بين ما انتهى اليه المجتمع المصرى بوقوف عجلته صدرا من الزمن ، وما بلغه الغرب بدور عجلته دورا سريعا في هذا الصدر من الزمن بالذات ، لأسباب يخرج أخطرها في جوهره عن ارادة كل منهما ، الى نقص ذاتي ينسب الى المعدن الذي قدئ منه هذا المجتمع . ووضع الأمر هذا الوضع يلقي في قلب أبناء البلاد بذور الشك في أنفسهم ، فيترجعون بين القنوط والاستهتار ، وتنحل عزيمتهم ، ويعبدون في هذه الحياة المتداعية المتشائمة التي نجد عليها حتى أبعد دوائرنا وطنية الى اليوم . وهو يمد بعد ذلك ظله القاتم الى ماضيهم القريب والبعيد أيضا ، ويشوّهه تشويها شديدا ، وينخر بذلك في عظامهم نخرا لا يقل وطأة عن نخر الفاقة الاقتصادية والاجتماعية فيها .

وقد فطن بعض كبار كتابنا الى خطر تشويه تاريخنا هذا الثقيل وهمّوا بالوقوف له فعرض له هيكل في مقدمة كتابه « تراجم مصرية » ، وعنى به العقاد في مقدمته لحياة « سعد زغلول » وتصدى له آخرون ، ولكن أحدا لم ينهض الى يومنا هذا للقضاء عليه القضاء المبرم ، حتى صار أثر حياتنا اليومية في أضعاف عمله أقوى كثيرا من أثر جهودنا العلمية . ولعل بعض السبب في هذا الشذوذ يرجع الى ما زلنا نلتزمه من درس ماضينا على هدى المراجع التي تمكن لذلك التشويه . ومن الغريب حقا ألا يفطن الذين يشكّون في مصيرنا أنهم يشاركون في هذا الشك المعتدين الذين ينادون بضرورة التخلص منهم والكتاب الذين يعيشون في ظلهم . كذلك من الغريب حقا ألا يفطن مؤرخونا الى مشاكلة ما يكتبون في تاريخ مصر ما كتبه فيه غالب الرحالة والساسة وأنصاف العلماء الذين نزلوا عليها من الغرب منذ الحملة

الفرنسية الى الصدر الأول من هذا القرن ، أى أثناء النكسة المصرية ،
في الطابع المفرض الذى ينفرد به ، وألا تدفعهم هذه المشكلة الى الارتياب
في صحة ما يكتبون ، وتردهم عنه الى آفاق جديدة .

وقد سبق أن شهدنا ، عند التحدث عن صلة المصريين بالشعوب
القديمة ، في الفصل الأول من هذا الكتاب ، كيف بليت مصر ، آخر أيام
الفراعنة ، بعداء امبراطورية الفرس ، وكانت أقوى امبراطورية عرفها
العالم القديم لذلك العهد ، في الوقت الذى كانت تنقسم فيه على نفسها ،
فيلحق شمالها بشعوب البحر المتوسط ويتصل جنوبها ببلاد النوبة
اتصالا شديدا ، ويتوزع الحكم فيها بين الأمراء الاقطاعيين ، ولا يمنحها
ذلك من الثورة على الفرس تحت داريوس وكسرى وارتكسiris حتى
تسترد حريتها بعد مائة وعشرين عاما من الحرب المتصلة (١) ، وهى
الحرب التى يشبه ماتتونها غنفا معركة ترمبولى بين الفرس
والأغريق ، ثم تحاول القضاء على الحكم الفارسي في الشرق الأدنى تحت
الفرعون تاخوس . ولكن الفرس يعاودون الهجوم عليها في
سنة ٣٣٨ ق م ويتكئون من دخولها عنوة والبقاء بها ستة أعوام تباعا ،
بعد أن يغدر بها المتطوعة من الأغريق والفينيقيين وينقسم الرأي فيها بين
التشجيع للعجم والتشجيع للأغريق ، وكانوا يتنازعون في ذلك الوقت
السيطرة على العالم . كذلك شهدنا كيف كانت الشعوب تسير في ذلك
الحين نحو الحكم العالمى فكانت الامبراطورية المصرية ثم الامبراطورية
الفارسية ثم امبراطورية الاسكندر . وكان اختلاط الشعوب في كل
من هذه الامبراطوريات العالمية وفقدتها الوعى بفوارقها السياسية
واشتراكها جميعا في حضارة واحدة هى الحضارة الهلينية ، ومن ثم كان
امعان المصريين في الاعتماد على مقياس الدين في التمييز بين الناس ، بدلا
من مقياس الجنس ، وارتفاع سلطان الكهنة بينهم ، وانتشار طقوسهم

(١) روسل . وهو يقول ان تاريخ مصر في القرنين الخامس والرابع
هو تاريخ ثورتها على الفرس . ودريتون يقول ان الأدب المسرحى المصرى
كاد ينصرف في ذلك الوقت الى تغذية الثورة على العجم . دريتون : « المسرح
المصرى » .

الدينية في بلاد البحر المتوسط ، وترحيهم بالاسكندر في ثورتهم على
الفرس الذين كانوا يحرقون معابدهم ، وقبولهم حكم البطالمة بعد أن
اعتنقوا الديانة المصرية مثلهم .

ولم تكن السلطة التي كان رجال الدين المصريون يزاولونها وقتئذ
سلطة شكلية أو روحية فقط ، فقد كانت الكنيسة المصرية تتمتع حتى
آخر أيام الفراعنة بسلطة تشريعية - قضائية - مالية واسعة (١) . وكان
فقد هذه الكنيسة بعض هذه السلطة من الأسباب التي دفعتها الى
ممالأة البطالمة والتمهيد لقيام دولة الاسكندر ودولة البطالمة من بعدها .
وقد صحب قيام الدولة البطلمية اعتناق رجالها عقيدة منفيس ، فكان
البطالمة يتوجون في هذه المدينة ويديرون مجالس كهنتها ، ويسترشدون
برأيهم ، ويعبدون في معابدهم ، ويأتمون بهم في معابد الاسكندرية .
وهكذا كان وضع الكنيسة المصرية يشبه في ذلك العصر الى حد بعيد
وضع الكنيسة الكاثوليكية في عصور الوسط حين كان حكم القارة
الأوروبية الى رؤساء قبائل الفرنك والغوط والهون ، فقد كانت هذه
الكنيسة تمثل وقتئذ أهل البلاد الأصليين وتقاسم هؤلاء الحكام
سلطانهم وتتمتع لديهم ، وبخاصة بعد أن أدخلتهم دينها ، بنفوذ عريض ،
وان كان الوضعان يختلفان بعد ذلك في أن قيام دولة البطالمة في مصر سببه
اختلاط عريض بين المصريين والأغارقة وظهور حياة اجتماعية مشتركة
لا نجد لها نظيرا بين أهل الامبراطورية الرومانية وقبائل البربر في القرن
الخامس . وقد أراد البطالمة أن يحدوا من سلطان هذه الكنيسة العتيدة
بعد أن استقام لهم الأمر في البلاد فأصدروا مراسيم الصدر الأول من
حكمهم لتنظيم المعابد وعلاقتها بالدولة ، ومركز الدولة من الملكيات
الزراعية الواسعة التي كانت تتمتع بها ، ولكن هذه المراسيم لم تكن
في جوهرها الا مظهرا من مظاهر فتوة الحكم البطلمي الجديد ، ورغبته
في مزاوله سلطاته كامة في جميع ميادين الحياة العامة ، وهي رغبة

(١) كان للكهنة المصريين في العهد البطلمي مدن بأسرها تملكها المعابد
وتديرها بمجالس ادارة تنتخب سنويا . أنظر بوشيه ليكلرك .

(٢) أنظر مراجع الفصل الأول .

اختفت بعد ذلك بقليل وتركت المكان خلفها للزعازع التي ظلت تنتابه حتى دال ، والتي كانت تطلق يد هذه الكنيسة من جديد حتى كان آخر البطالة يحسبون لها ألف حساب .

وقد رأينا كيف بدأ تأثير حياة الشرق بالحضارة الهلينية في ذلك العصر في المدن الساحلية والتجارية وفي الطبقات العليا من أهل هذه المدن على وجه الخصوص . ثم جعل يتغلغل ويمتد فيما عداها حتى ظهور المسيحية . ونحن نعلم فيما يتعلق بمصر أنه كان حتى آخر أيام البطالة قويا في الدلتا ، ضعيفا في الصعيد . فقد كان أهل الصعيد يجهلون الأغريقية لذلك العهد على عكس أهل مدن الشمال ، و يقيمون المعابد لآلهة مصر القديمة ، و يترددون على بلاد النوبة . وكانت الثورات المصرية على الحكم البطلمي تنفجر عادة في الصعيد بعكس ثورات العصر الفارسي فقد كانت غالبا ما تنفجر في الشمال حيث الأثر الأغريقي (١) . وهكذا كان هذا التفاعل يترك خلفه ساحات واسعة لا يمد إليها أثره أو يمد إليه إليها مدا هينا ، ومن ثمة كان أخذ البطالة بأساليب الحكم الأغريقي في الاسكندرية وبعض المدن المصرية الأخرى ، وابقاؤهم على الإدارة المصرية فيما عداها ، ومحافظة الأغريق المقيمين في مصر على كثير من تقاليد بلادهم ، وقبولهم فيما عدا ذلك تقاليد أهل البلاد ، ثم وجود طبقات مصرية كثيفة لا تستسيغ الحكم القائم وتقدم على مجاهدته كحكم أجنبي .

ولم يكن قيام نظم الحكم الأغريقية في الاسكندرية والمدن الأغريقية القائمة في مصر سوى مظهر من مظاهر قصور الأغريق عن التخلص من تصورهم الدولة كمدينة قائمة بذاتها كما كان الحال في بلادهم . وليس ممن أراخوا لذلك العصر من يأتي بصورة صادقة للطريقة التي كانت تحكم بها الاسكندرية والمدن الأغريقية القائمة في مصر على وجه العموم ،

(١) كان أهل الصعيد في العصر البيزنطي أيضا يدعون الاسكندرية باسمها القديم «راقورة» ويحتاجون الى المترجمين لمحادثة قسس الاسكندرية . أميلينو : « حياة باخوم » .

وان كانوا يجمعون على خضوعها لسلطة الملك الى حد بعيد . وقد فقدت هذه المدن جميعا بعد قليل من قيام البطالة المجالس النيابية التي كان يتجسم فيها استقلالها ولم يبق لها منه الا ما احتفظت به من القوانين والتقاليد الادارية والمالية والقضائية التي نشأت عليها ، وهو أمر كان ملوك العالم القديم لا ينكرونه على رعيتهم عادة ، وكان المصريون يتمتعون به الى حد بعيد ، سواء من كان يعيش منهم داخل هذه المدن أو خارجها .

ومؤرخو ذلك العصر يكادون يجمعون على وجود فوارق لا يستهان بها بين الحقوق التي كان يتمتع بها اليونانيون المقيمون في مصر والحقوق التي كانت يتمتع بها المصريون ويردون ذلك الى الاختلاف الجنسي . وهم يغفلون في هذا ما كان يحدث وقتئذ باليونان نفسها من انفراد عليا المدن بحقوق لا تتمتع بها عامتها أو أهل الريف من اليونانيين ^(١) . وينسون أن فقراء أغريقى الاسكندرية كانوا لا يتمتعون — رغم أغريقيتهم — بجميع الحقوق التي كان يتمتع بها أعيانها ، وأن مَرَد ذلك كان الى تصور الحكم وليس الى التفريق الجنسي ^(٢) . وفي هذا ما يفسر تخطيط غالب هؤلاء المؤرخين في تحديد الفوارق التي يجدونها بين المصريين والأغارقة في ذلك العصر ، فجوجيه ، وهو منهم ، يقول ان اليونانيين كانوا يميزون على المصريين ، ثم يؤكد أن المصريين كانوا يعاملون معاملة حسنة وأن البطالة كانوا يعملون على استمالتهم . وهو يعترف بعد ذلك بشيوع الزواج المختلط بين المصريين واليونانيين رغم منع المدن الأغريقية أبناءها من التزوج من الأغراب ، سواء أكانوا يونانيين أم غير يونانيين ، ولا ينكر أخذ اليونانيين بالطقوس الدينية المصرية في حماسة شديدة ، وتأثر الحكم البطلمي بالنظم المصرية تأثرا عريضا ، وتساوى المصريين القاطنين بالمدن ، سواء كانت مدنا أغريقية أو مصرية ، في الحقوق مع الأغارقة في عهد أغسطس ، وهو العهد الذى

(١) انظر « مومسن » Mommsen : The History of Rome وبريتشا :

نشرة الجمعية الجغرافية ، الجزء العشرون ، عدد مايو سنة ١٩٢٧ .

(٢) أنظر فوستيل دى كولانج Foustel de Coulanges : La cité antique .

وقد عدنا الى هذه النقطة فى الصفحات التالية (: « المدينة القديمة ») .

نظمت فيه الحقوق السياسية لهذا المجتمع المختلط ووضعت معالمها .
وهي جميعا ملاحظات لا يمكن أن تتفق أو تستساغ لو كانت الفروق
بين المصريين والأغارقة فروقا جنسية حقيقية^(١) .

كذلك كان الطامحون الى الحكم من المصريين يجدون خلفهم جماهير
غفيرة من المتذمرين المتحفزين للثورة . ونحن نجد من هؤلاء المصريين
في ذلك الوقت فريقين : فريق المتعاونين مع الحكم القائم ، وفريق
المناهضين له مناهضة سافرة . والى الفريق الأول ينتسب بتزوريس
الملقب بديونيزوس^(٢) الذى تدخل في النزاع بين الملك ارفيجيت وأخيه
وعزم على خلعهما والاستئثار بالعرش بعد أن يثير حركة قومية يستند
اليها . وقد نجح فعلا في اثارة أهل الاسكندرية وكاد ينجح في قتل
أخى الملك ، ثم اضطر الى مغادرة المدينة والتحصن هو وأعوانه من
المصريين في مدينة الوزيريس والفرار بعد ذلك الى الصعيد^(٣) . واليه
أيضا كان ينتسب سوزيبوس الذى قاد الجيوش المصرية الى انتصار
رفح ، وكان يوجه السياسة المصرية على أيامه^(٤) ثم آكيلاس الذى
قاد الثورة على قيصر^(٥) .

(١) جوجيه : « تاريخ القانون العام المصرى القديم » . ويلاحظ انه
كما تأثر الحكم الاغريقى فى مصر بوضع الدولة العام ، تأثرت هذه الدولة
بهذا الحكم أيضا . وقد شهدنا كيف قامت فى مصر قبل دخول الفرس مدن
تحكم بالنظم الاغريقية . ونحن نعلم أن المعابد المصرية كانت تحكم المدن التى
كانت تمتلكها فى ذلك العهد بمجالس انتخابية . انظر بوشيه ليكليرك .
وقد انتشر نظام البلديات فى مصر فى القرن الرابع وكانت مصر عشية الفتح
العربى مجموعة مدن ومديريات متفرقة .

A. Semaika : Essai sur la province romaine d'Egypte ; Jouguet : La
vie municipale de l'Egypte romaine.

(٢) بوشيه ليكليرك .

(٣) ديودور .

(٤) بوشيه ليكليرك .

(٥) بوشيه ليكليرك . ويلاحظ أن المنازعات المتوالية بين الجالسين
على العرش والمنافسين لهم فيه كانت تنتهى الى الدفع بهم جميعا لاستمالة
أهل البلاد خصوصا حين توقفت الهجرة الاغريقية التى كانت تعتمد عليها
هذه الدولة فى الاحتفاظ بطابعها الاغريقى . وجوجيه يذكر أن المصريين
أبعدوا عن مراكز الحكم على أيام بطليموس الثانى ثم عادوا الى الظهور فيها
تحت بطليموس الرابع وهو العهد الذى بدأت فيه هذه المنازعات .

ولكن أكبر تأثير سلمى مصرى فى هذه الدولة كان بلا شك تأثير كنيسة منفيس التى مهدت لقيامها ، فقد كان رجالها يتوجون الملوك ويجتمعون بهم فى مجامع تعقد كل عام للنظر فى الشئون التى يهتمون بها . وقد انتقل البلاط السياسى البطلمى بأكمله بعد البطالمة الثلاثة الأول من الاسكندرية الى منفيس ، مقر هذه الكنيسة ، وجعل البطالمة يوثقون علاقاتهم برجالها حتى انقلب تنويجهم من واجب يلزمون به الى حق يستطيعون أن يمنعوه . وكان تنويج البطالمة فى منفيس يتخذ حينئذ شكلا مصريا فاقما ، كذلك كانت قرارات المجامع السنوية بها تمتاز منذ عهد بطليموس الرابع بما تدل عليه من عودة سلطان الكنيسة المصرية الى الامتداد من جديد^(١) .

وكان مناهضو الحكم البطلمى يلجؤون أثناء ذلك الى الثورات العسكرية الدامية . ومؤرخو هذه الثورات يرتفعون بها الى معركة رفح فى سنة ٢١٧ ق م . التى كسبتها الفرق المصرية من جيوش البطالمة^(٢) فقد رد هذا الانتصار الى المصريين الثقة فى أنفسهم فثاروا فى العام التالى وواصلوا ثورتهم طوال عهد فلديباتور وخليفته ، ثم أعقبت هذه الثورة ثورات ومؤامرات وحركات عصيان امتدت حتى نهاية العهد البطلمى . وبوليب يقول ان الحرب بين المصريين والبطالمة كانت قاسية عنيفة ، وانها بدأت فى الدلتا ثم امتدت الى الصعيد حيث عطلت أعمال البناء فى معبد ادفو ، وبلغت من الخطورة حد أن عرضت بعض الدول على البطالمة معوتتها . وقد نادى الثوار فى وقت ما بأحد زعمائهم ملكا على البلاد ، وحالفوا كنيسة طيبة ، وجعلوا يستعينون بالنوبيين ،

(١) ويلاحظ هنا انعقاد هذه المجامع كل عام بحضور الملك والأسلوب الذى كان يتحدث به أعضاؤها وتوصف به أعمالها وهو أسلوب يذكرنا بالمجامع المسيحية القادمة ، فوثائق هذه المجامع تسمى بالرسالات المقدسة ورجالها يدعون الملك بمنقذ البشر الخ . وهذه هى الالفاظ التى استعملتها المسيحية بعد ذلك . أنظر مهافى .

(٢) يظن مهافى أن المصريين كانوا يشتركون من قبل فى الجيش البطلمى . ويلاحظ بوشيه ليكليرك أن الجزء الخاص بدور المصريين فى هذه الحرب سقط من كتاب بوليب الرومانى .

وواصلوا الحرب حتى استطاع البطالمة أن يهدموا عاصمتهم طيبة في سنة ٢٨٨ ق م^(١) .

ونحن اذا ذكرنا أن ما نعلمه عن عهد البطالمة نقلت غالبه الينا المصادر الأغريقية والرومانية المعارضة للتيار المصرى ، استطعنا أن نجزم بأن هذه الثورات كانت أوسع وأشد بكثير مما تذكره هذه المصادر . وسكوت المصادر المصرية فى ذلك العصر عن هذه الثورات يرجع بلا شك الى الوسيلة التى كان العالم القديم ما زال يعتمد عليها فى النقل الفكرى — وهى البناء وكتابات الكهنة — فالبناء وسيلة ثقيلة التكلفة معرضة للعيان ولا يستطيع لذلك أن يلائم التأثير . أما الكتابات الدينية فلم تكن بقادرة على العناية بالثورات السياسية ولا سيما بعد أن تحولت الكنيسة المصرية عن الحدود الوطنية واتجهت اتجاهها عالميا . يضاف الى ذلك أن الفنون والعلوم والآداب كانت لا تزدهر فى العالم القديم ، وبخاصة بعد أن ظهرت الدول الضخمة ومالت الطبقات الوسطى الى الزوال ، الا فى قصور الملوك وأروقة المعابد ، حيث يستطيع رجال الفكر الانصراف الى الدرس . ومن ثم كان ما تحت يدنا من تراث البطالمة الفكرى من انتاج الاسكندرية وانتاج رجال الفكر الذين كانوا يترددون على بلاط الملك ومتحفه ومكتبته بوجه خاص ، وكان أيضا خلو هذا التراث مما يغضب الملوك فى الحياة العامة وبرز اليونانيين أو المصريين « المتهلنين » دون غيرهم فيه واختفاء اللون المصرى الذى يلحظه مؤرخو ذلك العصر منه . وقد قلنا اختفاء اللون المصرى لأن جوهر تلك الحياة الفكرية لم يكن مصريا خالصا ولم يكن يونانيا خالصا أيضا ، وانما كان ثمرة اختلاط الحضارات الذى كان يسير فى طريقه منذ قيام امبراطورية الفرس وكان يمهّد فى ذلك الوقت بالذات لظهور المسيحية . وقد أصاب الآثار الفرعونية والبطلمية القائمة فى آخر أيام البطالمة وأصاب ما بها من الوثائق المكتوبة على كل حال كثير من التدمير الذى تولاهها به الثوار ، وأعقبهم المسيحيون الأولون فيه بهمة لم تعرف الكلل . وفى هذا

(١) قاتلت طيبة ثلاث سنوات متوالية وكان الفرس قد خربوها قبل ذلك . شيب . أنظر مراجع الفصل الاول .

ما يفسر لنا أيضا قلة التراث التاريخي الذي تخلف لنا من ذلك العهد (١) .

وهكذا عاشت تلك الدولة البطلمية العجيبة بلونها الأغريقى وجوهرها

المصرى : الطبقة العليا منها أغريقية تسير الى التمصر ، أو مصرية تسير الى « الاستغراق » ، والطبقتان المتوسطة والدنيا ، فيما عدا سكان المدن الاغريقية التى كانت تسير بدورها الى التمصر ، مصرية يتغلغل فيها قليلا قليلا تيار تلك الحضارة المختلطة الجديدة ، التى كانت تبدو بأكمل مظاهرها فى حياة الاسكندرية ، حيث يختلط المصريون بالاغريق باليهود بشعوب البحر المتوسط جميعا ، وتنمو الفكرة العالمية ، فلا يميز الناس الا بلونهم الحضارى ، ويقوى التيار الدينى الذى مكن لعبادة ايزيس فى الشرق الأدنى واليونان وايطاليا ، حيث قاومها القناصل ، ثم قبلها قيصر ، ثم عطلها أغسطس ليجعل منها اورليان دين الامبراطورية الرومانية الرسمى . هكذا عاشت حتى انقرضت الأسرة التى حكمها وحل محلها أباطرة روما (٢) ، فى الوقت الذى كانت هذه المدينة تنتقل فيه من النظام الجمهورى الى الحكم الامبراطورى الشخصى وتتوغل فى الحضارة الهلينية ، وتمتزج بشعوب البحر المتوسط فى وحدة اجتماعية سياسية واحدة (٣) . ونحن نعلم فعلا أن روما كانت تعاني ، حين مالت الدولة

(١) ويلاحظ على وجه العموم أن ما لدينا من الآثار الخاصة بالأسر الفرعونية القديمة ، نقصد الأسر التى كانت تحفر المقابر ، تزيد على الآثار الخاصة بآخر العصر الفرعونى وأيام البطالمة حين ضعفت عادة اخفاء المقابر وفاق الاعتماد على الكتابة فى تسجيل الحوادث الاعتماد على البناء . ومن هنا قلة معرفتنا لتطور الحياة المصرية بين آخر العصر الفرعونى وأول العصر المسيحي .

(٢) وانتقال الحكم فى مصر من البطالمة الى الرومان من نوع انتقاله بعد ذلك بقرون من العباسيين الى الفاطميين الى الأتراك : أسر تتنازع السلطان فى مجتمع واحد ولا تتأثر النظم أو الشعوب بفوز بعضها على البعض الآخر تأثرا عميقا . وآية ذلك الدور الذى لعبته كليوباترة فى الحياة السياسية الرومانية حينئذ ، وزواج قيصر وأنطونيوس منها ، ودخول أغسطس الاسكندرية فى صحبة علمائها ، واتجاه التفكير فى وقت ما الى اقامة عاصمة الامبراطورية الرومانية فى الاسكندرية ، وبقاء نظم الحكم تحت الرومان على ما كانت عليه من قبل .

(٣) أنظر مومسن وفريرو . وهذا الأخير يقول ان مسألة المسائل التى واجهها قيصر وكانت توجهه فى سياسته كانت مسألة اطعام آلاف الجند الذين كانوا يلتفون حوله . وقد واجه أغسطس هذه المسألة وأفلح فى حلها لأنه وجد ما تحتاج اليه من مال .

البطلمية الى الزوال ، أزمة داخلية عميقة ، بعد أن أدت حروبها الأوروبية الى ارتفاع سلطان رجال السيف بين الطبقة الحاكمة فيها وبدأ هؤلاء الرجال يحاولون الاستئثار بالحكم ويتحملون في سبيل ذلك من النفقات الباهظة ما كانوا يستصدرون القوانين ويشيرون الحروب بغية التخلص منه (١) . ومن ثم كانت محاولة قيصر الحصول على حكم مصر بآثاره مسألة وصية بطليموس اسكندر الثاني (٢) ثم تقديمه قانون توزيع أراضي إيطاليا ومصر بين جنده فيما بعد ، دون أن يصل في الحالتين الى تحقيق شيء من غايته لتخوف مجلس الشيوخ الروماني مما قد يكون لنجاحه من أثر في النزاع السياسي الداخلي القائم وقتئذ وما كان ينفقه البطالمة عن سعة لشراء أعضاء هذا المجلس وشراء قيصر نفسه حين صار قنصلا . وقد هبط قيصر بعد ذلك الأسكندرية متعبا بومباي ، ثم كان ما كان من التقائه بكليوباترة وزواجه منها ، ثم عودته الى روما وهو أشد ما يكون رغبة في اقامة ملكية عالمية كملكية الأسكندر (٣) . وقتل قيصر فحل محله أغسطس ، وكان أول ما فعله ، بعد أن استجمعت له الأمور ، هو التخلص ممن يستطيعون أن ينازعوه حكم الملكة الجديدة ، وبخاصة ابن قيصر من كليوباترة ، ووضع يده على مصر هذه التي كانت تتجه اليها عيون أحزاب المعارضة في روما منذ حين وكانت موارد أكبر عون استعان به منافسوه في هذا الحكم بالذات .

وكان حكم مصر ينتقل الى أغسطس في نفس الوقت الذي كان ينتقل اليه فيه حكم الامبراطورية الرومانية جميعا بحكم وراثته قيصر بعد وفاة ابنه من ملكها ، وان كان هو قد عني باستصدار القوانين التي تقلده هذا الحكم بصفته الشخصية ، وتصف هذا التقليد بأنه رغبة من رغبات الشعب الروماني الذي كانت القوانين الرومانية ما زالت تنسب اليه لذلك الوقت . وقد أثار استئثار أغسطس بحكم مصر وما ضحبه من مظاهر انفرد بها ذلك الحكم دون غيره في أقطار الامبراطورية الرومانية

(١) نقصد بالقوانين الزراعية قوانين تملك الاراضي التي ظهرت في روما في ذلك الوقت . انظر باريتو : « المبادئ العامة لعلم الاجتماع » .

(٢) انظر الفصل الاول من هذا الكتاب .

(٣) مومسن .

الأخرى — أثار الخلاف بين مؤرخى ذلك العصر حول حقيقة الصلة التى قامت وقتئذ بين روما ومصر ، وهل كانت صلة الاتحاد الشخصى ، أو صلة التابع للمتبوع . وهذا الخلاف يدور حول الاشكال القانونية أكثر مما يدور حول الوقائع ، وهو يدور فى الغالب حول جميع النظم الدستورية الرومانية فى ذلك العهد لما يبدو بينها وبين الوقائع التى تتصل بها من تباين شديد ، يرجع الى ما كانت الجمهورية الرومانية تمضى فيه وقتئذ من تحول سريع ، من ناحية ، والى السياسة التى انتهجها أغسطس طوال حكمه ، من ناحية أخرى . فقد كانت روما تحتاج وقتئذ — وقد اتسعت أطرافها ، وتغيرت طبقتها الحاكمة ، ونعم نسيج أهلها — الى حكم مركز منظم سريع لا يستطيع أن يعطيها اياه النظام الجمهورى الذى عرفته . وكانت نظمها تتجه فعلا منذ حين الى الحكم الملكى . وكان أغسطس من ناحيته يريد أن يتجنب الاعتداء السافر على النظم القائمة ، ويفضل المحافظة على الأشكال ، ومسايرة التطور الطبيعى ، ومن هنا كان ابقاؤه على مجلس الشيوخ وموالاته هذا المجلس اصدار القوانين فى صيغتها العادية ، وان أصبح يصدرها الآن تلبية لأمر رئيس الدولة الجديد ، كما كان يصدر هذه المرة قانون اسناد حكم مصر الى أغسطس فى الوقت الذى يقلده فيه مراكز الحكم العامة جميعا وكانت مصر تنصبه ملكا عليها محل البطالة . وفى تقليد الملكية المصرية أغسطس شخصا ، مع تقليده حكم روما ، ما يزكى رأى الذين يرون فى انضمام مصر للإمبراطورية الرومانية صورة من صور الاتحاد الشخصى ، كما أن فى بقاء سائر المصريين محرومين من الحقوق السياسية كأهل غالب الأقطار الرومانية لذلك العهد ما يعزز رأى الذين يأخذون بنظرية التبعية . ومهما يكن من شئ فنحن نعلم من مؤرخى ذلك العصر أن أغسطس أراد الاستئثار بحكم مصر للارتفاع بمواردها فى محاولة السيطرة على روما التى كانت تعاني حينئذ أزمة مالية شديدة ، أو الاكتفاء به ، اذا لم يفلح فى هذه المحاولة ، وتجنب سقوطها فى يد منافسيه سقوطا يضر بمركز روما نفسها أو يضع حدا لحكمه ، ومن ثم كان منعه أعضاء مجلس الشيوخ من زيارة الأراضى المصرية بدون إذن خاص منه وتحاشيه دخول المصريين هذا المجلس واستمساكه ازاءهم بسياسة الحذر الشديد

التي كانت روما لا تأخذ بها في ذلك الوقت الا مع قرطجنة عدوتها اللدود .
وقد انفرد الحكم الروماني في مصر دون الحكم البطلمي الذي سبقه
بأنه لم تتقدمه أو تصحبه هجرة رومانية كالهجرة اليونانية التي سبقت
هبوط الاسكندر مصر واتصلت بعده أيضا ، ولم يؤثر لذلك في الظروف
الاقتصادية والاجتماعية التي كان عليها المصريون وقتئذ . هذا الى أنه
كان يتأثر الى حد بعيد بالروح اليونانية التي كانت تؤثر في مصر والتي
كانت تحتوى على شيء كثير من التفكير المصرى وخصوصا الدينى منه ،
كما رأينا . وهكذا كان دخول أغسطس الأسكندرية لا ينطوى على
ما يمكن أن يعد اصطداما حقيقيا بين عالمين غريبين ، أو تغييرا جديا
في الظروف العامة التي كانت تحياها مصر وقتئذ . وكانت الطبقة التي
تعلو المجتمع ويمكن أن تتأثر بانتقال الحكم الى الأيدى الجديدة ، دون
عامة الشعب التي قل اهتمامها بشئونه ، لا ترى فيه شيئا غريبا . ومن هنا
عدم محاولتها شيئا ضده ، وقنوعها بتأكيد أغسطس لها عزمه على ابقاء
الحالة على ما هي عليه ومغادرته مصر دون حدث يذكر .

وكان الحكم الروماني يعتمد ، كالحكم البطلمي ، في التمييز بين
الشعوب وأهل مصر ، من الناحية العامة ، على لونهم الحضري ، أهو هيلنى
أم غير هيلنى ، ومن الناحية السياسية ، على وضعهم الاجتماعى ،
هل هو وضع الأحرار من أهل المدن التي تحكم بالنظم المدنية ، سواء
أكان أهلها يونانيين حقيقة أم غير يونانيين ، أو هو وضع غير الأحرار
وأهل الريف المحرومين من هذه النظم ، سواء أكانوا مصريين أم يونانيين
أم ايطاليين . وقد سُوّى بين حقوق المدن وأنظمتها في عهد أغسطس
بالذات ثم صدر قانون كركلا كما رأينا قسوّى بين أهل المدن والأقاليم
جميعا . ويسر من أمر هذه التسوية وقتئذ تشجيع روما الملكية الفردية بغية
التخفيف مما كانت تعانيه الامبراطورية من ضيق اجتماعى ومالى
شديدين ، وما أدى اليه هذا التشجيع من ارتفاع أهمية الضرائب فى المالية
العامة واتجاه الدولة فى السنين العجاف الى اعطاء المدن والأقاليم الحقوق
المالية والسياسية الواسعة التي أدت الى ظهور البلديات والمدن^(١) .

(١) أنظر جوجيه . وهو يقول ان ادریان جلب السكان الى مدينته الجديدة
من المدن المصرية وانه اضطر لترغيبهم فى الاقبال عليها أن يخولهم حق
التزوج من أهل الريف .

ولكن هذا الاتجاه العالمى فى الحكم الرومانى لم يجنبه ، كما لم يجنب الحكم البطلمى من قبله ، خطر الثورات السياسية . فثار اقليم طيبة على الحاكم الرومانى بعد مغادرة أغسطس مصر مباشرة وتبعته فى ذلك أقاليم أخرى . واضطر الامبراطور أدريان الى المجئ الى مصر فى سنة ١٣٦ لتهدئة الاضطرابات التى انفجرت فى ذلك الوقت وانتهز فرصة اقامته فيها فأنشأ مدينة اتينوبوليس . وثارت الأسكندرية أيضا فى سنة ١٥٣ وقتل أهلها الحاكم الرومانى ، ثم ثار أهل الدلتا فى عهد ماركو أورليو (١٦١ - ١٨٠) وعلى رأسهم الراهب ايزيدور وتمكنوا من أخذ الأسكندرية .

وقد اتخذت هذه الثورات شكلا جديدا حين ظهرت المسيحية بعد ذلك ، فقد كانت المسيحية تأتى معها ، ككل ثورة اجتماعية كبيرة ، بطبقة حاكمة جديدة . وكانت هذه الطبقة ترتفع من أسفل طبقات المجتمع ، من طبقة العمال والفلاحين التى لم يصل اليها التيار الاغريقى - الرومانى ، أو يعمل فيها عمله كاملا ، وتحفظ لذلك بتفكيرها وتقاليدها وعقائدها أيضا ، وتختلف فى كل هذا اختلافا صارخا عن الذين كانوا يقبضون على دفة الحكم فى ذلك الوقت . يضاف الى ذلك أنه ما كادت المسيحية تصير دين الدولة الرسمى وما كاد نفوذها يعلو على السلطة الزمنية التى كانت تبرز بها فى شخص الامبراطور ، بسبب الاقبال الذى كانت تلقاه فى كل مكان ، وما كادت الكنائس الاقليمية ، وكانت تتكون عادة من أهل البلاد ، تتمتع بهذا النفوذ ، حتى اشتدت الاتجاهات الاقليمية ، التى كانت آخذة فى الظهور منذ أن استوت الشعوب المنتظمة فى الامبراطورية فى الحقوق ، وبدأت تنشئ جيوشها واداراتها وتنمى بذلك خصائصها ومميزاتها . ومن ثم كان ما يلاحظه مؤرخو المسيحية المصرية من اتجاه الكنيسة القبطية اتجاها محليا فاقعا وتحول أساقفة الأسكندرية الى فراغة سافرين ومنافسة الروح المصرية الروح الاغريقية . وكانت أيضا استماتة المصريين فى الدفاع عن المسيحية حين كان الأباطرة يناهضونها واستمساكهم بنظرية الثالوث التى كانت تنفرع على عقيدتهم الدينية القديمة ، ثم ثورتهم

السافرة على الامبراطورية (١) ، وان لم يكن الأمر في ذلك جميعا أمر مصريين وغير مصريين ، فقد كانت المسيحية بالذات تقضى وقتئذ على بقية تلك الفروق القضاء الأخير ، بل أمر مذاهب دينية قد يجتمع فيها المصريون أو لا يجتمعون دون أن يكون للوعى القومى في ذلك أثر ظاهر .

وأتى الفتح العربى فأفاد في نشاطه السياسى والحربى من هذا النزاع ، وأفاد من التفتت الادارى والعسكرى الذى صحبه والذى كان أباطرة بيزنطة قد عملوا على السير به الى أبعد الحدود تحقيقا لسياستهم الامبراطورية (٢) . وما استجملت الأمور للعرب بعد ذلك حتى سهلت عليهم مواجهة الانتفاضات التى عمد اليها أهل البلاد حين لمسوا معنى ذلك الفتح ومداه ، كما عمد آباؤهم الى مثلها تحت أغسطس ، وأحلوا فكرة الأمة الاسلامية محل الأمة المسيحية بنظرتها الدينية وتسويتها بين المؤمنين بها جميعا .

عاشت مصر اذا يحكمها أبناؤها القرون الفرعونية الطويلة ، ثم أخذت شعوب البحر المتوسط تتجه الى العالمية ، وقد بدأت في ميدان الدين بانتشار عبادة ايزيس ، وتمت بظهور المسيحية ، وبدأت في ميدان الثقافة بامتزاج الحضارات الشرقية ، وتمت بانتشار الهلينية تحت البطالمة ، وبدأت في ميدان الحكم بمحاولات الفراعنة في آسيا الصغرى ، وتمت بقيام الامبراطورية الرومانية ، فسارت بدورها في هذا الاتجاه وهى تقاوم هذه النزعة الجديدة كما كانت تقاومها الشعوب الأخرى مقاومة تبدأ عنيفة ثم تفر . فتثور على الفرس قرنين متوالين ، تفقد خلاهما خيرة شبابها ، ويكون الحافز لها في ثورتها هذه الاختلاف الشديد بين الشعبين ، ووجود طبقة حاكمة ما زالت تستطيع الدفاع عن مصالحها ، واتصال سياستها الخارجية بالسياسة الاغريقية . ثم تثور على البطالمة بعد أن نصبته كنيسة منفيس ، وهى وقتئذ القوة السياسية الوحيدة القائمة ، في سبيل مواصلة الحرب على الفرس ، التى كانت هذه الكنيسة تنظر

(١) ماسبرو : « بطارقة الاسكندرية » .

(٢) Diehl : L'Egypte chrétienne et byzantine .

(٣) Maspero : Causeries d'Egypte .

اليها من زاويتها الدينية الخالصة ، ويكون الدافع لها في هذه الثورة طموح بعض رجالها الى الاستئثار بالحكم أو رغبة أهل الصعيد في مناهضة التيارات الاغريقية التي كانت تعمل في الشمال ولا تنالهم ، أو التذمر العام بين المصريين وغير المصريين من خطل الحكم البطلمي . ثم تثور على الرومان والبيزنطيين ، ويكون الدافع لها الى ثورتها هذه الأزمات الاقتصادية أو الفروق الاقليمية التي تعود الى رفع رأسها من جديد ، حين ترفع المسيحية الطبقات السفلى من الشعوب التي اعتنقتها الى سطح المجتمع ، وتقيم الحكومات الدينية المركزية في صورة الكنائس والأديرة ، التي كانت تنتشر في كل مكان ، وتمهد لتبلور الأوضاع القومية من جديد . وقد قلنا الأوضاع القومية ولم نقل الوعي القومى لأن المجتمعات القديمة لم تعرف هذا الوعي وان عرفت العصبيات الجنسية . وقد رأينا كيف ظلت اليونان — حتى سقوطها تحت الحكم الرومانى — مجموعة مدن متفرقة يقاتل بعضها بعضا ، أو يستدعى عليه الشعوب الأخرى ، وكيف قامت الامبراطورية الفارسية على أكتاف المتطوعة من الفينيقيين والأغارقة وانهارت بفعلهم أيضا ، وكيف سلم البطالمة ملكهم للرومان بأيديهم ، وكيف كان سر امتداد الحكم الرومانى هو ما عمدت اليه روما من بسط جنسيتها على الأراضى الايطالية ثم أقطار الامبراطورية جميعا . كذلك رأينا كيف كانت صلة الحكام بالمحكومين ، سواء أكانوا فرسا أم أغارقة أم رومانا ، لا تختلف باختلاف البلاد بقدر ما تختلف باختلاف الأوضاع الاجتماعية التي يتخذها أهلها ، هل هى أوضاع المواطنين الذين يقيمون في المدن التي كانت تحيا في جو الحضارة الهيلينية أو أوضاع غير المواطنين الذين يقيمون في تلك المدن بالذات أو في الريف الشاسع المحيط بها ، ويتصلون بالمواطنين بصلة الرق أو الولاء . وقد كان وضع أباطرة الفرس ، ووضع الأسكندر والبطالمة والرومان ، من بعدهم ، من مصر هو نفس وضعهم من أهل بلادهم ، اذا استثنينا مقتضيات عصبية الدم التي كانت تؤدى بهم الى تقريب أبناء جنسهم اليهم قبل أبناء الأجناس الأخرى وأبناء قراباتهم قبل أبناء جنسهم ، واستثنينا فترة التردد التي مضت بين تحول نظم الحكم المحلية الى نظم امبراطورية والتي

قضتها روما على وجه الخصوص في رفع مختلف الشعوب المنتظمة في جامعتها من حق الى حق حتى وصلت بها الى الحقوق الكاملة . ونحن نعلم أن تاريخ المدن اليونانية والجمهورية الرومانية هو قبل كل شيء تاريخ سعى على أهدأ الى الاستئثار بالحقوق السياسية دون الطبقات الأخرى من سكانها وسكان الريف جميعا ، وثورة هذه الطبقات على هذا السعى ^(١) . ولم تكن الفروق بين المصريين وغير المصريين في العصر الاغريقي والروماني تختلف عن هذه الفروق ، فهم يتمتعون بالحقوق السياسية التي يتمتع بها غيرهم اذا انضموا الى مدينة بعينها ولا يتمتعون بها اذا لم ينضموا الى مدينة ما . وقد دخل المصريون ، حين اندثرت هذه الفروق ، مجلس الشيوخ الروماني وارتفعوا الى مناصب الحكم في الامبراطورية ، بل وجلس أحدهم على عرشها ثم حكموا العالم حين انتشرت المسيحية من كنيسة الأسكندرية ^(٢) .

والذين يتنقصون مصر لترحيلها بالأسكندر وقبولها الرومان ورضاها بالعرب ينسون أن اليهود اليونانية والرومانية والعربية عهود ثورات عالمية اجتاحت العالم المعروف على أيامها ولا شأن لها البتة بالحروب الحديثة التي تنشب بين أمم مستكملة وعيها القومي ، متمتعة بمستوى اجتماعي واقتصادي واحد . فدخلت تحت الاسكندر جميع الشعوب ، وبينها مدن اليونان بالذات ، وفي الوضع نفسه الذي عرفته هذه الشعوب . ودخلت تحت روما جميع بلاد البحر المتوسط وبعض أوروبا الشمالية ، وبينها اليونان أيضا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا التي بدأت بالفتح الروماني وجودها السياسي . ومزق العرب ما بلغوه من الامبراطورية الرومانية تمزيقا ، واستولوا على القسم الشرقي منها ، واستمروا يسطون على القسم الغربي حتى ظهر العثمانيون ، فامتد هذا السطو الى أسوار فينا وظل خطره رابضا حتى الحرب العالمية الأولى .

ومن الخطل أن يقارن الباحث بين بلدين فيقصر المقارنة على فتوة أحدهما بشيخوخة الآخر . فلئن كانت اليونان قد عاشت مستقلة بشئونها

(١) انظر مومسن وفوستيل دي كولانج .

(٢) بتشر : « تاريخ الكنيسة القبطية » وماسبرو : « بطارقة الاسكندرية » .

سبعة القرون التي عرفت قبل فقدتها استقلالها في القرن الأول قبل المسيح وبقائها بدونه حتى القرن التاسع عشر ، فقد عاشت مصر مستقلة بشؤونها عشرات القرون التي عرفت بين بناء الأهرام وقيام امبراطورية الإسكندر . وقد كانت روما تفتك بالمدن اليونانية وتدمر كورنتيس ، أكبر حواضرها التجارية ، وتقتل أهلها أو تبيعهم بيع العبيد ، في الوقت الذي كانت المدن اليونانية الأخرى يقاتل فيه بعضها بعضا ، وكان زعماءها يتملقون سادة روما هذه بالذات ، وبلوطارخ يتغنى بمجدها^(١) . وقد سقطت اليونان تحت الحكم الروماني فلم تبق لها قائمة بعد ذلك ، وخبت حضارتها ، ونسى أبنائها معاني الحرية التي تنسب اليهم ، الى أن ذكرتهم أوروبا المسيحية بها في القرن التاسع عشر ، في حين استطاعت مصر أن تنهض من كبوتها الرومانية ، وأن تقيم امبراطورية الفاطميين والمماليك ، وتنتج حضارة جديدة ، وتشغل مركزا عالميا ممتازا . وليست بلاد كايطاليا وفرنسا وانجلترا بمستطيعات أن تقارن بمصر ، فايطاليا لم تظهر كوحدة سياسية الا في نهاية القرن التاسع عشر^(٢) أما قبل ذلك فكانت مجموعة امارات صغيرة يحكمها أجانب أو ايطاليون وتناهض كنيستها الايطالية الدم وحدتها ، مناهضة الدول الديمقراطية الخطر الشيوعي الآن . ونشوء فرنسا كدولة موحدة لا يرتفع الى أبعد من القرن الخامس عشر ، فقد كانت قبل ذلك هي أيضا اقليما من أقاليم الامبراطوريات الشخصية التي تعاقبت على أوروبا بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ، وكانت تقوم بنفس الشكل الذي كانت تقوم وتهوى به الامبراطوريات الشرقية القديمة التي يستهجنها مؤرخو هذا العصر . كذلك لا يرتفع مولد انجلترا كدولة ذات كيان حقيقى الى أبعد من مطلع العصر الحديث ، أما قبل ذلك فكانت مجموعة أمارات واقطاعات موزعة بين الانجليز والفرنسيين .

وهذه الدول لا تبدى منذ حين ، رغم حداثتها ، تمسكا شديدا بقيمها

(١) أنظر بلوطارخ . ومومسن يقول ان روما باعت سبعين مدينة من

مدن اليونان وباعت أهلها الأحرار ، وكانوا خمسين الفا ، بيع العبيد .

(٢) والمعروف أن أكبر زعمائها في ذلك القرن وهو كافور كان لا يؤمن

بهذه الوحدة حتى آخر أيامه . أنظر : B. Croce : Storia d'Europa nel secolo

decimonono .

القومية ، فقد شهدنا الترحيب الذى تلقت به الأمريكيين والانجليز بعد انهيار الحكم الألماني . وقد قيل ان البارسيين كانوا يتحسرون على أيام هذا الحكم الى عهد قريب . ونحن نشهد الآن تمسك اليونان بالأمريكيين والانجليز فى أرضها وتودد الايطاليين لهم ، وتسليم أوروبا الغربية قيادتها للأمريكيين ، وأوروبا الشرقية للروسين . وقد زوّج الانجليز أخيرا بين مظاهر الحبور العام ملكتهم المقبلة من أمير قد يكون يونانيا أو دغمركا أو أى شئ آخر ، ولكنه ليس انجليزيا أكثر من أسرة هذه الملكة بالذات .

والذى يزور القارة الأوروبية فى هذه الأعوام الأولى بعد الحرب العالمية الثانية يلمس لمسا يسيرا ما أصابتها به الانكسارات العسكرية والضيق الاقتصادى ، فقدد أبنائها الثقة فى أنفسهم ، رغم قرب عهدهم بذلك ، وأصبحوا يستقلون شأن أوطانهم ، ولا يرون طريقا بين يديهم الى السلامة غير طريق الانقياد للسياسة الأمريكية أو السياسة الروسية ، وأمعنوا فى هذا الطريق حتى كادوا ينتهون الى الخضوع الأعمى أو الخيانة الوطنية . يلمس ذلك ولا يصعب عليه أن يرده الى القنوط الذى يصحب الاخفاق الى قلوب بنى البشر والى ما يقوم بين القارة الأوروبية وأمريكا من فرق هائل فى العمر والوسائل ، وهما بعدئ الظاهرتان اللتان ينفرد بهما تاريخ مصر بين نهاية العصر الفرعونى وابان الموجة اليونانية - الرومانية . وانفراد المصريين دون من بقى على قيد الحياة من الشعوب القديمة والشعوب الحديثة كافة بمعاصرة تقلبات الحياة البشرية المعروفة جميعا ، هو الى حد بعيد السبب فيما يؤخذ عليهم من اختفائهم من مناصب القيادة الحكومية المدنية والعسكرية قرونا عديدة ، فقد كانت هذه التقلبات تهز حياتهم هزا وتفتك بزعمائهم وتذهلهم عن أنفسهم الى حين . فهم ما كادوا يستقرون فى الحضارة الهلينية بعد ماضيهم الفرعونى الطويل ونضالهم المتصل للموجة الفارسية والموجة الاغريقية أيضا حتى عنت المسيحية بضمائهم عنفا شديدا . وما كادوا يستقرون فى المسيحية بعد طول الصمود لها حتى فجأتهم الموجة الاسلامية وعنت بضمائهم من جديد وظلت تعمل فيهم عملها حتى شملتهم جميعا تحت العثمانيين . وهم فى هذه الحالات جميعا يشبتون لهذه الثورات النفسية العالمية

فيستقطنون صرعى عند أقدامها ، أو ينساقون لها وينتهون الى الاندماج بها ولا يطقون على سطحها وفي مناصب الحكم منها ، ألا بعد أن يتمثلوها ويستعيدوا كيانهم من جديد . وقد كان المصريون يحدقون بالحكم حين باع البطالمة أنفسهم للرومان ، وكانوا يسرون في سبيل انشاء طبقة حاكمة جديدة عشية الفتح العربى . يضاف الى ذلك أن طول عهد المصريين بالحياة المتحضرة ، وتمتعهم بكل ما يستطيع أن يصبو اليه شعب قديم من ضروب الثروة ، وغلبة الطابع الزراعى على حياتهم الاجتماعية ، كان من شأنه أن يبرزهم في مناحى النشاط الحضارى من الامبراطوريات التى كان يستأثر بها فى العالم القديم وحروبه الكثيرة الغلاظ من رجال السيف من هذه الشعوب . ويضاف اليه أيضا أن ضيق نشاط الدولة فى العالم القديم وتوزع سلطاتها وتجردها من اللون القومى كان لا يشعر المحكومين بشئون الحكم وهزاته منذ أن أفلت زمامه من يد المجالس الشعبية . وقد كانت الكنائس المصرية تتمتع تحت البطالمة والرومان بسلطان واسع يقوم بين أبنائها وبين سلطان الدولة . ومؤرخو البطالمة والرومان يجمعون على عدم مس الدولتين النظم المصرية فى شىء بل منهم من يرى أن البطالمة لم يزاولوا سلطة تشريعية حقيقية^(١) . كذلك كانت الكنائس صاحبة الحكم الحقيقى فى العهد المسيحى ، وكانت الحكومات الاقليمية — وجميعها وطنى — تطفى على الحكم المركزى . وقد رأينا كيف كان نظام الطوائف يشغل الجانب الأكبر من دائرة نشاط الدولة تحت المالك والأتراك ، وكيف ضاق حكم هؤلاء حتى قضر على جباية الضرائب والمحافظة على الأمن والسير الى الحرب وأصبح المديون ينظرون اليه نظرتهم الى مهنة حقيرة مزرية لا يصلح لها الا أولئك الرجال الغلاظ الذين كانوا يستجلبون خصيصا لذلك جماعات جماعات من أصقاع آسيا الخشنة المعدمة .

وقد أصاب نظم الحكم فى مصر ما لحق بوضعها الدولى من تشويه شديد ، فالذين أرخوا لهذه النظم حتى مطلع القرن العشرين يكادون

(١) انظر مراجع الفصل الاول .

يجمعون أنها كانت دائما نظما مطلقة تهبط بالمحكومين الى مستوى العبيد وتختلف أيما اختلاف عن النظم الحرة الأبية النبيلة التي قامت في الغرب وبخاصة في اليونان وروما . وهذا الاختلاف يرجع أيضا في رأى هؤلاء المؤرخين الى جيلة أبناء البلاد واعتيادهم النظم المطلقة ونظرهم الى الحاكم نظرهم الى السيد الذي يجب أن يطاع .

والمقارنة بين نظم الحكم في مصر قبل الفتح العربى وبعده وبين الحكم في المدن اليونانية والجمهورية الرومانية أمر لا يستقيم . كما لا يستقيم النظر الى تاريخ مصر بين العصر الفرعونى ونهاية القرن التاسع عشر بمنظار القومية التي لم تعرفها البشرية الا بعد ذلك بقرون . فقد كانت النظم المصرية في الوقت الذي ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة بينها وبين النظم الاغريقية والرومانية نظما عريقة لدولة كبيرة استقرت دعائمها في بلد زراعى كثير السكان ، وكانت لذلك نظما يتركز فيها السلطان ويتسع الاختصاص وتبعد المسافات بين الحكام والمحكومين ، في حين كانت النظم اليونانية والرومانية نظما ناشئة لمدن صغيرة تزاوّل التجارة في الغالب ولا يكاد أهلها يجتمعون في وحدة سياسية حقيقية .

وقد قلنا في الوقت الذي ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة لأن نظم الحكم المصرية لم تبق دائما على صورة واحدة ، كما لم تبق النظم الاغريقية والرومانية نفسها على ما كانت عليه في أوجها بالرغم مما يقوم في روع الكثيرين منا حتى اليوم . ونحن نعلم من بيرين^(١) أن مصر السفلى كانت

(١) Pirenne : Histoire des institutions et du droit privé de

وهو كتاب قيم يحلل فيه المؤلف جميع الوثائق المعروفة ل'Antienne Egypte. بعد أن قام بترجمتها له الى الفرنسية الأستاذ كابار، وينتهى من ذلك الى رسم الخطوط العامة للدولة المصرية القديمة . ويزيد من أهمية هذا البحث أن الأستاذ بيرين متخصص في القانون العام وكان في وقت ما صاحب كرسيه في جامعة بروكسل ، كما أن الأستاذ كابار من كبار الملمين بالهيروغليفية . والذي يقرأ هذا الكتاب ويقرأ الكتب الكثيرة المتداولة في تاريخ مصر القديم يدرك لم أصاب هذا التاريخ ما أصابه من تشويه ؛ فذاك كتاب وضعه عالم وهذه كتب وضعها هواة مرتجلون تأثروا بالمبول السياسية او مقتضيات الرزق .

تختلف حتى قبيل ظهور الأسر عن مصر العليا بسعة تجارتها وكثرة مدنها ونشاط أهلها . وقد كانت هذه المدن تصرف شئونها بنظم تشبه نظم مدن اليونان القديمة ، فكان الحكم فيها الى مجلس رؤساء الأسر ، وكان لأهل التجارة والحرف الكلمة العليا في توجيه سياستها ، وكان أبناءها يركبون كل عسير في سبيل الاحتفاظ باستقلالها حتى انتهى بهم الأمر الى محالفة مدن آسيا البحرية بغية مناهضة الحكم المركز . وقد شعرت هذه المدن بالحاجة الى التعاون بعد ذلك فأنشأت لها اتحادا يرأسه مجلس مكون من قادتها انتهى الى الانفراد بالحكم وتحول رئيسه الى ملك وراثي . وظل هذا المجلس قائما حتى تمت الوحدة بين الصعيد والدلتا ، كما ظل أهل المدن ينهضون بشئونهم الداخلية زمنا طويلا حتى تركزت الدولة وبسطت سلطانها على جميع الوادى وظهرت لها ادارة ضخمة ، كانت تقيد حركات الملوك وتخضعها لقوانينها الثابتة . كذلك نعلم أن الامبراطورية المصرية القديمة انهارت بفعل ثورة الطبقات الفقيرة على النبلاء والأثرياء (١) وبخاصة في مدن الدلتا (٢) ، وأن الامبراطورية الوسطى قامت على الاعتراف بالمساواة بين جميع المصريين في الحقوق الدينية والسياسية (٣) والغاء امتيازات النبلاء وتوزيع الأراضي (٤) . وقد رأينا كيف تفتت الحكم تحت الامبراطورية الحديثة وقامت المدن المستقلة ، ثم ظهرت المسيحية فكانت ثورة (٥) على الفروق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية جديدة . وأعقب الاسلام المسيحية فأخذ الوجهة نفسها (٦) ووضع للمسلمين دستورا لا يقوى حتى أولياؤهم على تحويله (٧) .

(١) انظر Dubois Richard : Essai sur les gouvernements de l'Egypte وعامة مراجع تاريخ مصر القديمة .

(٢) بيري : Revue d'égyptologie الجزء الثالث .

(٣) هذا الرأي رأى مونتيه . وجوجيه يشكك فيه دون أن يفنده ثم يقول أن الاعتراف بالحقوق السياسية قد يكون حدث في مدن الدلتا فقط .
(٤) دي بواريشارد : المرجع السابق .

(٥) المعروف ان لفظ eglise أى كنيسة يأتي من ecclesia اليونانية وهو الاسم الذي كان يطلق على اجتماع أهل المدن للنظر في شئونها العامة . كذلك معروف أن الكنيسة المسيحية نشأت ديمقراطية الى أبعد حد .

(٦) ومبدأ الشورى هو أحد مظاهر هذا الاتجاه في الاسلام .

(٧) ومن ثم كان الدور الذي لعبه العلماء في دولة المماليك وضيق دائرة التشريع وقتئذ .

ونحن لا نريد أن تتصدى هنا لتحليل الأوضاع الدستورية التي اتخذها الحكم في مصر وفي اليونان وروما وللمقارنة بينها فليس هنا مكان ذلك ، ولكننا نريد أن نسأل الذين ينتقصون النظم العامة المصرية وقتئذ — وهي نظم ينسبون لها إلى الشرق عموما — هل خلا الحكم في اليونان وروما وأوروبا الحديثة أيضا من أسباب هذا التنقص ؟

وقد أصبح من المسلم به بعد ما نشر من بحوث قيمة في تاريخ اليونان وروما^(١) أن المدن اليونانية والايطالية القديمة ظهرت كمجموعة أسر *familias* متفرقة يلتف كل منها حول رئيسه ثم يتجمع مع الزمن ومقتضيات العمران في وحدات عائلية دائمة هي ال *gentes* ثم ال *curias* ثم ال *tribus* . وكان الأصل في هذه الوحدات أن تكون لها حكومتها وقضاؤها ونظمها العامة الخاصة بها ، وأن يخضع أبناؤها لرئيس الوحدة خضوع العبد للسيد^(٢) ، وينظروا إلى أبناء الوحدة الأخرى نظرتهم إلى الأجنبي الغريب ، حتى كانت المرأة التي تتزوج خارج وحدتها ، حين أجاز هذا الزواج بعد أن كان يعد سفاحا ، فقدت حقوقها في وحدتها الأصلية ، وكان المجتمع الاغريقي — الروماني لا يعرف غير قرابة العصب . وكان رؤساء الوحدات الكبرى حين قامت المدينة — وهي في الأصل المركز الذي يلتقى فيه أعضاء الأسر لمقتضيات التبادل الاقتصادي أو الدفاع — يجتمعون في مجلس يرأسه رئيس أقوى هذه الوحدات ليصرفوا الأمور المشتركة بينهم . وقد أصبح هذا المجلس « سنا تو » المدينة^(٣) ، وأصبح رئيسه ملكها ، وأصبح رؤساء الوحدات أعضاءه ، وأصبح آباء الأسر مواطني المدينة أى أصحاب الحقوق فيها . أما أعضاء الأسر أو من لا أسرة لهم البتة فهم العامة ، وهم مجردون من هذه الحقوق ولا قوانين أو قضاء لهم ، بل هم لا يملكون . وقد اتجه الملك مع مضي الزمن إلى محاولة الحد من سلطة مجلس الشيوخ ، واتجه مجلس الشيوخ إلى محاولة الحد

(١) انظر فوستيل دى كولانج ومومسن على وجه الخصوص .

(٢) ومومسن يلاحظ أن إطلاق الابن من هذا الرق كان أعسر من عتق العبد الحقيقي ويقول أن الأب كان يستطيع أن يعاقب ابنه بالموت ويملك كل ما ينتقل إليه ويستطيع أن يبيعه .

(٣) ومن هنا لفظ *patres* الذي كان يطلق على أعضائه .

من سلطة الملك ، وانتهى ضعف مركز هذا الأخير به الى محاولة الاستعانة بالعامّة ، وشعر الشيوخ بما في هذا الميل من خطر ، فثاروا على الملكية وأقاموا النظام الجمهوري ، أى سلبوا الملك سلطته الزمنية ^(١) وركزوها في مجلسهم وجعلوا يعينون من ينهضون بأجهزتها التنفيذية . وهنا بدأ النزاع بين هؤلاء الشيوخ والطبقات الأخرى من أهل المدينة ، وهو النزاع الذى اتصل حتى نهاية الجمهوريات الاغريقية وتحول الجمهورية الرومانية الى ملكية مطلقة . وقد حاز العامة انتصارا مبدئيا في هذا النزاع بين القرنين السابع والخامس ق . م . بعد أن ظهرت بينهم طبقة ذكية ثرية تستطيع أن تقوم بأمرهم ، فنالوا الحقوق السياسية ولكن بشرط النصاب المالى ^(٢) ، فكان لا يدخل منهم الـ *centuria* ، وهى المجالس التى أنشئت الى جانب المجالس القديمة لتحقيق مبدأ المساواة الجديد ، الا من ملك قدرا معينا من الثروة ، أما من لا يملك شيئا ، كطبقة عمال الزراعة والصناعة ، فلا يدخلونها . وكانت الـ *centuria* هى المجالس الوحيدة التى تجتمع فيها النبلاء بالطبقة الثرية من العامة للنظر فى بعض شئون المدينة أو السير الى الحرب ، أما فيما عدا ذلك فكان النبلاء يجتمعون على حدة فى الـ *curias* ، وكانت العامة المتمتعون بالحقوق السياسية يجتمعون على حدة فى الـ *tribus* ، وكان الأولون يعينون القناصل لتصرف أمورهم ، وكان الآخرون يعينون الـ *tribuni* لرعاية مصالحهم . وقد انتشرت التفوضى من جراء هذا النظام حتى شعر الجميع بالحاجة الى معالجته بتشريع ينظم المجتمعين معا . ثم تداخل المجتمعان بانقراض الأسر القديمة وارتفاع الأسر الحديثة ، فتحول النزاع القديم الى نزاع بين الأثرياء والفقراء ، وأخذ الأثرياء يحاولون تركيز الحكم فى مجلس الشيوخ ، فى حين كان الفقراء يحاولون إعادة الملكية للحد من سلطان هذا المجلس حتى تمكنوا من ذلك بحركة قيصر .

ونحن نعلم من مومسن أن ملوك روما الأولين كانوا أحرارا

(١) كان الملوك حينئذ لا يتوارثون ويجمعون السلطة الروحية الى السلطة الزمنية وقد بقيت السلطة الروحية فيما بعد مركززة فى يد القس الأكبر .

(٢) وفوستيل دى كولانج يشارك مومسن هذا الراى .

في استشارة مجلس الشيوخ أو عدم استشارته ، وفي الأخذ بمشورته أو إهمالها ، وكانوا لا يستشيرونه عادة في الأمور العسكرية والقضائية . ونعلم أن ثورة مجلس الشيوخ على الملوك كانت موجهة لأشخاصهم ولم تكن موجهة للسلطة التي يمثلونها ، نعى أنها كانت لا ترمى الى تقرير حق الشعب في حكم نفسه بحال من الأحوال . وقد ظهرت الحقوق السياسية بعد انهيار الملكية ، ولكنها ظلت كما قدمنا مقصورة على الذين يملكون الأراضي ، ثم على الذين يؤدون الخدمة العسكرية ، وهم وقتئذ من أبناء هذه الطائفة عادة . وكان عمل المجالس التي تمارس هذه الحقوق مقصورا على الاجابة بالقبول أو الرفض ، دون النقاش ، على الأسئلة التي توجهها اليها الحكومة ، صاحبة الحق الوحيد في دعوتها أو عدم دعوتها الى الاجتماع . وقد تركزت السلطة بعدئذ في مجلس الشيوخ لقلة المدة التي كان القناصل يقضونها في الحكم — وكانت لا تزيد على عام في الحالات العادية — وانتساب هؤلاء القناصل عادة الى الأسر التي يتكون منها المجلس وتحريم شغل المراكز العامة والامتيازات المالية ، التي كان ينفرد بها النبلاء ، على غيرهم حتى من استطاع منهم دخول مجلس الشيوخ ، فثارت العامة عليه في سنة ٢٥٠ ق . م . وواصلت ثورتها حتى أجبرت الى بعض مطالبها وخولت حق تعيين من يدافع عن الحقوق التي اعترف لها بها ، أي tribuni . وكان الـ tribuni يختلفون عن القناصل في انهم لا يعدون magistrati أي مستشارين كهؤلاء^(١) ، ولا يزاولون السلطان الحقيقي الـ imperium ولا يحملون شارته ولا يتمتعون بسلطة دينية ما . وكان عملهم في الأصل عملا سلبيا لا ايجابيا ، نعى أنهم كانوا يستطيعون الوقوف في وجه الاعتداء دون ممارسة سلطة التشريع الحقيقي . وهكذا امتد سلطان الشيوخ الى كل شيء وأصبح القناصل والـ tribuni عمالهم ، وصارت المجالس الشعبية هيئات لا قيمة لها . وقد أبعد مجلس الشيوخ في هذا الطريق حتى صار منذ سنة ٢٤٤ ق . م . هيئة تشريعية تنفيذية مستقلة تنتخب أعضائها وتشرع وتنفذ ، وفقدت المجالس الشعبية كل سلطان سياسي حقيقي . ثم عبثت الفروق الاجتماعية بهذه

(١) بلغ عدد ضحايا هذه الثورة في روما حينئذ ١٤٧ ألفا . مومسن .

المجالس فأصبح أثرياء المدينة يشترون أصوات الغالبية من أعضائها ويوجهونها كما يشاؤون . وقد تمكنوا فعلا من تضيق انتخاب القناصل في سنة ١٦٥ ق . م . وبدأوا يشترون الملكيات الصغيرة أو يسطون عليها اذا رفض أصحابها بيعها حتى هبط عمال الزراعة والصناعة الى مستوى العبيد . وعندئذ ظهرت النزعة شديدة الى الملكية من جديد ، وانتهجت الحرب الأهلية (سنة ٨٧ ق . م) وجعل الطامعون الى الملكية يحاولون استمالة العامة بالقوانين الشعبية ، وشطّ ماريو في ذلك ، حين أقدم على انشاء الجندية المحترفة ، فدخل الجيش المنازعات السياسية ، معضدا من يحسن استمالته ، وظهر أثر ذلك سريعا في فتك سيلا وأعوانه بزعماء العامة^(١) واستنثاره بالسلطان جميعه ، وإباحة ماريو التقتيل في أرستقراطية روما بعد اغلاق أبوابها خمسة أيام وخمس ليال تباعا ، ثم ظهور قيصر وقيام الملكية من جديد .

والذى يتبين من حقيقة النظم العامة الاغريقية والرومانية هذه هو قصورها على مدن ضيقة النطاق ، وانبعائها من قرب عهد أهل هذه المدن بنظم الحكم العائلي ، ثم تفريقها الشديد بين أهل المدينة الواحدة الى نبلاء وعامة ، أو أثرياء وفقراء ، للأولين كل الحقوق ، وعلى الآخرين جميع الالتزامات ، وبقاؤها مختلفة التوازن^(١) محدودة النشاط الادارى^(٢) متناقضة أشد التناقض^(٣) حتى آخر أيامها . ويلاحظ الى ذلك أن هذه النظم لم تقم في روما الا بين سنة ٥١٠ ق . م ، وهى سنة انهيار الملكية ، وبدء الحروب الأهلية ، أى سنة ٨٧ ق . م ، وأن عهد تمتع العامة أو الأثرياء منهم بالحقوق السياسية امتد أقل من ذلك أيضا ، فهو قد بدأ بإنشاء الـ tribuni في سنة ٢٥٠ ق . م وانتهى بالحروب الأهلية . وهو لم يعمر أكثر من ذلك في اليونان أيضا .

(١) كانت الاضطرابات السياسية في اليونان وروما لا تكاد تنقطع .

(٢) لم تقم لروما إدارة ثابتة حقيقية الا بقيصر . Wiegand : Cleopatra .

(٣) من ذلك أن يكون هناك قنصلان وأكثر من tribuni في وقت واحد

وكل منهم يزاول نفس السلطان ونفس الاختصاص ويستطيع أن يقف عمل الآخر بحق النقض . وقد وقف باريتو عند هذا الشطط وقفة قصيرة فى كتابه « المبادئ العامة لعلم الاجتماع » .

كذلك يلاحظ أن عدد أصحاب الحقوق السياسية في المدن الاغريقية والايطالية لم يعد قط نسبة ضئيلة من أهلها ، فلم يزد في أثينا ، عاصمة الديمقراطية القديمة ، على ٣٠ ألفا من ١٣٨ ألفا^(١) اذ لم يكن أهل الرف والعبيد^(٢) — وكانوا يعدون بالآلاف^(٣) — يزاوون الحقوق السياسية، مثلهم مثل الفقراء من العامة . هذا الى أن الحقوق السياسية كانت لا تحد وقتئذ من سلطان الدولة على رعاياها حتى من يتمتع بها منهم ؛ فهي تستطيع على كل حال أن تفعل بهم ما تشاء . وقد كان سطو النبلاء على العامة والعامة على النبلاء في المدن الاغريقية والايطالية لا يكاد ينقطع . وكانت حرية الفكر في أثينا نفسها شيئا نسييا لا كبير نصيب له من الواقع فقد قتل سقراط في سبيل رأيه واضطهد غيره مفكرون كثيرون^(٤) .

وقد شملت الملكية التي أقامها قيصر شعوب البحر المتوسط جميعا وبينها مدن اليونان وامتدت حتى غزوات القبائل الجرمانية في القرن

(١) روسل . Glotz يأتي بأرقام أخرى فيقدر الأحرار بـ ١٢ ألف والموالي بـ ٧٠ ألف والعبيد بـ ٢١٠ ألف في عهد بريكلس . أنظر أيضا De Santis : Storia dei Greci .

(٢) كان أهل سبرطة يعاقبون الزراع بالضرب حتى لا ينسوا حالتهم ويستطيعون قتلهم دون عقاب . بربجلو Barbagallo : Le déclin d'une civilisation .

(٣) بربجلو . وكانوا عبيدا بأقصى ما يفهم من هذا اللفظ ولا يمكن مقارنة في شيء بعبيد مصر الذين كانوا يعاملون بكل رفق ولا يقلون في كثير عن الأحرار . أنظر : Breccia : Bulletin de la Sté. de Géographie الجزء الخامس عشر في مايو سنة ١٩٢٧ .

(٤) رنان : «الرسل» . وجوجيه ، وهو من المعجبين بالحضارة الاغريقية ، يتددد بما يحيط به مؤرخو الغرب حياة أثينا والمدن الاغريقية القديمة من تفخيم ويرى أن حياة هذه المدن لم تختلف في شيء عن الحياة القاسية المضطربة التي كانت تحياها فلورنس والبندقية في عصر النهضة . ويضيف الى ذلك ان أثينا ظلت أرستقراطية بدستور Clisthène حتى مطلع القرن السادس قبل المسيح وأن طبقة الزراع فيها كانت لا تنال أكثر من خمس محصول ما يزرعون بينما كان يستأجر أصحاب الأراضي بالباقي . وقد تقدمت الديمقراطية بعد ذلك في اليونان بسبب تحول اقتصادها الى الاقتصاد الصناعي التجاري . P. Jouguet : L'Athène de Périclès ,

La Revue du Caire , Octobre 1940.

الخامس الميلادي ، اذ انهار الجانب الغربي منها ليعود من جديد في صورة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي نصبت كنيسة روما اللاتينية عليها شارلمان الأجنبي ، وهي الامبراطورية التي تفرعت عنها في القرن الخامس عشر الملكيات الأوروبية الحديثة ، أى فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، في حين بقي الجانب الشرقي منها في صورة الامبراطورية البيزنطية حتى دخل الترك القسطنطينية في ذلك القرن بالذات . وليس بين من أرخ للامبراطورية الرومانية المقدسة أو الامبراطورية البيزنطية أو الدول الأوروبية الحديثة حتى انفجار الثورة الفرنسية من يجرؤ ، فيما نعلم ، أن يدعى أن هذه الامبراطوريات كانت تحكم حكما ديمقراطيا أو تختلف عن الامبراطوريات الشرقية القديمة في شيء ذى بال . فقد كان أباطرة روما يستأثرون بالسلطان ويتحكمون في مصائر الشعوب ويؤهلون أنفسهم كما كان يفعل الفراعنة الأولون . وكانت الامبراطورية الرومانية المقدسة تحكم حكما اقطاعيا بدائيا أثقل من حكم الماليك ، وكانت الدول الحديثة ، حين نشأت ، مجموعة اقطاعات سعى أصحابها الى بسطها بالحرب أو المصاهرة أو الخديعة ، دون أن يكون للشعوب في ذلك دور ايجابي ، أو أن يكون لها حقوق تمنع^(١) . وكان أباطرة بيزنطة الذين نشأوا في المسيحية وورثوا الحضارة الاغريقية وشعوبها ينظرون الى رعيتهن نظرم الى العبيد^(٢) .

(١) وفريرو يقول ان السلطة في اوروبا ظلت مركزة منذ اول عصر الوسط حتى القرن السابع عشر في أسر النبلاء . وكانت هذه الأسر تملك الثروة الزراعية جميعا فيما عدا ما تملكه منها الكنيسة : « الحكم ، كذلك لا ينكر جيزو الدور الهام الذي كانت تقوم به هذه الأسر في حياة اوروبا بين انهيار الامبراطورية الرومانية والعصر الحديث وان كان يرى أن قيام الكنيسة الكاثوليكية الى جانب الملوك والأمراء كان يحول بين النظم السياسية الأوروبية في ذلك العصر والتركيز الشديد الذي ينسبه المؤرخون للشرق القديم . وقد سبق ان رأينا أن هذا التركيز ليس الا سرايا يشره بعد العهد بماضى مصر فقد عرفت مصر القديمة النفوذ الدينى وخلافاته الشديدة مع السلطة الزمنية وعرفت النظام الاقطاعى وعرفت الطوائف ونظمها الموزعة .

Guizot : Histoire de Civilisation

(٢) دهيل

ونحن اذا بدأنا تاريخ حياة أوروبا بقيام روما في القرن الثامن ق . م ، واتخذنا الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر تاريخا لعود الحريات السياسية الى أوروبا ، وذكرنا ما بيننا من عدم مزاوله عامة روما الحقوق السياسية حقيقة الا بين سنتي ٥١٠ و ٨٧ ق . م ، تكون أوروبا قد تمتعت بالحريات السياسية زهاء خمسة قرون من خمسة وعشرين قرنا ، ويكون الذين يدعون النظم التي قامت فيها ، أثناء تلك القرون الخمسة ، بالنظم الغربية ويعدونها الأصل في حياة أوروبا السياسية ويهملون العشرين قرنا الأخرى ، ويدعون ما قام في الشرق من نظم شبيهة بالنظم التي قامت في أوروبا في هذه القرون العشرين بالنظم الشرقية ، قوم متنعتون^(١) . قوم متنعتون يتجاهلون الحقائق ولا يفطنون لما بين نظم الحكم وظروف المجتمع من علاقة لا محيص عنها . فقد كانت النظم الاغريقية الرومانية تقوم في اليونان وايطاليا حين كانت الدولة لا تعدو أن تكون مدينة صغيرة تضم مجتمعا محدود المسائل ، تتشابه ظروف أعضائه ، ويتمتع بعضهم تجاه بعض باستقلال اقتصادي لا بأس به . ففي هذه المجتمعات — كما في مجتمعات القرى الصغيرة الى اليوم — تستوى الرؤوس ويشد التنافس وتعظم الكرامة الشخصية^(٢) ، فتكون الحقوق العامة ، أى حقوق كل أسرة تجاه الأسرة الأخرى — دون أن يصحب ذلك قيام حقوق الفرد داخل دائرة الأسرة^(٣) — ويبقى الحكم شيئا خفيفا قلقا ضيق النشاط ، ويظل

(١) و Curtis يذهب الى حد الادعاء بأن الجمهورية نظام الحكم في الغرب والملكية نظام الحكم في الشرق ولكنه يقر بعد ذلك بأن المسيحية كانت في جوهرها جمهورية كما كانت الاسرائيلية من قبلها وكما نشأ الاسلام بعد ذلك. وان تحولت نظمها فيما بعد الى الملكية . Curtis : Civitas Dei .
(٢) وقد عادت النظم الاغريقية الرومانية الى المدن الإيطالية في عصر النهضة خصوصا في فلورنس وعادت معها الحروب الأهلية التي لا نهاية لها لحتى انتهى الأمر بفلورنس الى دعوة نبيل فرنسي Gualtiero de Brienne لحكمها كيما لا تنفرد أسرة من اسرها دون الأخرى بالحكم ، في القرن الرابع عشر . ثم انتهى الأمر بتغلب أسرة مدتشى وتحولها الى الملكية . أنظر يونج : « آل مدتشى » .
(٢) ومن هنا قول بعض المؤرخين بأن أهل المدن الاغريقية والايطالية كانوا يتمتعون بالحقوق السياسية دون الحقوق المدنية .

هكذا الى أن تختلف ظروف أهل المدينة بأن يثرى بعضهم على حساب البعض أو يقوى عليه أو ينال المعونة من الخارج ، كما حدث في اليونان أيام الفرس ، وكما حدث في روما حين بسطت حقوقها على المدن الإيطالية ثم شعوب الامبراطورية جميعا (١) . وعندئذ يطمح الأقوياء الى الاستئثار بالحكم ويعوق تشعب المسائل العامة المجالس الشعبية عن النظر فيها ثم يستحيل تكوينها وتنظيمها والاستعانة بها (٢) ، وتظهر ، أو كانت تظهر على الأقل ، في العصور القديمة ، النظم الملكية بسلطانها الذي يزيد أو يقل ، تبعا لاتساع هذه الظاهرة وطبيعة الاقتصاد الذي تنشأ فيه . وهكذا ظهرت الملكية المقدونية وامبراطورية الأسكندر ثم الملكيات الهلينية ثم الامبراطورية الرومانية . ونحن نعلم فعلا أن المدن اليونانية وروما لم تعرف الادارة الحكومية المستقرة الحقيقية بخدماتها الثمينة ، التي كانت تكون جوهر الدولة في مصر منذ أقدم العصور بسبب ارتباط حياة البلاد باستغلال مياه النيل ، الا بعد قيام الملكية ، وأنها ما كادت تقيمها حتى سارت في الطريق التي قطعتها مصر من قبل ، فكلما ثبتت الادارة واتسع عملها وأحكمت نظمها ، كلما تضخمت الدولة وضاعت الحريات الفردية وضل مركز الفرد في الحياة العامة . ونحن نشهد ذلك الآن في حركة التأميم التي انتشرت في أوروبا وفي تدخل الدول هناك في الاقتصاد عموما تدخلا شديدا . كذلك نجد آخر صورة لنظم الدولة الاغريقية — الرومانية في القرن السابع في مدينة شرقية تجاوية صغيرة هي مكة المكرمة . فقد كانت مكة حتى ظهور الاسلام مجموعة أسر تتنافس على السلطان ولا تعرف من الحكم الحقيقي الا أبسط أشكاله وتعيش من تجارتها الواسعة . وكانت تقسم أهلها الى شيوخ وأحرار وموال وعبيد ، وتنظر الى غير أبنائها نظرتها الى الأجنبي المستذل .

(١) وكان هذا التوسع في اعطاء الحقوق السياسية دائما من عمل الطامحين للملكية أو الملوك فكان Gracco أولهم وأعقبه قيصر وكان آخرهم كركلا حين ضاق بمعارضة الاستقراطية الرومانية على أيامه .

(٢) وقد وضع الفكر السياسي الحديث ، لمعالجة ذلك ، النظام التمثيلي بعبوبه جميعا ولكن العالم القديم لم يعرف هذا النظام فكان كل مواطن عضوا في المجلس الشعبي .

ولقد عرفت روما ، مع الملكية المطلقة والادارة الضخمة ، عبادة الملوك التى يفرد بها المؤخون الشرق على وجه العموم ومصر على وجه الخصوص ، فعبد قيصر ، وعبد أغسطس ، وعبد الأباطرة من بعدهما ، ورفع نسبهم جميعا الى الآلهة الأولين ، ونصبت لهم المعابد فى أقطار الامبراطورية جميعا . وكانت هذه العبادة هى الرباط الأدبى الوحيد الذى يجمع بين هذه الأقطار والأباطرة^(١) . ولا يقدح فى ذلك ما يذكره بعض هؤلاء المؤرخين عن انكار الأباطرة عبادة الجماهير اياهم أو عدم صدق الجماهير فى اقامة هذه العبادة^(٢) ، فقد كانت ربوبية الفراعنة أيضا تسير الى الهزال منذ الأسرة الخامسة ، واستمرت تضعف حتى نشأ تحت البطالة أدب الحادى ، ثم أصبحت زخرفا لفظيا لا غناء فيه^(٣) . هذا الى ما بين عبادة الفراعنة وعبادة الأباطرة فى روما من قرون انتقل فيها العقل البشرى من الوثنية الى المسيحية ، وما نعلمه من أن استنكار الأباطرة هذا لم يمنع من عبادتهم ، فقام للامبراطور كلود أكبر هؤلاء المستنكرين معبد فى بريطانيا وعبد خلفاؤه جميعا . والعبادة فى العالم القديم لا تتضمن المعنى الذى نفهمه منها الآن ، فهم أقرب الى التكريم أو التفضيم أو التعظيم منها الى الاجلال الروحى ، وهى تظهر لذلك بين العامة حين تبعد الشقة بين الطبقات ويمتد سلطان الحاكم وتتسع دعوته فتحيط به فى مخيلة المحكومين تلك الهالة من الهيبة التى كنا نجدها لمهد قريب حول أباطرة اليابان وأباطرة ألمانيا^(٤) وما زلنا نجدها حول أصحاب النفوذ فى المجتمع الريفى^(٥) . يضاف الى ذلك أنها كانت لدى الاسكندر وأباطرة الرومان ، كما كانت لدى الفراعنة ، ضرورة من ضرورات الحكم فى وقت لم تقم فيه القوميات ، ولم تصل الشعوب الداخلة فى تلك الامبراطوريات الجديدة الى الاندماج فى وحدة سياسة متينة ، وكان الشعور الدينى يفوق لدى هذه الشعوب كل شعور عداه ، ولم يكن

(١) أنظر مراجع الفصل الاول .

(٢) ومنهم Bell وهو يبذل فى ذلك مجهودا عجيبا ولكنه لا ينكر

الوقائع . Bell : Jews and Christians in Egypt.

(٣) مجلة القاهرة ، عدد يونيو سنة ١٩٤٣ . وانظر أيضا « على هاشم

تاريخ مصر القديم » . Bekl : Jews and Christians in Egypt.

من سبيل لذلك الى جمعها في دولة واحدة الا بضمها في عبادة مشتركة هي عبادة ذلك الحاكم القدير الذي استطاع أن يدين لحكمه الناس جميعا . وكان لهذه العبادة في مصر واليونان وروما طقوسها وخدمتها ومعابدها ، نعنى شعائرها وقسوسها وكنائسها ، وان لم يعد ذلك في اليونان وروما الجمهورية حدودا معينة بحكم ضالة المجتمع الذي قامت فيه . وقد بين فوستيل دى كولانج في كتابه القيم ما كانت تتسم به الحياة الخاصة والعامة في المدن اليونانية وروما القديمة من طابع ديني بارز ، اذ كان اليونانيون والايطاليون يؤلهون موتاهم ويجعلون من مقابرهم معابد يقدمون بها القرابين ، وقيمون الأسرة على الشركة في الدين الواحد ، ويفهمون من الوطن ، الاتحاد في العقيدة الدينية . وكانوا يخلطون بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، فيجمع حكامهم بين السلطين ، ويتعد ملكهم راهب المدينة الأول ، وتمتزج أحكام العبادة في قوانينهم بأحكام المعاملات ، وتنسب هذه وتلك أول الأمر الى الآلهة ثم لا تنفذ ، حين يعهد بوضعها الى المجالس التشريعية ، حتى يقرها رجال الدين ويعلنوا عدم مخالفتها لرغبة الآلهة (٣) . وكان لا يتم عمل خاص أو عام الا وتدخلت فيه الآلهة ، فلا تنعقد المجالس — وبعضها كمجلس شيوخ روما كان يجتمع في المعابد (٤) — الا اذا تقدمتها الصلاة ، ولا تعلن الحرب الا بعد أن يوافق عليها عرّاف المدينة ، ولا يعين في مراكز الحكم الا من اختارته الآلهة فأخرجت اسمه عند الاقتراع على المرشحين ، كما كان يحدث في اليونان ، أو أوحى به الى القناصل ، حين يعرضون أسماء المرشحين على الناخبين في روما الجمهورية كيما يقروها .

وقد انفصلت الادارة الدينية عن الادارة الزمنية في روما بعد ذلك

(١) وقد خطب امبراطور المانيا في سنة ١٩١٠ قائلا انه مبعوث السماء وأنه يستمد سلطته من الله . انظر باريتو : « المبادئ العامة لعلم الاجتماع » .
(٢) وقد ذكرت بعض الصحف أن المعجبين بهتلر أقامو عبادة خاصة به .
(٣) فوستيل دى كجولانج . كذلك كان رجال الدين في روما القديمة ينفردون بعلم الفقه ومشتقاته كما كان الأمر لدى الاسرائيليين والمسيحيين والمسلمين .
(٤) كما كانت تجتمع مجالس الشورى الاسلامية في الجوامع .

حين نمت الدولة وتنوعت وظائفها وتعددت أجهزتها كما حدث في مصر ، دون أن تنشطر السلطة الى دينية وزمنية أو يفلت بعضها من يد الأباطرة حتى في العصر المسيحي . فليس ثمة شك في أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يمارسون السلطتين معا ، ويشرفون على شؤونهما معا . وليس ثمة شك في أن المسيحية الغربية لم تكد تفوت دور التبشير الأول وتنتشر بين الجماهير ، نعى لم تكد تحتاز دور معارضة الحكم القائم ، اذا سمح لنا بهذا التعبير الحديث ^(١) ، حتى اتجهت الى الاستئثار بالسلطان الزمنى ؛ فكان قيام الكنيسة الرومانية كدولة الى جانب الدولة بسلطتها التشريعية والقضائية والمالية المستقلة ، وكان ظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة والصراع الطويل بين كنيسة روما والأباطرة ، ووقوف هذه الكنيسة بعد ذلك في وجه الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر . وقد ظل رجال الدين يقومون بالدور الأول في حياة المجتمع العربى المسيحى ، كما كان زملاؤهم يقومون به في حياة المجتمع الشرقى الاسلامى ، وان اختلف الوضع الذى اتخذه كل من الفريقين ، فكان لرجال الدين الغربيين هيئة مغلقة تمد فروعها الى كل مكان ، وهى هذه الكنيسة الشامخة التى ما زالت تؤثر في حياة الشعوب المسيحية لليوم ، في حين عاش علماء الاسلام في المجتمع ولم تكن لهم منظمة خاصة ينفردون بها . وبدأت أوروبا نضالها للخلاص من ظلمات عصر الوسط ، عقب الحروب الصليبية ، فكان أئمتها في هذا النضال من رجال الكنيسة أو تلامذتهم ، كما كان أئمة الاصلاح في البلاد الاسلامية في القرن التاسع عشر من العلماء أو تلامذتهم ، فكان بطريركاً رئيس الاومنيزم قساً ، وكان سان فرنسيسكو وسفرولا ولوتير أصحاب الاصلاح الاجتماعى قسباً يريدون هذا الاصلاح من طريق الاصلاح الدينى ، كالأفغانى ومحمد عبده ومصطفى المراغى ، وكان قادة المذاهب العلمية والأدبية والسياسية الحديثة كديكارت وبيكون وروسو وفولتير من طلبة المدارس الدينية .

(١) كذلك كان الاسلام قبل أن ينتقل من مكة الى المدينة روحياً لا يعنى

بأمور الحكم عناية مباشرة .

وهكذا يكون التفريق الحقيقي بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية شيئا حديثا لم يحدث في الغرب الا كأثر من الآثار التي صحبت التطور الاجتماعى العام في أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، مثله مثل انحصار الطابع الدينى عن حياة الأوروبيين سواء بسواء ، ويكون الرجوع بالركود الذى وجدت أوروبا عليه الشرق في القرن الثامن عشر الى امتزاج السلطتين لدى الشرقيين وما يزعم لهم من افراد بالتفكير الدينى والجمود الذى يمتاز به ، سواء كان شرقيا أو غربيا ، ولا الى شىء عدا ذلك ، دعوى لم ينزل الله بها من سلطان ، وخطا بين النتائج والأسباب (١) .

كذلك عرفت الامبراطورية الرومانية ما يدعوه مؤرخو مصر القديمة

(١) وقد وُضعت في هذا الموضوع أبحاث ممتعة أهمها فيما نرى بحث الدكتور السنهورى فى الخلافة Sanhoury : Le Califat وبحث الأستاذ على عبد الرازق فى نظم الحكم الاسلامية « الاسلام وأصول الحكم » .

والدكتور السنهورى يرى أنه لا محل للقول بازدواج السلطتين الروحية والزمنية فى الاسلام على الاطلاق ما دام الخليفة لا يملك بعكس البابا سلطة روحية البتة ، ولا يستطيع أكثر من مراقبة احترام المسلمين الأحكام الروحية التى تركها النبى . وهو يستشهد فى عرض رأيه هذا بأرنولد وجويدى . ويلاحظ أن أوروبا لم تفرق على كل حال بين السلطتين الروحية والزمنية الا بعد القرن السادس عشر .

أما الأستاذ على عبد الرازق فيرى أن النبى لم ينشئ للمسلمين دولة خاصة بهم ، فقد كانت رسالته رسالة دينية بحتة . وهكذا لا تكون الخلافة نظاما دينيا مفروضا على الأمة الاسلامية بعكس الشائع بين فقهاء الاسلام . وواضح من وضع الباحثين المسألة هذا الوضع أنهما تأثرا الى حد بعيد بالجدل الذى كان يدور فى الغرب حول طبيعة الحكم فى البلاد الاسلامية وقت درسهما هذه المسألة ، وهو جدل يتميز ، كغالب الأبحاث الغربية التى تدور حول مثل هذه الأمور ، بميله الى التأثير بالظروف القائمة فى الغرب حين يقوم بها أصحابها . فهناك أمر لا شك فيه ، أهمله غالب الذين عرضوا لهذا الموضوع ، وهو أن الغرب والطبقات المثقفة منه على وجه التحديد لم يتخلص من تصوره الدينى للحياة البشرية الا فى القرن الثامن عشر وأن الشرق ما زال يحتفظ بهذا التصور الى الآن . وهكذا تكون كل محاولة للتفريق بين ما ندعوه اليوم بالزمنى والروحى فى جميع مناحى حياة الشعوب الغربية والشرقية قبل هذا التاريخ محاولة لا بد أن يخطأها الصواب .

بالملكية المشتركة ، ويعنون به حيازة الدولة جزءا كبيرا من الأراضى الزراعية ، فهم يقولون ان فرعون مصر كان يملك أراضيها كافة ، ثم يختلفون بعد ذلك فيما بينهم ، فيقول فريق منهم ان هذه الأراضى كانت موزعة بين الملك والكنيسة والنبلاء ، أو بين الملك والكنيسة . ويلمح الفريق الآخر هنا وهناك ما يستدل منه على وجود الملكية الفردية أيضا (١) الخ ...

والذى يضلل هؤلاء المؤرخين هنا هو ما يضللهم فى غالب وجوه تاريخ مصر القديم ، تقصد اغفالهم ظاهرة التطور فى النظم العامة جميعا ، ثم وقوفهم عند الأشكال القانونية دون التفاعل الى عناصرها الأولى ، فقد كان فراعنة مصر يملكون الأراضى الكثيرة دون شك ، وكانت تملك مثلها الكنيسة والنبلاء من أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يملكونها كما يملك الملوك والقسس والنبلاء ليومنا هذا ثروات واسعة توارثوها آباء عن جدود ، مع اختلاف بين رغم ذلك وهو أن الملكية العقارية كانت تكاد تكون شكل الثروة الوحيد فى ذلك الزمن الذى لم يعرف الأوراق المالية أو النقود (٢) فكان فرعون مصر الذى ورث العرش عن آباءه جيلا بعد جيل يملك جل ما يرثه أو يقتنيه أراضى زراعية ، وكانت هذه الأراضى تتسع مع تعاقب الأجيال اتساعا طبيعيا وتتضخم حتى تتضاءل الى جانبها الملكية الصغيرة وتفى فيها .

ونحن اذا ذكرنا ما نشر فى الزمن الأخير عن ثروات بعض ملوك أوروبا المخلوعين (٣) استطعنا أن ندرك كيف كان فرعون مصر يستطيع أن يملك ثلث الأراضى الزراعية فيها ، وكذلك الكنيسة المصرية والنبلاء (٤) .

وتضخم الملكية العقارية ظاهرة اقتصادية عرفتها بلاد كثيرة فى عصور مختلفة : عرفتها اليونان فى القرن الخامس حتى كانت سببا من أهم أسباب

(١) انظر بيرين وجوجيه ومونتيه .

(٢) انظر فى هذا مثلا : Nitti : Principes des Finances. الجزء الثانى .

(٣) مثل ملك ايطاليا وقد قيل انه كان يملك أحد عشر مليونا من الجنيهات .

(٤) ويلاحظ أن نصف أملاك البطالة كانت بورا .

حروبها الداخلية والخارجية . (١) وعرفت روما في العهد الجمهوري المتأخر حتى كان عدد الملاك الزراعيين فيها لا يزيد ، على أيام شيشرون ، على ألفين ، وكانت الحكومة في العصر الامبراطوري تملك مساحات من الأراضي الزراعية لا حصر لها . (٢) وعرفت أوروبا جميعا في العصر الاقطاعي . وقد كانت الدولة تنتهي في غالب هذه الحالات الى وضع

(١) بربجللو . وارسطو يذكر الحرب بين الوسائل المشروعة للحصول على الثروة . وربجللو يقول ان عدد الموسعين في أثينا قل بين القرنين الخامس والرابع ق . م من ١٥ ألفا الى ٨ آلاف وان أجر العامل الاغريقي في القرن الخامس كان يترجع حول ٣٢٥ فرنكا في العام ، في حين ان ديوستين يقدر تكاليف المعيشة الضرورية للفرد الواحد في ذلك العصر بما لا يقل عن ٥٤٥ فرنكا في العام . وقد كانت هذه الفاقة من أسباب انتشار الصلات الجنسية بين الذكور واجهاض الاناث وفساد الحياة العامة ثم انتشار المسيحية .

(٢) ومومن يقول ان العمل الأدبي الوحيد الذي يعرف لمجلس الشيوخ الروماني هو ايعازه بترجمة كتاب قرطجني في ادارة الضياع الكبيرة . كذلك يقول نيبور ان النبلاء كانوا يحرمون العامة من الأراضي التي كانوا يفتحونها في الحروب ويستأثرون بها من دونهم : Niebhur : Histoire Romaine . ويقول دوروي ان العامة من أهل روما كانوا يدعون الى حمل السلاح مرة كل عام فيضطرون الى ترك أراضيهم والتسلح على حسابهم والسير الى الحرب . وكانوا يرغبون أثناء القتال - الى جانب القيام بالنفقة على أنفسهم - على دفع الضرائب المفروضة على أراضيهم . Duruy : Histoire Romaine . ويصف باريتو سياسة روما الاقتصادية في العصر الجمهوري فيقول : « كانت الصناعة الكبرى ثم الوحيدة التي عرفها الشعب الروماني هي الحرب . وقد عاش هذا الشعب عالة على شعوب البحر المتوسط الأخرى وظل يلتهم مواردها موردا موردا حتى اذا ما انتهى من التهامها جميعا خبت حياته كما يخبو ضوء مصباح نفذ زيتنه وأتت القبائل الجرمانية بعد ذلك فجعلت بالنهاية التي كان لا مفر منها » .

وباريتو يقول أيضا ان القوانين الزراعية ، التي يشيد بها مؤرخو روما ويرون فيها محاولة نبيلة من محاولات الديمقراطية الرومانية ، لم تكن قوانين اجتماعية حقيقية بقدر ما كانت مثل تصفية للحسابات المتخلفة عن الحروب الرومانية المختلفة فقد كان النبلاء يردون بحكم هذه القوانين الى العامة بعض الأراضي التي فتحوها معا واستأثروا هم بها من دونهم . G. Pareto : Corso d'Economia Politica

هذه الأراضي تحت تصرف الزراع في صور قانونية مختلفة لا تعدو أن تكون في جوهرها شكلا من الأشكال التي اتخذها تطور الملكية الخاصة .

قلنا ان مصر عرفت الكنيسة كما عرفتھا اليونان وروما ، ولكن هذه الكنيسة لم تكن موحدة كالكنيسة المسيحية الآن بحكم تعدد الآلهة في العالم القديم ، اذ كان لكل مقاطعة أو قرية أو قبيلة آلهة المحلي الى جانب الآله الكبير الذي يحله الجميع . وكانت الآلهة المحلية تتخذ أشكالا مختلفة وتمتزع عادة بشعار الاقليم الذي تقدر فيه فتكون طيرا أو حيوانا أو نباتا . وتمتاز عن الآله الكبير باشتغالها على شيء كثير من الخرافات التي تقبلها عقول العامة . ومن ثم ما يدهش له المؤرخون من تفشي الخرافات الدينية في مصر في الوقت الذي يصل الفكر الديني لديها فيه الى الوجدانية بحركة أخناتون ويلقى بذور الاسرائيلية بموسى . هذا الى أن الظن بتقص الآلهة أجسام الحيوانات ليس بالشئ الذي تنفرد به مصر دون الشعوب القديمة الأخرى فهو طور من الأطوار الى اجتازها الفكر الديني لدى غالب الشعوب وبينها الشعوب اليونانية والاطالية أيضا . يضاف الى ذلك أن العالم القديم كان لا يقيم بين الانسان والحيوان والنبات هذه الحدود الفاصلة التي نقيمها نحن الآن ، فكان المصريون يستعملون أسماء الحيوانات للتعبير عما يشعرون به من حب وعطف فتدل الزوجة زوجها داعية اياه ياكلها ويدلها هو داعيا اياها يافارى (١) وكانت أثينا تحاكم الحيوانات والجماد وتعاقبها اذا أذت وظلت أوروبا تفعل فعلها حتى القرن الثامن عشر . ونحن لا نزال نكبر بعض الحيوانات والطيور ونشبه بها فنقول : برىء كالحمل ، طاهر كالحمام ، ويرمز للقوة بصور الصقر والأسد ، ونفضل القط على الكلب في الشرق ، والكلب على القط في الغرب .

كذلك لم تكن الخرافات وضروب السحر المختلفة في مصر القديمة

(١) ماسبرو : Les Contes Populaires de l'Ancienne Egypte

شذوذا لم يعرفه غيرها من الشعوب ، فقد كان الرومان يعبدون من الآلهة عددا لا حصر له ، ويفردون لكل عمل من أعمالهم الها يشرف عليه (١) ، فهذا اله يعلم الطفل كيف يأكل ويشرب ، وذلك اله يصحب العروس الى منزل العريس ، وذلك اله يحمى الأمهات الخ . . . وكانوا يبدأون أمورهم بالدعاء والصلاة ، ويملاون مدينتهم بالمعابد ، ولا يرحون المنازل قبل التأكد من حسن طالع يومهم ، ويمتنعون عن استعمال الألفاظ التي تكرهها الآلهة ، ويستشيرون الآلهة في كل شئ وكل وقت بالتأمل في أمعاء القرايين أو مراقبة الطيور ، ولا يحلقون رؤوسهم الا في الأيام المقمرة ، ويحملون شتى أنواع التماثيل ، ويعطون جدران دورهم بالكتابات الدينية ويحفظون الأدعية الواقية من الأمراض . وكانوا يعتقدون أن للمدن الأخرى أيضا آلهة تحميها ولا يحاصرونها الا بعد أن يدعوا آلهتها الى مغادرتها ، ويتعمدون بعد ذلك أن يبقوا اسم اله مدينتهم مجهولا حتى لا تفعل معه شعوب تلك المدن مثل ذلك في سبيل السطو عليها (٢) . وكان الرومان واليونان لا يقاتلون أعدائهم قبل أن يأذن الآلهة لهم بالقتال (٣) ولا يمضون الى الحرب الا ومعهم أصنامهم ، ويستهلون المعارك بالقرايين وكان أهل سبرطة لا ينصبون الحرب الا اذا اكتمل القمر ، كما كان الأثينيون لا يقاتلون قبل اليوم السابع من الشهر ، واذا هبوا الى معركة ذهبوا تمثال آله مدينتهم من جديد . وكان هؤلاء وأولئك يخفون آلهتهم أو يقيدونها داخل المعابد اذا حوصرت مدنتهم حتى لا يستدرجها المحاصرون (٤) . وهيرودوت يقول ان الأثينيين كانوا يعدون الريح صهرهم

(١) انظر تاريخ بوليب ومراجع الفصل الأول .

(٢) كان هذا الاعتقاد منتشرا في اليونان أيضا وهيرودوت يقول ان أهل أثينا أرادوا السطو على مدينة Eginètes ولكنهم خشوا ألا ينجحوا في ذلك بسبب قوة اله هذه المدينة فقرروا اقامة معبد له يعبدونه فيه ثلاثين عاما ثم يسطون على المدينة .

(٣) وقد رفض مجلس الشيوخ الروماني أن يرسل جيشا لاختضاع مصر لأن الآلهة رفضت ذلك . مومسن .

(٤) فوستيل دي كولانج .

الأكبر ، لأنه تزوج من Orizia بنت Eretteo ، وقد شنت أسطول الفرس في موقعة من المواقع فأقامت له أثينا مذبحا في Tita كذلك يقول كسنوفون ان أثينا كانت أكثر المدن القديمة أعيادا دينية ومعابد وتعاويذ . ونحن نعلم أن قانون الألواح الاثني عشر الروماني كان يعاقب من يقدم على سحر موظفى الدولة ، وأن المدن اليونانية والإيطالية كانت تعهد الى بعض موظفيها الرسميين فى التنبؤ بسقوط الجليد ، وما يكاد هؤلاء الموظفون يتنبأون بسقوطه حتى تهرع الجماهير الى المعابد ويضحي كل بما يستطيع من أنعام أو طيور فاذا لم يملك شيئا من ذلك جرح أصبعه وأسأل شيئا من دمه . وقد كان أمبد وكل الفيلسوف يفخر باستطاعته السيطرة على المطر والرياح (١) . ثروته يقول ان اله الرياح قضى على أسطول ديونيس فى احدى غزواته فمنحه أهل المدينة جنسيتهم وأقاموا له منزلا وحقلا وجعلوا يحتفلون به كل عام . وشيخرون يقول ان الرومان خسروا معركة ترزيمين لأن القنصل فلامين نسي أن يضحي للالهة فسقط بحصانه أمام تمثال جوبتر ، ورفضت الطيور المقدسة الطعام ولم يستطع أحد أن ينزع أعلام الجيش من الأرض . وهو يقول أيضا ان الرومان عقدوا مع آلهتهم عقدا مكتوبا على قرابين بعينها يقدمونها لها فى حالة الانتصار على هنيبال حينما هاجمهم بجيوشه . وكان القنصل ماربو يصطحب فى حروبه الألمانية كاهنة سورية تدعى مارتا ويسترشد بها فى مقاتلة الألمان . كذلك كان أوريليو يصطحب فى حروبه الفيلسوف المصرى أرنوفى للفرض نفسه . وقد حدث ذات يوما أن تعرض جنده للهلاك عطشا فجمع أرنوفى هذا السحب وأسقط المطر وروى به العطاش . Gellio يقول ان الرومان كانوا لا يعلمون أى آله يدعون اذا زلزلت الأرض زلزالها فيأمرون فى أوقات معينة بالاحتفال بآله مجهول يمنع الناس من ذكر اسمه حتى لا يخطئه أحد .

وكان قيصر يستأنس بالسحر ويتلو اذا ركب عربته تعويذة خاصة بذلك . و Svetamo يحيط مولد الامبراطرة بطواهر خارقة كذلك التى أحاطت بمولد الاسكندر ، ويقول ان أغسطس أيضا كان ثمة زواج والدته Azia من ثعبان رهيب .

(١) بوليب .

وقد عرفت أوروبا المسيحية بعد ذلك مثل هذه الخرافات فكان فيها قسوس يكلفون بالاشراف على الزوابع واخضاعها ^(١) . وكان القديس ترتليانو يعتقد في امكان التخلص من الجفاف بالصلاة ويؤمن بأن الله اتصل بمريم العذراء في صورة شعاع من نور خرق احدى أذنيها . كذلك كان شارلمان يدعو رعاياه الى مضاعفة رسوم الكنيسة محافظة على الزرع من عبث الشياطين . وكان القديس تومازو يعتقد أن الشياطين يستطيعون أن يثيروا الرياح ويسقطوا النار من السماء . ونحن نعلم أن نيوتن — وهو أحد آباء العلم الحديث — وضع كتابا يقيم فيه الدليل على تحقق رؤيا يوحنا ، وأن ريشيليو كان يعالج شلله في القرن الخامس عشر بمزيج من براز الخيل بالشمبانيا . وليس في كل هذا ما يستنكر ؛ فالخرافة توجد حيث يوجد الجهل ، وقد كان العالم القديم جاهلا في غالب طبقاته . والفكر الديني لا يؤمن بالمنطق البشري ولا ينكر لذلك المعجزات . هذا الى أن السحر شكل من الأشكال التي اتخذتها العلوم في أطوارها الأولى ، وهو لذلك يوجد لدى الأمم المتمدينة كافة .

وقد شهدنا في الفصل الأول من هذا الكتاب ما استتبعه غزو العرب مصر في القرن السابع من عداة ديني بين المصريين وأوروبا المسيحية ، ورأينا في الفصل الرابع ما يثيره اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية بين المجتمع الزراعي المصري ونزلائه الصناعيين من الأجانب في صدر هذا المجتمع بالذات من تحامل . ولا شك في أن ما أسلفناه في الصفحات السابقة من مظاهر التشويه الذي لحق تاريخ مصر وانهى به فاعلوه لتحويلها الى شيء شاذ لا مكان له في هذا العالم الحديث — لا شك في أنه الى جانب الاختلاف الديني والفروق الاجتماعية المختلفة — العلة فيما يبديه المصريون اليوم من تنكر للغربيين والغرب ، الى حد ما ، على وجه العموم ، وفيما يدفعهم اليه نحوهم من تخوف أصبح لا يخلو من الاسراف .

والأجانب في مصر اليوم فريقان : فريق يتألف من الغربيين الحقيقيين

(١) كانوا يعرفون باسم ال Templari . باريتو « مبادئ علم الاجتماع » .

الذين يهبطون البلاد آجالا مختلفة بغية استثمار أموالهم ويستهنون الى مغادرتها أو الاستقرار بها مع الابقاء على صلتهم بأوطانهم • وفريق يتألف من المهاجرين الذين هبطوا مصر في القرن الماضي من بلاد البحر المتوسط وبعض أقطار السلطنة العثمانية واستوطنوا بها ، ولكنهم احتفظوا بجوازاتهم الأجنبية ل يتمتعوا بما كانت تخولهم اياه من حقوق ، واستمروا يعيشون على هامش الحياة الغربية التي عرفوها في بلادهم الأصلية • والفريق الأول يتكون ، في الغالب ، من رجال الأعمال القليلين الذين يمدون نشاطهم خارج القارة الأوروبية ، وقد فقد النفوذ السياسى الذى كان يتمتع به الى مطلع هذا القرن منذ أن فقدت الدول التى تتبعها نفوذها لدينا وصار عنصر اقتصاديا لا غير • وهو اذا وظف أمواله فى مصر ربط مصالحه بمصالحها ولم يحجم عن منافسة مصالح بلاده فى سبيل مصالحه هذه •

أما الفريق الثانى ، وهو الأوفر عددا ، فليس من حيث تكوينه بالمصرى ، ولكنه ليس بالأجنبى أيضا ، وانما هو وليد تلك الحالة الاقتصادية - الاجتماعية - السياسية الشاذة التى أوجدها ما كان يقوم بين السلطنة العثمانية والدول المسيحية فى الشرق الإسلامى فى القرنين الماضيين من صلات خاصة كانت تنشئ بين أهل هذه الأقطار ومن ينزل عليهم مشمولاً برعاية احدى تلك الدول ، سواء أكان غربيا أم لم يكن ، جوا شاذا ينفرد بعدم خضوعه لسلطة عامة بعينها ، فلا هو يخضع للحكومة المحلية ، ولا هو يخضع لحكومة غيرها خضوعا شاملا مباشرا • وهو يتخذ لذلك اتجاهات خاصة به ، ويبعث فى أفراد هذه الخصال التى نذكرها الآن فى باب انتقاد الأجانب المستوطنين لدينا من استهتار بالنظم العامة وانصراف للمصالح المادية الى عدم مشاركة أهل البلاد فى محنهم القومية • وهذا الفريق لا يسيغ الإقامة خارج مصر ولا تعنى به الحكومات التى تتبعها عناية خاصة وان كانت قد عنيت به فى وقت من الأوقات كوسيلة من وسائل النفوذ • وهو على كل حال أكثر من الفريق الأول تأثرا بطابع البلاد •

والفريقان معا لا يزيد عددهما ، حسب آخر احصاء رسمى ، على ١٨٦٥١٥ شخص (١) ولا يستطيعان لذلك أن يكونا خطرا سياسيا حقيقيا ، فضلا عن أنهما بتقديمهما نشاطهما الاقتصادى على ما عداه يصيران أداة طيعة فى يد الدولة . وقد استردت هذه فى الأعوام الأخيرة استقلالها التشريعى فصارت تملك زمامهما من نواحيه جميعا ، ولم يعد ثمة معنى لتخوفها منهما أكثر مما يحق لأية دولة حديثة أخرى أن تتخوف من الأجانب النازلين عليها . وواضح أن السياسة التى تتبعها منذ حين فيما يتعلق بالأجانب تهدف الى افساح المجال للمصريين فى دائرة نشاطهم الاقتصادى ، ما دامت الدائرة الاقتصادية المصرية لا تزال لا تكفيهم ، وما دام هؤلاء الأجانب ينساقون الى ما تنساق اليه كل أقلية اجتماعية قصيرة النظر من قصر تعاونها على أبنائها وعدم مديدها الى سواهم . غير أن تكون جزء كبير من هؤلاء الأجانب ، كما رأينا ، من المستوطنين

(١) ينقسمون كما يأتى :

بريطانى	٣١٥٢٣	تركى	٣٢٠١
فرنسى	١٨٨٢١	سورى	١٩٣١
ايطالى	٤٧٧٠٦	أجناس مختلفة	١٤٧٧٤
يونانى	٦٨٥٥٩		

وال ٣١٥٢٣ بريطانى ينقسمون من ناحية الأصل الى :
 ١٣٢٧٠ انجليزيا - ١٠١٠١ مصرى - ٤٢٣٤ يونانيا - ٧٨٧ هنديا -
 ٧٨٢١ مالطيا - ٤٣١٠ جنسيات أخرى .
 وال ١٧٨٢١ فرنسى ينقسمون من ناحية الأصل الى :
 ٨٤٠ جزائريا - ٣٠٢٢ مصرى - ٩٦١٩ فرنسا - ٨٩٤ مراکشيا -
 ١٥٠٣ تونسين - ٩٧٦ جنسيات أخرى .
 وال ٤٧٧٠٦ ايطاليون ينقسمون من ناحية الأصل الى :
 ٢٢٣٣ مصرى - ١٣ ارتريا - ٢١٤٣ يونانيا - ٣٩٥٣٥ ايطاليا -
 ١٧٥١ طرابلسيا - ٢٠٣٢ جنسيات أخرى .
 وال ١٤٧٧٤ أجنبا الأخرى ينقسمون الى :
 ١٣٧٧ المانيا - ٧١٩ أمريكيا - ٨٢٨ نمساويا - ٤٧١ بلجيكية -
 ٢٢٩ بلغاريا - ١١٠ دنماركيين - ١٢٠٨ أسبانيين - ٤٤٧ هولنديا .
 فاذا استبعدنا من هذه القوائم الشرقيين التابعين للدول الشرقية والدول الغربية يكون مجموع عدد الغربيين الحقيقيين الذين يقيمون فى مصر ١٤٢٧٤٩ .

الذين لا جنسية معينة لهم ، ولا نظن أننا ستقدم يوما على اخراجهم من البلاد أو حرمانهم من حق العمل فيها ، وبخاصة أن جانبنا لا بأس به منهم من الشرقيين أو المنحدرين من بلاد شرقية ، فالغالب أن تكون النتيجة العملية التى تنتهى اليها هذه السياسة هى أننا سنغلق أبواب مصر فى وجه الغربيين الحقيقيين ، وندعم مركز هؤلاء المستوطنين على الأقل أول الأمر الى أن تكتسب العناصر المصرية الحقيقية الخبرة التى تنقصها . ولاشك فى أن اقتصادنا الحديث يستطيع أن يستغنى عن الكاتب أو المحاسب أو المترجم الغربى أو الشرقى المستغرب دون أن يعرض كيانه لخطر جسيم حتى لو كان المصرى الذى يحل محله أقل منه خبرة ، ولكنه لا يستطيع أن يستغنى عن الفنى الغربى الذى يسعى فى العادة الى استقدامه من الخارج وليس من الخير أن يحاول ذلك ما دامت الصناعة والتجارة لدينا محتاجتين كما هما الآن الى الخبرة العملية التى لا تكفى معاهد العلم لتكوينها مهما رفع من شأنها والتى لاخوف من مزاحمتها العناصر الوطنية مزاحمة حقيقية بالنظر الى قلة عدد هذه العناصر وكونها فى الغالب من درجة لا تتأثر بمثل هذه المنافسة تأثيرا شديدا (١) . وهكذا يكاد هذا العلاج لأوضاعنا الاقتصادية الشاذة أن يؤدي الى عكس ما يقصد اليه ككل علاج شكلى مثله . ولعله كان من الأجدى أن تعنى الدولة بتوجيهنا توجيها اقتصاديا حديثا حقيقة ، وأن تمثل أثناء ذلك ماتحتاج اليه نهضتنا الاقتصادية من فنيين غربيين ، وأن يعدل الأجانب من ناحيتهم عما أخذوا به أنفسهم الى اليوم من ايثار مواطنيهم بكل شئ ، ولزوم الاستعلاء على أهل البلاد

(١) ونحن نعلم أن الوزارة المشرفة على الانتاج الصناعى - وهى وزارة التجارة والصناعة - لا تمنع فى استقدام الفنيين بل تشجعه وتقوم هى بنفسها باستقدامهم . الا أن توزيع الاختصاصات فى هذا الأمر أيضا وما يتبعه من قصر اقامة الفنيين بالبلاد على مدد محدودة لا تزيد عادة على أشهر معدودات تقضى فى الغالب على فائدة هذا الاتجاه وتحرم البلاد من كبار الفنيين ، فليس من المعقول أن يترك هؤلاء أعمالهم ليعملوا فى مصر بضعة أشهر ، ثم انها تقلل من نفع من يأتى من صفارهم أيضا ، لانهم ما داموا يعلمون أن بقاءهم فى البلاد مرهون باعداد من يحل محلهم أو الانتهاء من المهمة التى استقدموا من أجلها مالوا الى التباطؤ والاهمال .

والنظر الى مسائلهم وكأنها مسائل طبيعية لا تتحول ، لا مسائل تطور عادى
تعرض للشعوب جميعا .

وقد أسرفنا ومازلنا نسرف على نفسنا من حين الى حين فى التفضيل
بين ما ندعوه بالحضارة الشرقية والحضارة الغربية والبحث فى أيهما خير
لنا من الأخرى . ورأى فريق منا أن لا مفر من الأخذ بالثانية لأننا أصحاب
عقلية غربية ^(١) ، فى حين رأى الفريق الآخر أن لا مناص لنا من التمسك
بالأولى لأنها أقرب الحضارتين صلة بالفضائل الانسانية ^(٢) غير أن أصحاب
الرأى الأول يلاحظون بعد ذلك أن العقلية الشرقية لم تمنع بلدا كاليابان
أن تتخذ الحضارة الغربية وتنافس فيها ^(٣) . كذلك لم تمنع ارادة
التمسك بالحضارة الشرقية المنادين بها من الرغبة فى الأخذ بأسباب
الحياة الغربية ، نقصد من الرغبة فى اتخاذ الطائفة وسيلة للانتقال دون
الدواب ، والتمتع بالحكم النيابى بدل النظم التى كانت تحكم بها الدولة
الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو ما سبق ذلك وأعقبه من دول قديمة ،
والانصراف الى الأعمال التى يتقنونها ويعيشون منها عيشة آمنة بدلا
من أن يكونوا علماء ومتسولين أو فقهاء وصناعا وتجارا فى وقت واحد ،
نعنى لم تمنعهم من الرغبة فى التمتع بثمرات الحضارة الغربية التى
لا يريدونها فى الوقت الذى يريدون فيه التمسك بالخصال التى كانت
تنادى بها ، ولا أقول تعمل بها المجتمعات الخالية .

ونحن لا نريد أن ندخل فى ميدان العقليات هذا الزلق فلسنا من
أبطاله ، ونقنع بالإشارة الى ما أصبح لا ينكره منكر من اتصال ما يدعى
الفكر الاغريقى - الرومانى بالفكر المصرى من جهة ، والفكر العباسى
من جهة ، وتأثير المسيحية والاسلام فى الحضارة الغربية الحديثة واشتراك
الشعوب القائمة فى هذا الجانب من العالم على وجه العموم فى نسج

(١) انظر « مستقبل الثقافة فى مصر » لطفه حسين .

(٢) وأكبر المدافعين عن هذا الرأى هو على ما نظن توفيق الحكيم وهو
يكاد يشير اليه فى كل ما يكتب .

(٣) « مستقبل الثقافة فى مصر » أيضا .

هذه الحضارة (١) . وقد أصبحت البشرية المتحضرة تسير جميعا بخطى عاجلة الى حياة مشتركة منذ أن كشف لها العالم عن أسرار الملاحة الجوية والاذاعة اللاسلكية والانتاج الآلى ، تقصد منذ أن ضاقت بين أطرافها الفروق الزمنية والفكرية والاقتصادية وصارت تعيش عيشة سواء . وليست الحضارة بعد بالشئ الذى ينتقيه المرء كما يشاء ، وانما هى الثمرة المحتومة للأوضاع الاجتماعية التى تتخذها الشعوب ، وهذه

(١) ويعجبنا أن ننقل فيما يلى مقتطفات من مقال لأحمد أمين فى هذا الموضوع فهى تشتمل على حقائق تهم من يعنون بدراسة هذه الأمور : « من قديم وقف الشرق والغرب معسكرين فى الحروب وفى السياسة وفى الاقتصاد وفى المدنية وفى أساليب الحياة والتفكير . وثار الجدل بين الأوروبيين : هل من المصلحة أن يمدن الشرق بمدنية الغرب أو يترك وشأنه ، يستغله الغرب فى موارد الاستقلال . ثم يخليه ونفسه فيما عدا ذلك ؟ وثار الجدل بين الشرقيين : ما موقفهم من المدنية الحديثة ؟ يأخذونها بحذافيرها أم يتخيرون منها ؟ »

ولكن قوانين الطبيعة الحازمة لم تعبأ بهذا الجدل ، وسارت سيرها الحثيث نحو توحيد العالم وتوحيد المدنية فى جوهر الأمور ، وإن اختلفت الاشكال والأغراض . ولم تكثرث للحدود الجغرافية المصطنعة بين الشرق والغرب ، فالعلوم والآداب والأوضاع السياسية ونظم الحياة الخاصة والعامة تسربت من الغرب الى الشرق كما تسربت قبل ذلك من الشرق الى الغرب ، لأن القانون الطبيعى أن البقاء للأصلح والغلبة للأرقى والأقوى والتفاعل الدائم بين المتجاورين . »

« قبل ثلاثة قرون ونصف قرن لم تكن هذه الفروق بين الشرق والغرب ، فإن كان ولا بد فالشرق كان يسبق الغرب فى مدنيته وحضارته ووسائل حياته ، ثم حدث فى أوائل القرن السابع عشر أن اكتشف الغرب وسائل للعلم التجريبي جديدة بنى عليها ثروته الصناعية والاقتصادية ، ومن هنا بدأت نقط التحول والتفوق . ومن نحو قرنين تضاعفت قوة الغرب باكتشافه بعض قوانين الطبيعة ومعرفته كيف يتغلب عليها ، وافتتح عصرا جديدا عماده البخار والكهرباء . والشرق فى هذه القرون الثلاثة كان يعتمد على وسائله القديمة الحالية من البخار والكهرباء . فتخلف ، وكان هذا هو الفرق الكبير الذى نراه الآن . وليس هذا فرقا طبيعيا فى عقلية الأمم ؛ فالتاريخ علمنا أن التفوق والنبوغ يتحول وينتقل بين الشعوب لأسباب نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها ، كنبوغ الافراد يظهر من حيث لا نعلم ، فقد ينبغ من بيت حقير ، ومن بيت عظيم ، ومن أسرة وضيعة ، ومن أسرة نبيلة ، ومن قرية ، ومن مدينة ، ومن أكثر الناس علما ، ومن أقلهم علما . وهكذا نبوغ الأمم حملت رايته الصين حيناً ، وبغداد حيناً ، والقاهرة حيناً ، وجاء دور الغرب فحملها ، وهو دور كسائر الأدوار - فلا معنى للتبجح بدعوى التفوق الطبيعى والاستمرار الزمنى والمكانى ، فما على الشرق الا أن يأخذ بالوسائل التى اعتمد عليها الغرب من العلم التجريبي واستخدام البخار والكهرباء حتى تتغير مدنيته وحياته وأخلاقه ويتبوأ مكانه . »

الأوضاع تسير الآن بسرعة نحو الوحدة ، ومن العيب لذلك أن نحاول
التعلق بحضارة الماضي في الوقت الذي نسعى فيه خفاضا الى الأخذ
بأساليب الحياة الحديثة .

ليست الحضارة بالشئ الذي ينتقيه المرء كما يشاء ، وهي ليست
بالشئ الذي يستطيع المرء أن ينقله بنقل القوانين أو المظاهر فليست
هذه وتلك سوى أشكال يتخذها جوهر دفين تنتجه الحياة اليومية
والثقاليات والجهود وهذا الجوهر لا يمكن الوصول اليه الا بمعالجة
مقومات حياة الشعوب ، نعني عناصرها الاقتصادية والاجتماعية
والفكرية ، معالجة لا تغفل فيها الظروف القائمة ومقدماتها ومدى قابليتها
للتحويل ولا تغفل فيها طبيعة الجوهر الذي يراد نقله ومقدماته ومدى
قابليته للنقل . وقد أغفلنا نحن هذا الى اليوم وظننا أن الأمر أمر التعليم
ولا شئ سواه وأنشأنا ننظر الى كل متعلم لدينا وكأنه قادر على كل
شئ فصار كل حقوقي لدينا مشرعا وفتيا ومؤلفا وكل مهندس أو طبيب
عالما ومدرسا وكاتبا ، ثم لمسنا ما في ذلك من شطط فهاجم اليأس قلوبنا
واقترضنا العجز في نفسنا وقدمنا عليها كل ما هو غربي . والحقيقة هي أن
التعليم لن يغنى عن المتعلمين شيئا ما داموا لا يجدون في الحياة اليومية

« ... الحق أن ليست هناك حضارة غربية وحضارة شرقية ، فما
نسميه اليوم حضارة غربية بعض نناج الصين في اكتشافها صناعة الورق
والطباعة والبارود وبعض نتاج الهند والعرب في العلوم الرياضية
والفلسفة ، كما أنه بعض نتائج فلسفة اليونان وعلمهم وفلسفة المحدثين
وعلمهم أمثال كانت وجاليليو ونيوتن ، فالعلم والفلسفة والاختراع والمدنية
مدينة للنوابغ من جميع أنحاء العالم من هند وصين وعرب ويونان وإنجليز
وفرنسيين وألمانيين فتسميتها بالحضارة الغربية تسمية بمن احتل أعلى
طبقة في البناء الذي شيده العالم منذ نشأته واشترك في تشييده النوابغ
من كل صقع ومن كل جنس وتسمية البناء باسم سكان الطبقة العليا
تسمية تعسفية أو اصطلاحية أو هي كالبطاقة توضع على السلعة
للتعرف بها .

وكذلك لا أفهم معنى للشرق والغرب بالتفسير الذي يقصدونه ، وهو
أن هناك فروقا خلقية وطبيعية بين سكان في بقعة وسكان في بقعة أخرى ،
وأن هذه الفروق قدر محتم كالقدر الذي جعل هذا حجرا وهذا نباتا وهذا
حيوانا وهذا برا وهذا بحرا ، وأنه من المستحيل أن يتحول هؤلاء الى أولئك
وأولئك الى هؤلاء . وعبروا عن هذا المعنى بقولهم « الشرق شرق والغرب
غرب » أي كما نقول - الأرض أرض والسماء سماء . « شرق وغرب »
لاحمد أمين ، مجلة الشرق الجديد في مايو ١٩٤٥ .

ما يتصل به من ظواهر يستطيعون بمعالجتها أن يطبقوا عليهم وينموا ملكاتهم ويرفعوا الى الابتكار ، وإن نعشة واحدة تصيب حياتنا الاقتصادية تستطيع أن تكسب هؤلاء المتعلمين ما يمتاز به أقرانهم في البلاد الأخرى وما لا يستطيع التعليم النظري أن يزودهم به .

وقد أردنا أخيرا أن نحاول هذه النعشة فقمنا بنقل قوانين الأمم الأخرى دون أن نقف عند مقدماتها وظروفها ونتائجها ، ودون أن نطيل النظر في ظروفنا نحن ومقدماتها واحتمالاتها . واتجهنا الى الرجاء بالدولة في الاقتصاد ، والدولة ما زالت لدينا قصيرة الباع في هذا الميدان ، وهذا الميدان نفسه ما زال هزيلا يحتاج الى مجهود الفرد وعنايته واندفاعاته . وأقدمنا على بذر الشقاق بين أطراف الانتاج وهى ما زالت فى حاجة الى التعاون والوصول بالانتاج الى ما وصل اليه غيرنا . ومضينا مسرعين فى تقييد النشاط الاقتصادى ، وهذا النشاط ما زال فى حاجة الى الترغيب والتوسع والتشجيع ، لا لشيء الا لأن الغرب يفعل ذلك .

ونحن لا نريد أن ننكر بما قدمنا فى هذا الفصل اختلاف شعوب البحر المتوسط بعضها عن بعض ، أو اختلافها جميعا عن مصر ، أو التهوين من أثر هذا الاختلاف فى أوضاعها الاجتماعية . انما نريد أن نقول أن هذا الاختلاف لم يصب الخطوط الكبرى التى جرت عليها النظم العامة لدى هذه الشعوب من قريب ، وأن الذين جهدوا فى الرجوع بظروف مصر الحاضرة الى تغاير هذه النظم فقط يخطئون ، كما يخطئ الذين يدفعهم الغرض أو الجهل أو الضعف الى أن يرو فيه أمر الجيل التى جيلنا عليها ويشككون لذلك فى مستقبلنا هذا التشكك الذى يفسد علينا قوميتنا الحاضرة . انما الأمر قبل كل شيء هو أمر تلك القرون الطويلة التى تعاقبت بين اكتشاف رأس الرجاء الصالح وافتتاح قناة السويس واتصلت أوروبا أثناءها بالشرق الاقصى والعالم الجديد فأتسع مجالها ونمت أعضاؤها ونضجت ملكاتها بعد عصر الركود الذى عرفته فى عهد الوسط ، على حين كانت مصر والشعوب العربية الواقعة شرقها على

شاطيء البحر المتوسط توغل في دائرة الحياة المغولية التي فتحتها عليها الاسلام في القرن السابع ، فجعلت تغمرها بموجاتها البدائية الغزيرة منذ القرن الثامن ، ثم أطبقت عليها بالفتح العثماني في مطلع القرن السادس عشر وظلت تعنف بها حتى كاد يفيض ماء الحياة في عروقها في مطلع القرن الثامن عشر (١) .

أمر تلك القرون الطويلة وما قطعه الغرب خلالها من مسافات ينبغي لمصر كيما تقطعها الآن أن تطرح ما زالت تأخذ به من سياسة التستر على ما من شأن حادثة نهضتها أن تبقى عليه فيها من أسباب الضعف أو الجهل أو القصور ، وتقلع عن القنوع بنفخ الأوداج والضجيج الفارغ ، وتواجه جوهر النقص في حياتها ، أي فقر الدم هذا الظاهر في أوصال مجتمعنا جميعا ، بتنقيته وتغذيته وانعاشه ، وهو عمل يقع غالبه من دائرة النشاط الاقتصادي في الصميم . ومن ثم حاجتنا الماسة الى حشد قواتنا في هذا الميدان واحاطته بكل ضمان فني ممكن ، وتغليب المصالح الأساسية البعيدة على المصالح الثانوية القريبة ، وحاجتنا أيضا الى توجيهه توجيهها عصريا ، أي صناعيا ، كيما نضمن لأنفسنا عدم التخلف عن موكب الحضارة الحديثة وهي حضارة صناعية لا شك فيها .

لنقلع اذا عن تشاؤمنا الحالي ، فلا أصل له سوى وقوفنا عند عوارض الحياة الهجينة التي بذرناها بالحكم الخاطيء والقصور عن الارتقاء الى أصول نقائصنا الحقيقية وننظر الى ما كتب حتى اليوم في تاريخنا القديم والحديث ، وبخاصة في الغرب ، على حقيقته كمظهر من مظاهر الاستعلاء الذي يروق الأقوياء أن يبدوه نحو الضعفاء (٢) ، أو رغبة

(١) يلاحظ أن أمريكا تطفئ الآن هي أيضا على أوروبا التي اكتشفتها وتكاد تجمع اليها أعنة الحكم فيها ، الا أن هناك فارقا كبيرا بين الطغيان الأمريكى على أوروبا والطغيان الآسيوى على البلاد العربية ، فأوروبا فتحت أمريكا وغمرتها بأبنائها ، والأمريكيون أوروبيون مهاجرون يحيون حياة لا تعدو أن تكون طورا من أطوار الحياة الأوروبية ، على حين لم يهاجر العرب الى آسيا وما كانوا يستطيعون الاستقرار فيها وهي غزيرة بالسكان ، وهكذا ظلت شعوبها آسيوية حتى من دخل منها الاسلام .

(٢) ويلاحظ فعلا أن لهجة هيرودوت في التحدث عن مصر تختلف عن لهجة ديودور فقد وضع هيرودوت كتابه ومصر مستقلة عن اليونان في حين وضع ديودور كتابه ومصر تحت الحكم الروماني .

الحكام فى تخدير أعصاب المحكومين ، أو هذا الميل الوثئى الذى ما زال يدفع ببنى الانسان الى خلع ما يصبون اليه من مثل عليا على شئ ما فى عالم المحسوس هذا القائم أو عالم الخيال الذى يقيمونه لنفسهم ، والذى لا شك فى أنه ما زال الى حد بعيد مصدر ما يحيط به المؤرخون الغربيون تاريخ اليونان القديمة والامبراطورية الرومانية من فضائل لم ينزل الله بها من سلطان ، وما يحيط به المؤرخون الشرقيون تاريخ العرب الأولين من صفات ليس لها من الصحة نصيب خير من نصيب تلك الفضائل •

لنقلع عن ذلك وتتحول بجهودنا عما لا غناء فيه من محاولات تمس العرض دون الجوهر ، وتدفع نزعۃ التقليد اليها قرب عهدنا بهذه الحياة الحديثة التى نريد ، وتقبل على العمل الايجابى مستعينين فى ذلك دون خجل أو تردد بكل ما نستطيع أن نفترفه من خبرة الغرب ، ففى هذه الخبرة ، التى ليس فى عدم توفرنا عليها الآن ، ونحن لم نعد الى الحياة الا بالأمس القريب ، ما يعيننا من بعيد أو قريب ، طريق السلامة الوحيد الباقى بين يدينا • ونذكر قبل كل شئ أنه ان كان الفرق بين مصر والبلاد الأخرى هو الفرق بين مستوى عامة المصريين وعامة الشعوب الأخرى ، فان الفرق بين السرعة التى نسير بها لتغطية هذه الفروق والسرعة التى تسير بها هذه الشعوب هو الى حد بعيد الفرق بين حكمانا وحكامهم • وقد لا يستطيع المصرى البسيط أن يتتقف ويبلغ بنفسه مستوى أقرانه فى الغرب ويقوم بواجبه كاملا ، ولكن الطبقة الحاكمة المصرية تملك وسائل ذلك خصوصا الوقت والمال •